يساريون في عصر اليمين

مذكرات رموز اليسار المصري في مرحلة التحول

الدكتور محمد الجوادي

دكتور حامد عمار — دكتور محمد مراد غالب

دكتور عبد العظيم أنيس — رشدي سعيد



يساريون في عصر اليمين

الجوادى ، محمد

يساريون فى عصر اليمين : مذكرات رموز الانحياز اليسارى فى مرحلة التحول / محمد الجوادى ؛ مذكرات محمد مراد غالب.. (إلخ). ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

٤٤٠ ص ؛ ٢٤ سم

تدمك ١ ٧٧٧ ٤١٩ ٩٧٧

١ ـ اليسار واليمين (سياسة)

٢ ـ الشيوعيون

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٥٤٥/ ٢٠٠٧

I.S.B.N 977 - 419 - 777 - 1

ديوى ٣٢٩,٩

الدكتور محمد الجوادى

يساريون فى عصر اليمين

مذكرات رموز اليسار المصرى فى مرحلة ال[illegible]

دكتور محمد مراد غالب — دكتور حامد عمار

دكتور رشدى سعيد — دكتور عبد العظيم أنيس



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٧

الإخراج الفنى: مادلين أيوب فرج

تصميم الغلاف: ماجدة عبدالعليم

إهـداء

إلى الأستاذ محمد حماسة عبد اللطيف
شاعراً وناقداً ومجمعياً وأستاذاً

د. محمد الجوادي

هذا الكتاب

تتدارس فى هذا الكتاب مذكرات أربعة من أعلام التوجه اليسارى فى مصر الذين شهدوا فترات انتشار الفكر اليسارى، ثم ازدهار اليسار، ثم التحول عن اليسار، وقد مارس كل منهم دوراً من الأدوار المتقدمة فى صناعة القرار، أو فى توجيه الفكر، أو فى إدارة المؤسسات، مع الاختلاف البيّن فى قدراتهم على التأثير، وفى التأثير الذى أحدثوه، ومع الاختلاف الطبيعى فى وظائفهم وتخصصاتهم، بل فى توجهاتهم أيضاً، لكنهم مع هذين الاختلافين وغيرهما من الاختلافات كانوا طموحين إلى تجاوز الواقع، وتغيير هذا الواقع، كما كانوا حريصين على هذا التغيير، وكان طموحهم وحرصهم صورتين طبيعيتين لاقتناع فكرى ووجدانى بجدوى التمرد على الواقع، والطموح إلى ما هو أفضل من خلال آليات فكرية ومؤسسية.

وقد واجهوا الحياة على نحو مـا هى، كما واجهوا الفكر القديم على نحو ما كان، وانتصـروا فى بعض المواقع التى خاضوها، بينما خسروا بعضاً آخـر من هذه المواقع، لكن التجربة صقلت فكرهم، وجعلته أقرب إلى الاقتدار فى معالجة المشكلات علاجاً نفسياً إن لم يكن واقـعـياً، وعـلاجـاً تاريخيـاً إن لم يكن نفـسـيـاً، وعلاجـاً أيديولوجياً إن لم تفلح العلاجات السابقة.

ونحن نرى هذا الخلق البـارز فى مذكرات هؤلاء الأربـعة الذين لعبوا أدواراً مهـمة فى الحقول الدبلوماسية، والـبرلمانية، والتربوية، والجيولوجـية، والثقافية، والرياضـية، والعلمية، والجامـعية، فنرى الفهم الـعميق، ونرى مـعه الإحـباط المتراكم، كـذلك نرى الأمل العريض، ونرى معه الألم المتضاعف، كذلك نرى الوطنية المتأججة، ونرى معها اليأس المتضجر، وبالإضافة إلى هذا الذى نراه فإننا نقرأ روايات صادقة عن وقائع حقيـقية فيروعنا أن الواقع مضى على هذا النحو، كـما نرى روايات أخـرى عن مواقف كـانت معمـاة علينا فيذهلـنا أن تغيب عنا مثل هذه الحقـائق، ونرى روايات ثالثة تكفل لنا أن نفهم الألغاز، وأن نجيب على علامـات الاستفهام، وأن نقدر صواب علامات التعجب أو الاندهاش!

ونحن نتدارس هذه المذكـرات بروح منصفة لكنهـا ناقدة، وبروح

مستقصية للحقيقة لكنها حريصة على أن تحتفظ للوجدان بوهجه، وللضمير بتأججه، ولهذا فإننا لا نمانع فى القسوة عندما نرى اصطناعاً لغير الحقيقة، أو ميلاً إلى إعادة تفسيرها فى ضوء مواقف سابقة، أو أيديولوجيات حاكمة، ونحن حين نفعل هذا فإننا نصدر عن إجلال لأصحاب المذكرات، لأننا نتمنى لهم أن ينتصروا للحق فى مذكراتهم، وأن ينجوا بها عن أن تكون ردود أفعال، أو أن تكون مجرد فرصة لتصفية حسابات قديمة أو جديدة.

والحق أن الطيف العلمى والتاريخى الذى نتناوله فى هذا الكتاب يصور ملامح حياة أمة عظيمة فى فترة قاسية من تاريخها، كما أنه يصور ملامح حياة جيل عظيم عاش الأمل والألم والإيلام، وصهرته المحنة كما لم تصهر جيلاً آخر من الأجيال السابقة عليه، وقد أصابته المحنة بعدما كان قد وصل إلى ذروة الآمال بقليل، وإن كان أصحاب المذكرات التى بين أيدينا قد نجوا من الانخداع الكامل الذى عاشته أغلبية أبناء جيلهم، لكنهم فى الواقع عاشوا بعضاً من هذا الانخداع، بل بعضاً كبيراً، بل يمكن القول إنهم عاشوا هذا الانخداع كله إلا قليلا، ثم إذا حياتهم تمتد ليروا موجات الانكسار والنصر وما بعد النصر، وليتأملوا من خلال صور هذا التعاقب السريع ما شاء الله لهم أن يتأملوا فى معتقداتهم الراسخة وفى خبراتهم السابقة.

ونحن نستعرض كل هذه التجارب الوجدانية والذهنية التى عرضتها أقلام قادرة على الكتابة والصياغة، ونفوس قادرة على البوح والمصارحة، وقلوب قادرة على الحلم والأمل، وعقول قادرة على التفكير والعمل.

نتدارس فى هذا الكتاب مذكرات الدكتور محمد مراد غالب (ولد عام ١٩٢١)، الذى بدأ حياته العملية مدرساً لطب الأذن والأنف والحنجرة فى كلية طب الإسكندرية، وسرعان ما تحول إلى العمل الدبلوماسى حيث مارس هذه المهمة باقتدار واضح، وأصبح سفيرنا المؤثر فى موسكو حين كانت موسكو هى العاصمة الأثيرة والمؤثرة فى سياستنا وقد أوصله نجاحه إلى تولى وزارة الخارجية، ووزارة الإعلام من بعدها ، وقد ظل على ولائه للفكر اليسارى وإن كان قد استوعب المتغيرات العالمية، والمتغيرات اليسارية والسوفيتية أيضاً، بل إنه على نحو ما نقرأ له كان واعياً للتطور الداخلى فى هذا الفكر منذ مرحلة مبكرة.

ونتدارس مذكرات الدكتور حامد عمار (ولد عام ١٩٢١)، الذى مارس الفكر اليسارى فى قلعة من قلاع المحافظة، وهى المؤسسة التربوية فى مصر والخارج ، لكنه كان نموذجاً ليسارية التوجه التى تعلو بالطبع على يسارية التنظيم.

ونتدارس مذكرات الدكتور رشدى سعيد (ولد عام ١٩٢٠)، الذى كان من رموز الأقباط اليساريين فى البرلمان، والاتحاد الاشتراكى، كما كان ـ ولايزال ـ من رموز حياتنا العلمية، حتى وإن هاجر بعلمه إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

ونتدارس مذكرات الدكتور عبد العظيم أنيس (ولد عام ١٩٢٣)، عالم الرياضيات الذى شغل بالنقد الأدبى، والحركة الثقافية والحياة السياسية، ونجح فى أن يفرض وجوده فى الثقافة المصرية على مدى سنوات طويلة.

وسيرى القارئ لهذا الكتاب أن هؤلاء الذين نتدارس مذكراتهم وزملائهم فى هذه التوجهات اليسارية لم يبتغوا فى تصرفاتهم إلا مصلحة هذا الوطن، الذى نعيش تحت ظلاله، ومع أنهم ظنوا فى بعض الأحيان أن غيرهم قد جانب الصواب، فإنهم أدركوا ، مع مرور الزمن ، أن الحكم على الأمور لا يكون بالأيديولوجيات دون الظروف، ولا بالأفكار دون الواقع.

وإذا هم بعد هذه التجارب والخبرات يصوغون فكراً جديداً، قادراً على الوصول إلى الصواب، وإلى الحق، وإلى تقدير الآخرين، وتقدير إنجازاتهم، والنظر إلى المستقبل بنظرة تستشرف الأمل حتى لو كان بعيداً، وتضئ الواقع حتى لو كان كثيفاً،

وتستخلص العبرة مما أحاط بكل التجارب السابقة من قشور وجواهر، وما افتقدته هذه التجارب من أبعاد وأعماق.

ولهذا كله فإن التجارب التى بين أيدينا ليست تجارب للماضى، وإنما هى للمستقبل بأكثر منها للحاضر، كما أنها للممارسة والفكر بقدر ما هى للمنطق والعقل، وهى للحوار بأكثر مما هى للجدل، وهى للبناء بأكثر منها للتأمل ، وقبل هذا كله وبعده فإنها للأبناء قبل أن تكون للإخوة.

ولو أننا أخلصنا فى رؤيتنا لما تحتويه، لوصلنا إلى كثيرا من نبتغيه، ولو أننا فهمناها على نحو ما أرادها أصحابها لاستمتعنا وأمتعنا وأفدنا واستفدنا، ولصححنا كثيراً من ركام الماضى فى أذهاننا، وكثيراً من شائعاته وأراجيفه فى وجداننا، ولعرفنا اليسار المصرى كما ينبغى أن يُعرف، مثالية، وإيثاراً، وإنجازاً، وإخلاصاً، ووطنية، ونقاءً، وعملاً دائباً من أجل الوطن والشعب معاً.

وبعد. . فلا أظننى بعد هذا كله قادراً على أن أقتطع من وقت القارئ أكثر من هذا، وهذا هو كتابى بين يديه، أرجو أن ينال رضاه، وأن يحظى بالنقد والتصويب على النحو الذى يهيئ لتاريخنا ولحياتنا بصيرة بما كان وبما سوف يكون.

أســأل الله سبــحانــه وتعالى أن يرزقنى الهــدى والتــقى والعفــاف والغنى، وأن يهيئ لى من أمرى رشداً، وأن يهــدينى سواء السبيل، وأن يتغمدنى برحــمته، وأن يشملنى بتوفيقــه، وأن يحفظ علىّ نعمه الظاهرة والبــاطنة، وأن يقينى شــر العجز والكسل والجــبن والبخل وقهر الرجال، وأن يتقبل منى عملى خالصا لوجهه الكريم، مع أنى لا أنجو من الرياء فى كل ما أفعل.

هذا وبالله التوفيق.

د. محمد الجوادى

الباب الأول: مع عبد الناصر والسادات.. مذكرات الدكتور مراد غالب

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● فى مارس ١٩٦١ بدأت علاقته بالنجومية العالية بعدما رسخ وجوده بين النجوم الكبار، اختير سفيرا لمصر فى الاتحاد السوفيتى وهو المنصب الذى اشتهر به، وأصبح مرتبطا فى أذهان الكثيرين باسمه ● كان مراد غالب من أصغر السفراء العرب سنا ● يتحدث عن ضيقه بالوظيفة «الصغيرة» التى رأى الدبلوماسيون أن «يسكتوه» عليها حين نقل إلى السلك الدبلوماسى، وأن الرئيس عبد الناصر هو الذى نصحه بالقبول ● يتكرر هذا الموقف من الدبلوماسيين تجاه مراد غالب عندما عين وكيلا للخارجية ● فى عهد الرئيس السادات مر الدكتور مراد غالب بتنقلات سريعة ومتعاقبة، فقد بدأ هذا العهد وهو لايزال فى موسكو، لكنه قبل أن يمر عام اختير عضوا فى مجلس الوزراء عند تشكيل وزارة الدكتور محمود فوزى الرابعة فى سبتمبر ١٩٧١ كوزير للدولة للشئون الخارجية ● لما شكلت الوزارة التالية برئاسة الدكتور عزيز صدقى (يناير ١٩٧٢) اختير وزيرا للخارجية ● فى تطور مفاجئ للعامة، وإن لم يكن مفاجئا للخاصة، أجرى تعديل وزارى محدود فى سبتمبر ١٩٧٢ نقل الدكتور محمد مراد غالب إلى وزارة الخارجية كسفيرا! وقد جاء هذا القرار عقب تنفيذ طرد الخبراء السوفييت؟ ● لما شكل الرئيس السادات وزارة الحرب (مارس ١٩٧٣) عاد الدكتور مراد غالب لدخول الوزارة وزيرا للإعلام ● قبل حرب أكتوبر بثلاثة أيام صدر قرار بتولى مراد غالب مسئولية الوزير المصرى المقيم فى ليبيا ● بعد

فترة قصيرة عين سفيرا لمصر فى يوغوسلافيا، وظل يحتفظ بهذا المنصب حتى أعلن السادات عن مبادرته فقدم استقالته من منصبه ، وهاجم الرئيس السادات بقسوة فى ذلك الوقت!! عاد واعترف للسادات بالذكاء والصواب فى قرار المبادرة ● فى عهد الرئيس مبارك اختير رئيسا لمنظمة التضامن الأفروآسيوى (١٩٨٨) ● صدرت هذه المذكرات عن مركز الأهرام للترجمة والنشر ، وقد تولى الأستاذ عاطف الغمرى صياغتها ● هذه المذكرات كتاب رأى يدعمه صاحبه بشواهد مما تحتفظ به ذاكرته ● لا يروى الذكريات ولا يسرد المذكرات، وإنما يستشهد بها على رأى واضح، كوّنه واقتنع به، لو صاغه وأراد إقناع الناس به ● نرى سمات حديث الجراحين واضحة فى تشخيصه لكثير من الأحوال ● يتحدث حديثا فلسفيا جميلا عن وجهة نظره إلى الدوائر المتقاطعة بين الموضوعية والأمانة وكتابة المذكرات والكتابة للتاريخ ● تميز مذكراته بتفكير عقلى متميز، وبتأمل إنسانى رفيع، ولا ينقصها كى تبلغ أقصى جمال وجلال الحكمة الإنسانية إلا شىء واحد هو أن تدرك مدى مهارة الرئيس السادات ● نظرة الدكتور مراد غالب إلى السادات ظلت متأثرة بالجو الذى عرف فيه السادات منذ بداية الثورة، ولأن مراد غالب كان على الدوام فى وضع متميز فإنه لم يتخلص بعد من تقييمه السابق لدور السادات بأنه ليس الرجل الأول أو القائد الملهم أو الزعيم المهيب ● وجد نفسه مطالبا بأن يجامل بعض النظم فيما يكتب عن سياسة السادات، بل وبأن يسلك الطريق العقيم الذى تسلكه الكتابات المشابهة التى لا تجد وسيلة للهجوم على السادات إلا بمقارنته بالرئيس عبد الناصر على نحو ظالم للرجلين، وهى مقارنات سطحية ساذجة ● لا يمانع فى أن يردد أقوال السذج والخبثاء عندما يحتاج الأمر إلى مثل هذا الترديد ● الجراح العظيم يشخص مشكلات بلاده وثورة بلاده وزعماء بلاده فى منتهى الوضوح، وهو منتبه منذ مرحلة مبكرة، بل حتى فى ظل الطبول الناصرية الزاعقة، إلى ضرورة الديمقراطية، كما أنه منتبه منذ مرحلة مبكرة، أيضا إلى تدنى مستوى الأداء فى عهد الثورة، وهو منتبه أيضا إلى القيمة الحقيقة لما أنجزه الرئيس السادات فى الحرب وفى السلام ● يقدم الدكتور محمد مراد غالب تشخيصه الذكى ملفوفا بأوراق سلوفان تحمل اسم المحلات الناصرية

واليسارية والاشتـراكية، لكنه مع هذا وبفضل أمانته ومهـارته التى لا يمكن لها أن تخون روح الفن الجراحى، حريص كل الحرص على أن يقـدم الحقيقة فيما يتعـلق بحقبة الثورة على نحو دقـيق لا يتعارض مع الحـقيقـة التى يحاول المغرضـون أن يطمسوها، فـهو لا يكذب ولا يبالغ ولا ينافق ولا يختـزل ولا يداور ولا يلوى ذراع الحقائق ● يتحدث فى فقـرات ومواضع عديدة من مـذكراته عن مدى غـياب وعى الرئيس عـبد الناصر نفـسه بالديمقـراطية، وهو لا يفعل فعل الأفـاقين الذين يصورون الرئيس عبـد الناصر على أنه ديمقراطى أو سيد الديمقراطيين لكنه يجاهر بما كان يعتقده فى هذا الحين ● نظرته فى المذكرات ذات أنبوب ضيق طويل كفيل بتكبير بعض ملامح الصورة لا بالإحاطة بها كلها ● يتحـدث عن أدواره الشخصيـة المهمة فى تقـوية ودعم وإنقاذ العلاقـات السوفيتـية ـ المصرية ● ما يرويه عن دوره الذكى فى إذابـة الخلافات التى نشـأت أو ظهرت فى أثناء زيارة الرئيس عبـد الناصر إلى موسكو فى مـايو ١٩٥٨، وكيف أن الرئيس عبـد الناصر اقتنع بوجهة نظره (وكان مراد غالب نفسه لا يزال مديرا لمكتب الرئيس للشئون السياسية) ● يتوصل من خلال لقائه بالـرئيس السوفيتى خروشوف إلى ما يـسميه «المعادلة» التى سارت عليها العلاقات المصرية ـ السوفيـتية فى أزهى عصورها وهو عصر خروشوف ● لا يتحدث فى هذه المذكرات عن الاتحاد السوفيتى وإنجازاته بوله أو تدله أو بانحياز كامل، لكنه حريص على أن يبرز فى الوقت نفـسه كل الانتـقادات التى توجه إلى ضعف المستوى التكنولوجى للمعـونة السوفيتيـة، سواء فى ذلك المعونات العسكرية والمعـونات الفنية فى أثناء بناء السـد العالى ● يطلعنا على حقيـقة مشاعر العسكريين المصـريين تجاه التعاون السوفـيتى والأسلحة السـوفيتـية، وهو يعتـرف بما لا يعترف به غـيره [عن هم أقل صلة بالسوفييت] من حقيقة هذه المشاعر ● يذكر ما كان الفريق مدكور أبو العز يجاهر به فى مقالاته ومـذكراته مما تناولناه فى الباب الأول من كتابنا «فى أعـقاب النكـسة» ● حرص السوفـييت على إقناع المصريين بعـدم جدوى الدخول فى عمليـات عـسكرية ● يعطى للعلاقات المصرية ـ السوفيتية بعـدا آخر يتعلق بالتعاون التكنولوجى فى بناء السـد العالى، ومن الطريف أن يصدر الاعتراف بعثمان عن رمز من رموز اليسار بعد كل التراب الكثيف

الذى أهيل على دوره فى بناء السد، مراد غالب يقدم صورة أخرى لجهد الرجل، مشيرا إلى فضل المهندس عثمان أحمد عثمان فى تعويض أو حل مشكلة نقص كفاءة المعدات السوفيتية ● وجهة نظر الدكتور مراد غالب فيما يتعلق بمواضع الخلاف بين مصر والاتحاد السوفيتى ● موقف السوفييت من حرب ١٩٦٧، وحقيقة توجهاتهم فى الفترة التى سبقت هذه الحرب ● تفاجأ بالدكتور مراد غالب ينسف الحقائق شبه المستقرة فى أدبياتنا السياسية ذاكرا أن السوفييت كانوا يدعوننا إلى التعقل وإلى عدم الاندفاع إلى الحرب، وأنهم كانوا فى غاية القلق من هذا الاندفاع، وأنهم حاولوا إثناءنا عنه دون جدوى ● يروى ما رآه بعينيه وسمعه بأذنيه ● ربما يذهل القارئ لمثل هذا الذى يصرح به الدكتور مراد غالب، ويراه فى دفاعه عن السوفييت سوفيتيا أكثر من السوفييت ● منهج قراءة التاريخ يدعونا إلى أن نفيد من رواية مراد غالب، وأن نضعها إلى جوار الروايات الأخرى قبل أن نصل إلى حكم قاطع فى مثل هذه الأحداث والروايات الملتبسة ● ما يرويه عن هذه الفترة يتوافق مع منطق السوفييت وأسلوبهم فى إدارة الأمور والأزمات، ما يرويه يتوافق أيضا مع حقيقة تطور الصراع فى ذلك الوقت، وربما كان علينا أن ندرك بالمنطق الحظ الكبير لرواية مراد غالب من الصواب، بل ربما كان علينا أن نصل بعقولنا إلى استنتاجات قريبة مما وصل إليه لولا أننا بسبب عوامل وجدانية معروفة ومعذورة كنا سعداء بوجود الشماعة السوفيتية كمبرر قوى لأخطائنا فى ١٩٦٧ ● بعض أسباب الكارثة، كما لمسها هو نفسه ● تحذير الفريق محمد صدقى محمود قبل الحرب ببضعة شهور من نقص أسلحة الدفاع الجوى ● فقرات كثيرة تصور ملامح الانطباع المرير الذى سيطر على السوفييت حكومة وشعبا نتيجة لهزيمة سلاحهم فى ١٩٦٧، يروى ما يروى من واقع معاشرته اليومية للسوفييت كسفير فى موسكو فى أثناء الهزيمة وفيما قبلها وفيما بعدها ● حملات قام بها الشعب السوفيتى ضد حكومة الحزب التى أعطت الأسلحة السوفيتية لمن لا يجيدون استخدامها! ● يؤكد الإحباط الذى ساد السوفييت نتيجة لهزيمتنا ● نراه حريصا على أن يفيض فى الحديث ليؤكد على نفى المعنى الذى نقله شمس بدران وليصور هذا المعنى على نحو يزيد فيه شمس بدران فى فهم كلمات

المجاملة العابرة ● يصرح بكل وضوح بأن وزير الحربيـة المصرى شمس بدران لم يفهم سؤال رئيس الوزراء السوفيتى ● يصرح بأن رئيس الوزراء السوفيتى عرض على شمس بدران مشروع خطة استراتيجية بديلة تماما للخـطة المصرية التى اتبعت فى ١٩٦٧، وهى خطة كـانت كفيلـة بالحفاظ علـى المكاسب التى تحقـقت فيـما قبل الحـرب، وهى ثلاثة مكاسب مهمة، وليس هناك فى أدبياتنا السياسيـة المصرية كلها دفاع عن موقف السوفييت أبلغ من هذا الدفاع لكن يبدو أن أحدا لن يصدق هذا الدفاع أبدا ● يشير إلى تفصيلات ما حدث عند وداع وزير الدفاع السوفيـتى لوزير الدفاع المصرى، وذلك فى حضور اللواء أحمد فـتحى عبد الغنـى مدير مكتب المشتريات العـسكرية فى موسكو ● يكّون فكرة دقيقة عن الموقف السـوفيتى ويصوغها فى سطور مكتوبة واضـحة الدلالة ويبعث بها إلى المسئولين فى القاهرة على أسـرع وادق وآمن وجه ممكن ● يبـدو لنا من الرواية التى يقدمها الدكتور محمد مراد غالب أن شمس بدران لم يكن مخطئا تماما فى فهم ما فهمه، وأن الدكتور محمد مراد غالب لم يكن مصّيبا تماما فى فهم ما فهمه مما يصرح به بعد أكثر من ثلاثين عاما من وقوع الواقعة ● عرف بموعد هجوم إسرائيل فـى ٥ يونيو استنتاجا من حديث له مع السـفير الأمريكى فى مـوسكو، وبعث بهذا الموعد إلى الرئيس جـمال عبـد الناصر، وهو حريص على أن يشـير إلى أنه لم يكن الوحـيد الذى وصل إلى هذه المعلومة ● الدور الذى لعبـه كسفـير لبـلاده فى الكونغو ● دوره فى تهريـب عائلة الرئيس الكونغولى لومومـبا إلى مصر ● هو النجاح الوحيد الذى أمكن تحـقيقه خلال هذه الأزمة التى انتـهت بوقف العلاقـات بين مصر والكونـغو، وقتل لومـومبا وحـصار السفارة المصرية وطرد بعثتنا الدبلوماسية من الكونغو ● قبيل اندلاع حرب أكتوبر كان قد صدر قرار بتعيين الدكتور محمد مراد غالب وزيرا مقيما لمصر فى ليبيا على أن يحضر اجتماع مجلس الوزراء فى البلدين، وقد تصادف أن جاء موعد سفر الدكتور محمد مراد غالب يوم معركة ٦ أكتوبر المجيدة، ومع أن سفره كان مخاطرة غير محسوبة إلا أن روح الاستشهاد دفعته إلى هذا السفر ● يحكى باختصار شديد وتحفظ محسوب توتر العلاقة فى ذلك الوقت المشهـود حين فوجئ هو نـفسه بموقف القـيادة الليبـية التى بدأت تصف

الحرب المجيدة بأنها تمثيلية متفق عليها ● يشير إلى أن العلاقات الشخصية الجيدة التى ربطته من قبل بالقيادة الليبية صبت فى سبيل خدمة بلاده على الرغم من كثرة المشكلات التى شهدتها فترة حرب أكتوبر المجيدة ● يشير إلى بعض هذه المشكلات فى هدوء وأسف أيضا ● يروى قصة دور مجهول قدر له أن يقوم به وهو وكيل لوزارة الخارجية المصرية، حيث تمكن من إعاقة دعوة إسرائيل إلى الاحتفال باستقلال الصومال على الرغم من أن الرئيس عبد الناصر نفسه لم يكن محبذا لهذا السلوك، الذى يجلب الاستقطاب السريع ● يروى فى شجاعة بالغة موقف الاستقالة عقبَ مبادرة السادات بزيارة القدس
● يردف هذه الفقرة مباشرة بفقرة يعترف فيها بشجاعة قرار السادات فى مبادرة السلام
● يلخص من وجهة نظره، حقيقة موقف الأنظمة العربية من الرئيس السادات فيما قبل المبادرة ● على الرغم من محاولة الدكتور محمد مراد غالب تبنى رؤية ما يسميه بالاتجاه القومى فى معالجة الصراع مع إسرائيل، فإنه يعترف بصراحة بصدمته من تصرفات العرب بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد ● إحساسه بخيبة الأمل تجاه الموقف الراهن للعرب فى مواجهة التعنت الإسرائيلى، وهو يدين الشلل والتلكؤ العربى فى تقديم المساعدة التى يحتاجها الفلسطينيون تحت الحصار ● يروى قصة خروجه من منصبه كوزير للخارجية (سبتمبر ١٩٧٢) عقب إخراج الخبراء السوفييت بطريقة طريفة ينسب فيها إلى الفريق صادق تنبؤه بإخراجه هو فإذا بوزير الخارجية يسبق وزير الحربية فى الخروج، كما ينسب إلى الشاعر محمود درويش لقبا طريفا أضفاه عليه حين قال له إنه كان لابد من خروجه باعتبار أنه آخر الخبراء السوفييت ● يجاهر فى شجاعة مغلفة جيدا بالكنايات الشفافة والمجازات الرقيقة (والأوصاف البديلة عن الأسماء) بمسئولية الرئيس عبد الناصر عن هزيمة ١٩٦٧ وهو يعبر عن هذا المعنى بأبلغ وادق عبارة قيلت فيه على الإطلاق ● سرعان ما يخفف من وقع عباراته القوية دون أن يتنازل عما فيها من فكر وإدانة وتسبيب لهذه الإدانة ● ما يقدمه من جوانب رأيه فى السياسة المصرية الداخلية ● رؤيته لجوانب الصراع بين الرئيس عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر ● كيف استطاع النجاح فى الحصول على ثقة المشير عبد الحكيم عامر، وكيف مكنته هذه الثقة من أن

يحظى يبعض البوح الذى قدمه له المشير، والذى كان ملخصه أنه لا أمل فى مستقبل لمصر مادام عبد الناصر معنيا برؤية صوره فى الصحافة كل يوم ● خصال عبد الحكيم عامر وسجاياه ● انطباع الدكتور محمد مراد غالب تجاه هذا التصريح الخطير الذى فاجأه به المشير عامر عن إيمانه باستحالة وجود الديمقراطية فى وجود عبد الناصر ● لا يقف عند هذا الحد فى تصوير إحساسه بالتدهور المبكر فى العلاقات بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، لكنه يدلنا على ما توحى به واقعة يرويها ويراها فى منتهى الخطورة حدثت قرب نهاية ١٩٦٦، ● اتضحت له، وبصورة قاطعة، معالم التحزب الواضح من مجموعة عبد الحكيم عامر ضد الرئيس عبد الناصر حتى أن صلاح نصر فى حديثه العابر انتهى إلى تقرير فقدان الأمل فى الإصلاح مادام الرئيس عبد الناصر فى السلطة ● أحاديثه عن الرئيس السادات، حافلة بالاختلاف مع الرئيس الثانى الذى عمل معه الدكتور محمد مراد غالب سفيرا، ثم وزيرا للدولة، ثم وزيرا للخارجية، ثم سفيرا، ثم وزيرا للإعلام، ثم سفيرا للمرة الثالثة ● يكرر الحديث عن شجاعة السادات فى مواضع أخرى ● فقرة لمراد غالب تنسف كل دعاوى الذين يهاجمون السادات فى وطنيته وفى إصراره على استرجاع أرض وطنه ● يحرص بحس وطنى ذكى على تفنيد رواية الهيرالد تريبيون المنشورة فى ٢٤ فبراير ١٩٧٧ والتى لا تفتأ القوى المعادية للسادات تكررها حول علاقة السادات بالمخابرات الأمريكية، وهو يعقب على هذه الرواية نافيا لها، وناسبا السبب فيها إلى الموساد الإسرائيلى واللوبى الصهيونى الأمريكى ● الانفرادات التى تتمتع بها مذكرات مراد غالب، أتاحتها عين يقظة واعية رأت ما لم يره غيرها، وفهمت ما لم يفهمه غيرها، وأتيح لها أن تقدم رؤيتها فى وقت مناسب، وبذكاء بالغ ● انفراده بتقديم صورة مختلفة لموقف الرئيس السادات من مبادرة وزير الخارجية الأمريكى روجرز، ونحن نعرف أن الأدبيات «الناصرية» تشير إلى أن السادات أعلن رفضه للمبادرة لأنه لم يكن يعلم أن عبد الناصر قد أعلن موافقته عليها وهو فى موسكو، فلما عرف بموافقة عبد الناصر عدل موقفه بما يتفق مع موقف رئيسه. لكننا نفاجأ بالدكتور محمد مراد غالب يقدم رؤية جريئة ومناقضة!! حيث يوحى للقارئ بأن

السادات كان قد وصل فى ذلك الحين إلى ذلك القدر من القوة إلى الحد الذى كان يزايد فيه على موقف الرئيس عبد الناصر، وقد أصبحت صورة السادات وكأنه هو الذى يدافع عن وجهة نظر الشارع العربى بينما تعرض عبد الناصر لسخرية الشارع وتشويه سمعته والسخرية من قبوله مبادرة روجرز ● يشير إلى أن مواجهة ساخنة قد حدثت بين الرجلين ناصر والسادات بسبب هذه الواقعة التى عُمى عليها كما ذكرنا، والتى رفعت من أسهم السادات على حساب عبد الناصر، بل يشير الدكتور محمد مراد غالب إلى أن الرئيس عبد الناصر بدأ بعدها يسترضى السادات بصورة قد لا يتصورها أى ناصرى(!!) ● حرصه على أن يذكر أنه أحس أن الرئيس عبد الناصر كان قد بدأ يفكر فى عودة عبد اللطيف البغدادى إلى الحياة السياسية ● يبدو حديثه عن فترة الوحدة مع سوريا يدل على منتهى الإنصاف والعقل ● يسمى الفصل الذى يتحدث فيه عن تجربة الوحدة «محنة الوحدة»، مما يدل دلالة قاطعة على حقيقة نظرته إلى التجربة ● لا يتنصل من مسئولية المصريين عن فشل الوحدة، وإن كان يلقى ببعض المسئولية على السوريين أيضا ● يذكرنا بما تعمدت أجهزة الدولة التعمية عليه من أن الاتحاد السوفيتى اعترف بسوريا المنفصلة بعد ساعات من وقوع الانفصال(!!) وهو ما أبلغه له نائب وزير الخارجية السوفيتى فلم يملك نفسه من إبداء الاحتجاج الفورى عليه ● يورد رأيا فى ثورة العراق فى ١٩٥٨ يبدو وكأنه فى منتهى الحياد، لكننا إذا تأملناه وجدنا فيه انحيازا واضحا للقوى اليسارية التى قامت بهذه الثورة، وهو يراها لا تقل أهمية من حيث التأثير عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ● يجاهر فى هذه المذكرات بأنه لم يكن يتصور تطبيق كل مبادئ الاشتراكية على نحو ما هى معروفة فى التراث النظرى والأداء السوفيتى أو الصينى ● يبدى اعتراضه على أن تتولى الطبقة العاملة مقدرات الحكم على الأمور ● يعبر عن أن اقتناعه بالماركسية لا يصل إلى درجة الاقتناع الكامل، ويتبدى هذا من خلال تعبيره عن تشككه تماما فى إحدى فرضيات الماركسية وهى تلك الخاصة بأصل الكون ● ويبدو ميالا إلى ما يقترب من الكفر بفرضيات الماركسية فى هذا المجال، وليس من حقنا بالطبع أن نقول إنه كان ميالا إلى الإيمان بالإيمان الذى نعرفه ● ربما جاز لى أن أعلق على

جملة (أو كلمة) عابرة وسط حديث الدكتور مراد غالب حين يقول: إن العلماء لم يفصحوا، وكأنه يوحى بأن العلماء يعرفون الحقيقة لكنهم لم يفصحوا عنها، بينما الحقيقة أنهم لم «يعرفوا» ● يتحدث بقدر واضح من الاعتزاز عن نواحى التوافق بين أفكاره ومعتقداته وبين النظرية الماركسية ● يتحدث عن علاقته بالفكر الماركسى مصورا بداية هذه العلاقة كرد فعل عاطفى لانتصار الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية بقيادة ستالين ● يتحدث حديثا خاطفا عن إسهامه فى الحركة الوطنية قبل الثورة من خلال الخلية الرباعية التى كان عضوا بها، وعلاقتها بتنظيم الضباط الأحرار، وتحولها مع عبد الناصر من فكرة الاغتيالات إلى فكرة التنظيم العسكرى الواسع الأكثر فعالية ● أحكامه على أولى فترات حياته وعمله فى الاتحاد السوفيتى تأتى ممتزجة بنوع من خيبة الأمل تجاه مستوى هذه الحياة، بل إننا نجد هذا الانطباع وهو يسارع أو يتسارع إلى الوجود بينما هو وزوجته لا يزالان فى طريقهما إلى الاتحاد السوفيتى ● يعبر عن بعض الملامح المبكرة التى أزعجته فى التجربة السوفيتية حين قدر له أن يعيش فى الاتحاد السوفيتى تحت رقابة لصيقة. . . وأن يرى من خلال إقامته جموعا من الشعب وهى تتحرك فى قتامة شديدة ● يصل إلى تشخيص ما رآه على أنه نوع من التناقضات العميقة، معترفا بأن هذه التناقضات سببت له صدمة فكرية لا يزال يتذكر أبعادها إلى الآن ● موقفه النهائى من الفكر الاشتراكى على النحو المتحفظ ـ ولا نقول المهاجم ـ الذى يشاركه فيه المثقفون غير المنتمين لليسار فيه ● يجيد الحديث عن حصاد أربعة عشر عاما من معايشة المجتمع السوفيتى، وهى الأعوام التى قدر له أن يعيشها فى الاتحاد السوفيتى، وهى فترة لم تتح لأى مصرى آخر على هذا المستوى ● يلخص بعض هذه الملامح فى فقرات مختصرة تعبر عن إحساسه بوطأة الأمن وهاجسه والمراقبة على أبناء الشعب السوفيتى ● يعبر عن معاناة مجموع أفراد الشعب السوفيتى العاديين، ويقدم حديثه هذا فى عبارات دقيقة وصادقة دون أن يخشى الاتهام بأنه ينتقد السوفييت لصالح النظم الغربية ● يتحدث بالتفصيل الذى لا يقدر عليه غيره عن بعض مظاهر الأزمة التى وصل إليها تطبيق النظام الشيوعى والتى قادت ضمن عوامل أخرى إلى ما نعرفه من انفراط عقد هذا النظام ●

يتحدث عن طبيعة أو جوهر أزمة المساكن التى اجتاحت دول الاتحاد السوفيتى ● يتحدث عن أزمة النظام السوفيتى مع أفراد الشعب الذين بدءوا يتطلعون إلى الأفضل ويتشككون فى قيمة ما تقدمه لهم الدولة السوفيتية فى ظل الوعى بالظروف الأخرى للحياة فى الغرب التى بدأت تصل إلى أسماعهم وعيونهم أو حواسهم فى ظل ثورة وسائل الاتصالات ● من أطرف ما تتضمنه المذكرات تلك التعليقات التى ينقلها عن الرئيس خروشوف فى أثناء زيارته لمصر فى ١٩٦٤، وهى تعليقات موحية أراد بها أن يصور بعض ما أدركه هذا الرجل الذكى من غرائب وطرائف الأوضاع فى مصر فى ذلك الوقت، وتكتسب هذه التعليقات أهميتها من أنها تنشر لأول مرة، إذ لم يكن من المعقول ولا من المقبول أن يبادر نظام الحكم فى مصر إلى إثبات مثل هذه الانتقادات التى أبداها خروشوف، ولا إلى السماح بنشرها أو تداولها، كما أنه لم يكن من المتوقع أن يسرب أعوان خروشوف مثل هذه الانتقادات إلى الصحف السوفيتية التى كانت حريصة على الالتزام بالجو الجديد من حسن العلاقة والتزام الاحترام المتبادل بين التجربتين السوفيتية والمصرية ونظامى الحكم فى البلدين ● يصور ذكاء خروشوف فى اكتشافه السريع (أو الذكى) لظاهرة البطالة المقنعة فى المصانع المصرية التى كانت تحفل بجيوش العمال دون عمل مواز لأعدادهم الكبيرة ● سخرية خروشوف من ضخامة عدد الوفد المصرى الرسمى الذى صحب على صبرى رئيس الوزراء فى زيارته لموسكو ● إيمان الزعيم السوفيتى بالتكنولوجيا والتقدم العلمى ودورهما فى تحقيق التنمية والقيمة المضافة ● يعترف مراد غالب بطريقة غير مباشرة بأنه، هو والزعيم عبد الناصر، كانا بعيدين عن إدراك ما أدركه خروشوف من فهم لسر التنمية، وقدرتها على توظيف العمال توظيفا سليما بعيدا عن دعاوى محدودية الموارد، وكثافة السكان، وما إلى ذلك مما كان خروشوف يعتبره بمثابة كلام فارغ ● لا يكف عن امتداح الزعيم السوفيتى خروشوف وشخصيته وسياساته وحبه لمصر ● يلخص أهم إنجازات خروشوف السياسية مركزا على عناية خروشوف بحرية الفكر وازدهار الفنون والآداب ● يواصل قصيدة المديح فى هذا الزعيم السوفيتى ● يبدى اعتزازه بعلاقته بخروشوف وسعادته البالغة بما أحسه من تقدير

خروشوف له ● يروى بعض المواقف التى تبين مدى ما وصلت إليه سطوة الزعيم السوفيتى خروشوف على زملائه، وكيف كانت له السيطرة حتى على الرئيس السوفيتى فوروشيلوف، وكان أحد القادة العسكريين ● المذكرات تتضمن كثيرا من تفاصيل وخبايا الحياة السياسية السوفيتية، ومنها على سبيل المثال ما عرفه صاحبها من تفصيلات قرار تنحية خروشوف على يد اثنين من الزعماء السوفييت كان أحدهما بريجنيف الذى لم يكن يحظى بالقدر ذاته من حب مراد غالب ● بعض ما عرفه بحكم صداقته ولقاءاته بابنة ستالين، وهى مواقف كثيرة مهمة لإطلاعنا على تاريخ هؤلاء الأصدقاء ● قسوة ستالين حتى على ابنه ● آراء ابنة ستالين التى كانت صديقة له ● وأفكارها المناهضة للشيوعية ● أقبلت على الزواج من هندى فعارضها بولجانين رئيس الوزراء بينما وافقها النجم السينمائى المثقف تشيركاسوف ● يروى جوهر نقاش دار بينه وبين ابنة ستالين حول مدى تقديرها وحبها لأبيها ● يصف هذه السيدة وحياتها وطباعها وصفا دقيقا ● يروى فى هذه المذكرات ما يعتبره السر فى صعود نجم جارباتشوف ● يكتفى بأن يروى ما يعرفه من تاريخه ناسبا نجاحه وصعوده إلى علاقاته «البسيطة» بأندريوف ليس إلا ● من بين الزعماء العرب والأفارقة يحظى الملك الحسن الثانى ملك المغرب بثناء الدكتور محمد مراد غالب على استيعابه المبكر للقضايا السياسية وموقفه الرائع فى مؤتمر القمة الإفريقية فى الدار البيضاء سنة ١٩٦١ ● انطباعاته عن بعض شخصياتنا المصرية المهمة التى أتيح له أن يعمل أو يتعاون معها ● تراه ينفرد بالحديث [عما يصوره هو انفرادا] عن معرفته نية الرئيس عبد الناصر استخلاف عبد اللطيف البغدادى ليكون نائبا له بدلا من أنور السادات، وكيف أن الرئيس عبد الناصر طلب منه أن يتولى ترتيب مقابلات ولقاءات للبغدادى فى موسكو ● رواية ما دار بينه وبين عبد اللطيف البغدادى من حديث مهم ● كان معجبا إلى أقصى حد بعبداللطيف البغدادى ● تنفرد المذكرات بالإشارة إلى قصة نية الرئيس جمال عبد الناصر تعيين حسين ذو الفقار صبرى كرئيس لأركان حرب القوات الجوية بعد حرب ١٩٥٦ ● يشير إلى أن حسين ذو الفقار صبرى هو الذى طلب نقله (أى نقل الدكتور محمد مراد غالب) ليعمل

معه فى وزارة الخارجيـة كقائم بعمل وكيل الوزارة ● يكشف عن حقيقة موقف رجال الثورة من أبيهم الروحى عـزيز المصرى، يقدمه لنا فى صورة أقـرب ما تكون إلى الطرافة (ولا نقول الانتقاد) فى أدائه لوظيفة السفير المصرى فى موسكو ● الموقف ينبئ بوضوح عن ثقافة عـزيز المصرى، كما ينبئ بوضـوح أيضا عما قادت إليـه العقلية الشيـوعية من تصنيف كاتب روسى (هو مفخرة بكل المقـاييس) فى صفوف أعداء الشعب ● مراد غالب كان متأثرا ـ فى موقفـه ـ برؤية السوفييت، ويبـدو أنه على الرغم من استنارته لما يتخلص بعد من آثار ما نعرفه من سيطرة السياسة على الثقافة ● ينحو باللوم على عزيز المصرى، وكـان أحرى به أن ينحـو باللوم على جرومـيكو ● تقييمـه لعزيز المصرى ومجمل حياته ● أحكام المذكرات على بعض الشخصيات العسكرية والسياسية ● نراه دائب الثناء على أداء المشير أحمد إسماعيل ● يتحدث بتقدير أيضا عن دور المشير أحمد إسماعيل كوزير للحربية ● يحرص على مهاجمة الفريق محمد أحمد صادق فى مواضع كثيرة من كتابه، وهو يحكى انطباعاته عن الفترة التى عـملا فيها معا كوزيرين للخارجية والحربيـة وكعضوين فى لجنة ربـاعية ضمـتهما همـا وحافظ إسمـاعيل مستـشار الرئيـس السادات للأمن القومى [ورئيس اللجنة]، والمشير أحمـد إسماعيل رئيس المخابرات العامة فى ذلك الوقت ● المؤلف يقول : لو أنى كنت مكانه لحـذفت «أقنعوه» ووضعت بدلا منها «خدعوه»، وعلى كل الأحوال فإن رأيى فى هذه الجزئية واضح ومعلن ● يحظى المهندس محمد صدقى سليمان بثنائه على دوره الرائع فى إتمام بناء السد العالى فى الوقت المحدد له، بفضل همته والتزامه ● يثنى على السيدة جيـهان السادات بنفس الأسلوب والروح والتفصيلات التى يثنى به عليها خلفه فى وزارة الخارجية محمد إبراهيم كامل ● من بين أعوان الرئيس السادات يختص الدكتور غالب المهندس سيد مرعى بثناء واضح ● على الرغم من طول الفترة التى عمل فيها الدكـتور غالب فى الدبلوماسية المصرية، فإننا لا نراه معنيا بانتـقاد أحد من زملائه فى السلك الدبلومـاسى المصرى فيما عدا إسـماعيل فهمى ومجموعته ● ويحرص على تقديم قصة «ندوة الأهرام» الشهيرة التى عقدت فى غيـابه، وهى الندوة التى شارك فـيها إسـماعـيل فهمى وكـيل وزارة الخارجـية، وتولت

صحيفة الأهرام من خلالها تلميع وكيل وزارة الخارجية إسماعيل فهمى ● يلخص رأيه فيما تضمنته ندوة الأهرام التى وجه إسماعيل فهمى وكيل الخارجية فيها نقدا لاذعا للسوفييت ● قصة حوار بينه وبين الرئيس السادات، انتهى إلى أن ترك له الرئيس السادات الحرية فى التصرف مع إسماعيل فهمى ● لا يتوقف عند هذا الحد من توتر علاقته بإسماعيل فهمى وكيل الوزارة فى عهده، وإنما هو يشير إلى واقعة أخرى لعب «الأهرام» فيها دورا فى تأجيج الخلاف بينهما ● يقدم روايته وكأنما كان إسماعيل فهمى ومحمد حسنين هيكل هما المنشئان للسياسة الجديدة مع الأمريكيين، بينما كان السادات معهما!! وكأنما يريد الدكتور مراد غالب أن يشير إلى شىء آخر غير كل ما أنفق هيكل وحواريوه سنوات ربع القرن الأخير من حياته فى إثباته! ● يحرص على إبداء رأيه فى محمد حسنين هيكل، وهو حريص فى إبداء هذا الرأى على أن يبدو أقرب إلى روح الجراح الذى يتتبع المسار البيروقراطى للمشكلة الجراحية فحسب، دون أن يعلن تشخيصا محددا للحالة، ولكن رأيه مع هذا التحفظ والتحرز لا يخلو من لقطات ذكية، سواء نسبها إلى استنتاجاته أو إلى الرئيس السادات ● الواقعة التى يمررها بنعومة ضمن حديث يبدو وكأنه يتضمن ثناء على هيكل، وهو يلخص بهذه الواقعة ما يصوره على أنه جوهر مشكلة هيكل النفسية العميقة ● يصل مباشرة إلى المفارقة التى تمثلها رواية هيكل للواقعة على نحو مختلف عما حدثت به، وهو الأسلوب الذى نعرفه عن هيكل ● ببساطة شديدة وبراعة ظاهرة الاصطناع يعقب الدكتور محمد مراد غالب على هذه الواقعة ● يلجأ إلى ثقافة الأطباء فى تعليقه على مشكلة هيكل مع نفسه، مصورا المرض على أنه نتيجة طبيعية، لكنه يستبقى من خلال التشخيص حقيقة أن المرض مرض، ولسنا نستطيع أن نمنع قلمنا من الإعجاب بهذه الطريقة فى التناول ● واقعة أخرى يمررها فى براعة ظاهرة ليوضح مدى تغلغل نفوذ هيكل فى علاقته مع السفراء الغربيين (على حد وصف مراد غالب)، وكيف أنه كان يستاء بشدة حتى من مجرد تصور أنه لا يعرف حقيقة ما دار فى حوارات وزير الخارجية الذى هو الدكتور محمد مراد غالب نفسه، وهى واقعة جديرة بالقراءة والتأمل ● يفاجئنا الدكتور غالب بما يبدو مخالفا

للشائع بقـوله: إن هيكل لم يكن يعبـر عن فكر السادات، ولم يكن يكـتب له خطبه أو رسائله، وإنما كان يعـبر عن نفـسه ● أهم وأخطر واقعة فيمـا كتبه عن هيكل هى تلك الواقعة التى تكشف عن إجادة هيكل دور لعب «القومسير» فى تعامله مع زملائه من كبار رجال الدولة، وقد لعب هيكل هذا الدور مع الدكتور غالب نفسه حين استطاع بمهارة أن يقنعه أنه تمكن من أن يخـفى عن الرئيس السادات رسالـة خاصة من مراد غـالب لسامى شرف كانت كفيلة بوضع الدكـتور محمد مراد غالب نفسه ضمن مجـموعة المتآمرين فى ١٥ مايو ● يبدو حـريصا على ان يظهر نفـسه بمظهر المقتنـع بالدور الذى لعبه محـمد حـسنين هيكل لصـالحه دون ان يـتطرق إلى احتـمـال أن يكون هيكل بمفـرده أو هيكل والسـادات معا قد تآمرا عليه بإظهار الثقة له حتى يفيدا منه إلى النهاية نظرا لما كان يتجمع تحت يده من خيـوط العلاقات مع الاتحاد السـوفيتى ● تنفرد المذكـرات برواية أن على شفيق مدير مكتب عبد الحكيم عامر جاء بمدفعـية القوات المسلحة ووجهها نحو بيت عبد الناصر ● تنفرد المذكرات بالإشـارة إلى دور الاتحاد السوفيتى فى فرض مـعاهدة الدفاع المشترك مع سوريا على عبد الناصر ● تنفرد المذكرات بالإشارة إلى أنه عند وقوع الحرب فى ٥ يونيو ١٩٦٧ كـانت هناك وحدات مدرعـة من القوات المسلحة المصرية فى العراق لتأمين حكم عـارف، وذلك بالإضافة إلى خيرة القوات المسلحة الـتى كانت موجودة فى اليمن ● مجمـل الرأى فى المذكرات : جميلة، دسـمة، مثقـفة، تعبر بصـدق وتثبت وتنفرد، لكنها مع ذلك كله مذكرات مظلومة ومـتجاهلة، ولا يخفى على القارئ أسباب مثل هذا التجاهل الجزئى لمذكرات مهمة لرجل مـهم شارك فى كثير من اللحظات الصعبة فى تاريخ أمتنا، بل فى تاريخ التحولات السياسية العالمية التى كانت بلادنا مسرحا لها.

الباب الثانى: خطى اجتزناها.. مذكرات الدكتور حامد عمار

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● يتحدث عن النقلات الحضارية التى مرّ بها : حديثه عن أول عمليـة جراحية تعرض لهـا وهو فى لندن عام ١٩٤٦ ● يتناسى ، عن عمد لذيذ، عوامل الزمن وفعلها فى جسـم الإنسـان ● انتقاله المبكر إلى آفاق العمل الدولى

فى المجال التربوى على يد أستاذه إسماعيل القبانى ● يتحدث بتفصيلات كثيرة عن تلك السفرة الجميلة التى صحب فيها الوزير القبانى إلى باريس، وعن طبيعة مشاركاتهم فى المؤتمر ● أستاذية محمد شفيق غربال له ● هذا الأستاذ العظيم ظل حريصاً على رعاية تلميذه الذى ترك التاريخ واتجه إلى البعثة لنيل الدكتوراه فى التربية بعض الخبرات التى شارك فيها عبر القارة الأوروبية ● كيف بدأ عمله فى مركز سرس الليان، وما تصادف من الشك فى أنه شقيق للمدير المسئول عنه وهو الدكتور عباس عمار ● طبيعة حديث الدكتور حامد عمار عن أساتذته الأجانب وما يحفل به هذا الحديث من اعتزاز كبير بالقدرات العلمية الكبيرة لهؤلاء الأساتذة ● يتحدث بقدر من الافتتان العميق، والامتنان الأعمق عن أستاذه فى مرحلة الماجستير الأستاذ لاورابز، وهو يلفت النظر إلى ما قد نعتقده من عدم التوافق بين دراسات هذا الأستاذ العلمية وما اختير له من وظيفة تربوية ● حديثه الناقد لأحوال النظام التربوى فى مصر ● سوء أحوال كلية التربية بعد عودته إليها بعد فترة غياب طويلة فى المنظمات الدولية ● يؤثر العودة إلى النظام التتابعى فى كليات التربية وهو يفيض فى شرح النظام الذى درس عليه فى كلية التربية ● يتحدث فى ثنايا مذكراته حديثاً مهما عن نظام البعثات، وما أصاب هذا النظام من اضطراب فى العقود الأخيرة ● يتحدث عن مشاعره تجاه جامعته وكليته وقسمه بمرارة لا تفتقد المبررات، وإن لم تكن بحاجة إلى هذا القدر من التعبير والتصريح المباشر، الذى لا يخلى مسئولية صاحب المذكرات عن وصول الأحوال إلى ما وصلت إليه ● نراه الإشادة بأشخاص كثيرين من زملائه فى القسم والكلية، ومعنى هذا أنه يظهر نفسه على أنه يتهم النظام لا الأشخاص، وإن كان هذا أيضاً لا يعفيه من المسئولية بحكم أقدميته ومسئولياته عن صناعة الوضع الذى صنعه ● يلخص ما يشعر به من ألم تجاه كليته التى لم ترشحه للجوائز التى نالها ● رأى للمؤلف : ربما جاز لى أن أستنكر على الدكتور حامد عمار أن يسعى للحصول على جائزة الجامعة بعدما حصل على جائزة الدولة التقديرية، وأصبح فى مقام مَنْ يمنحون جائزة الجامعة لا مَنْ يحصلون عليها ● حريص على أن يتحدث باستفاضة عن كثير من النجاحات فى حياته، وعن سعادته بهذه

النجاحات عند تحقيقها وعند تذكرها على حد سواء ● يتحدث عن تفوقه فى الابتدائية ● يتحدث عما لايزال يذكره من عبث الشباب حين أخذ يتفس عن الهزيمة أمام فريق أسيوط تنفيساً بلاغياً ● يتحدث عن ترتيبه المتقدم فى شهادة البكالوريا وعن زمالته فى هذا الترتيب للدكتورة سيدة إسماعيل كاشف، وأن تكون هذه الزمالة بداية لزمالة مستمرة فى الكلية، وفى القسم العلمى، وفى تخصص الامتياز، وفى المواد الإضافية فى الامتياز أيضا ● كان واعياً تماماً لمدى الحظ الذى رزق به حين أتاحت له الظروف زمالة شخصية نسائية مصرية عرفت بالجد والاجتهاد، وقد زاملها على مدى سنوات طويلة فى تنافس كان محسوماً لصالحها، مما أدى إلى تكوين صورة مشرقة عن المرأة المصرية فى ذهنية حامد عمار ● ويبدو أن الأقدار قد ساقت هذه الزميلة فى طريق أستاذ التربية لتكون فكرة تليق بتربوى مصرى رائد عن المرأة المصرية وقدراتها ● الجهد الذى بذله فى رسالته للماجستير فى التاريخ، فضل أستاذه محمد مصطفى زيادة على هذه الرسالة، فضل الأستاذين اللذين ناقشاه وهما الأستاذان محمد شفيق غربال وحسن إبراهيم حسن ● يثنى ثناء كبيراً على أستاذه محمد مصطفى زيادة الذى أشرف على رسالته، والذى كان له الفضل فى تحقيق المقريزى، وهو يرى أن تحقيقه وتحريره ونشره لمجلدات المقريزى فى كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك)، وفى كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) يمثل إسهاماً رائعاً من مصادر عصور السلطنة المملوكية وأخبارها ● يتحدث عن زياراته لأستاذه فى منزله وتلمذته عليه ● تحفل المذكرات بأحكام تقييمية عديدة يصدرها فى شأن أساتذته وزملائه وتلاميذه أيضا ● يسخو بالثناء المستطاب على بعض الشخصيات التى قدر له أن يزاملها أو أن يدرس على يديها، ومن ذلك ما يرويه عن الأستاذ عبد المنعم الصاوى، الذى قدر له أن يزامله منذ السنة الأولى فى كلية الآداب ● يحرص على أن يشير إلى صداقته لعبد العزيز كامل الذى كان أحد أقطاب حركة الإخوان المسلمين ● نراه حريصاً على أن يقول فى فقرة من مذكراته إن كل زملائه فى مرحلة الدراسة فى بريطانيا قد أصبحوا وزراء بينما لم يصبح هو كذلك!! ● من الطريف أن هؤلاء أصبحوا وزراء فى مصر، وفى الأردن، وفى الكويت ● اثنان من بين زملائه فى كلية الآداب من الذين

تحدث عنهم باعتزاز قد وصلا أيضاً إلى الوزارة وهما الدكتور عبد العزيز كامل، والأستاذ عبد المنعم الصاوى ● ومن الممتع أن نقرأ بعضاً من وصفه لهؤلاء الثلاثة زملاء الدراسة فى بريطانيا الذين وصلوا إلى الوزارة فى بلادهم ● خليل السالم من الأردن ● الوزير الكويتى عبد العزيز حسين ● الدكتورة حكمت أبو زيد ● يتحدث عن زميله الدكتور رشدى خاطر حديثاً مقدراً لجهوده فى تأليف الكتب المدرسية، والكتب الخاصة بمحو الأمية ● يتحدث باعتزاز شديد عن زميله الدكتور محمود الشنيطى ● يتحدث عن أساتذته الذين لايزالون يحتلون مكانة عالية فى وجدانه، ونحن نلاحظ أن الدكتور محمد شفيق غربال يحظى بأكبر حظ من حديث هذه المذكرات عن أدائه أستاذاً للتاريخ فى مرحلة الليسانس، وفى مرحلة الماجستير، ووكيلا للوزارة مشرفا على البعثات فيما بعد ذلك ● يتحدث عن لقائه بأستاذه شفيق غربال عند حضوره إلى مصر فى أثناء بعثته ليمارس البحث الميدانى الذى تتطلبه رسالته للدكتوراه عن التنشئة الاجتماعية فى قريته، وهو حريص على أن يشير إلى عظمة شفيق غربال القارئ الذى كان على معرفة بأقطاب الفكر الاجتماعى ● يقدم لنا قصيدة من النثر فى مديح الدكتور سليمان حزين ● يصل فى مديحه للدكتور سليمان حزين إلى ذروة عالية يصورها تصويراً كمياً طريفا ● يثنى على الدكتور إبراهيم مدكور ثناء موجزاً، لكنه حافل بالأوصاف الدقيقة ● يخص الدكتورة سهير القلماوى بثناء جميل، ويعزو إلى شخصيتها بعض الأثر فى حسن تذوقه للأدب، وحرصه على حلاوة الأسلوب ● نراه وهو لا يزال حائراً تجاه التقاليد الغربية فى التمسك بالدين أو بشعائره فى بعض المظاهر، مع أن هذه الحضارة تبالغ فى الحرص على الرقص فى الوقت ذاته ● يتحدث عن الأستاذ محمد عوض محمد حديثاً ممتعاً يخلط فيه بين شاعرية محمد عوض وبين محاولته هو النزول بقارئه إلى أرض الواقع المتواضع، كما أنه يروى واقعة شخصية حدثت له على يد الدكتور عوض فى إحدى محاضراته ● يحرص على أن يطلعنا عن قصد على الأخلاق الجامعية الرفيعة التى كان يتحلى بها اثنان من أشهر أساتذة التاريخ فى الجامعة المصرية، قدر له أن يدرس على يديهما وهو طالب فى قسم الامتياز بقسم التاريخ، وهو يروى أنه ناقش الرجلين علنا

وهو طالب فنال رضاءهما وتقديرهما وتشجيعهما ● المؤلف يقول :من طرائف هذه المذكرات ما أذكره من أننى عندما بدأ إطلاق لقب شيخ التربويين على الدكتور حامد عمار قلت لبعض مَنْ تبنوا إطلاق هذا اللقب ونشره إنه لقب لا يعبر عن إعزازهم لصاحبه الذى يستحق لقباً آخر من قبيل العمادة أو الريادة، فضلاً عن أنه حين إطلاقه لم يكن يتمتع بالدقة لأسباب تتصل ببقاء آخرين سابقين على قيد الحياة ● نشر الدكتور حامد عمار مذكراته، واتضحت تلمذته للدكتور عبد العزيز القوصى ● كما أن المذكرات أشارت إلى يوسف صلاح الدين قطب كان أستاذاً لحامد عمار فى مدرسة الملك فؤاد الأول الثانوية فى سوهاج، وأن حامد عمار نفسه كان معجباً بطريقته فى تدريس الكيمياء والفيزياء ● مع أن حامد عمار وصل من الشهرة إلى ما لم يصل إليه الدكتور مصطفى الأمير عالم الآثار، فإنه يقدم لنا هذا العالم فى صورة القدوة التى ترسمها بكل وجدانه فى حياته الأولى حين سكن فى منزل أسرة الأمير عندما أتيح له أن يلتحق بالمدرسة الابتدائية فى إدفو ● التحق بقسم التاريخ للاقتداء بهذا الرجل الذى سبقه إلى الجامعة المصرية ● يشير إلى لقائه الأول به بعد عودته من بعثته ● حديثه عن الدكتور محمد على العريان، الذى تخصص هو الآخر فى علوم التربية، ولمع اسمه فيها، ونهج فى علومها وفى تأليفها نهجاً قريباً وموازياً من نهجه مع اختلاف الأدوات والموضوعات والمناهج ● تعليق المؤلف : واستطيع أن أشهد أن كتابة الدكتور العريان لمذكراته «العريان والزمان» كانت بمثابة دافع قوى للدكتور حامد عمار كى يسجل مذكراته، وقد حدث هذا التنبه أمام عينىّ ● نجد فى سمات الرجلين قدراً كبيراً من التشابه فى أسلوب التناول، وفى النظر إلى الأحداث نظرة الطائر، وفى الحرص على توجيه النقد لمن يستحقه، ومنح الثناء أيضاً لمن يستحقه ● تصوير سلوك محمد العريان المتعنت الذى واجه به تعنت الإنجليز فيما يتعلق بتسجيله للدراسات العليا ● على الرغم من انحياز حامد عمار لثورة يوليو فإنه لا يجد حرجاً فى أن يشير بكل وضوح إلى ما يفتقده عصرها من سمات الليبرالية التى قدر له هو وزملاؤه أن يعيشوها فيما قبل الثورة، وهو يتحدث عن هذه الفترة الليبرالية باعتزاز مقرون بالأسى والأسف للنقيض الذى حل محلها ● نراه خفياً

بالإشارة إلى محنتـه مع أجهزة الأمن، وهي محنة تكاد تكون ضئيلـة جداً إذا ما قورنت بمحن غيره من الزملاء الذين عانوا الأمرين، يتـحدث عن واقعتين محددتين ● الأولى تتصل بتـرشيحـه للعمل أسـتاذاً في الولايات المتحـدة عقب حـرب ١٩٥٦، وقد تكفل بحمايته فيهـا الأستاذ أحمد نجيب هاشم ● الواقعة الثـانية مر بها عقب الحـرب الثانية حرب ١٩٦٧، بسـبب وصفـه الشهـير عن نمط الفـهلوة في الشخـصية المصـرية، وهو الحديث الذي لايزال كثيرون ينقلونه ليطعـموا به آراءهم في أسلوب إدارة الدولة فيما قبل حرب ١٩٦٧، وكان منهم صادق العظم ● تحفل مذكراته بكثير مـن التعبير الدقيق عن بعض مصاعب الحياة، والسعي في طلب العلم في الزمن الذي نشأ فيه ، نعجب ونحن نتأمل الموقف الطريف الذي يصـوره حامد عمار وهو يتقـدم لامتحان القبول في مـعهد التربية العالي في يوم أضربت فيه وسائل المواصلات القاهرية ● يتحدث عن تجربته في البعثة في بلاد الإنجليز لكنه يبخل علينا بكثير من التفصيلات بسـبب انشغال ذاكرته بما هو أكثر التصاقاً بموضـوع خطابه الاجتماعي والتربوي ● لا يبخل علينا بحـديث شيق عن أولى تجاربه مع الجنس الآخر في تلك البلاد، ومن الطريف أننا نراه يعبر بصدق عما كان يشعر به من خوف من أن يُرى وقد تـأبط فتاة أجنبية ● سرعان ما يجد الشجاعة لأن يخوض في مثل هذا الحـديث محتفظاً في الوقت ذاته بروح الحـذر وبالحرص على إظهار الاندهاش لهذا الاختلاف الحضاري ● نراه حريصاً على أن يستهجن فكرة مشاركته في الرقص، وأن يستبقي هذا الاستهجـان حتى بعد أن وصل إلى سن الثمانين، وهو موقف يستحق بعض الدراسة والتأمل ● ما لم يذكره الدكـتور حامد عمار من أن مـؤسسات التعليم ومنها الجامعة نفسها قد نشأت في أحضان الكنيسة ● اعتقاده السـلامة والغنم أن نجا من حفلات الرقص ● تشبع الدكتور حامد عـمار بأخلاق الصعايدة وعاداتهم ● الأسلوب الذي يروي لنا به قصة زواجه ● حريص على أن يقدم هذه القصة على نحو روتيني يخلو من كـل عاطفـة، وكـأنه يظن أن سنه أو أصله أو علمـه يحـول بينه وبين الحب، أو يحول بينه وبين الاعـتراف بالحب، وكأنه لم يفكر طيلة الشهـور التي انقضت بين اللقاءين الأولين اللذين جمعاه مع زوجه، وكأنه لم يتمن على الله أن يوفقه إلى هذه

المحبوبة، وكأنه لم يرحب بزيارة بيروت فى السنة التالية على أمل أن يلقاها، وكأنه لم يسعد بكل هذه المفارقات التى أسعده بها القدر ● لا نستطيع أن ننكر أنه كان حريصاً، وربما جاء حرصه هذا بعد فوات الأوان على أن يعترف بامتنان كبير لزوجه، حيث يشركها فى إهداء كتابه الذى أهداه لوالديه، وهو يعبر فى كلمات الإهداء عن امتنان عميق لهذه السيدة ● تحفل المذكرات بأحاديث لا تنتهى عن عادات أهل الريف الاجتماعية، وعن طرق علاجهم، وعن طرق أفراحهم واحتفالاتهم بختان الذكور والإناث، وعن طبائعهم فى الأكل، والشرب، والسكن، والبناء، وعن اقتصاد القرية، ونظام السخرة والفردة.. إلخ ● يجيد تصوير كثير من المظاهر الاجتماعية فى قريته ● سجل أحوال قريته فى رسالته للدكتوراه بجامعة لندن عام ١٩٥٢، والتى كان عنوانها: «التنشئة الاجتماعية فى قرية مصرية». بل إن ابنته من بعده، وبتأثيره بالطبع، قد كررت ما فعله بدراسة ما درسه مرة أخرى بعد انقضاء السنوات ● نفتقد فى كثير من أحاديث حامد عمار ما كان هذا الرجل مهيئاً له من مهارات القبض على عناصر المفارقة، وهو مع هذا لا يحرمنا من إظهار قدرته هذه فى مواضع قليلة ● يتوقف بعيداً عن وجدانه، مركزاً على ذهنه وذاكرته، منطلقاً إلى آفاق دراسته الجامعية ليعبر عما كان أولى به أن يعبر عنه بتجربته الشخصية التى كانت تستحق قدراً من الاستبطان والاستبصار بخل بهما الدكتور حامد عمار، لكنه فى الوقت نفسه لم يحرمنا من الاستذكار والاستظهار ● يتحدث عن العوامل المكونة للثقافة الريفية والمعرفة القروية، ودور المشاهدة فى هذه الثقافة، ودور المعارف الدينية والأساطير المتوارثة والأنساب القبلية ● يتناول بالنقد والدراسة طبيعة دور الكتاب والعريف والمدرسة الإلزامية ● يلفت النظر إلى مدى العقم فى هذا التعليم، ويسميه بالطريق المسدود، بل إنه يستغل معارفه التربوية ليحدثنا عن حقيقة وجوهر تأصل مبدأ الطاعة فيه ● يصور على لسان أحد أعلامنا المبرزين وهو الدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن مدى ما أحسه هذا الرجل من إفراط حامد عمار فى اعتزازه بقريته ● فى هذا الكتاب مجموعة من أخطاء التشابه التى نقع فيها جميعاً مؤلفين، ومعلمين، ومتحدثين حين نذكر شيئاً ونحن نقصد شيئاً به ● بقى أن نشير إلى حرصه على الإشارة

إلى فضل الدكتور رءوف عباس فى دفعه إلى كتابة هذه المذكرات، وإلى أنه اقتبس منه عنواناً جميلاً لها فى مقابل عنوانه «خطى مشيناها».

الباب الثالث : رحلة عمر مذكرات الدكتور رشدى سعيد

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● كان الدكتور رشدى سعيد رئيسا لمؤسسة التعدين [والمساحة الجيولوجية] منذ ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٧، ومن ثم فإنه كان فى ذهن مَنْ أشاروا عليه بالعنوان الفرعى لمذكرات مسئولاً عن الثروة المعدنية المصرية ● مع كل الاحترام له ولمسئوليته عن هذه الثروة المعدنية، فإن المفاجأة فى أمر هذه الثروات أنها، حسبما ينبئنا صاحب المذكرات نفسه، لم تكن لا فى عهد عبد الناصر ولا فى عهد السادات ولا قبل هذين العهدين ولا بعدهما بمثابة ثروات مصر، ولا بمثابة جزء كبير أو صغير من هذه الثروات التى بددت أو أسيء استخدامها، ودليلى على هذا هو ما كرره صاحب المذكرات فى كثير من مواضعها ● أهم ما فى هذه المذكرات ليس هو هذا الرأى القاطع فى تقييم صاحبها لثروة مصر المعدنية، وإنما هو اعتراف الدكتور رشدى سعيد بمسئوليته الأولى عن مشروع فوسفات أبى طرطور ● يهاجم مَنْ خلفه فى المسئولية عنه ● رشدى سعيد بكل علمه لا يقدم لنا أرقاما وإنما هو يقدم عبارات أقرب إلى الإنشاء والطنطنة فحسب ● كأنه كان يبيع لنا الحلم فى فوسفات أبى طرطور على حساب انتقاد عدم التوسع فى مرفقى السكة الحديد وميناء الإسكندرية ● يمضى فى حديثه ليتحدث عن «الإنتاج» الذى لم نر شيئا منه ● يشير إلى أحلامه أولاً ثم يعترف بصعوبة تحقيقها بعدما أفاض فى الحديث عن جمال الأحلام، فإذا جاء إلى الواقع الجميل الذى كان قد سبقه اكتفى بذكر أنه واقع دون أن يشير إلى فضل الذين أنشأوا هذا الواقع ● السبب الذى يلقى رشدى سعيد بالعبء عليه هو جهل وزراء الصناعة!!! وعدم رجوعهم إليه ● يبلور مشاعره تجاه هذا المشروع، وهو يقدمها فى صورة اعترافات رجل مثالى يعترف بالخطأ، ويشعر بالندم، ويحاول أن يثبت براءته على الرغم من أن النصوص التى أوردها تتعارض ظاهرياً مع هذه البراءة ● لا يزال حين كتب هذه المذكرات مصرا على رأيه فى أن مستقبل مصر يكمن

فى الصناعات التحويلية فى المقام الأول، وهو ما يعنى، على حد فهمنا المتواضع، البعد عن سياسات استخراج الثروة المعدنية ومن العجيب أن يكون هذا هو رأى الرجل الذى اختير (ولا نقول: اختار) لمذكراته عنوانا فرعيا عن «ثروات مصر فى عهدى عبد الناصر والسادات»(!!) ● تقييم الدكتور رشدى سعيد للتعاون الدولى بين مصر والدول المتقدمة فى مجال عمله ● نراه - وهو اليسارى العتيد - متحفظا على الخبرة السوفيتية وفى الوقت ذاته مبهورا بالخبرة الأمريكية ● يُجمل رأيه فى الخبرة السوفيتية حين يصل فى نهاية حديثه عن جهوده فى مؤسسة التعدين إلى القول بأن الخبرة الروسية لم تكن ذات فائدة كبيرة فى تقديم فهم أفضل لأرض مصر ● يرسم صورة مشرقة للآليات الأمريكية فى بدء التعاون العلمى واستمراره، نراه مبهوراً بهذه الآليات إلى أقصى حد، يبدى إعجابه بالاستجابة الفورية من الجانب الأمريكى، وهو ما تم بسرعة فائقة بعد مفاتحته لوزير الخارجية الأمريكية الشهير هنرى كيسنجر فى لقاء سياسى شبه عابر فإذا به حين يصل الفندق يجد أن رئيس هيئة المساحة الجيولوجية الأمريكية يطلب لقاءه من فوره، يحدثنا عن لقائه بالأمريكيين وموافقتهم الفورية على تنفيذ اقتراحاته وهو ما تم على النحو الذى يرويه ● خطوات التعاون العلمى فى مجال الفيزياء الأرضية (الجيوفيزيقا)، وهو العلم الذى يذكر لنا بكل صراحة أن العلماء الروس لم يكن لهم فيه باع طويل(!!) ● يحدثنا عن الحماس الأمريكى للتعاون العلمى مع مصر من دون أن يشير ولو بحرف واحد إلى أن إنجازات وقيادة السادات فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وما بعدها كانت بمثابة السبب الرئيسى فى هذا كله ● ينتقد - بصوت عال - أسلوب البرامج العلمية المشتركة، يرى أنه إذا غاب ولم يوجد فإن التعاون لا يصبح مفيدا لمصر ولا لصالحها ● يتمادى فى تسفيه البرامج العلمية المشتركة بين مصر والخارج ● ينتقد ظاهرة الاحتفاء الشديد بالعلماء المصريين العائدين من أمريكا واستقبال هؤلاء بضجة كبيرة، وهو يخص بالانتقاد اثنين بارزين كانا من أبرز هؤلاء العلماء العائدين فى السبعينيات، يخلط بين التوظيفات السياسية المؤقتة، وبين القيمة العلمية الثابتة والدائمة ● يتحدث عن العالم المصرى الذى تولى برنامج الاستشعار عن بعد ● يعبر عنه بأنه «أحد المهندسين المصريين» وذلك دون أن يذكر،

حتى، أنه حاز درجة الدكتوراه، وكأن الهندسة ليست علما ● ينتقد زميلا جيولوجيا لاحقاً له (فى السن والتخرج)، وهو يقدم القصة التى يبرر بها انتقاد هذا العالم المصرى الأمريكى المشهور على نحو كاريكاتيرى كفيل بأن يقلل من قيمة «الراوى» الذى هو صاحب المذكرات قبل أن يقلل من قيمة ذلك العالم المصرى الذى ينتقده ● بعض التفصيلات عن الدور الذى قدر للعالم المصرى ـ الأمريكى (وهو عالم جيولوجى على نحو ما أشرنا) أن يلعبه ● حفلت مذكراته بآرائه فى كثير من السياسيين المعاصرين له، ونحن نرى فى آرائه تعبيراً صادقاً عن انطباعات مهمة ● القصة التى يرويها تنبئنا بما تتضمنه من تفصيلات عن مدى العبث الذى كانت تعيشه مصر فى مثل هذه الأجواء ● يجيد تصوير الأثر المدمر للتقارير السياسية التى كتبت عنه على نفسيته وعلى أدائه ● يفاجئنا بأنه بدأ فى العمل على نقل تبعية المؤسسة من وزارة البترول إلى وزارة الصناعة ● يصور الأمر وكأنه خرج بالتعدين عن نطاق عمل وزير إلى نطاق عمل وزير آخر ● الفصل الذى يتحدث عنه رشدى سعيد لم يحدث حقيقة، فقد ظل الدكتور يحيى الملا وزيرا لهذه القطاعات الثلاثة حتى تشكلت وزارة الرئيس السادات الأولى فى مارس ١٩٧٣، وفيها عين إبراهيم سالم محمدين وزيرا للصناعة (فقط) بينما عين المهندس أحمد عز الدين هلال وزيرا للبترول والثروة المعدنية، فكأن هذا الفصل الذى تحدث عنه رشدى سعيد، والذى تم على مستوى الوزارات لا على مستوى الوزراء، لم يدم وتم العدول عنه فى أقرب فرصة وهى الوزارة التالية مباشرة وباتصال ● ظل التعدين مرتبطاً بوزارة االصناعة منذ إبريل ١٩٧٤ حتى أكتوبر ١٩٧٧ حين عادت الأمور إلى الصيغة القديمة : الصناعة والبترول والتعدين تحت رئاسة وزير واحد، ومن المصادفة أن الوزير الواحد أصبح هو وزير البترول لا وزير الصناعة، وكان وزير البترول [منذ مارس ١٩٧٣] هو المهندس أحمد عز الدين هلال ● الواقع أنه فيما عدا الثناء على على والى الذى اعترف بالخطأ فإن مذكرات رشدى سعيد تحفل بأحاديث متكررة فى نقد وزراء الصناعة المتتالين الذين عمل تحت رئاستهم ● ينتقد أيضا أول وزراء البحث العلمى المصريين بمرارة ● من بين المسئولين القلائل الذين يحظون بثناء رشدى سعيد محافظ الوادى الجديد المهندس عبد المجيد الجفيل ● موقف رشدى سعيد من مؤسسات التعليم والبحث العلمى

● حرصه على انتقاد حـالة التعليم المصرى فى عهد الثورة فى عبـارات واضحة، معاناته ومعاناة زوجته مع معاناة ابنهما فى مرحلة الدراسة الثانوية!! ● يجاهر بانتقادات حادة للجامعات المصرية، ولدرجاتها العلميـة، ولأدائها التعليمى، ولنشاطها البحثى ● يشير بمرارة غير مبـررة إلى تفصيلات قصة ترقيتـه إلى درجة الأستاذية ● الحقيـقة أنه رقى إلى درجة الأستاذية بصورة كان فيها قدر كبير من الإكرام لشخصه ولنشاطه السياسى ● يشير إلى أنه لم ينل ما كان يصبو إليه بعد حصوله على درجة الأستاذية، ويبدو أن هذا هو ما دفعه إلى ترك مناصب الجامعة والالتفات إلى وظائف موازية من قبيل رئاسة هيئة المساحة الجيولوجية ● بعد أن أصـبح عضواً فى اللجان المسـئولة عن ترقية الأسـاتذة والأساتذة المساعدين، لم يستمر فى عضوية اللجنة الدائمـة للترقيات أكثر من عامين، وذلك بسبب ما لاحظه من عدم جدوى مثل هذا العمل ● أستاذه العظيم الدكتور مشـرفة كان قد نبهه مبكرا إلى مثل هذا الوضع الذى قد يندفع إلى القبول به (وربما السعى إليه) فى ظل رؤية قصيرة النظر ● يفخر على نحو عالى الصـوت والنبرة بالمناخ العلمى والجامعى الذى قدر له أن يعيش فيه فى كلية العلوم فى عهد تلمذته فيها (١٩٣٧ ـ ١٩٤١)، وهو يصف هذا المناخ مقارنا بينه وبين تجربته غير السعيدة فى التعليم الثانوى حيث رسب فى السنة الأولى الثانوية ● يتحدث عن مدى التقدم الذى كانت الجـامعة المصرية تتمتع به فى ذلك الوقت حديثاً آسفاً على ما فات من نهضة لم يقدر لها أن تستمر ● يثنى على كثير من علمائنا الكبار فى العصر الذهبى للجامعة المصرية ● بنفس القدر من الإنصاف يتحدث عن أستاذه الأمريكى ● العوامل التى أثرت فى تكوينه ● الإشادة بفضل شقيقته الكبرى فى تكوينه الحضارى، ومـن الجدير بالذكر أن هذه الشقـيقة كانت قـد ابتعثت إلى بريطانيا فى بـعثة تعليمـية نظمتـها وزارة سعد زغلـول فى ١٩٢٤، وذلك عقب حصولـها على البكالوريا مباشرة ● يجلو موقف عـائلته من فكرة سفـر شقيقـته وهى لاتزال فى صبـاها لتتلقى التعليم فى الخارج ● ينبهنا إلى مدى التـقدم الفكرى فى مصر (الذى يعـبر عنه مثل هذا القرار) إذا ما قورن بما كان يحدث فى أوروبا وأمريكا ● مظاهر الحضارة(!!) التى جلبتها بعثة الشـقيقة عند عودتهـا إلى مصر، فقد أحالت بيت العائلة شيئاً آخر غـير الذى كان عليه، وغيـرت من سلوكيات أسرتها تغيـيراً جذرياً ● يحرص على أن يعترف لجـمعية

الشبان المسيحية بدور كبير فى تنشئته على نحو متكامل، وهو يثنى على المربى الكبير يعقوب فام ● يشير باعتزاز إلى بذور التربية السياسية الحسنة التى تلقاها فى هذه الجمعية ● العناية التى أولتها هذه المؤسسة التربوية للرياضة البدنية، وهو ما انعكس بدوره على تكوين شخصيته بعيداً عن خطايا الشباب ● يلخص مشاعره وذكرياته عن تجربة يعقوب فام ● تقديره التام للتقدم الاجتماعى الذى كانت مصر قد حققته فى مجالات كثيرة بالمواكبة لثورة ١٩١٩ ● يفاجئنا بقصائد مديح عالية القيمة والمضمون تحدثنا عن سعد زغلول حديث المتيم الذى لا حدود لإيمانه بقدرة هذا الزعيم وفضله على الحركة الوطنية ● التوحد الذى كان المصريون من جيله يشعرون به تجاه زعامة سعد زغلول، حين كانوا يرونه أباً لهم، وحين شعروا باليتم عند وفاته ● تأكيد هوية الشعب وإيمان الشعب بهذه الهوية العبقرية ● نراه منحازا كل الانحياز إلى «الوفد» وإلى تراثه النضالى، وإلى نجاحاته السياسية والاجتماعية، وهو بعد أن مضى الزمن يؤكد على ما كان قد آمن به فى شبابه، وما تحمس له، وما ظل على اقتناعه به ● يشير بكل شجاعة إلى أن عائلته لم تكن راضية ولا سعيدة بسلوك الزعيم الوفدى مكرم عبيد حين خرج على الوفد ● يمضى فى التعبير عن تقديره العميق لمجمل تاريخ مصطفى النحاس وإنجازاته ● يشعر بالأسف الشديد لفقدانه موقعه فى الاتحاد الاشتراكى وكأنه لا يدرى أن ما جاء بقرار يذهب أيضاً بقرار ● ما يرويه عن بداية الفرصة التى أتيحت له ليصبح واحداً من رجال النظام، بدءا من أوائل الستينيات حيث شارك فى أعمال اللجنة التحضيرية والمؤتمر القومى للميثاق القومى ● يشير بقدر من السعادة إلى اختياره عضوا فى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى فى ١٩٦٤ ● يظهر امتنانه للمهندس سيد مرعى الذى نصحه بطريقة ذكية بالتريث فى عرض أفكاره وصياغتها وحذره من الاندفاع، ولجأ إلى مثل ريفى ليعبر عن المعنى المقصود بدقة!! ● يروى أن على صبرى أمين التنظيم لم يكن سعيدا به، وأن هذا الرجل عالج الأمر على طريقته بأن سعى لتعيين أستاذ آخر من أساتذة الجامعة فى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى، ويفاجئنا رشدى سعيد فى وسط هذه الرواية بما يوحى أنه كان محسوباً على محمد حسنين هيكل، وكأنه يريد أن يقول إن هيكل هو الذى دفع به إلى هذا الموقع ● المذكرات تجيد إلى حد كبير تصوير الجو السياسى العكر أو المتعكر الذى

شارك فيه منذ ١٩٦٤ منذ أن اختير عضوا فى مجلس الأمة (ثم مجلس الشعب)، وهو يصف بطريقة يسارية (وبمفردات يسارية أيضا) طبيعة الطبيعة السياسية الجديدة فى عهد الثورة وما أدت إليه هذه السياسة من ابتعاد كامل للأقباط عن النفوذ إلى المواقع البرلمانية ● نكاد نصدق ما يرويه رشدى سعيد من أنه فى قرارة نفسه لم يكن سعيداً بهذا الاختيار، وإن كان قد فرح به وأفاد من هذا الموقع، ووظفه لخدمة مسار حياته، ولاشك أن حياته قد افادت من هذا الاختيار، لكنها كان من الممكن أن تفيد أكثر لو بدأت فى ١٩٦٤ ما لجأت إليه فى ١٩٧٧ وهو العمل فى سلك الجامعة فى الولايات المتحدة الأمريكية ● يستطرد ليهاجم قيادة البرلمان الذى كان عضواً فيه، وكأنما كان يتصور هذه القيادة بمثابة سلطة أبوية بينما أن البرلمان نفسه كان لا يخرج لا بالفعل ولا بالقول عن السلطة الأبوية لعبد الناصر والناصرية ● انحاز كلية إلى الرئيس السادات فى أثناء ثورة التصحيح وفيما بعدها، ونحن نفهم دوافعه إلى مثل هذا الانحياز، وبعضها يتمثل فى علاقته الجيدة بهيكل، وفى عدائه الواضح لعلى صبرى ● مجهوداته فى الاتحاد البرلمانى الدولى ومحاولته الوصول إلى رئاسة هذا الاتحاد الدولى، لولا أن السادات من ناحية والسوفييت من ناحية أخرى لم يساعداه على الفوز بهذا المنصب ● بعض الإحباطات التى صادفها إلا أننا نرى إحباطه الأكبر يتمثل فى هزيمة ١٩٦٧، وقد كانت مشاعره فى نكسة ١٩٦٧ بالغة القسوة ● محنة هذا الرجل فى وفاة الرجل الذى كان يقوم على خدمة بيته وأسرته وقضاء حوائجه فى أمانة واقتدار ● قصة وفاة هذا الرجل وما انتابه من ألم بهذه الوفاة، وما خسره نتيجة لهذه الوفاة المفاجئة، وهو يصل فى هذا الحد إلى أن يقول إن حياته ارتبكت بعد وفاة هذا الرجل ● يصور معاناته بعد صدور قرار الرئيس بإدراج اسمه ضمن المتحفظ عليهم فى سبتمبر ١٩٨١، كان فى الولايات المتحدة الأمريكية فآثر عدم العودة إلى بلاده، وبدأ جهادا ● سيطرت على المذكرات وساوس صاحبها وهواجسه تجاه ما يسميه المد الدينى والتطرف الدينى، وشعوره بالرهبة والضيق تجاه المكانة التى حصلت عليها الاتجاهات الدينية فى نسيج جهاز الدولة، وهو يجاهر على الدوام بانتقاده لهذا الوضع، بل ضيقه منه ● يقدم مبررات يفسر بها ظهور التيار الدينى فى مصر، وهو يصل إلى حدود المبالغة فى الإشارة إلى علاقة قادة الثورة بالإخوان المسلمين ● نرى فى حديثه

عن عضويته فى البرلمان المصرى حرصاً شديداً منه على أن يكرر شكواه من تصاعد التيار الدينى ● يخلط عن عمد بين الإيمان الدينى والاعتقاد الشعبى ببعض الميتافيزقا ● يصف حال مصر فى ظل وجود (وتنامى) الجماعات الإسلامية وصفاً يخلط فيه فيما بين مظاهر التدين وجواهره وبين بعض السلوكيات الاجتماعية ● يتناول بالانتقاد الدور الذى أعطى للمؤسسة الدينية المسيحية، وإن كان لا يكرر هذا المعنى بكثرة ولا يركز عليه، لكنه بذكاء شديد كان حريصاً على أن يشير إليه ● قصة محنة عائلية صادفها حين اعتنق أحد أشقائه الإسلام ● تحفل مذكراته بكثير من طرائف الحياة العائلية، فهو يصف علاقة أمه بحماتها وصفاً دقيقاً وجميلاً ومؤثراً على الرغم من أن الموقف سلبى!! ● يتحدث عن عمه باعتزاز حقيقى لافتا النظر إلى التناقض الظاهر فى بعض مكونات شخصيته

الباب الرابع: ذكريات من حياة الدكتور عبد العظيم أنيس

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● الدكتور عبد العظيم أنيس لا يجيد الحديث عن «صدفة» تحوله من الاهتمام بالإصلاح الاجتماعى إلى الإصلاح الاشتراكى ● على الرغم من نجاحه البارز فى أداء أدوار متميزة من خلال برنامج متميز للإصلاح الاجتماعى، كان السفير العظيم محمد كامل عبد الرحيم يشرف عليه، فإنه أحس فى نفسه ميلا إلى الإيمان بما دعاه إليه صديقه السابق عليه فى الدراسة فى كلية العلوم: محمد عبد المعبود الجبيلى ● يروى أنه اقتنع بما أنهاه إليه الدكتور الجبيلى وتحول «تلقائيا» إلى الإيمان بالعمل من أجل الاشتراكية ● يصعب علينا بالطبع أن نفهم أن مثل هذا التحول قد حدث على هذا النحو ● ينتقل إلى حديث من أحاديث التأريخ الأيديولوجى للدور الذى لعبته مجموعته فى الحركة اليسارية المصرية ● عباراته حريصة على إثبات الفضل من ناحية والتحفظ فى الوقت نفسه، وحريصة على النفى كما هى حريصة على الإثبات ● يجيد إضفاء عبارات الفهم الطبقى والماركسى على الحديث عن نشأته وأسرتيه: أسرة والده، وأسرة والدته ● يجيد صياغة الرمز والتعامل معه كرمز فحسب من دون أن ينفخ فى هذا الرمز الروح الكفيلة بالصراع والتفاعل ● حديثه عن جيل أخواله الذين بدءوا صلة عائلتهم

بالعلم والوظائف المدنية ● دور عائلة والدته فى تنمية تكوينه الثقافى والعلمى والسياسى له ولأشقائه، وتحويل هذا التعليم إلى اهتمام حقى بالحركة الوطنية والحياة السياسية ● لا تحفل مذكرات عبدالعظيم أنيس بالامتنان العميق لأحد بقدر ما تحفل بهذا الامتنان لشقيقه الأكبر الدكتور إبراهيم أنيس ● تكفل هذا الأخ (بصفة رئيسية) وباقى أفراد الأسرة بنفقات تعليمه ● صاحب الذكريات لا يجد حرجاً فى أن يعترف ضمنا بأنه لم يكن من المتفوقين الذين يؤهلهم التفوق للإعفاء من المصروفات ● الفضل الثقافى الذى يدين به لشقيقه الأكبر ومكتبته ● يخصص فصلا للحديث عن ظروف وفاة شقيقه ● ذكريات عبد العظيم أنيس مع أستاذه على مصطفى مشرفة ● يشير إلى بعض فضل زملائه وأساتذته عليه في اقتضاب، يخص بالتقدير الدكتور محمد مرسى أحمد عميد أساتذة الرياضيات فى عصره ● يبدو أن الدكتور محمد مرسى أحمد ظل على رعايته الأبوية للدكتور عبد العظيم أنيس، وكأنه كان يريد للعلم أو الجامعة أن ينتفعا به على الرغم من إبحار عبد العظيم أنيس فى عالمى السياسة والصحافة ● عمل على نقله من جامعة الإسكندرية إلى جامعة القاهرة، وفى فترة تالية رشحه للعمل فى جامعة أسيوط عند نشأتها ● نلحظ فى رواية عبد العظيم أنيس مدى الجهد الذى كان سليمان حزين يبذله ويتفانى فيه من أجل اختيار أفضل العناصر للجامعة الناشئة ● فضل أستاذه الدكتور محمد مرسى أحمد فى مرحلة ثالثة من حياته حين ساعده على الحصول على وظيفة أستاذ كرسى الرياضة البحتة فى علوم عين شمس ● الدكتور نزيه ضيف استطاع أن يستصدر قرارا جمهوريا من الرئيس عبد الناصر بتعيينه مديرا عاما فى وزارة الخزانة ● يحرص الدكتور عبد العظيم أنيس على أن يشير إلى أنه استعان بالأستاذ هيكل من أجل الحصول على الضوء الأخضر من الرئيس عبد الناصر لعودته إلى الجامعة ● إحسان عبد القدوس يأتى فى مقدمة مَنْ يثنى عليهم عبد العظيم أنيس، وهو يخصص فصلا كاملا من مذكراته لنشر مقاله فى تأبين إحسان تحت عنوان «باقة ورد لإحسان عبد القدوس» ● يشير إلى كثير من الصفات النبيلة التى كان إحسان عبد القدوس يتمتع بها ● يلخص هذه المزايا فى سمتين هما سعة الأفق، والشجاعة ● يشير إلى ما عرفه من مضمون الحوار الذى دار بين الرئيس عبد الناصر

وإحسان عبد القدوس ● موقف إحسان عبد القدوس عند ترشيحه للانتخابات (١٩٥٧) وبعد خروجه من المعتقل (١٩٦٤) ● يستقصى علاقاته بأعلام عصره ممن لا يزالون يحظون بالشهرة فى زماننا، ومن هؤلاء طه حسين الذى يدين عبد العظيم أنيس له بالفضل فى تسلمه العمل فى كلية علوم الإسكندرية ● حديثه عن لقائه المباشر بطه حسين عام ١٩٥٣ ● حوار عابر دار بينه وبين طه حسين فى هذا اللقاء ● حديثه عن لقاء مبكر بفؤاد سراج الدين ● العوامل التى حسمت اختياره للدراسة فى كلية العلوم على الرغم من ميله إلى دراسة الأدب ● نراه يكرر الحديث عن نصيحة شقيقه له متجاهلاً أثر ما كان يتمتع به هو نفسه من ميل إلى الرياضيات وعلومها ● الحديث الشائك عن معاناته القاسية فى عهد الثورة مع حرصه المفهوم بالطبع على الانحياز إلى التجربة الناصرية، وهو يحرص على التنبيه على أنه ظل معتقلا فى الحالتين (أى فيما قبل الثورة وبعدها) على الرغم من انتفاء دواعى اعتقاله ● يلخص مجمل فترات اعتقاله ● يكرر الحديث عن ظروف فصله من الجامعة عقب أزمة مارس ١٩٥٤ ● الصدمة التى أحس بها نتيجة لهذا القرار، وبخاصة أن القرار صدر قبيل عودته من لندن دون أن يعرف به، بينما كان هناك عرض متاح أمامه للعمل فى بريطانيا بترشيح من أستاذه لكنه اعتذر عن قبوله بدافع الإيمان أو الظن بأن وطنه أولى بجهوده، وجد نفسه تلقائيا يبرق إلى أستاذه لقبول العرض ● وقوف الدولة والحكومة ضده حين رشح نفسه لانتخابات مجلس الأمة الأولى عن الدائرة القاهرية السادسة وهى دائرة الوايلى ● نعجب من إهماله الحديث عن كثير من ملابسات قصة ترشيحه وسير المعركة الانتخابية ● يشير إلى موقف نبيل لنجيب محفوظ يدلنا به على ما نعرفه فى شخصية أديبنا الكبير من نبل وإيمان بالديمقراطية وأهمية ممارستها على نحو مستنير ● ما بدأ يحس به من وقوف الدولة (أو بعض قواها كما يقول) ضده ● يستطرد إلى المجاهرة باتهام وزارة الداخلية(!!) بتزوير الانتخابات عن طريق تبديل الصناديق، وهو يشير إلى أنه لم يكتشف هذا الذى حدث إلا من مخبر رافقه فى إحدى رحلاته بين السجون ● يحرص على الإشارة إلى طبيعة السلبية والمظهرية فى تعامل قادة الثورة (وهو يخص هنا أنور السادات بالذكر) مع التجاوزات التى كانت سمة

للانتخابات البرلمانية الأولى التى أجرتها الثورة ● يفاجئنا بالحديث الصريح عن توتر علاقته بالرئيس عبد الناصر فى مرحلة لاحقة مرجعاً السبب فى هذا إلى مَنْ يسميهم بعض القيادات البعثية ● يشير أبلغ إشارة إلى مدى العصبية التى كانت تسيطر على الرئيس عبد الناصر إذا ما رأى أثرا للرؤى المخالفة لرؤيته فى كتابات غير شائعة من طراز كتابات عبد العظيم أنيس ● قصة اعتقاله فيما قبل الثورة حين كان لا يزال معيدا فى كلية العلوم بالإسكندرية ● يلقى بالاتهام على التصرفات الرعناء لبعض الشباب، وهو يميل إلى ترجيح مسئولية شباب مصر الفتاة عن مثل هذا التصرف ● يشير إلى شجاعة اثنين من أشهر عمداء الكليات فى تاريخ جامعة الإسكندرية بشخصيتهما المتميزتين: حسين فوزى وعبد المعطى خيال ● وزير المعارف تولى بنفسه سؤاله، واقتنع بمحدودية مسئوليته حين رأى توقيع العمداء معا على البرقية ● لا يشير بما فيه الكفاية إلى نبل العميد حسين فوزى الذى حضر معه تحقيق الوزير، وإلى التزام الوزير العشماوى بالقانون، ويؤثر عبد العظيم أنيس أن يصف هذا الموقف النبيل للوزير بأنه «أسقط فى يده» ● يشير إلى ما نعرفه فى العادة من تصرفات الأجهزة الأمنية فى مثل هذه الوقائع، وهو الاحتفاظ بالاسم لاتهام قادم فى محاولة مشابهة، وهو ما حدث معه بالفعل، بيد أن الظروف مكنته من أن ينجو من الاعتقال ● يشير إلى ما يشبه أن يكون تعاونا من وكيل النيابة معه بعد أن أفرج عن المعتقلين وذهب لتسليم نفسه ● يشير إلى اعتقاله فى يونيو ● نعجب من التناقض الذى يقع فيه حين يروى هذه الفقرة، فمع أنه يروى فى الفقرة السابقة أنه نجا من اعتقالات يوليو فإنه يشير فى هذه الفقرة إلى أنه اعتقل فى يونيو ● مسيرته بين المعتقلات ● ظل معتقلا طيلة عهد وزارتى النقراشى الثانية وإبراهيم عبد الهادى، وإن كان قد حظى بالنقل إلى السجن فى عهد وزارة حسين سرى، ثم بالإفراج حين عاد الوفد إلى الحكم ● فى إطار حرص المذكرات على استيفاء الحديث عن أدوار صاحبها السياسية: يشير إلى دوره فى طباعة وتوزيع أحد المنشورات فى إضراب البوليس عام ١٩٤٨ مصححا ما روى من أنه هو الذى كتب هذا المنشور، وناسبا الفضل لصاحبه وهو الشاعر كمال عبد الحليم ● يشير إلى نشاطه السياسى فى فترة بعثته إلى لندن باقتضاب ● المذكرات تحفل بكثير من

الآراء السياسية، وهو يجيد مزج هذه الآراء بما شهده من أحداث، وكأنه يقدم التاريخ برؤيته اليسارية من خلال حياته وتجاربه هو ● وعلى سبيل المثال يقدم تفسيرا ذكيا لطبيعة علاقة عبد الناصر بالنظام الأمريكي عقب حرب ١٩٥٦، ومع أن نظام عبد الناصر نفسه لم يتبن هذا التفسير الذكي الذي يقدم محاولة لتفسير التحول الذي حدث من موقف مصر من الولايات المتحدة الأمريكية عقب حرب ١٩٥٦ ● نفهم أن تغير موقف الولايات المتحدة من النظام المصري لم يكن راجعا إلى تأثير صهيوني بقدر ما كان رد فعل لسياسة مصرية آثرت المضي في طريق الاستفزاز المتعمد، ولم تجد حرجا في توظيف قوى اليسار من أجل لعب دور في هذا الاستفزاز ● عبد العظيم أنيس يقدم هذا التفسير في إطار حديثه عن عمله في جريدة «المساء» منذ أكتوبر ١٩٥٦ ● رأيه في الوحدة ● في المذكرات حديث إنساني جميل عن التفاصيل الدقيقة لمشاعره حين عاد من السجن إلى البيت عام ١٩٦٤ بعد غيبة سنوات ● ربما جاز لنا أن نتوقف هنا لنتأمل استطراد عبد العظيم أنيس حين يتحدث عن الناس بأنهم: الفلاحون والعمال... إلخ، وهي الصيغة التي كانت شائعة في أدبيات الاتحاد الاشتراكي ● يشبه عبد العظيم أنيس غربة السجن بغربة البعثة، لا من حيث الانتصار أو المرارة ولكن من حيث الإحساس بالعودة إلى الوطن بعد فترة ● ذكريات عبد العظيم أنيس في ليلة عودته بالقطار وقد أوشكت حريته أن تعود إليه ● أولى لحظات عبد العظيم أنيس مع الحرية التي غاب عنها وغابت عنه ● يجيد في حديثه عن حوار مع نفسه ومع سائق الأتوبيس ومع سائق التاكسي، كما يجيد في تصويره قفزه للسلم ولقاءه بشقيقته وابنة عمه ● يجيد في وصف عجزه عن الكلام أو عن التصرف حين لا يكون بوسعه أن يجيد مثل هذا التصرف أو ذلك ● يتحدث عن بعض علاقات الشيوعيين بالثورة والسلطة ● ينقل أحد فصول كتابه رسائل الحب والحزن والثورة ● يحرص على أن يضمن مذكراته بعض الأحاديث عن الفظائع التي حفلت بها حياة اليسار والمعارضة في السجون المصرية، وهي الفظائع التي لا نحب أن نكثر الحديث عنها.

الباب الأول

مع عبد الناصر والسادات

مذكرات الدكتور محمد مراد غالب

(١)

يصدق على الدكتور محمد مراد غالب القول أنه أشهر مَنْ يعرف، ومع هذا فإن التعريف به قد يضيف إلى صورته الجميلة فى أذهاننا.

وفى رأيى أن مراد غالب يستحق، عن جدارة، لقب المواطن المصرى الأول فى موسكو.التى عاش فيها أربعة عشر عاما فى موقع متقدم لم يصل إليه غيره، ولم يستمر فيه غيره، وقد لعب دوراً بارزاً فى تلك العلاقات القوية التى تربط مصر بالاتحاد السوفيتى، وكان بالطبع على اتصال بكل المسئولين الكبار الذين كانوا يتناوبون على زيارة الاتحاد السوفيتى، واللقاء بقادة الكرملن. .وفى هذه الأثناء مثّل الدكتور مراد غالب بلاده فى توقيع اتفاقات الفضاء (٦٧, ١٩٦٨) وظل على صلة وثيقة بالوطن وتنظيماته السياسية الداخلية(!!) على غير ما هو معتاد من رجال السلك الدبلوماسى، وقد شارك فى تنظيمات الاتحاد الاشتراكى (١٩٦٨ ثم فى ١٩٧١).

كان الدكتور محمد مراد غالب، فى الأصل جراحاً للأذن والأنف والحنجرة،ومع هذا فمن الصعب على رجل الشارع الذى عاش فترات

لمعانه أن يتصور أنه كان شيئا آخر غير السفير والدبلوماسى ووزير الخارجية الشهير.

ولد الدكتور محمد مراد غالب بالزقازيق عام واحد وعشرين (١٩٢١) وتخرج سنة ١٩٤٥ فى كلية الطب، وسرعان ما انخرط فى سلك الجراحين، وحصل على دبلوم فى الجراحة، ثم على الماجستير، وكان تخصصه هو الأذن والأنف والحنجرة وقد عمل فى سلك هيئة التدريس بطب الإسكندرية، وعمل فى هيئة التدريس بضع سنوات.

وفى أثناء دراسته وشبابه كان الدكتور مراد غالب قريباً من تنظيمات الضباط فى القوات المسلحة، وكان قريباً أيضاً من الفريق عزيز المصرى ومجموعة الشبان الملتفين حوله.

(٢)

وفى أعقاب قيام الثورة كان اسم مراد غالب مرشحاً للظهور بقوة على الساحة السياسية، لكنه ظهر بطريقة غير تقليدية حين انتدب عام ١٩٥٣ للعمل فى وزارة الخارجية، ثم لينضم إلَى البعثة الدبلوماسية المصرية فى موسكو، وكان الفريق عزيز المصرى قد اختير سفيراً على رأس هذه البعثة، ونحن نعرف من مذكرات مراد غالب نفسه أن عزيز المصرى هو الذى رشحه لهذه الوظيفة، وقد عين الدكتور مراد غالب فى منصب سكرتير للسفارة المصرية فى موسكو..

ثم عاد مراد غالب إلى مصر ليشغل بعض الوقت منصب مدير مكتب رئيس الجمهورية للشئون السياسية.

وفى ديسمبر ١٩٥٩ عين مراد غالب نائباً لوكيل وزارة الخارجية وفى الشهر ذاته رقى إلى درجة سفير وعين أميناً عاماً للشئون السياسية فى وزارة الخارجية فوكيلاً للوزارة، ومما يذكر للدكتور مراد غالب أنه أنشأ معهد التدريب الدبلوماسى (المعهد الدبلوماسى بوزارة الخارجية) عام ستين حين كان وكيلاً لوزارة الخارجية !

وفى أغسطس ١٩٦٠ عين سفيرا لمصر فى الكونغو.. وأسهم بالطبع فى الأداء المصرى فى مشكلة الكونغو التى تدخل فيها عبدالناصر بالثقل المصرى المتزايد يومها!

(٣)

وفى مارس ١٩٦١ بدأت علاقة الدكتور مراد غالب بالنجومية العالية بعدما رسخ وجوده بين النجوم الكبار، وقد بدأت هذه العلاقة عندما أُختير سفيراً لمصر فى الاتحاد السوفيتى، وهو المنصب الذى اشتهر به ، وأصبح مرتبطاً فى أذهان الكثيرين باسمه، ولا نقول أصبح اسمه مرتبطاً به، وقد ظل فى هذا المنصب أكثر من عشر سنوات شهدت أغلب سنوات، ولا نقول شهور، العسل فى العلاقة بين مصر والاتحاد السوفيتى، وفى يوليو ١٩٦٩ أضيفت إلى الدكتور مراد غالب أعباء سفارتنا فى منغوليا.

وفى كل هذه الأثناء كان مراد غالب من أصغر السفراء العرب سناً.

ومن الطريف أن الدكتور محمد مراد غالب يتحدث عن ضيقه بالوظيفة «الصغيرة» التى رأى الدبلوماسيون أن «يسكنوه» عليها حين

نقل إلى السلك الدبلوماسى، وأن الرئيس عبد الناصر هو الذى نصحه بالقبول:

«... كنت فى ذلك الوقت قد انتدبت من الجامعة إلى وزارة الخارجية، ولم يحبذ الزملاء فى الخارجية هذا الوجود، ولهم الحق فى هذا، لأننى دكتور وطبيب، وقادم من الجامعة، وأُدرجت على درجة سكرتير ثان، كان عمرى وقتها ٣١ سنة، ولم أكن راضياً عن تقييم مركزى فى السفارة كسكرتير ثان حيث كنت مدرساً فى الجامعة، ولكن جمال عبد الناصر لم يوافقنى على ذلك وقال: حتى لو عينوك ملحقاً عليك أن تقبل».

ربما جاز لنا أن نذكر ما لم يذكره الدكتور مراد غالب من أنه كان على وشك الترقية إلى درجة أستاذ مساعد، وأن إجراءات ترشيحه لها كانت قد سارت بالفعل، وهو ما يعنى أنه كان يشغل ما يوازى درجة «مستشار» على أقل تقدير.

ويتكرر هذا الموقف من الدبلوماسيين تجاه مراد غالب عندما عين وكيلاً للخارجية:

«باشرت عملى فى مصر مديراً لمكتب الرئيس للشئون السياسية منذ أوائل ١٩٥٨، إلى أن عُين السيد حسين ذو الفقار صبرى نائباً لوزير الخارجية فى نوفمبر ١٩٥٩، وكان معه نائب آخر هو د. فريد زين الدين من سوريا، وطلب حسين ذو الفقار من الرئيس عبد الناصر أن أكون معه فى وزارة الخارجية وكيلاً للخارجية، ونظراً لأنى كنت صغير

السن، أقل من ٣٧ سنة، فقد قيل إنه يمكن أن أعين وكيلاً للخارجية بالنيابة».

(٤)

وفى عهد الرئيس السادات مر الدكتور مراد غالب بنقلات سريعة ومتعاقبة، فقد بدأ هذا العهد وهو لايزال فى موسكو، لكنه قبل أن يمر عام اختير عضواً فى مجلس الوزراء عند تشكيل وزارة الدكتور محمود فوزى الرابعة فى سبتمبر ١٩٧١ كوزير للدولة للشئون الخارجية فى وزارة الدكتور محمود فوزى الرابعة والأخيرة ، وقد كانت هذه الوزارة تضم أيضاً محمود رياض نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجية .

ولما شكلت الوزارة التالية برئاسة الدكتور عزيز صدقى (يناير ١٩٧٢) اختير الدكتور مراد غالب وزيراً للخارجية. وخرج محمود رياض من هذا التشكيل، وهكذا أصبح وحده مسئولاً عن الخارجية طيلة ٩ شهور، واختفى من الصفوف البروتوكولية التى أمامه وزيران سابقان للخارجية كانا موجودين فى الوزارة السابقة، كان أولهما محمود فوزى رئيساً للوزراء، وكان الثانى محمود رياض نائبا لرئيس الوزراء!!

وفى تطور مفاجئ للعامة، وإن لم يكن مفاجئاً للخاصة، أجرى تعديل وزارى محدود فى سبتمبر ١٩٧٢ عين بمقتضاه الدكتور محمد حسن الزيات وكان وزير دولة للإعلام وزيراً للخارجية، بينما نقل الدكتور محمد مراد غالب إلى وزارة الخارجية كسفير!! وقد جاء هذا

القرار عقب تنفيذ طرد الخبراء السوفيت؟.

ولما شكل الرئيس السادات وزارة الحرب (مارس ١٩٧٣) عاد الدكتور مراد غالب لدخول الوزارة وزيراً للإعلام، فى هذه الفترة أسهم الدكتور مراد غالب فى تسوية الأزمة بين العراق والكويت (مارس ١٩٧٣)!!!! حين ابتعثه الرئيس أنور السادات كمندوب شخصى له !!، بيد أنه قبل حرب أكتوبر بثلاثة أيام صدر قرار بتولى مراد غالب مسئولية الوزير المصرى المقيم فى ليبيا على أن يحضر اجتماعات مجلس الوزراء فى القاهرة، ومن الطريف أنه سافر إلى ليبيا يوم السادس من أكتوبر نفسه، وأنه شهد الأزمات التى أحاطت باندلاع هذه الحرب، وأنه سرعان ما عاد من ليبيا.

(٥)

و بعد حرب أكتوبر بعد مراد غالب عن واقع السلطة نهائياً، فقد أصبح إسماعيل فهمى وزير السياحة وزيراً للخارجية، وعين الدكتور الزيات وزير الخارجية مستشاراً للرئيس السادات، ولم يدر أحد هل أقام الدكتور محمد مراد غالب فى مكتب فى الخارجية أو فى منزله فحسب.

وبعد فترة قصيرة عين الدكتور مراد غالب سفيراً لمصر فى يوغوسلافيا، وظل يحتفظ بهذا المنصب حتى أعلن السادات عن مبادرته فقدم استقالته من منصبه، وأعلن هذه الاستقالة فى وسائل الإعلام، وهاجم الرئيس السادات بقسوة فى ذلك الوقت!! وإن كان

هو نفسه قد عاد واعترف للسادات بالذكاء والصواب فى قرار المبادرة على نحو ما نقرأ فى هذه المذكرات.

وفى عهد الرئيس مبارك أُختير الدكتور مراد غالب رئيسا لمنظمة التضامن الأفروآسيوى (١٩٨٨).

(٦)

صدرت هذه المذكرات عن مركز الأهرام للترجمة والنشر بعدما نشرت بعض حلقات منها فى جريدة «الأهرام»، وقد تولى الأستاذ عاطف الغمرى صياغة هذه المذكرات وتقديمها بما عرف عنه من أسلوب متميز، وأفق واسع، وقدرات فائقة فى التحرير والتعليق والربط، ولابد أن نشيد فى بداية مدارستنا لهذه المذكرات بقدرة الأستاذ عاطف الغمرى على صياغتها وتقديمها على هذا النحو الجميل الممتع الذى لم يلق، بعد، ما يستحقه من ثناء وتقدير.

ويمكن القول بلا مبالغة وبلا تجن أيضا، إن هذه المذكرات هى كتاب رأى يدعمه صاحبه بشواهد مما تحتفظ به ذاكرته. فالدكتور محمد مراد غالب لا يروى الذكريات ولا يسرد المذكرات، وإنما يستشهد بها على رأى واضح، كوّنه واقتنع به، أو صاغه وأراد إقناع الناس به، ويبدو بوضوح لكل من يعرف الجراحين وأسلوبهم فى العمل أن الدكتور محمد مراد غالب لا يزال بعد كل خبرته وممارساته فى الحياة العامة السياسية والدبلوماسية جراحا ارتدى ثياب الدبلوماسى لفترة من الزمن، وارتدى ثياب السياسى لفترة أخرى من الزمن، ولكنه لم ينصرف حتى هذه اللحظة إلى أساليب السياسيين ولا إلى أساليب

الدبلوماسيين، وكل ما فى الأمر أنه كجراح كان يمهد لبعض الجراحات ببعض العلاجات حتى يصبح الوضع أنسب لإجراء الجراحة، كما أنه كان يؤجل إجراء بعض الجراحات إلى وقت تال يمكنه فيه أن يحصل على بعض النتائج، ومن ناحية ثالثة فإنه كان يرى «المصارحة» فى بعض الأحيان بمثابة واجب لابد من أدائه، وكان يراها فى أحيان أخرى بمثابة حماقة أو نزق لا يليق به وبعلمه وبخبرته أن ينحدر إلى ممارستهما.

(٧)

ونحن نرى سمات حديث الجراحين واضحة فى تشخيص الدكتور محمد مراد غالب لكثير من الأحوال (أو الحالات) التى يقابلها، فهو لا يعتمد على مقدمات كثيرة للوصول إلى التشخيص الذى يكون به رأيه، ولكنه كعادة الجراحين يصل إلى تشخصيه من خلال ملمح بارز قد يكون تاريخا، وقد يكون شكوى، وقد يكون علاقة، وقد يكون عرضا،وقد يكون علامة، وقد يكون مضاعفة من المضاعفات، ولكن هذا أو ذاك كفيل بأن يؤكد للدكتور محمد مراد غالب التشخيص المبدئى الذى أخذ يفكر فيه، وكفيل له بأن يتطور بفكره مع الحالة التى يواجهها.

وربما جاز لنا هنا أن نستعير من كتاب «أمن مصر القومى» لمحمد حافظ إسماعيل الوصف الذى وصف به مراد غالب بصفات ممتازة حين تحدث عن توليه وزارة الخارجية:

«.... كان يتمتع بخصائص نادرة فهو بعيد النظر يقترب من المشكلات بنمط، ويرى الأمور كلها بحجمها الحقيقى، ويربط ما بينها بذكاء، ويستخلص النتائج الصحيحة ويرتب عليها الفعل المناسب، وتقترن بكل هذا ديناميكية غير معهودة وحركة دائبة للتصدى للمشكلات وتسويتها».

(٨)

ونحن لا نرى كتاب الدكتور محمد مراد غالب يقدس المبادئ ولا النظريات، إنما هو يستخدمها كوسائل للفهم لا أكثر ولا أقل، ولهذا فإنه يعجب من قصورها عندما يرى هذا القصور، بل إنه يعجب من مظاهرها حين تتعارض هذه المظاهر مع الطبيعة على وجه العموم، أو مع الطبيعة البشرية على وجه الخصوص، وسنرى أن هذا الأسلوب كان هو الحاكم لنظرته حتى إلى الاشتراكية نفسها.

وهو يتحدث حديثاً فلسفياً جميلاً عن وجهة نظره إلى الدوائر المتقاطعة بين الموضوعية والأمانة وكتابة المذكرات والكتابة للتاريخ فيقول فى مقدمة مذكراته:

«أما عن الأمانة فى الكتابة فهى مرتبطة بالموضوعية، ولكن لها كيانها الخاص أيضاً. فالأمانة تقتضى أن تقول أو تكتب ما أنت متأكد منه، أو ما عايشته فعلاً، أو أن تترجم عن الأحداث بشعورك وإحساسك الداخلى الذى تثق به وتثق بصدقيته الدفينة داخل نفسك».

« كذلك فإن من الأمانة والموضوعية أيضا أن تكتب عن الشىء

ونقيضه، وعن حسناته ومساوئه، وعن أخطائه ونجاحاته».

«والكتابة يجب ألا تكون لتصفية حسابات قديمة، أو التزلف لحسابات مقبلة، وأن يكون فيها القدر المستطاع من التجرد».

«أما الكتابة من أجل التاريخ فهى الأخرى قضية شائكة. فالحدث الواحد لا يكتب اثنان عنه كتابات متطابقة، فما بالك بالكثيرين ممن شاهدوا هذا الحدث. إن رد فعل أى إنسان للحدث لا يتطابق تمام الانطباق مع رد فعل إنسان آخر، فإذا قامت حرب مثلاً فستجد إنساناً يقتحمها بكل شجاعة وإقدام، وستجد آخرين يتعاملون معها كواجب مقدس، وستجد البعض فى موقف دفاعى، بمعنى أنهم يحاربون دفاعاً عن أنفسهم، وأن الظروف تجبرهم على أن يحاربوا، وهناك مَنْ يهرب أو يختبئ أو يتمارض».

«أما الكتابة من أجل التاريخ فتواجه مشكلة أخرى، فليس هناك تاريخ واحد، ولكن هناك «تواريخ» بقدر ما هناك من رواة، ولكن ليس معنى هذا أنه لا توجد كتابة للتاريخ يُجمع أغلبية الناس على أنها أمينة وموضوعية».

(٩)

وبعد هذا الحديث عن هذه الدوائر الثقافية وبعد هذا التعريف الذاتى لكثير من المعانى المرتبطة بكتابة المذكرات ، وبعد هذا التعبير الذى هو دقيق أيضاً، يصف مراد غالب ما سجله من مذكرات بقوله:

«. . . وأحمد الله أننى لا أدعى التأريخ للمرحلة التى كتبت عنها،

ولكن ما كتبته هو مجرد سرد لأحداث عايشتها وسمعتها من مصادر محل ثقة، ولكنى لا أعتبر ما كتبته كتاب تاريخ».

«كذلك أود أن أؤكد أن ما أقصده بالموضوعية هو موضوعيتى أنا الذاتية، وكل ما أرجوه أن أُصنف ضمن مَنْ حاولوا أن يكتبوا بصدق: الصدق الذى ينبع من أعماق نفوسهم».

«وأخيراً أرجو ألا أكون قد لجأت لتصفية حسابات لمجرد تصفية الحسابات، وأعتذر مقدماً لكل مَنْ تألم من كلمة كتبتها عنه، أو لم أعطه حقه الذى يعتقد هو أننى بخست هذا الحق، ولاشك أن الكثيرين يستحقون أحسن وأوفى مما كتبت، ولكنى أعتذر لضيق الصفحات، وكثرة الأحداث».

«كذلك أود أن أؤكد أننى لم أكتب عن تفاصيل الأحداث، أو كل ما حدث فى هذه المرحلة الزمنية الممتدة المتسعة، فهذا يحتاج لصفحات أكثر عدداً وحجماً، وخشيت أن يمل القارئ من كثرة التفاصيل».

(١٠)

وتتميز مذكرات الدكتور محمد مراد غالب بتفكير عقلى متميز، وبتأمل إنسانى رفيع، ولا ينقصها كى تبلغ أقصى جمال وجلال الحكمة الإنسانية إلا شيء واحد هو أن تدرك مدى مهارة الرئيس السادات واضعة فى ذهن صاحبها وحسبانه قيمة ما أنجزه هذا الرجل من نتائج باهرة، وأن تجعل تقييمها لهذا الرجل مبنيا على هذه النتائج لا على المعرفة السابقة به قبل أن تتاح له الفرصة الذهبية لإنجاز ما أنجزه، ذلك

أن نظرة الدكتور مراد غالب إلى السادات ظلت متأثرة بالجو الذى عرف فيه السادات منذ بداية الثورة، ولأن مراد غالب كان على الدوام فى وضع متميز فإنه لم يتخلص بعد من تقييمه السابق لدور السادات كدور محدود أو بأنه ليس الرجل الأول أو القائد الملهم أو الزعيم المهيب.

وقد كان فى وسع هذه المذكرات أن ترتقى بمستواها وبمحتواها إلى آفاق لا نهائية لو أن صاحبها كان قد راجع نفسه فى موقفه من الرئيس السادات فى بدايات المذكرات على نحو ما راجعه هو نفسه فى نهايتها، ولكن يبدو أن الدكتور محمد مراد غالب لا يزال حتى الآن غير قادر على أن ينحاز كلية إلى موقف الرئيس السادات وفكره على الرغم من اقتناعه وتقديره لهذا الموقف ولهذا الفكر، والسبب بسيط ومحير فى الوقت نفسه، فالدكتور محمد مراد غالب يشغل منذ فترة ليست بالقليلة منصب رئيس منظمة التضامن بين الشعوب الآسيوية والإفريقية، وبحكم هذا المنصب أو هذا المبنى المعنوى الذى هو من بقايا العهد الناصرى يسافر الدكتور محمد مراد غالب إلى بلاد عربية كثيرة، ويلتقى بقياداتها التى لا تزال حتى الآن تتحفظ على سياسات الرئيس السادات، وتنسحب بهذا التحفظ إلى شخصه وشخصيته.

(١١)

هكذا وجد الدكتور محمد مراد غالب نفسه مطالبا بأن يجامل هذه النظم فيما يكتب عن سياسة السادات، بل وبأن يسلك الطريق العقيم الذى تسلكه الكتابات المشابهة التى لا تجد وسيلة للهجوم على

السادات إلا بمقارنته بالرئيس عبد الناصر على نحو ظالم للرجلين، وهى مقارنات سطحية ساذجة وضع ملامحها صحفيان ممن كانوا مقربين من الرئيس السادات ثم أبعدهما عن مواقع متقدمة كانا يشغلانها، ولا تخرج هذه المقارنات عن القول مثلا بأن السادات لم يكن يقرأ على الإطلاق على حين كان الرئيس عبد الناصر دائم القراءة لكل صغيرة وكبيرة، وهى فكرة ساذجة ومضللة فضلا عن أنها تناقض الحقيقة، وقد فندت هذه الفكرة فى كتابى «فى خدمة السلطة» فى مدارستى لمذكرات أحمد بهاء الدين وقلت: إن السادات كان ذواقة يختار ما يقرؤه، ولم يكن أكولا نهما إلى تناول كل شىء.

(١٢)

ومما يدعو إلى الدهشة أن يتظاهر الدكتور محمد مراد غالب بعد هذا العمر الطويل بأنه يتبنى هذه الفكرة، ويروى أنه تحادث فيها مع الرئيس حافظ الأسد، وأنه انتهى إلى القول بأنه إذا كان صوابا أن عبدالناصر مات بسبب كثرة القراءة أو كثرة الأوراق التى كان يقرؤها (على حد التشخيص المنسوب إلى السادات نفسه) فإن السادات مات بسبب عدم القراءة.

ولا أظن أن الدكتور محمد مراد غالب يجهل أن عبد الناصر مات لأسباب أخرى غير هذا السبب الفلكلورى الذى كان السادات (أو غيره من بعده) يصور به الأمور فى ساعة من ساعات التأمل، بل إن من الطريف أن الدكتور محمد مراد غالب يصارحنا فى هذه المذكرات بأنه دون غيره كان يعرف حقيقة مرض الرئيس عبد الناصر قبل وفاته بسنة،

وأنه لم يكاشف بها أحدا أبدا، وأنه لهذا السبب لم يفاجأ بوفاة الرئيس عبد الناصر، وسنقرأ هذا النص فى مذكرات هذا الطبيب الجراح، وسنعجب مع هذا من أنه لا يمانع فى أن يردد أقوال السذج والخبثاء عندما يحتاج الأمر إلى مثل هذا الترديد، وبخاصة إذا كان محدثه هو الرئيس حافظ الأسد الذى لم يكن يرتاح لا إلى الرئيس عبد الناصر ولا الرئيس السادات، ولكن ألمه من السادات قبل وفاته وبعد وفاته جعله لا يمانع فى أن يرتدى للسادات (وهو فى رحاب الله) قميص عبد الناصر، وأن يرحب بصفة مستمرة بكل من يرتدى هذا القميص، بينما كان الرئيس الأسد نفسه فى حقيقة الأمر على رأس أكثر الجبهات عداء لعبد الناصر وتوجهاته.

(١٣)

هذا مثل بسيط للحيرة التى تحاول أن تغلف مذكرات الدكتور محمد مراد غالب، بينما جوهر الحقيقة فيها واضح وضوح الشمس، فهذا الجراح العظيم يشخص مشكلات بلاده وثورة بلاده وزعماء بلاده فى منتهى الوضوح، وهو منتبه منذ مرحلة مبكرة، بل حتى فى ظل الطبول الناصرية الزاعقة، إلى ضرورة الديمقراطية، كما أنه منتبه منذ مرحلة مبكرة، أيضا إلى تدنى مستوى الأداء فى عهد الثورة، وهو منتبه أيضاً إلى القيمة الحقيقة لما أنجزه الرئيس السادات فى الحرب وفى السلام، لكنه مع كل هذا لا يمانع فى أن يغلف شخصياته العبقرية بحديث تقليدى من قبيل الأحاديث السائدة والرائدة والقائدة فيما ينشر عن الدور الناصرى الرائد فى تحرير إفريقيا، وفى تحرير الوطن

العربى، وفى تحقيق الوحدة والديمقراطية والحرية.. هكذا يقدم الدكتور محمد مراد غالب تشخيصه الذكى ملفوفا بأوراق سلوفان تحمل اسم المحلات الناصرية واليسارية والاشتراكية، وهو يفعل هذا، فيما يبدو، ليحافظ على علاقاته الحالية مع هذه الجهات المنتشرة خارج مصر والتى تجد لها حواريين ظاهريين داخل مصر، لكنه مع هذا وبفضل أمانته ومهارته التى لا يمكن لها أن تخون روح الفن الجراحى، حريص كل الحرص على أن يقدم الحقيقة فيما يتعلق بحقبة الثورة على نحو دقيق لا يتعارض مع الحقيقة التى يحاول المغرضون أن يطمسوها، فهو لا يكذب ولا يبالغ ولا ينافق ولا يختزل ولا يداور ولا يلوى ذراع الحقائق.

(١٤)

ويبدو لى أن الدكتور محمد مراد غالب، وهو منى بمثابة الأستاذ، لن يكون سعيدا بهذا الأسلوب الذى انتهجته فى مدارسة ذكرياته وفى تقديمى لهذه المدارسة فلا يزال الوقت مبكرا لكى يكشف مثل هذا الرجل عن حقيقة هذه الأمراض التى أصابت أداءنا السياسى فى الحقبة التى كان فيها قريبا من مراكز صناعة القرار، ويؤسفنى بالطبع أن يكون الدكتور محمد مراد غالب مستاء مما أفعل، ولكنى لا أستطيع أن أخفى عن أهلى وبنى قومى حقيقة التشخيص الذى يقدمه هذا الجراح، مهما كان هذا التشخيص مغلفا بما قد يبدو من أنه حديث عن صحة زائفة أو عافية وهمية، وسأصور الأمر تصويرا كفيلا بأن يقرب الصورة.

فمريض الكلى عديدة الحويصلات يعـانى من فشلها فى أداء وظيفتها وذلك على الرغم من تعـدد حويـصلاتهـا وفصـوصهـا، ويأتى بعض أنصار سلطة الستينيات فيشيرون إلى أن هذه الكلية المصابة كلية متميزة، وأنها تتـميز بتـعدد الحويصـلات، وهو ما تفـتقده الكليـات الأخرى، ويطلب هؤلاء الأنصـار بأن هذه الكلية كـفيلة بأن تقـاوم المرض إذا ما فشل أحد أجزائها، لأن الأجزاء الباقيـة كفيلة بالقيام بالوظيفة، وهكذا فإن «النظام الكـلوى» لن يسقط وسيـستمـر على رغم أنف المريض.. ويأتى من هؤلاء الأنصار مَنْ هو أكثر مهارة فـيشير إلى الجهد المطلوب من أجل تهذيب الصورة بحيـث لا يطغى جزء على الأجزاء الأخرى، ويأتى آخرون ليوهموا الشعب أنه لابد من بقـاء فص واحد واستئصال بقية الفصوص، ثم يصورون السلطة القائمة على أنها الفص الذى لابد أن يبقى لأنه رمز الصمود.

كل هذا يحدث بينمـا الجراح يعلم تمام العلم أنه لابد من استـئصال هذه الكليـة كلها حـتى لو أن فـصهـا الأكبـر اسـتطاع الطغيـان على الفصوص الصغرى وبقى بمفرده شـاهدا على الانتصار ببقاء النظام بعد ضياع الأرض.

(١٥)

يدرك الدكتـور محمد مراد غـالب كل هذا بفضل حكمتـه وخبرته وذكائه، لكنه مع هذا يتظاهر بعد ثلث قرن بأنه كان سعيدا ببقاء الفص الأول وتخلصـه من الفصـوص الصغـرى مع أنه كان سـيد العارفـين بالتـاريخ الطبيـعى الحتـمى الذى لابد منه، وهو يعـوض هذا التظاهر

الذى لابد له منه بأن يتحدث فى ذكاء وحنكة وحكمة فى فقرات ومواضع عديدة من مذكراته عن مدى غياب وعى الرئيس عبد الناصر نفسه بالديمقراطية، وهو لا يفعل فعل الأفاقين الذين يصورون الرئيس عبد الناصر على أنه ديمقراطى أو سيد الديمقراطيين لكنه يجاهر بما كان يعتقده فى هذا الحين.

ويأتى تشخيص مراد غالب الناقد الصريح لغياب وعى عبد الناصر بالديمقراطية منطقياً فى ظل حديثه عن المزايا التى تمتعت بها شخصية الرئيس عبد الناصر، وهو فى حديثه عن هذه المزايا لا يبذل جهدا فى وصفها ولا تنظيرها ولكنه يعمد إلى «نقلها» بالحرف من كلاسيكيات المديح الذى وجه لشخصية هذا الزعيم، وهو مديح عظيم لكنه لا يخرج عن وصف جيد لجوانب جيدة لكنها قاصرة، كما أنها لم تكن كفيلة بتحقيق الإنجاز من ناحية، وإن شاركت بطريقة أو أخرى فى صناعة الكارثة ومضاعفة نتائجها من ناحية أخرى.

(١٦)

ربما أحس القارئ أنى أطلت فى هذا الحديث عن ملامح مذكرات الدكتور محمد مراد غالب، التى حملت فى عنوانها إشارة إلى تعاملها مع عهدى الرئيسين الثائرين، ولكنى ما أزال بحاجة إلى أن أصف هذه الرؤية بأنها تمت من وجهة نظر تلسكوبية، أى ذات أنبوب ضيق طويل كفيل بتكبير بعض ملامح الصورة لا بالإحاطة بها كلها، وكأنى كنت أتمنى لو كانت رؤية الدكتور مراد غالب كرؤية عدسة الزووم السينمائية لا رؤية عدسة التلسكوب «الفلكية» التى فرضت على رؤية الرجل

بعضـا من خصـائص مهنته الأولى، ولكن مـذا بوسعى أن أفـعل وقد تملكتنى هذه الفكرة وسـيطرت علىّ وأقنعـتنى بنفـسهـا، ولم يكن هذا التملك راجعاً إلىّ ولا إلى غيـرى، وإنما كان راجعاً إلى المذكرات التى فرضت علىّ هذه الفكرة بكل القوة وبكل السـيطرة طيلة مطالعتى لهذه الكتابة الجميلة الرائعة التى طال انتظارى لها سنوات وسنوات.

(١٧)

نبدأ فى تناول بعض ما روته هذه المذكـرات عن الإنجازات التى قدر لهذا الرجل أن يسهم بها فى التاريخ السياسى لوطنه،و نبدأ بما يتحدث به الدكتور مـحمد مراد غالب عن أدواره الشخصية المهـمة فى تقوية ودعم وإنقاذ العـلاقات السوفـيتيـة ـ المصرية، وهو يفـعل هذا بتواضع شديد فى كثير من مواضع هذا الكتاب.

ونبـدأ بأن ننقل مـا يرويه عن دوره الذكى فى إذابة الخـلافـات التى نشأت أو ظهـرت فى أثناء زيارة الرئيس عـبد الناصر إلى مـوسكو فى مايو ١٩٥٨، وكيف أن الرئيس عـبد الناصر اقتنع بوجـهة نظره (وكان مراد غـالب نفـسه لا يزال مـديراً لمكتب الرئيس للشـئون السـياسـية) ونفذها، وأنه كان فى هذا الاقتناع والتنفيذ مصلحة كبرى لمصر:

«... جاءت زيارة الرئيس عبد الناصر للاتحـاد السوفيتى فى أواخر إبريل عام ١٩٥٨ بعد الوحـدة بين مصر وسوريا، وكنت وقتـها مديرا لمكتب الرئيس للشئون السياسية، وكانت زيارة لها أهميتها الكبيرة،ولم أكن قد حضرت الجلسة الأولى لمباحـثاته مع خروشوف، وعندما خرج

عبـد الناصر من هذه الجلسة بعد انتـهائهـا وجدته فى غـاية الاستـياء والعصبية، وأخذ يردد قوله: «إنى لابد أن أغادر الاتحاد السوفيتى فورا، وأنا لا أقبل ما قيل فى هذه الجلسة، فقد تكلم فيها خروشوف وقال إن سيـاسة ركوب الحصـان الأمريكى مرة والحصـان السوفيتى مـرة أخرى ليست فى مصلحة الشعب المصـرى ولا فى مصلحتك، بل هذه ليست سياسة».

«وانتظرت حتى انتهى الـرئيس عبد الناصر من كلامـه وتكلمت معه على انفراد وتنـاقشنا فى رد الفعل العـالمى إذا ما أنهينـا زيارتنا للاتحاد السوفـيتى فجأة بعـد المقابلة الأولى، وأن الطريقـة المثلى أن نبادر نحن بالهجوم فى الجلسة التالية، وضربت مثلا على ذلك بأن نقول إن الذين يتصورون أن سياستنا هى مجرد اللعب على الحبلين لا يدركون حقيقة سياستنا، فنحن لنا سياسة مبدئية لا نحيد عنها وهى التمسك باستقلالنا التام، وأن يـتولى سيـادته شرح هذه السـياسـة، ثم قلت: «هل تمانع سيادتك فى حضورى الجلسة التاليـة؟»، فقال لى: «ستحضر الجلسات من هنا ورايح وستجلس بجانب المترجم على رأس المائدة بجوارى».

(١٨)

ويروى الدكتور مراد غالب بعد هذا كيف نجحت السياسة التى أشار بها على الرئيس عبد الناصر:

«وفى الجلسة الثانية افتتحـها الرئيس عبد الناصر بالكلام الذى اتفقنا عليه، ثم بدأ فـى عرض تحليلى رائع عن التطورات التى حـدثت بعد

العدوان على مصر، ونظرية الفراغ التى ابتدعهـا أيزنهاور ـ دالاس، وتحدث مطولا عن مبدأ أيزنهاور ورفض مصر الانضمام إليه، وكيف أن أمريكا ذهبت إلى الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية وأرادت أن تخلق منه زعيما سياسيا بديلا عن مصر، وتحدث بالتفصيل عن معركة الأحلاف وختمها بقوله: إن لمصر سياستها الواضحة وهى عدم الانحياز ونصرة حركات تحرير الشعوب، والمحافظة على استقلالها بكافة الوسائل، وعدم التفريط فى سيطرتها على قرارها».

. . . .

. . . .

«ثم قام الرئيس (عبدالناصر) بزيارة أماكن عديدة فى الاتحاد السوفيتى وبعض جمهورياته، وأخذ يردد فى كل مناسبة أن سياسة مصر هى عدم الانحياز، مما جعل بعض المعلقين يستنتجون أن هذا الكلام موجه إلى خروشوف، ومؤكد لشخصية جمال عبد الناصر وشدة حساسيته فى المحافظة على مكانته واستقلاليته».

(١٩)

وبعد ثلاث سنوات من هذه الواقعة التى رويناها فى الفقرة السابقة يصبح الدكتور محمد مراد غالب سفيرا لبلاده فى الاتحاد السوفيتى فيتوصل من خلال لقائه بالرئيس السوفيتى خروشوف إلى ما يسميه هو «المعادلة» التى سارت عليها العلاقات المصرية ـ السوفيتية فى أزهى عصورها وهو عصر خروشوف:

«في يوم ١٢ يوليو ١٩٦١، وبعد أحد عشر يوما من وصولي إلى موسكو لتسلم مهام منصبي، قدمت أوراق اعتمادي إلى ليونيد بريجنيف، وكان رئيساً لمجلس السوفييت الأعلى ورئيس الاتحاد السوفيتي».

«وبعد شهرين من وصولي استدعاني خروشوف رئيس الوزراء لمقابلته، وكانت مقابلة رسمية وقال لي: لماذا فتحتم عليّ كل أبواب الهجوم؟ قل لي، وأنت السفير هنا، كيف يتم التعامل معكم؟ وكيف أوصل ما أريد توصيله إلى الرئيس عبد الناصر؟ وعن أي طريق؟».

«يومها قلت له: تستطيع أن تفعل ذلك عن طريقي وسوف أوصله إلى الرئيس عبد الناصر مباشرة».

«وهدأت العلاقات بيننا وبين السوفييت وارتضى خروشوف المعادلة التي طرحتها عليه، وذكرت له أنني قمت بزيارة جميع مكاتبنا المتخصصة في موسكو، مكاتب السد العالي - التصنيع - المكتب التجاري - المركز الثقافي - المشتريات العسكرية - الملحقين العسكريين، ووجدت أن جميع الاتفاقات المبرمة تنفذ بشكل جيد وفي مواعيدها، وعلينا أن نحافظ على هذه العلاقات الطيبة بين الدولتين، أما بالنسبة للخلافات الأيديولوجية فعلينا أن نعمل على ألا تطغى وتؤثر على هذه العلاقات».

«وهنا ضرب خروشوف المنضدة بيده وقال: إن هذا ما أريد تنفيذه».

(٢٠)

على أننا نلاحظ أن الدكتور محمد مراد غالب لا يتحدث في هذه

المذكرات عن الاتحاد السوفيتي وإنجازاته بوله أو تدله أو بانحياز كامل، لكنه حريص على أن يبرز في الوقت نفسه كل الانتقادات التي توجه إلى ضعف المستوى التكنولوجي للمعونة السوفيتية، سواء في ذلك المعونات العسكرية والمعونات الفنية في أثناء بناء السد العالي.

وبالقدر نفسه من الوضوح الفكري والأمانة التاريخية يحرص الدكتور محمد مراد غالب على أن يطلعنا على حقيقة مشاعر العسكريين المصريين تجاه التعاون السوفيتي والأسلحة السوفيتية، وهو يعترف بما لا يعترف به غيره [ممن هم أقل صلة بالسوفييت] من حقيقة هذه المشاعر، وهو يقول:

«... ولم تكن القوات المسلحة المصرية راضية عن الأسلحة السوفيتية التي وصلت إلى مصر، فقد كانت أسلحة عادية، ولدى مصر الكثير منها، بينما القوات المسلحة تحتاج أسلحة متطورة، فحدث استياء في القوات المسلحة، وكان الفريق [مدكور] أبو العز أكثرهم مجاهرة باستيائه، وكان رجلا معتدا بنفسه جدا، ومنضبطا تماما، ولديه كفاءة إدارية عالية، ولم يرضه هذا الحال فقدم استقالته من منصبه».

«وقد تحدث معي بعض الضباط الذين كانوا يدرسون في موسكو بخصوص الأسلحة السوفيتية، وكيف أنها ليست من نوعية الأسلحة المطلوبة في هذه المرحلة، وأنها أسلحة تقليدية حاربنا بها في ٦٧، وبدءوا يطرحون تساؤلات حول ما الضرورة إذاً من وجود الخبراء السوفييت في الجيش المصري؟».

«وتكلمت مع المسئولين السوفييت، ونقلت لهم هذا المعنى، وقلت لهم: إنهم إذا لم يطوروا تسليح القوات المسلحة المصرية فسوف تزداد حالة عدم الرضا بين الضباط، وكذلك التساؤل حول جدوى هذا العدد الكبير من الخبراء السوفييت فى مصر، ولم أكن قد أبلغت الرئيس عبد الناصر بذلك».

ويعترف الدكتور محمد مراد غالب بأن رؤية أخرى لسلطة أعلى منه (سواء أكانت هذه الرؤية للوزير أم للرئيس) وجهته إلى عدم مصارحة السوفييت بجوهر الشكوى منهم، وهو يردف عباراته السابقة بقوله:

«لكن وصلتنى بعد عدة أيام برقية من السيد محمود رياض وزير الخارجية بألا أتكلم فى هذا الموضوع على الإطلاق».

«وكان واضحا لى أن مضمون البرقية صادر عن الرئيس عبد الناصر شخصيا، وشعرت أن السوفييت شكونى إليه».

(٢١)

وقبل هذا يصرح الدكتور محمد مراد غالب بمعنى أكثر خطورة يتعلق بما يرويه عن رؤية واحد من خيرة القادة السوفييت أنفسهم لقدرة الجيش المصرى من ناحية، ولموقف القيادة السوفيتية من هذا الجيش من ناحية أخرى، ومن الجدير بالذكر أن الدكتور محمد مراد غالب يؤكد بهذا الذى يرويه كل ما كان الفريق مدكور أبو العز يجاهر به فى مقالاته ومذكراته مما تناولناه فى الباب الأول من كتابنا «فى أعقاب النكسة»، وهأنذا أجد فى نص جديد نشر بعد ما نشرته فى كتابى ما

يؤكد صواب ما استنتجناه من قبل من حرص السوفييت على إقناع المصريين بعدم جدوى الدخول فى عمليات عسكرية:

«وقد عاد لاشينكو إلى موسكو فى عام ١٩٦٨ بعد صدور قرار تعيينه نائبا لرئيس أركان حرب القوات البرية، وقابلته وقتها وسألته: هل تستطيع القوات المصرية عبور قناة السويس؟ أجابنى مؤكدا طبعا تستطيع، لكن لا تنقل عنى هذا الرأى فى موسكو وإلا أصابهم الذعر، فهم لا يريدون فى هذه المرحلة حدوث عمليات عسكرية واسعة النطاق، ويقولون إن القوات المصرية غير قادرة على مثل هذه العمليات».

«ولم يكن الجنرال الذى أرسله السوفييت ليحل محل لاشينكو فى مصر على نفس مستوى كفاءته، وكان شخصية سياسية أكثر منه شخصية عسكرية مقاتلة، وشعرت بأن السوفييت لا يريدون لنا أن نقوم بعمليات عسكرية قد تودى إلى اندلاع حرب شاملة على ضفاف قناة السويس فى هذه الأثناء».

(٢٢)

بل إن الدكتور محمد مراد غالب يعطى للعلاقات المصرية ـ السوفيتية بعدا آخر يتعلق بالتعاون التكنولوجى فى بناء السد العالى، ومن الطريف أن حديثه هذا يأتى كاستطراد لحديثه عن دور المهندس عثمان أحمد عثمان البارز فى بناء السد العالى، وهو ما يثبته مراد غالب لهذا الرجل نقلاً عن الخبراء السوفييت أنفسهم، ومن الطريف

أن يصدر الاعتراف بعثمان عن رمز من رموز اليسار بعد كل التراب الكثيف الذى أهيل على دوره فى بناء السد، والذى وصل إلى تصوير دوره كمجرد مقاول لنقل الأتربة، وإذا بنا نجد مراد غالب يقدم صورة أخرى لجهد الرجل، مشيراً إلى فضل المهندس عثمان أحمد عثمان فى تعويض أو حل مشكلة نقص كفاءة المعدات السوفيتية:

«... ولم تكن المعدات السوفيتية على درجة عالية من الكفاءة، وكثيرا ما يحتاج العمل لمعدات من دول غربية، وعلى سبيل المثال كانت آلات الحفر الروسية اللازمة لفتح ثقوب فى صخور الجرانيت الصلبة كبيرة الحجم جدا يبلغ طولها ٤ أمتار وكفاءتها ضئيلة، وكانت هذه الآلات مهمة جدا لأنها كانت تحشى الصخور بالديناميت، وبتفجيره تتفتت الصخور ويسهل نقلها، وبالتالى تسهل عملية الحفر، وبدونها تصبح عملية تعميق المجرى وحفر قناة التحويل عملية مستحيلة، فاستوردنا حفارات من السويد لا يزيد طولها على المتر ونصف المتر أو أقل، وكفاءتها عالية جدا، وساعدتنا كثيرا على تخطى مشاكل الحفر. كذلك الحال بالنسبة للوريات القلابة والبولدوزرات وغيرها من المعدات. وكان **عثمان أحمد عثمان** خبيرا فى المعدات الغربية للإنشاء نظرا لأعماله الكثيرة فى الدول العربية».

(٢٣)

وربما نأتى بعد هذه المقدمات الكاشفة لوجهة نظر (أو لعقيدة) الدكتور مراد غالب فيما يتعلق بمواضع الخلاف بين مصر والاتحاد السوفيتى، إلى أهم موضوع تطلع القراء والمؤرخون إلى قراءة رواية

الدكتور مراد غالب عنه وهو موقف السوفييت من حرب ١٩٦٧، وحقيقة توجهاتهم في الفترة التي سبقت هذه الحرب.

ونحن نعرف أن كثيراً من الأدبيات السياسية والتاريخية قد رسخت فكرة أن السوفييت كانوا أصحاب السهم المعلى في دفع مصر إلى خوض هذه الحرب، وأنهم هم الذين تبنوا التضخيم من قصة حشد القوات الإسرائيلية على حدود سوريا، وأنهم تطوعوا بإبلاغ القيادة المصرية (ممثلة في شخص شمس بدران) بدعم الاتحاد السوفيتي لمصر إذا ما وقعت الحرب، لكننا نفاجأ بالدكتور مراد غالب ينسف كل هذه الحقائق شبه المستقرة في أدبياتنا السياسية ذاكراً أن السوفييت كانوا يدعوننا إلى التعقل وإلى عدم الاندفاع إلى الحرب، وأنهم كانوا في غاية القلق من هذا الاندفاع، وأنهم حاولوا إثناءنا عنه دون جدوى.

(٢٤)

ونحن نرى مراد غالب يروى ما رآه بعينيه وسمعه بأذنيه، ولا يكتفي بهذا في بيان الحقيقة، بل إنه يتعمد مواجهة الروايات الشائعة والمتواترة بالتفنيد التام.

وربما يذهل القارئ لمثل هذا الذي يصرح به الدكتور مراد غالب، ويراه في دفاعه عن السوفييت سوفيتياً أكثر من السوفييت، وللقارئ الذي تشبع بطبول أدبياتنا السياسية وسطوتها عذر كبير في هذا العجب والذهول والإنكار، لكن منهج قراءة التاريخ يدعونا إلى أن نفيد من رواية مراد غالب، وأن نضعها إلى جوار الروايات الأخرى قبل أن

نصل إلى حكم قاطع فى مثل هذه الأحداث والروايات الملتبسة.

(٢٥)

وليس من شك فى أن ما يرويه مراد غالب عن هذه الفترة يتوافق مع منطق السوفييت وأسلوبهم فى إدارة الأمور والأزمات، بل إن ما يرويه يتوافق أيضا مع حقيقة تطور الصراع فى ذلك الوقت، وربما كان علينا أن ندرك بالمنطق الحظ الكبير لرواية مراد غالب من الصواب، بل ربما كان علينا أن نصل بعقولنا إلى استنتاجات قريبة مما وصل إليه لولا أننا بسبب عوامل وجدانية معروفة ومعذورة كنا سعداء بوجود الشماعة السوفيتية كمبرر قوى لأخطائنا فى ١٩٦٧.

يتناول الدكتور محمد مراد غالب بعض جوانب المأساة فى ٥ يونيو ١٩٦٧ فيتحدث عن بعض أسباب الكارثة، كما لمسها هو نفسه، وهو يبدأ حديثه عن رؤيته المتكاملة لما كان من وقائع الهزيمة فى ١٩٦٧ بالإشارة إلى تحذير الفريق محمد صدقى محمود قبل الحرب ببضعة شهور من نقص أسلحة الدفاع الجوى:

«... وجدير بالذكر أن الفريق محمد صدقى محمود قد صرح أمامى فى نوفمبر ١٩٦٦، وكذا فى موسكو، أى قبل حرب ١٩٦٧ ببضعة أشهر، موجها الحديث للمشير كالآتى: «وليكن فى علم سيادة المشير أنه ليس لدينا دفاعات ضد الطيران «الواطى» - ٥٠ مترا أو أكثر - كما أننا لا نملك دشما خرسانية لحماية طيراننا، وقد طلبنا من السوفييت اليوم دفاعات ضد الطيران «الواطى» وردوا «أنهم لا يملكون

مثل هذه الـدفاعات. وكـان رد المشيـر: «ما الذى نستطيع أن نـفعله، علينا أن نقـبل مـا يُعرض عـلينا. وقد أردت أن أوضح كـلام الفـريق صدقى مـحمـود لأنه تناول أخطر قطاع فى الحرب الجـوية، بل أخطر نقطة فى الحرب كلها ومنه جاءت الضربة القاتلة».

«فإذا كان هذا هو حال قواتنا المسلحة، فكيف إذاً نزج بها فى حرب مع إسرائيل ونحن نـعلم إمكاناتها العسكريـة المتفوقـة، رغم ادعاءاتنا بأننا أعظم قوة عسكرية فى الشرق الأوسط، كما كانت وسائل إعلامنا تردده وتؤكـده ليل نهار؟ هذا عـلاوة على الوضع الاقـتصـادى الذى استنزفته حرب اليمن ووقف المعونة الأمريكية».

(٢٦)

وتنفرد مذكرات الدكتور محمد مراد غالب برواية فقرات كثيرة يصور بها صاحب المذكرات ملامح الانطباع المرير الذى سيطر على السوفييت حكومة وشعبا نتيجة لهزيمة سلاحهم فى ١٩٦٧، وهو يروى ما يروى من واقع معاشرته اليومية للسوفييت كسفير فى موسكو فى أثناء الهزيمة وفيما قبلها وفيمـا بعدها، وهو يروى ما لم يروه غيره عن حملات قام بهـا الشعـب السوفـيـتى ضد حكـومة الحـزب التى أعطت الأسلحـة السوفـيتية لمن لا يجـيدون استـخدامها!! وحـملات مضادة قـامت بها الحكومة لتواجه الحملة الأولى، وهو يقول:

«صُدم الشعب السوفـيتى من هزيمتنا بهذا الشكـل الساحق المهين، واعتبروا أن أداء القوات المسلحة المصـرية إهانة مخجلة للقوات المسلحة

السوفيتية والأسلحة السوفيتية التى حارب بها الفيتناميون والصينيون والهنود وانتصروا على أعتى الدول، وقامت حملة واسعة بين الشعب تندد بسياسة الحزب الشيوعى السوفيتى الذى يقيم علاقات مع دول تهين العسكرية السوفيتية ولا تجيد استخدام السلاح والمحافظة عليه، كما أنها لا تستحق أية مساعدة من المساعدات السخية التى أعطيت لها، وبلغ حد ثورة الشعب أن سائقى التاكسى كانوا يرفضون ركوب أى عربى فى سياراتهم!! وكانت تغذى هذا الشعور بالمهانة الإذاعات ووسائل الإعلام الأجنبية، خاصة الإسرائيلية التى وجهت كل نشاطها باللغة الروسية إلى الشعب السوفيتى».

«واضطرت الحكومة السوفيتية والحزب الشيوعى إلى القيام بحملة مكثفة واسعة النطاق، ومعهما وزارة الخارجية للدفاع عن السياسة السوفيتية والعلاقات مع العرب، بل أقاموا مؤتمرا ضخما ليهود الاتحاد السوفيتى نددوا فيه بسياسة إسرائيل العدوانية، وذهل الشعب من أن بين هؤلاء اليهود السوفييت علماء وأدباء [وفنانين] و[كتّابا] يعتبرون فى القمة فى اختصاصاتهم ولم يكن يعلم أنهم يهود إلا من صورهم التى نشرت فى هذا المؤتمر اليهودى».

(٢٧)

ويؤكد الدكتور محمد مراد غالب بعد أربع صفحات على هذا المعنى المهم جدا لتاريخنا (مهما حاولنا تجاوزه) ومهما نظرنا إلى السوفييت كشىء واحد هو القيادة، وأغفلنا حقيقة الشعور السائد بين أفراد تلك الشعوب وقواتها المسلحة:

«... وبعد العدوان وهزيمة ١٩٦٧، شعر الشعب والقوات المسلحة في الاتحاد السوفيتي بأننا سببنا لهم إهانة بهذه الهزيمة، وذلك بالأداء الهزيل فى الحرب، ونشطت الأجهزة والدعايات الغربية، وعلى رأسها الإذاعات الإسرائيلية الموجهة إلى الشعب السوفيتى، مركزة على أن الاتحاد السوفيتى قد سلح مصر كل هذا التسليح من عرق الشعب السوفيتى، وحرمه من لقمة العيش، وضيع المصريون والسوريون كل هذا هباء فى الصحراء، وأخذوا يركزون على إهانة العسكرية السوفيتية».

(٢٨)

ومع احترامنا وتقديرنا لما رآه الدكتور محمد مراد غالب وسجله فإننا لا نوافقه على أن يتخذ هذه المواقف بمثابة دليل يدافع به عن الاتحاد السوفيتى ضد الاتهامات التى كانت توجه إليه بأنه شارك فى خدعة مصر حتى تدخل الحرب وتدمر قواتها المسلحة لكى تعود مصر إلى الاتحاد السوفيتى راكعة. . ربما كان فى هذا الادعاء بخبث السوفييت بعض التزيد أو بعض الخطأ أو كل الخطأ، لكن دفاع الدكتور محمد مراد غالب بإيراد الفكرة التى عرضها عن حقيقة الإحباط الذى ساد السوفييت نتيجة لهزيمتنا ليس دليلا كافيا لدحض الفكرة القائلة بتآمر السوفييت أو مشاركتهم فى التآمر.

. . . .

ومع هذا فإن الفقرة الأكثر وقعا وواقعية فى الدفاع عن السوفييت

هى تلك الفقرة التى يقول فيها الدكتور محمد مراد غالب:

«... والذى يؤكد موقف السوفييت من هزيمة مصر فى حرب ١٩٦٧، أن السوفييت كانوا فى منتهى السعادة فى حرب ١٩٧٣، عندما عبر الجيش المصرى القناة وحطموا خط بارليف بأسلحة سوفيتية، ولما أحسوا بأن إسرائيل قد تعود إلى هجوم مضاد ضد العبور، جاء كاسيجين رئيس الوزراء بنفسه يوم ١٢ أكتوبر ومعه المارشال كوليكوف رئيس أركان حرب القوات المسلحة السوفيتية لمساعدتنا».

(٢٩)

ونأتى بعد هذا إلى ما يطلق عليه «مربط الفرس» فيما تتوقعه الدراسات التاريخية أن تعول على تفاصيل شهادة الدكتور محمد مراد غالب فى موضوع مهم هو توريط السوفييت لمصر فى حرب ١٩٦٧، فقد كان فى ذلك الوقت سفيرا لبلاده فى الاتحاد السوفيتى وشهد اللقاءات التى حدثت بين القادة السوفييت ووزير الدفاع المصرى شمس بدران الذى نقل إلى مسئولى بلاده (فى الرئاسة وفى مجلس الوزراء وفى أماكن أخرى بالطبع) أن السوفييت قد وعدوا بالوقوف مع مصر فى الحرب القادمة.

ونحن نرى الدكتور محمد مراد غالب فى مذكراته حريصاً على أن يفيض فى الحديث ليؤكد على نفى المعنى الذى نقله شمس بدران وليصور هذا المعنى على نحو تزيد فيه شمس بدران فى فهم كلمات المجاملة العابرة، وبوسع القارئ أن يعود إلى نص الدكتور محمد مراد

غالب الكامل، لكننا ننقل منه بعض العبارات التى يؤكد بها الدكتور محمد مراد غالب وجهة نظره هذه حيث يقول:

«. . . ثم ذهبنا لمقابلة كاسيجين [هكذا يكتب مراد غالب اسم رئيس الوزراء السوفيتى الذى اعتدنا فى صحافتنا وكتابتنا على أن نكتبه كوسيجين]، وكان ما دار فى هذه المقابلة أمرا فى غاية الأهمية».

«فلقد راح شمس بدران يشرح وضع الحشود المصرية على الحدود الإسرائيلية، وشرح بإسهاب كيف أن الخطة العسكرية المصرية هى خطة هجومية، وقال: إن القوات المسلحة ستنقسم إلى شعب تتحرك فى ثلاثة اتجاهات، شعبة تتجه شمالا إلى تل أبيب، وشعبة فى الوسط إلى بير سبع، والشعبة الجنوبية ستذهب فى اتجاه إيلات».

«وبعد شرح الخطة تفصيليا رد عليه كاسيجين وقال ما يأتى بالحرف الواحد:

«نحن نعتقد أن الموقف فى منتهى الخطورة، وأن مواجهة لقوات مسلحة بهذا الحجم وبهذا التسليح على جانبى الحدود، قد تؤدى إلى حرب، وعمليات عسكرية بين الجانبين، وفى هذه الحالة لا يستطيع أى طرف منهما الادعاء بأنه لم يبدأ الحرب، لأن أية شرارة معناها الحرب، وعليكم أن تضعوا هذا فى حسابكم».

«وبعد أن شرح كاسيجين خطورة الموقف، وجه إلى شمس بدران مباشرة أسئلة يطلب الإجابة عليها وهى:

«هل فى حسابكم أن الأردن لن تدخل الحرب؟».

«وكان الملك حسين قد حضر للقاهرة وانضم إلى اتفاقية الدفاع المشترك وعين الفريق عبد المنعم رياض قائدا للقوات فى جبهة الأردن».

«فرد عليه شمس بدران بعدم اكتراث: لا.. لا.. لم نضع فى حساباتنا أن الأردن سيدخل الحرب».

«وهل فى حساباتكم أن سوريا غير جاهزة ولن تدخل الحرب؟».

«فقال بدران: لا.. لا.. ليس فى حساباتنا مطلقا دخول سوريا. ونحن أبعدنا من حساباتنا الأردن وسوريا».

(٣٠)

ونصل مع الدكتور مراد غالب إلى الفقرة التى يصرح فيها بكل وضوح بأن وزير الحربية المصرى شمس بدران لم يفهم سؤال رئيس الوزراء السوفيتى، وهو يقول فى هذا المعنى:

«وجاء السؤال المهم جدا، وأعتقد أن شمس بدران لم يفهم معناه:

«هل فى حساباتكم أن الولايات المتحدة قد تتدخل فى هذه الحرب؟».

«والمعنى الذى يعكسه السؤال أن الاتحاد السوفيتى لن يتدخل فى هذه الحرب».

«فقال شمس بدران: إن هذا سوف يجعل العالم كله يرى أمامه

دولة عظمى تضرب دولة من دول العالم الثالث».

«ولقد تعجبت من ردود وزير دفاع مصر، وظهر التعجب أيضا على وجه رئيس الوزراء السوفيتى».

«وأردف يسأله: ما العالم الذى سيرى هذا؟».

«فقال بدران: العالم كله».

(٣١)

ونصل مع مراد غالب إلى ما يصرح به بكل وضوح من أن رئيس الوزراء السوفيتى عرض على شمس بدران مشروع خطة استراتيجية بديلة تماماً للخطة المصرية التى اتبعت فى ١٩٦٧، وهى خطة كانت كفيلة بالحفاظ على المكاسب التى تحققت فيما قبل الحرب، وهى ثلاثة مكاسب مهمة، وتجنيب مصر كل ما تعرضت له بعد ذلك، وليس هناك فى أدبياتنا السياسية المصرية كلها دفاع عن موقف السوفييت أبلغ من هذا الدفاع لكن يبدو أن أحداً لن يصدق هذا الدفاع أبداً:

«قال كاسيجين لبدران: عليكم تهدئة الموقف على الحدود. وعاد كاسيجين يكرر أن الموقف فى غاية الخطورة، وينذر بحرب واسعة النطاق فى الشرق الأوسط، وأن حشد قواتكم المسلحة على حدود إسرائيل جعلها تردد أنها لا تريد الحرب، وأنها تريد السلام، وأنها أيضا لا تريد الهجوم على سوريا. كما أنكم أبعدتم قوات الطوارئ الدولية عن الحدود عند خليج العقبة ومضيق تيران، وهذا يعنى أنكم أنقذتم سوريا، وأخفتم إسرائيل».

«من ناحية أخرى فإنكم حققتم مكسبا يتمثل فى التخلص من آخر بقايا حرب ١٩٥٦، بإخراج قوات الطوارئ الدولية من على حدودكم».

«وعليكم أن تحافظوا على هذه المكاسب».

«أما كيف تحافظون عليها فهذا يستلزم أن تعملوا على تهدئة الموقف على الحدود مع إسرائيل، وأيضا الموقف بصفة عامة فى هذه المنطقة، ولابد أن تتخذوا خطوات عملية تثبت أنكم لا تريدون حربا فعلا. وكان معنى كلام كاسيجين أن تسحب القوات، وإن لم يقل هذا صراحة».

(٣٢)

ثم يشير الدكتور محمد مراد غالب إلى تفصيلات ما حدث عند وداع وزير الدفاع السوفيتى لوزير الدفاع المصرى، وذلك فى حضور اللواء أحمد فتحى عبد الغنى مدير مكتب المشتريات العسكرية فى موسكو [ومن الجدير بالذكر أن اللواء أحمد فتحى عبد الغنى قد نشر هو الآخر ذكرياته عن تلك الأيام،وقد تعرضنا لها فى بعض كتبنا]:

«وحانت ساعة مغادرة شمس بدران موسكو، وكان ذلك يوم سبت وهو يوم عطلة، وجرى المشهد الآتى كما هو:

«جريتشكو يسير نحو الطائرة المسافرة إلى القاهرة، وبجواره شمس بدران وإلى جانبه اللواء أحمد فتحى عبد الغنى رئيس مكتب المشتريات العسكرية فى موسكو، وصلنا إلى مكان الطائرة وجرى على سلم

الطائرة حديث، لم أسمعه، بيــن جريتشكو وشمس بدران. وبعد أن ودعنا بدران ونحــن نرجع مــبــتــعــدينِ عن سلم الــطائرة جــاء اللواء عبدالغنى وقال لى: هل سمعت ما قاله جريتشكو لشمس بدران؟ لقد قال له: شدوا حــيلكم ونحن برضه معكم. وأنا أنقل الجــملة كما هى باللغة العامية. فقلت للواء عبد الغنى: هذا كلام من شخص يطيب به خــاطر الضــيف، بعــد أن أنزلوا على رأســه دشــا باردا فى جلســات المباحثات».

(٣٣)

وها هو مراد غالب ـ على حد روايته ـ يكّون فكرة دقيقة عن الموقف السوفيتــى ويصوغها فى سطور مكتوبة واضحــة الدلالة ويبعث بها إلى المسئولين فى القاهرة على أسرع وأدق وآمن وجه ممكن:

«... ومن جانبى اعــتبرت مــوقفهم فى غــاية الوضوح، بأنهم لن يتــدخلوا إذا قامت الحــرب، ومــادام كاســيــجين رئيس وزراء الاتحــاد السوفيتى قد أوضح له أنهم لن يتدخلوا فى أية معارك، فإننى لا يمكن أن أعيــر اهتمــاما لكلام جريتــشكو على سلم الطائرة. إن المقــصود به تخفيف التوتر الذى صاحب الزيارة، ومن ثم فــهذا كلام لا قيمة له. وذهبت بنفسى إلى جــريتشكو أسأله عــما قاله لشمس بدران فــأجابنى قــائلا: لقد رأيتــه مــحبطا، فــأردت أن أرفع من روحــه المعنوية بعض الشىء قــبل سفــره، لكن كل ما أردنا قــوله هو قد اســتمع إليــه من الرئيس كاسيجين».

«ونظرا لأهمية وخطورة ما تحدث به كاسيجين، خصوصا فى الجلسة

الأولى للمباحثات، والأسئلة المختلفة التى طرحها على شمس بدران وشرحه المستفيض للحالة الدولية، والموقف على الحدود المصرية ـ الإسرائيلية، فقد وجدت من واجبى أن أرسل إلى القاهرة فورا محضر الجلسة الأولى كما كتبته بخط يدى. ولحسن الحظ أن السيد حمدى عاشور محافظ القاهرة [ونتوقف هنا لنصحح معلومة وردت فى رواية الدكتور محمد مراد غالب، وهى أن حمدى عاشور فى ذلك الوقت كان محافظا للإسكندرية ولم يكن محافظا للقاهرة ، وهى على كل حال معلومة لا يترتب على الخطأ فيها إخلال بما يريد الدكتور محمد مراد غالب أن يرويه] كان فى موسكو، وموعد سفره فى نفس اليوم الذى تم فيه اللقاء الأول مع كاسيجين، وسلمته إليه ليسلمه إلى الرئيس عبد الناصر فى نفس يوم وصوله. وكان قصدى أن أمنع أى لبس فى أن الاتحاد السوفيتى لن يتدخل».

(٣٤)

ومع كل هذا التوضيح والتفسير فإنه يبدو لنا من الرواية التى يقدمها الدكتور محمد مراد غالب أن شمس بدران لم يكن مخطئا تماما فى فهم ما فهمه، وأن الدكتور محمد مراد غالب لم يكن مصيبا تماما فى فهم ما فهمه مما يصرح به بعد أكثر من ثلاثين عاما من وقوع الواقعة.

ويبدو أن الدكتور محمد مراد غالب شأنه شأن الجراحين الأمناء كان حريصا على الإشارة إلى أنه مع كل هذا الذى حضره بنفسه، لم يكن يعرف بقية جوانب الصورة، وهو يروى فى موضع تال عن لقائه بعبدالناصر بعد النكسة هذه العبارة:

«وسألته: هل كان فى حسابه قبل الحرب أن يعتمد على السوفييت لو قامت الحرب؟».

«فقال: لا.. لم يكن هذا فى حسابنا».

«ثم سكت ولم يذكر على مَنْ كان يعتمد».

«ولم أشأ أن أستزيده إيضاحا فليس من اللائق أن أوجه سؤالا كهذا لرئيس الجمهورية».

(٣٥)

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور مراد غالب كان قد ذكر قبل هذا أنه عرف بموعد هجوم إسرائيل فى ٥ يونيو استنتاجاً من حديث له مع السفير الأمريكى فى موسكو، وبعث بهذا الموعد إلى الرئيس جمال عبد الناصر، وهو حريص على أن يشير إلى أنه لم يكن الوحيد الذى وصل إلى هذه المعلومة:

«... كنت أحد الذين أرسلوا إلى القيادة المصرية عن موعد الهجوم العسكرى الإسرائيلى على مصر، ففى يوم أول يونيو ١٩٦٧ كنت قد وجهت دعوة إلى السفير الأمريكى فى موسكو لويلين طومسون لحفل عشاء فى الخامس من يونيو».

«ورد علىّ بقوله: يامراد، إننى قد لا أستطيع حضور هذا العشاء لأن أحداثاً مهمة وخطيرة قد تمنعنى من الحضور، وعلى الفور بعثت بهذا المعنى إلى القيادة فى مصر، ولم أكن الوحيد الذى نبه إلى هذا الموعد، فقد تلقى الرئيس جمال عبد الناصر تحذيرات بذلك من

مصادر أخرى، وقام هو بدوره بتحذير القيادة العسكرية، وقال لهم: عندى معلومات بأن إسرائيل ستهاجم يوم ٥ يونيو».

(٣٦)

ونأتى إلى ما ترويه المذكرات عن الدور الذى لعبه الدكتور محمد مراد غالب كسفير لبلاده فى الكونغو قبل أن يصبح سفيرا فى الاتحاد السوفيتى، وهو يتحدث عن دوره فى تهريب عائلة الرئيس الكونغولى لومومبا إلى مصر فى أثناء عمله كسفير لمصر فى الكونغو، وهو النجاح الوحيد الذى أمكن تحقيقه خلال هذه الأزمة التى انتهت بوقف العلاقات بين مصر والكونغو، وقتل لومومبا وحصار السفارة المصرية وطرد بعثتنا الدبلوماسية من الكونغو، وعلى كل حال فإن تهريب عائلة الزعيم الإفريقى كان فى حد ذاته عملا ناجحا يستحق التسجيل والفخر.

يروى الدكتور محمد مراد غالب فيقول:

«... وعندما بدأت الإعداد لتهريب عائلة لومومبا كونت لجنة يرأسها العميد أحمد إسماعيل، وكان رجلا عسكريا منضبطا للغاية، وبعض ضباط الكوماندوز المصريين من فرقة الصاعقة، كانوا مكلفين بتشغيل محطة اتصال لاسلكى قوية للغاية مع مصر ومعهم عساكر مصريون».

«... وبدأت اللجنة فى رسم خطة الهروب، وفكرنا فى الدور الذى يقوم به عبد العزيز إسحق - المستشار بالسفارة المصرية وهو أشقر الشعر، ملامحه أقرب إلى الأوروبيين، وسجلنا فى جواز سفره

معلومة غير صحيحة بأنه متزوج من سيدة كونجولية. واستندت الخطة إلى الانتظار لحين مجىء دور الكتيبة السودانية فى قوات الأمم المتحدة فى السيطرة على المطار، وجاء اليوم المحدد، وذهب عبد العزيز إسحق للسفر إلى القاهرة ومعه عائلة لومومبا باعتبار أنها عائلته هو».

«كنا نعرف أن المخابرات البلجيكية منتشرة فى مطار ليوبولدفيل، وكانت التعليمات لعبد العزيز إسحق أن يتجاهل النداء الأول والثانى والثالث الذى يطلب من الركاب الصعود إلى الطائرة المسافرة إلى لشبونة، ولا يظهر إلا قبل إقلاعها بثوان مع عائلته، ويجرى معهم ليلحق بالطائرة فى آخر ثوان لها قبل الإقلاع، بحيث يكون العاملون فى المطار فى موقف يجعلهم يساعدون هذه العائلة على دخول الطائرة، واتخاذ أماكنهم فيها. وحدث هذا فعلا حسب الخطة الموضوعة وركبوا الطائرة، ووصلوا إلى القاهرة ووجدوا فى استقبالهم احتفالا كبيرا فى مصر، يقابله غضب عارم فى الكونغو من المخابرات البلجيكية والغربية ومن المسئولين فى المطار».

«وبدأ رد الفعل يتخذ شكل عمليات تحرش بالسفارة المصرية، وفرض إجراءات من الرقابة المشددة عليها، وبلغت التحرشات حد ضرب السفارة بالمدفعية».

(٣٧)

بعد أن استعرضنا ملامح هذين الدورين اللذين قدر لصاحب المذكرات أن يقوم بهما لبلاده فى كل من الاتحاد السوفيتى والكونغو، نأتى إلى ثالث الأدوار التى قدر للدكتور مراد غالب أن يلعبها كممثل

لوطنه، وقد أدى الدكتور محمد مراد غالب هذا الدور في ١٩٧٣ حين عُين بدرجة وزير عضواً في مجلسي الوزراء في بلدين شقيقين ارتبطا بدولة اتحادية، ذلك أنه قبيل اندلاع حرب أكتوبر كان قد صدر قرار بتعيين الدكتور محمد مراد غالب وزيرا مقيما لمصر في ليبيا على أن يحضر اجتماع مجلس الوزراء في البلدين، وقد تصادف أن جاء موعد سفر الدكتور محمد مراد غالب يوم معركة ٦ أكتوبر المجيدة، ومع أن سفره كان مخاطرة غير محسوبة إلا أن روح الاستشهاد دفعته إلى هذا السفر.

وهو يحكي باختصار شديد وتحفظ محسوب توتر العلاقة في ذلك الوقت المشهود حين فوجئ هو نفسه بموقف القيادة الليبية التي بدأت تصف الحرب المجيدة بأنها تمثيلية متفق عليها:

«... ذهبت إلى ليبيا في ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وكانت الحرب قد بدأت الساعة الثانية بعد الظهر، ولم تكن هناك وسائل للانتقال إلى ليبيا، فأبلغني زميلي الوزير المختص أنهم سيقومون بتهريب بعض طائراتنا إلى ليبيا لحمايتها هناك ودعاني للإفطار معه، فقد كنا في رمضان (العاشر منه)، وقال: وإذا استطعنا أن نحصل على إذن من دفاعاتنا الجوية فستقلع الطائرات من مطارنا الدولي، وعليك أن تبقى معي لحين تصفية كل هذه الأمور. وأردف قائلا: أود أن أنبهك إلى أن هناك احتمالا لضرب هذه الطائرات في أثناء طيرانها إلى ليبيا، أو حتى وهي واقفة الآن على أرض المطار، ولكني أصررت على السفر إلى ليبيا هذه الليلة وليكن ما يكون، فهناك رجال لنا يموتون في هذه اللحظة على ضفاف القناة ولست أحسن منهم، وأقلعت الطائرات بعد

فترة ووصلت إلى ليبيا، وكان المسئولون الليبيون فى انتظارى، ووصلتنا أنباء عظيمة عن عبور قواتنا قناة السويس، وفوجئت بموقف القيادة الليبية التى وصفت هذه الحرب بأنها تمثيلية متفق عليها مع الولايات المتحدة، وأنهم لم يُبلغوا بها مقدما رغم وجود مشروع وحدة بين مصر وليبيا، وأنهم لا يؤيدون هذه الحرب».

«لكن فى الوقت نفسه وقف الإخوة الليبيون موقفا قوميا مشرفا، حين لبوا جميع طلباتنا من أدوية إلى مواد غذائية، وسلع تموينية مهمة للغاية لمصر، وكانت الأرض الليبية معبرا للقوات المسلحة الآتية من تونس والمغرب والجزائر».

(٣٨)

ويشير الدكتور محمد مراد غالب إلى أن العلاقات الشخصية الجيدة التى ربطته من قبل بالقيادة الليبية صبت فى سبيل خدمة بلاده على الرغم من كثرة المشكلات التى شهدتها فترة حرب أكتوبر المجيدة، وهو يشير إلى بعض هذه المشكلات فى هدوء وأسف أيضاً:

«كانت تربطنى بالقيادة الليبية صداقات وثيقة، وكانوا يتصرفون معى كأخ لهم، ويزوروننى فى بيتى بلا موعد أو استئذان، وكنت سعيدا بهذه العلاقة، وكثيرا ما كنا نجلس ونتناول الطعام معاً، وكانت لدينا فى ليبيا محطة إرسال لاسلكية قوية تمكننا من الاتصال بكل الوزراء فى القاهرة مباشرة للتعرف على طلبات وزاراتهم، وكانت هذه الطلبات تستلزم تلبيتها بسرعة نظرا لظروف الحرب التى استمرت حتى يوم ٢٢ أكتوبر، وتصاعدت احتياجاتنا لجميع مرافق الدولة، وكنت ألجأ للإخوة

الليبيين الذين كانوا يلبون كافة هذه الطلبات، وحدث أن تدفقت أعداد كبيرة من المصريين على ليبيا أتوا من جميع أنحاء العالم يريدون أن يصلوا إلى القاهرة عن طريق البر، وحدثت مشاكل كثيرة مع الإخوة الليبيين فى المطار ومع سائقى السيارات... إلخ، وهذا أمر طبيعى، ورافق ذلك انتقاد حاد للسلطات الليبية فى مجلس الوزراء المصرى، والحقيقة أن أعداد المصريين كانت كبيرة مما أرهق المسئولين الليبيين، سواء فى المطار أو فى وسائل النقل البرى إلى مصر، كذلك كانوا فى حاجة إلى الطعام والراحة من عناء السفر، وكان من الصعب توفير كل هذه الطلبات».

....

وعلى الرغم من هذا كله فقد انتهت أيام الدكتور مراد غالب فى ليبيا بسحبه وعودته إلى القاهرة:

«ولكن سرعان ما توترت العلاقة بين الرئيس السادات والعقيد القذافى، وترتب على هذا سحبى من ليبيا، وعدت إلى القاهرة وزيرا فى مجلس الوزراء المصرى دون أن يكون لى اختصاص معين».

(٣٩)

ويروى الدكتور مراد غالب قصة دور مجهول قدر له أن يقوم به وهو وكيل لوزارة الخارجية المصرية، حيث تمكن من إعاقة دعوة إسرائيل إلى الاحتفال باستقلال الصومال على الرغم من أن الرئيس عبد الناصر نفسه لم يكن محبذاً لهذا السلوك الذى يجلب الاستقطاب السريع:

«... في أول يوليو ١٩٦٠ جاءت مناسبة استقلال الصومال، ووجدنا أن إيطاليا بادرت بدعوة إسرائيل إلى احتفالات استقلال الصومال، فاستدعيت السفير الإيطالى وأبلغته أن هذا تصرف غير معقول، وإذا تمسكوا بذلك فلن نحضر نحن الاحتفال، وأرسلت للرئاسة، فكتب الرئيس عبد الناصر تأشيرة قال فيها: إن هذا قد يعنى أنه لو دعيت إسرائيل للاحتفال فلن نكون موجودين فيه، فاحتفظت بالتأشيرة وأرسلت إلى الحكومات العربية أقترح طلب استدعاء السفير الإيطالى فيها وإبلاغه أن العرب كلهم لن يحضروا، وأننا نطالب بإلحاح بعدم دعوة إسرائيل».

«وجاءنى السيد [الدكتور] عبد الخالق حسونة أمين عام الجامعة العربية يستفسر عما إذا كنت قلت هذا لسفير إيطاليا،فأكدت له ذلك، وشرحت له أننى قمت بعمل واسع النطاق بالنسبة لهذه العملية، وأننى سألت السيد محمد فائق، وكان مسئولاً عن العلاقات مع إفريقيا، هل يستطيع عمل مظاهرة قوية فى الصومال ضد مشاركة إسرائيل، وفعلا قامت مظاهرة صاخبة فى الصومال ضد إسرائيل، وبعد أسبوع قابلنى السفير الإيطالى وقال: لقد عدلنا عن دعوة إسرائيل».

«وكان عبد الناصر قد طلب إرسال برقية يهنئ فيها باستقلال الصومال، ووجدت أن البرقية لم ترسل بعد، فطلبت تأجيل إرسالها، وقد تصرفت كوكيل وزارة له سلطات، وكنت أعتقد أن هذا سيريح أجهزة الرئاسة ولن يعتبروه نوعاً من المنافسة، ولكننى أرسلتها بعد العدول عن دعوة إسرائيل».

. . . .

بوسع القارئ أن يفهم بالطبع ما بين السطور فيما كتبه الدكتور مراد غالب وسجله.

(٤٠)

ونأتى إلى نهاية رحلة الدكتور محمـد مراد غالب الدبلوماسية حين أصبح سفيراً فى بلجـراد بعد خروجه من منصب الوزارة، وقد بقى فى هذا المنصب حتى استقال منه عـقب مبادرة السادات، ويلخص الدكتور محمد مراد غـالب فى شجاعة بالغة موقفه من الاستـقالة عقب مبادرة السـادات بزيارة القـدس، وكـان فى ذلك الوقت سـفـيـرا لمصـر فى يوغسلافيا، وحقيقة ما تردد من شائعات عقب استقالته فيقول:

«أرسلت الاستقالة ببرقية مفتوحة وطويلة شرحت فيها كيف أننى لم أعد أستطيع أن أمثله سفيرا».

«كان هناك مَنْ يظن أننى سألجأ إلى ليـبيا أو أية دولة أخرى، وملأوا مـصر بـالشائعـات بهـذا المعنى، لكننى صـرحت بأننى سـأعـود إلى القاهرة، فأمر السـادات بالقبض علىّ بمجرد نزولى من الطائرة، ولكن السيد ممدوح سالم أقنعه بأن ذلـك سيجعل منى بطلا، وأن الأفضل أن تدعه يأتى إلى مصر ويسدل الستار على مَنْ يسمى الدكتور محمد مراد غالب. عدت إلى القاهرة، ولم يقبض علىّ، وتم إسـدال الستار فعلا علىّ».

(٤١)

وعلى الرغم من هذا الموقف الحاد جداً الذى دفع صاحبه ثمناً غالياً له فإن الدكتور محمد مراد غالب يردف هذه الفقرة مباشرة بفقرة يعترف فيها بشجاعة قرار السادات فى مبادرة السلام:

«يجب أن أذكر أن قرار السادات بزيارة إسرائيل كان قرارا شجاعا في حد ذاته، فقد كان ضد الإجماع وضد التيار الجارف فى العالم العربى، وأحدثت زيارته زلزالا ليس فقط فى مصر والعالم العربى، لكن فى العالم ككل، بصرف النظر عن تأييده أو معارضته».

«ولقد تعرضت شخصيا لتساؤلات كثيرة، وسئلت عما إذا كنت الآن نادما على هذه الاستقالة، وأننى كنت على خطأ فى تقديرى، وأن الرئيس السادات كان بعيد النظر والرؤيا؟ وأود أن أقول مبدئيا إننا لن نستطيع الآن فى سنة ٢٠٠١ أن نحكم على موقف حدث عام ١٩٧٧، فقد تغير العالم تغييرا كاد يكون كليا، فقد انهار الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى، وانهار معه النظام الدولى الثنائى القطبية، وجاء نظام تحكمه فى الواقع أمريكا، واكتسحت الثورة العلمية والتكنولوجية وثورة الاتصالات والمعلومات العالم وهزته بعنف. كما أن العالم العربى غرق فى إقليميته وقطريته، وانحسر إلى حد كبير زخم وحركة القومية العربية إلى آخره من المتغيرات».

(٤٢)

ويلخص الدكتور محمد مراد غالب، من وجهة نظره، حقيقة موقف

الأنظمة العربية من الرئيس السادات فيما قبل المبادرة وفيما بعدها فيقول:

«... وكان السادات قد حاول قبل ذهابه للقدس أن يحصل على مساعدات من العرب، فقد كان الوضع الاقتصادى المصرى بعد حرب ١٩٧٣ فى الحضيض، وأرسل وفودا على مستوى عال كان يرأس بعضها رجال بارزون مثل المهندس سيد مرعى، والدكتور مصطفى خليل، ولكنها لم تعد إلا بوعود هلامية لا تنفذ. والأدهى أن بعضها اشترط شروطا مهينة مثل تسليم المساعدات إلى الشركات التى ستتولى المشاريع مباشرة وليس للدولة، بدعوى تفشى الفساد».

«أما سلوك العرب بعد الزيارة، فقد كنا نعتقد أنهم أصيبوا بصدمة هائلة وأنهم ولاشك سيسارعون بتكوين جبهة جديدة تعوض خروج مصر مكونة من العراق وسوريا وفلسطين تساندها الدائرة العربية كلها من الخليج إلى المحيط،فقد اكتفوا بالكلام والصياح والثورة الإعلامية، ولم تتمخض ثورتهم إلا عن مؤتمر هزيل فى بغداد مؤتمر الصمود والتصدى، الذى اكتفى بطرد مصر من الجامعة العربية ونقل الجامعة إلى تونس، واستقال السيد محمود رياض أمين عام الجامعة، واستمرت الحملة على السادات ومصر ووصفوها بالخيانة وهدم التضامن والوحدة العربية ومعاداة القومية. ولقد ساند اتجاه السادات فى مصر الكثير من العاملين المصريين الذين كانوا يعملون فى دول الجزيرة العربية والخليج وتعرضوا للكثير من المهانة والاستعلاء والتمييز، مما ولد فيهم الشعور المضاد للعرب».

(٤٣)

وعلى الرغم من محاولة الدكـتور محمد مـراد غالب تبنى رؤية ما يسمـيه بالاتجاه القـومى فى معالجة الصـراع مع إسرائيل، فإنه يعـترف بصراحة بصدمته من تصرفات العرب بـعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد ويقول:

«لكنى أعترف بأنى أصـبت بخيبة أمل كبيـرة من السلوك العربى بعد كـامب ديفيـد ولجوئـهم إلى الصيـاح والاتهامـات بالخـيانة والألفـاظ الضخمة الفخـمة التى اكتفوا بها دون عمل فعـال وتكوين جبهة بديلة لمصر، والوقوف بحزم ضد إسرائيل والمساندة الأمريكية لها فى استمرار احتلالـها الأرض العربية، وزيادة المسـاعدة الأمريكية عـسكريا وماديا، وتشجيع إسرائيل على بناء المستوطنات.. إلخ».

ويضيف الدكتور مـحمد مراد غالب إلى هذا المعنى إحساسـه بخيبة الأمل تجاه الموقف الراهن للعرب فى مواجهة التعنت الإسرائيلى، وهو يدين الشلل والتـلكؤ العـربى فى تقـديم المسـاعدة الـتى يحـتاجـهـا الفلسطينيون تحت الحصار، وقد كتب مراد غالب هذا فى سنة ٢٠٠١، ولسنا ندرى مـاذا يقول عن الموقف الآن بعـد ست سنوات من كتـابته لمذكراته:

«ومما كشف الـشلل العربى واسـتهتـاره بالمصالح الحـيوية العـربية، [ذلك] السلوك الشائن بالنـسبة للانتفـاضة الفلسطينية، بل أقـول حرب التحـرير التى يقوم بهـا الفلسطينيون الآن تحت حـصار إسرائـيلى يدمر البشر نساء وأطفالا، ويدمر مزارعه وقوته ومأواه وسكنه وبنيته التحتية،

بل ويسعى إلى تدميره نفسيا وتدمير مستقبل حياته، ويتلكأ العرب فى مساعدتهم ويعدون بالبلايين ثم يضعون لصرفها شروطا تنفى فائدتها العاجلة وتلغى أهدافها وتترك الشعب الفلسطينى البطل وحيدا يواجه مصيره المؤلم».

(٤٤)

وقبل هذا كله يروى الدكتور محمد مراد غالب قصة خروجه من منصبه كوزير للخارجية (سبتمبر ١٩٧٢) عقب إخراج الخبراء السوفيت بطريقة طريفة ينسب فيها إلى الفريق صادق تنبؤه بإخراجه هو فإذا بوزير الخارجية يسبق وزير الحربية فى الخروج، كما ينسب إلى الشاعر محمود درويش لقبا طريفا أضفاه عليه حين قال له إنه كان لابد من خروجه باعتبار أنه آخر الخبراء السوفييت:

«وبعد انتهاء اجتماع اللجنة المركزية جاءنى الفريق محمد صادق وقال لى: «أنا علىَّ الدور فى الخروج من الوزارة، فأنت رجل ذكى وتعرف السادات جيدا»، وفعلا أقال السادات محمد صادق لكنه أقالنى قبله!! وكان للشاعر الكبير محمود درويش تعليق على إقالتى وهو: «إن الرئيس السادات طرد آخر الخبراء السوفييت!!».

يجدر بنا هنا أن نشير إلى أن الدكتور محمد مراد غالب أقيل فى سبتمبر ١٩٧٢، وإلى أن الفريق أول صادق أقيل فى أكتوبر ١٩٧٢، أما الخبراء السوفييت فأخرجوا فى بداية الصيف.

(٤٥)

بعد كل هذا الحديث عن الملامح البارزة فى أدوار الدكتور محمد

مراد غالب الدبلوماسية فى خـدمة بلاده من خلال علاقاتها مع الدول الأخرى، نبدأ فى مطالعة وجهات نظر الدكـتور محمد مراد غالب فى القضـايا الوطنية التى مـرت بوطنه، ومن الجدير بالذكـر والإشادة أن الدكتور محـمد مراد غالب يجاهر فى شجاعة مـغلفة جيدا بالكنايات الشفافة والمجـازات الرقيقة (والأوصاف البديلة عن الأسمـاء) بمسئولية الرئيس عبـد الناصر عن هزيمة ١٩٦٧ وهو يعـبر عن هذا المعنى بأبلغ وأدق عبارة قيلت فيه على الإطلاق: :

«. . . لاشك أن حرب ١٩٦٧ كانت هزيمة سـاحقة لمصر ممثلة فى النظام الذى كـان يحكمهـا فى هذه المرحلة. فالهـزيمة ليسـت هزيمة القوات المسلحة وكأنهـا كيان منفصل عن الدولة، وعلينا أن نكون أمناء مع أنفـسنا، وأمناء مع التاريخ، وأمـناء مع شعـبنا والشعـوب العربيـة جميعا».

. . . .

ربما يجد القارئ فى هذه العبارات دقـة الأطباء والعلماء فى مواجهة عبث الذين لايزالون يمارسون أدوار التضليل.

. . . .

وسرعـان ما يخفف الدكـتور محمـد مراد غالب من وقع عـباراته القوية دون أن يتنازل عـما فيـها من فكر وإدانة وتسبـيب لهذه الإدانة، وهو يقول:

«إن المسئولية تقع أولا وأخيرا على القيادتين السياسية والعسكرية فيما

حدث فى كارثة ١٩٦٧، فقد كان على القيادة السياسية أن تكون أكثر حسما وحزما ووضوحا فى عدم استفزازها للعدو، وإعطائه مبررا للقيام بالهجوم الكاسح الذى حدث، وذلك بحشد القوات المسلحة المصرية على الحدود مع إسرائيل، وطلب سحب القوات الدولية، وإغلاق خليج العقبة، والحملة الإعلامية الهجومية المستفزة التى صاحبت كل هذه الإجراءات، والتهديد بسحق العدو، والمؤتمرات التى عقدت، والتصريحات التى لا تستند إلى أية قوة حقيقية تصاحبها».

. . . .

وفى موضع آخر يقول مراد غالب:

« ... والأهم من ذلك كله الصراع الحاد والدفين بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية، وانعكاساته على القوات المسلحة. كذلك كان لدينا اقتناع بأن إسرائيل لابد أن تحارب إذا قفل [أغلق] مضيق تيران أو سيطرت قوة معادية على مرتفعات الضفة الغربية (الأردن)».

(٤٦)

ونأتى إلى ما يقدمه الدكتور محمد مراد غالب فى هذه المذكرات من جوانب رأيه فى السياسة المصرية الداخلية، وربما كان من الأفضل أن نبدأ بعرض رؤيته لجوانب الصراع بين الرئيس عبد الناصر والمشير عبدالحكيم عامر، ونحن نعرف حتى من المذكرات التى بين أيدينا أن الدكتور محمد مراد غالب لم تكن له علاقة بالمشير عامر فى بداية علاقته برجال الدولة بعد الثورة، بل ربما كان العكس هو الصحيح.

يروى الدكتور محمد مراد غالب - بصراحة - كيف أنه استطاع النجاح فى الحصول على ثقة المشير عبد الحكيم عامر، وكيف مكنته هذه الثقة من أن يحظى ببعض البوح الذى قدمه له المشير، والذى كان ملخصه أنه لا أمل فى مستقبل لمصر مادام عبد الناصر معنيا برؤية صوره فى الصحافة كل يوم، ولنقرأ هذه الفقرة الحافلة بالمعانى:

«... فى عام ١٩٦٢ جاء عبد الحكيم عامر إلى موسكو فى زيارة رسمية للاتحاد السوفيتى، وكان فى بداية الزيارة لا يزال متشككا فى أننى سأرسل للرئيس جمال عبد الناصر تقريرا عن زيارته، وكنت حريصا على أن أدون بخط يدى ما يدور فى جلسة المحادثات مع القادة السوفييت كلمة كلمة، وبعد الجلسة قدمت له ما دونته وقلت: ياسيادة المشير تفضل هذا هو محضر الجلسة، نظر نحوى متسائلا: ألا تريده معك؟ قلت: لا فإننى أحتفظ فى عقلى بكل التفاصيل، وهذا المحضر يخصك أنت، ولك أن تتصرف فيه كما تشاء.. ولست أنا. شعرت بأنه هدأ إلى حد كبير، ولا أقول إنه غير رأيه فى اعتقاده بولائى التام لعبد الناصر، وأننى جاسوس لعبد الناصر، لكنى أعتقد أن ما حدث جعله يعيد التفكير فيما يتصوره عنى. واستمرت زيارته ثلاثة أيام، توطدت خلالها علاقتى به».

. . . .

ويصل مراد غالب إلى الحديث عن خصال عبد الحكيم عامر وسجاياه فيقول:

«. . . . وأعترف بأننى أحببت هذا الرجل لما يتمتع به من حسن المعشر، والبساطة المتناهية، والتواضع الشديد، وروح الدعابة، وكنت قد اقترحت عليه أن نخرج معا للتنزه فى غابات موسكو، وذهبنا فعلا، ودارت بيننا أحاديث تطرقنا خلالها إلى قضية الديمقراطية، وأنها قضية مهمة بالنسبة لنا، ووجدته يقول لى ما الذى نستطيع أن نفعله وهناك فى القاهرة رجل لا يرتاح إلا إذا رأى صوره يوميا فى جميع الصحف!!!».

(٤٧)

ونتقل لقراءة ما يلخص انطباع الدكتور محمد مراد غالب تجاه هذا التصريح الخطير الذى فاجأه به المشير عامر عن إيمانه باستحالة وجود الديمقراطية فى وجود عبد الناصر، وهو يقول:

«والحقيقة أننى ذهلت من كلام المشير عامر، وأحسست بأن مصارحته لى بهذا الكلام، وعلى هذا النحو، تعنى أن الخلاف أصبح عميقا جدا بين عبد الناصر وبينه».

«وتخفيفا للموقف رويت له عن كاريكاتير منشور فى مجلة «روزاليوسف» يصور الأسد داخل قفصه، وقد كتب تحته «الأسد ملك الغابة» وشطبت كلمة ملك ليقرأ الكاريكاتير «الأسد رئيس جمهورية الغابة». أطربه معنى الكاريكاتير وانطلق يضحك، وقال لى: هو كذلك الملك صار رئيسا للجمهورية».

« كان من الصعب على نفسى سماع هذه التعليقات، وأحسست بمدى المرارة التى فى قلب عبد الحكيم عامر».

«وبعد أن عاد إلى القاهرة تبين له عدم وجود تقرير كتبته عن زيارته للاتحاد السوفيتى، وكنت من ناحيتى حريصا على ألا أكتب أى تقرير عن أى مسئول يزور موسكو، وقد زاد هذا من توطد علاقته بى».

(٤٨)

ولا يقف الدكتور محمد مراد غالب عند هذا الحد فى تصوير إحساسه بالتدهور المبكر فى العلاقات بين جمال عبد الناصر وعبدالحكيم عامر، لكنه يدلنا على ما توحى به واقعة يرويها ويراها فى منتهى الخطورة حدثت قرب نهاية ١٩٦٦، وفيها اتضحت للدكتور محمد مراد غالب، وبصورة قاطعة، معالم التحزب الواضح من مجموعة عبد الحكيم عامر ضد الرئيس عبد الناصر حتى أن صلاح نصر فى حديثه العابر انتهى إلى تقرير فقدان الأمل فى الإصلاح مادام الرئيس عبد الناصر فى السلطة، ولنقرأ هذه القصة المثيرة والموحية فى آن واحد:

«. . . كان المشير عامر يتردد كثيرا وبانتظام على الاتحاد السوفيتى، تقريبا كل عام، وحدث فى نوفمبر ١٩٦٦ أن كان فى رفقته السيد صلاح نصر مدير المخابرات العامة، وثلاثة من قادة القوات المسلحة، منهم الفريق سليمان عزت، والفريق صدقى محمود، وكانوا يجلسون معا، يتحدثون، ودخلت عليهم دون أن يشعروا بى، فسمعت صلاح نصر يقول: لا فائدة لهذا البلد طالما هذا الرجل قاعد لنا هناك، ولهذا لن نستطيع أن نقوم بأى إصلاح. سمعت الجملة بوضوح على لسان صلاح نصر، فقلت فى الحال: الله. . الله. . ما هذا الكلام الذى

تقوله؟ وعلى الفور رد صلاح نصر قائلا لى: إذا لم تسكت فسنخرج ملفك».

«قلت له: أى ملف؟ إننى أعرف جيدا ما فى هذا الملف، إلا إذا كانت هناك إضافات من جماعتك، الذين يفبركون ما يريدون إضافته، لكن ملفى ليس مهما، فالمهم هو ملفك أنت الآن. ووجدت نفسى أحتد عليه، وتدخل المشير عامر لتهدئة الموقف وقال له: ياصلاح: الدكتور محمد مراد غالب هذا راجل، وكان يقصد أننى ليس من طبعى أن أنقل مثل هذه الأحاديث».

وينتهى الدكتور محمد مراد غالب من هذه الواقعة إلى قوله:

«وبالفعل لم أذكر شيئا للرئيس عبد الناصر، لأننى كنت أعرف أن ذلك ستكون نتيجته كارثة، وكنت أعلم أيضا أن الرئيس يعلم أكثر».

. . . .

ربما يتساءل القارئ بعد هذا عن جدوى العمل فى نظام يسوده الصراع، وعن الضمانات الإنسانية التى يتيحها هذا النظام لأشخاص يشغلون مراكز متقدمة من قبيل مركز مراد غالب نفسه، وربما يسأل القارئ نفسه ماذا كان ينتظر مراد غالب لو أنه لم يكن يحظى برعاية عبد الحكيم عامر وثقته فى رجولته؟

(٤٩)

ونأتى إلى أحاديث الدكتور محمد مراد غالب عن الرئيس

السادات، وهى الأحاديث الحافلة بالاختلاف مع الرئيس الثانى الذى عمل معه الدكتور محمد مراد غالب سفيرا، ثم وزيرا للدولة، ثم وزيرا للخارجية، ثم سفيرا، ثم وزيرا للإعلام، ثم سفيرا للمرة الثالثة، والذى ترك العمل معه باستقالة على هيئة برقية مفتوحة.

ومن الحق أن نشير إلى أن مذكرات الدكتور محمد مراد غالب لا تخلو من الثناء على الرئيس السادات، وبوسعنا أن نذكر القارئ بما نقلناه من قبل عن وصف الدكتور مراد غالب للسادات بالشجاعة فى قراره بالذهاب إلى القدس على الرغم من معارضته لهذا القرار فى ذلك الوقت.

وقد كرر الدكتور محمد مراد غالب الحديث عن شجاعة السادات فى مواضع أخرى ومنها قوله:

«والحق يقال أن السادات كان شجاعا فى اتخاذ قرار الحرب، وكان شجاعا فى الذهاب إلى القدس، فقد كان التيار المضاد لهذه الزيارة جارفا عنيفا تحداه السادات، وأقول هذا رغم أنى كنت ضد هذه الزيارة».

. . . .

وهذه فقرة أخرى لمراد غالب تنسف كل دعاوى الذين يهاجمون السادات فى وطنيته وفى إصراره على استرجاع أرض وطنه:

«لا أريد أن أشكك فى وطنية أنور السادات، فكان وطنيا ويريد استرجاع سيناء بالكامل، وكان صلبا فى استرجاع الأرض كاملة، كان

يريد حل القضية بأسرع ما يمكن والتفرغ إلى مشاكل أساسية تواجهه، وأهمها حالة الاقتصاد المصرى الذى أنهكته الحروب، وعدم الاستقرار الاجتماعى والسياسى الذى صاحب عملية السلام واسترجاع سيناء، والغضب العارم الذى شمل العالم العربى من الخليج إلى المحيط نتيجة لاتجاهاته القُطرية».

«حقيقة أنه قبل السيادة على سيناء منقوصة، لكنه كان مقتنعا بأن حرب أكتوبر هى آخر الحروب مع إسرائيل، وأنه ليس فى حاجة إلى إدخال قوات مسلحة بأحجام كبيرة ومعدات متطورة فى سيناء».

(٥٠)

ويحرص الدكتور محمد مراد غالب بحس وطنى ذكى على تفنيد رواية الهيرالد تريبيون المنشورة فى ٢٤ فبراير ١٩٧٧ والتى لا تفتأ القوى المعادية للسادات تكررها حول علاقة السادات بالمخابرات الأمريكية، وهو يعقب على هذه الرواية نافياً لها، وناسباً السبب فيها إلى الموساد الإسرائيلى واللوبى الصهيونى الأمريكى:

«... أقول صراحة إننى لا أملك دليلا واحدا ماديا لهذا الاتهام، لكنى أرجح أن الذى أوحى بنشر هذا الخبر هو الموساد الإسرائيلى واللوبى الصهيونى الأمريكى، خصوصا ونحن نعرف الصلة الوثيقة بين الموساد والمخابرات المركزية، وأن الغرض من تشويه سمعة السادات هو التقليل من حجمه والنيل من مركزه فى الداخل، خصوصا بعد أحداث ١٨ و١٩ يناير وإثارة الشعب المصرى ضده وإحداث فتنة داخلية أعنف

من ١٨ و١٩، وحتى يصبح السادات ضعيفا قابلا للضغط عليه وأكثر قبولا لشروط الصلح مع إسرائيل».

ثم يستطرد مراد غالب بلاشارة الذكية الماكرة إلى عدم حاجة السادات إلى المال فيقول :

هذا ولم يكن السادات فى حاجة إلى المال، فقد كان له ما يريد، وكثيرا ما كان يرعاه المشير عبد الحكيم عامر.

(٥١)

ونتنقل مع القارئ إلى بعض الانفرادات الأخرى التى تتمتع بها مذكرات مراد غالب، وهى انفرادات أتاحتها عين يقظة واعية رأت ما لم يره غيرها، وفهمت ما لم يفهمه غيرها، وأتيح لها أن تقدم رؤيتها فى وقت مناسب، وبذكاء بالغ.

نبدأ بالحديث عن انفراد الدكتور محمد مراد غالب بتقديم صورة مختلفة لموقف الرئيس السادات من مبادرة وزير الخارجية الأمريكى روجرز، ونحن نعرف أن الأدبيات «الناصرية» تشير إلى أن السادات أعلن رفضه للمبادرة لأنه لم يكن يعلم أن عبد الناصر قد أعلن موافقته عليها وهو فى موسكو، فلما عرف بموافقة عبد الناصر عدل موقفه بما يتفق مع موقف رئيسه. لكننا نفاجأ بالدكتور محمد مراد غالب فى مذكراته وهو يقدم رؤية جريئة ومناقضة!! يكاد ينفرد بها حيث يوحى للقارئ بأن السادات كان قد وصل فى ذلك الحين إلى ذلك القدر من القوة إلى الحد الذى كان يزايد فيه على موقف الرئيس عبد الناصر، وقد أصبحت صورة السادات وكأنه هو الذى يدافع عن وجهة نظر

الشارع العربى بينما تعرض عبد الناصر لسخرية الشارع وتشويه سمعته والسخرية من قبوله مبادرة روجرز.. هكذا يقول الدكتور محمد مراد غالب بالنص، ولنقرأ ما يرويه:

«والحقيقة أن قبول الرئيس عبد الناصر لمبادرة روجرز كان مرتبطا بنظرته المستقبلية، وتحرير سيناء، واستخدامها - كما ذكرت - [لإتمام] حائط الصواريخ وحماية قواتنا المسلحة فى أثناء عبورها قناة السويس. فى هذا الوقت كان السادات فى القاهرة، وبصفته نائبا للرئيس فقد أعلن رفضه مبادرة روجرز، معتقدا أن عبد الناصر لابد سيرفضها، لكن خلافا كبيرا حدث بين الرئيس ونائبه، لكن الذى عقد الأمور كثيرا هو رد فعل الشارع العربى الذى اعتبر أن عبد الناصر قد استسلم للضغط الأمريكى وخرج من الصراع وتخلى عن تحرير الأرض العربية، وعما كان يردده باستمرار من أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، وبالغ الشعب العربى فى نقد عبد الناصر وتشويه سمعته والسخرية من قبوله مبادرة روجرز، بينما ظهر أنور السادات وكأنه يدافع عن ضرورة استمرار مواجهة إسرائيل، بل وتصعيد حرب الاستنزاف».

. . . .

. . . .

هكذا يقول الدكتور محمد مراد غالب، ومن الطريف أن أعداء السادات حاولوا الالتفاف حول هذه الوقائع التى حدثت بالفعل وعمى

عليها فى مصر، وذلك بذكر أن السادات أخطأ وأن عبد الناصر غضب منه بسبب الخطأ، بينما نحن نعرف أن السادات فى حالى الرفض والقبول كان منفذاً جيداً لسياسات عبد الناصر التى تبدلت فجأة بإعلان قبوله للمبادرة وهو فى موسكو، بينما تدلنا رواية مراد غالب على أن الغضب الناصرى كان نتيجة طبيعية لهذه الصورة التى حدثت بمحض المصادفة، والتى قدمها الدكتور مراد غالب فى مذكراته بتجرد أبان عن الحقيقة.

(٥٢)

ولا يقف الدكتور محمد مراد غالب عند هذا الحد، لكنه يشير إلى أن مواجهة ساخنة قد حدثت بين الرجلين ناصر والسادات بسبب هذه الواقعة التى عُمى عليها كما ذكرنا، والتى رفعت من أسهم السادات على حساب عبد الناصر، بل يشير الدكتور محمد مراد غالب إلى أن الرئيس عبد الناصر بدأ بعدها يسترضى السادات بصورة قد لا يتصورها أى ناصرى(!!) وقد بلغ الأمر فى هذا أن ذهبت السيدة زوجة الرئيس عبد الناصر هى والسيدة ابنتها لزيارة السادات:

«... وعندما عاد الرئيس (أى عبد الناصر) إلى القاهرة لحضور احتفالات ثورة ٢٣ يوليو، حدثت مواجهة ساخنة بينه وبين أنور السادات، وزادها عنفا رد فعل الشارع العربى، وادعى السادات على إثرها أنه أصيب بنوبة قلبية واعتكف بقريته «ميت أبو الكوم»، واختلفت الآراء حول ما إذا كان السادات قد أصيب فعلا بنوبة قلبية أو أنه تظاهر بذلك».

«بقى أنور السادات فى قريته إلى أن صالحه الرئيس عبد الناصر ودعاه «لتغيير الجو» فى الإسكندرية، وفعلا سافر السادات وأقام فى دار الضيافة فى ستانلى».

«وكنت فى الإسكندرية خلال هذا الشهر (أغسطس ١٩٧٠)، ولما علمت بوجود السادات بها ذهبت لزيارته والسؤال عن صحته، وتصادف فى أثناء وجودى أن حضرت السيدة حرم الرئيس عبدالناصر وابنتها منى لزيارته أيضا، وبَقَيتْ بعض الوقت ثم انصرفت، كان السادات متجهما طوال الزيارة وصامتا، لكن عندما انصرفت حرم الرئيس نظر خلفها وقال: «آل جاية آل تطمن علىّ. آل يعنى بيحبونى قوى».

ويعلق الدكتور محمد مراد غالب على هذا بقوله:

«وشعرت بمدى المرارة التى يحس بها السادات، ولم أعر الأمر اهتماما إلى أن قابلت جمال عبد الناصرفى المعمورة».

....

يشير صاحب المذكرات بهذه الجملة إلى ما سنتناوله بعد قليل من حرصه على أن يذكر أنه أحس أن الرئيس عبد الناصر كان قد بدأ يفكر فى عودة عبد اللطيف البغدادى إلى الحياة السياسية.

(٥٣)

ويبدو حديث الدكتور محمد مراد غالب عن فترة الوحدة مع سوريا

حافلاً بما يدل على منتهى الإنصاف والعقل، وهو يسمى الفصل الذى يتحدث فيه عن تجربة الوحدة «محنة الوحدة»، مما يدل دلالة قاطعة على حقيقة نظرته إلى التجربة وهو لا يتنصل من مسئولية المصريين عن فشل الوحدة، وإن كان يلقى ببعض المسئولية على السوريين أيضا، وبوسعنا أن نبدأ بقراءة هذه الفقرة التى تبلور أحكامه الموجزة على الوحدة :

«... والحقيقة أن الإخوة السوريين أقبلوا على الوحدة بكل حماس وفتحوا بيوتهم للمصريين، ولم يبادلهم المصريون شعورهم [هذا] وانفتاحهم سوى قلة منهم. وسرعان ما شعر الإخوة السوريون بما يشبه الصدمة الثقافية والسلوكية فى مدينة كبيرة كالقاهرة، كل مَنْ فيها مشغول بنفسه ومشاكله، وبدءوا يشتكون من عدم المشاركة فى الحكم فى نظام ليست المشاركة من صفاته الأساسية!!».

«واشتكى أكرم الحورانى من أنه طلب مقابلة الرئيس وانتظر ٣ أيام حتى يقابله وهو نائب لرئيس الجمهورية».

«أما المصريون الذين يعملون فى الإقليم الشمالى، فقد مارسوا هوايتهم الفرعونية واعتبر كل منهم أنه جاء معلما ورئيسا، وكان يعوزهم بحق «ثقافة الوحدة».

«وتراكمت الخلافات والإحباطات واستقال الوزراء البعثيون وعلى رأسهم أكرم الحورانى وصلاح البيطار وعادوا إلى دمشق. وكان نظام الحكم فى سوريا يمارس سلطاته بدكتاتورية فظة وبالكثير من القهر

والإرهاب، ووصفت سوريا بأنها مستعمرة مصرية، ووصف المشير عامر بأنه إبراهيم باشا الذى حكم الشام أيام محمد على باشا الكبير».

«وقد كان للتآمر الخارجى تأثير بالغ على تعظيم الخلافات وعدم الرضا، وصرفت السعودية أيام الملك سعود أموالا طائلة لإفشال هذه الوحدة وتحطيمها، كما أسهمت ثورة العراق وعلى رأسها عبد الكريم قاسم فى القضاء عليها، هذا بخلاف القوى العظمى وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى الذى وقف ضد الوحدة ومعه الغرب بطريق غير مباشر».

«وكان لمطالب بعض السياسيين السوريين بحل المشاكل السورية مع دول الجوار وعلى رأسها تركيا، مثل استرداد لواء الإسكندرونة، ونقل جثمان السلطان سليمان الذى كان داخل الأراضى السورية والذى يحرسه جنود أتراك، ومشاكل المياه، ثم تصعيد الأعمال العدائية ضد إسرائيل وكميل شمعون فى لبنان، كان لكل هذا آثار سلبية على الوحدة».

(٥٤)

ويصل الدكتور مراد غالب إلى تصوير انطباعاته الآتية عن حدوث الانفصال بين مصر وسوريا، ويذكرنا بما تعمدت أجهزة الدولة التعمية عليه من أن الاتحاد السوفيتى اعترف بسوريا المنفصلة بعد ساعات من وقوع الانفصال(!!) وهو ما أبلغه له نائب وزير الخارجية السوفيتى فلم

يملك نفسه من إبداء الاحتجاج الفورى عليه:

«وأخيرا حدث الانفصال فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١، كنت آنذاك فى موسكو سفيرا لدولة الوحدة واستدعانى كوزيتسوف نائب وزير الخارجية الساعة السادسة مساء يوم الانفصال نفسه ليبلغنى اعتراف الاتحاد السوفيتى بسوريا المنفصلة بعد ساعات فقط من انفصالها، والحقيقة أننى استأت من هذا القرار ولم أملك إلا أن أقول أرجو أن يكون هذا القرار متماشيا مع مسار التاريخ».

. . . .

هكذا يقول الدكتور محمد مراد غالب وهو فى غاية الأسف!!

(٥٥)

ويعترف الدكتور محمد مراد غالب بحقيقة مهمة كثيرا ما نتنازل فى الخطاب المصرى «الوحدوى وغير الوحدوى» عن الاعتراف بها، ومع أن اعترافه بهذه الحقيقة يأتى عابراً، إلا أنه ذو أهمية خاصة لصدوره عن رجل فى مثل تجاربه وأفقه:

«. . . والحقيقة أن الشوفينية المصرية قد ولّدت فى سوريا التطرف القُطرى الذى بدأ يستشرى ويؤدى إلى هذا الانفصال».

. . . .

كذلك فإن الدكتور محمد مراد غالب يورد رأيا فى ثورة العراق فى ١٩٥٨ يبدو وكأنه فى منتهى الحياد، لكننا إذا تأملناه وجدنا فيه انحيازاً

واضحاً للقوى اليسارية التى قامت بهذه الثورة، وهو يراها لا تقل أهمية من حيث التأثير عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وهو يقول:

«... كانت ثورة العراق ثورة دموية غاية فى العنف لكن تأثيرها كان واسع النطاق وعميقا، فقد قضت على الملكية، كما قضت على حلف بغداد، وأخرجت العراق من الأحلاف العسكرية بضربة واحدة، كما أحدثت تغيرات اجتماعية واقتصادية واسعة النطاق، ولم تكن تقل من حيث التأثير عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢».

(٥٦)

وربما يقودنا مسار مدارسة هذه المذكرات بعد هذا إلى التأمل فى الانطباعات الشخصية للدكتور محمد مراد غالب تجاه بعض التجارب العالمية التى عاشها بحس إنسان قادر على الفهم والحكم على الأمور.

وهذا هو الدكتور محمد مراد غالب الذى يُنسب إلى الشيوعية حينا وإلى اليسار أحيانا والذى لاشك عند أحد فى تعاطفه مع اليسار ومع الاتحاد السوفيتى يجاهر فى هذه المذكرات بأنه لم يكن يتصور تطبيق كل مبادئ الاشتراكية على نحو ما هى معروفة فى التراث النظرى والأداء السوفيتى أو الصينى، وهو على سبيل المثال يبدى اعتراضه على أن تتولى الطبقة العاملة مقدرات الحكم على الأمور، وفى هذا المعنى يقول الدكتور مراد غالب بكل وضوح لا يحتمل أى لبس:

«... لم أتصور إمكان قيام دكتاتورية «البروليتاريا» أو الطبقة العاملة، ونظرت إلى الطبقة العاملة فى مصر وتساءلت: هل يمكنها أن

تحكم مصر وتقودها إلى نقلة حضارية جديدة؟».

. . . .

وهو يقدم مبرراته بوضوح أيضا فيقول:

«لاشك أن الحكم يجب أن يكون فى أيدى الصفوة من المثقفين والعلماء ورجال الإدارة والمتخصصين، ولاحظت أن أى عامل يجتهد ويواصل تعليم نفسه وثقافتها، وينال تعليمه جامعيا ينقل نفسه طبقيا، وهذا شىء طبيعى وأهلا به لو أنه استمر فى النجاح وأصبح وزيرا أو محافظا».

(٥٧)

وقبل هذا يعبر صاحب المذكرات الدكتور محمد مراد غالب عن أن اقتناعه بالماركسية لا يصل إلى درجة الاقتناع الكامل، ويتبدى هذا من خلال تعبيره عن تشككه تماما فى إحدى فرضيات الماركسية وهى تلك الخاصة بأصل الكون، ويبدو مراد غالب ميالاً إلى ما يقترب من الكفر بفرضيات الماركسية فى هذا المجال، وليس من حقنا بالطبع أن نقول إنه كان ميالاً إلى الإيمان بالإيمان الذى نعرفه.

ولنقرأ ما يلخص رأيه هذا حيث يقول:

«كانت هناك فرضية مهمة لا يستطيع عقلى أن يسلم بها، وهى أصل الكون المادى. فالمادية تفترض وجود المادة ثم تطورها. ولكنى كنت أسأل نفسى دائما هذا السؤال: ومَنْ أوجد هذه الكميات الهائلة من المادة التى تكون منها هذا الكون الذى ليس له حدود؟ إن المادية

تفتـرض وجودها وتبنى نظريتـها عليهـا ولا تبحث فى منشـأ وجودها أصلا!! فهى إذاً بالنسبة لى لم تحل قضية الخلق؟».

ويستأنف الـدكتور محمـد مراد غالب حديثـه فى هذه النقطة حيث يقول:

«... وحتى الآن فـالعلماء فى عصـر الثورة العلميـة التى نعيشـها يقدمون نظرية الخلق ويجزمون بصحتـها على أنها الانفجار الكبير الذى حدث لكتلة هائلة من المادة تختـزن فى داخلها مخـزونا لا نهاية له من الطاقـة، وأن هذا الانـفـجـار أوجـد الكواكب والنـجـوم والسـدوم والمجرات، وأعتقد أنهم وصـلوا إلى أصل الكون، لكنهم لم يفصحوا لنا: كيف وجـدت هذه الكتلة الهائلة مـن المادة؟ ومَنْ الذى أوجدها؟ وأين كانت موجودة؟ وهذه هى نـفس المشْكلة التى قابلتنى فى الحديث عن الماركسية المادية الجدلية والتاريخية».

. . . .

ربما جـاز لى أن أعلق على جـملة (أو كلمـة) عابرة وسط حـديث الدكتور مراد غالب حين يقـول: إن العلماء لم يفصحوا، وكأنه يوحى بأن العلماء يعرفون الحقيقة لكنهم لم يفصحوا عنها، بينما الحقيقة أنهم لم «يعرفوا» فى هذا الفرض الجدلى حقيقة ولا نصف حقيقة.

(٥٨)

ومع هذا كله يتحدث الدكـتور محمد مـراد غالب بقدر واضح من الاعتزاز عن نواحى التوافق بين أفكاره ومعتقداته وبين النظرية الماركسية

فيقول:

«ولكنى أعترف بأن كثيرا من أدبيات الماركسية شدتنى إليها خصوصا أنهـا تعتمـد على العلم والاقـتصـاد ونظريات التطور، وكلها عنـاصر يلمسها الإنسان وليست غيبيات تؤمن بها أو لا تؤمن!!».

. . . .

(٥٩)

وعلى الرغم من محاولة الدكـتور محمد مـراد غالب تبنى رؤية ما يسمـيه بالاتجاه القـومى فى معالجة الصـراع مع إسرائيل، فإنه يعـترف بصراحة بصدمته من تصرفات العرب بـعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد ويقول:

«لكنى أعترف بأنى أصـبت بخيبة أمل كبيـرة من السلوك العربى بعد كـامب ديفيـد ولجوئـهم إلى الصيـاح والاتهامـات بالخـيانة والألفـاظ الضخمة الفخـمة التى اكتفوا بها دون عمل فعـال وتكوين جبهة بديلة لمصر، والوقوف بحزم ضد إسرائيل والمساندة الأمريكية لها فى استمرار احتلالـها الأرض العربية، وزيادة المسـاعدة الأمريكية عـسكريا وماديا، وتشجيع إسرائيل على بناء المستوطنات. . إلخ».

والشاهد أن الدكـتور مراد غالب حـين يتحدث عن علاقـته الأولى بالفكر الماركسى فإنه يصور بداية هذه العلاقة كرد فعل عاطفى لانتصار الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية بقيادة ستالين:

«... وظلت أفكارنا مع الألمان، فكنا نود هزيمة الإنجليز الذين سامونا الذل، حتى لاحت هزيمة النازية والفاشستية، وهزنا انتصار الاتحاد السوفيتى بقيادة ستالين وأخذنا نراقب هذا الانتصار ونبحث عن الفكر الذى قاد إليه، وحصلنا على مرجعيات ومواد لا بأس بها حول الماركسية واللينينية والستالينية، وكان أول مَنْ أطلعنى على هذا الفكر صديق لنا كان من أكثرنا شجاعة وإقداماً، إن لم يكن أشجعنا جميعا، وهو كمال الدين حسنين الذى تطوع للحرب فى فلسطين فى الأيام الأولى لها، وقبل دخول الجيوش النظامية، واستشهد فى هذه الحرب، وكان مثلاً رائعاً للوطنية وإنكار الذات، وله شارع باسمه فى مصر الجديدة حيث كان يسكن».

«واظبت على دراسة الماركسية إلى أن تعرفت على المهندس عز الدين رفعت شقيق كمال رفعت، وكان من المتحمسين للماركسية، وكنا نتلاقى معاً لمزيد من الحوار والتحليل، ثم عرفنى بالدكتور عبدالفتاح القاضى، وذهبت إليه فى عيادته فى شارع ٢٦ يوليو، (فؤاد سابقا)، واستشعرت من كلامه وجود حزب شيوعى هو أحد قادته، وأنه يرحب بانضمامى إليه».

«لم أتحمس إلى الانضمام إلى حزب، لأن طبيعتى لا تتفق مع التنظيم الحزبى المنضبط والانصياع لقرارات تفرض علىّ وأريد ألايكون تفكيرى محدداً أو منصباً فى قوالب».

....

«ولكنى أعترف بأن كثيراً من أدبيات الماركسية شدتنى إليها، خصوصاً أنها تعتمد على العلم والاقتصاد، ونظريات التطور، وكلها عناصر يلمسها الإنسان وليست غيبيات تؤمن بها أو لا تؤمن!».

(٦٠)

ويتحدث الدكتور مراد غالب حديثاً خاطفاً عن إسهامه فى الحركة الوطنية قبل الثورة من خلال الخلية الرباعية التى كان عضواً بها، وعلاقتها بتنظيم الضباط الأحرار، وتحولها مع عبد الناصر من فكرة الاغتيالات إلى فكرة التنظيم العسكرى الواسع الأكثر فعالية:

«كانت خليتنا هى واحدة من خلايا عزيز المصرى التى تسعى لتغيير الأوضاع، وكانت هناك خلايا أخرى كثيرة تتصل بها من مجموعة الضباط الأحرار، وكلها كانت رافضة لفساد الملك وللأوضاع السياسية المتردية فى البلاد، تنادى بنفس المبادئ التى نادت بها ثورة ٢٣ يوليو فيما بعد، وقد استطاع جمال عبد الناصر ومجموعة الضباط الأحرار أن تجمع كل هذه الجماعات فى إطار واحد، وكان زملاء عبد الناصر يعتبرونه الشخصية البارزة فيهم، وكان قد عمل مدرسا فى كلية أركان الحرب وتخرج على يديه ضباط كثيرون».

«كانت مجموعتى إحدى خلايا جمال عبد الناصر، وكنا متصلين أيضاً بعزيز المصرى، الذى استفدنا منه كثيراً فى التعرف على حقيقة الأوضاع السياسية فى مصر، خاصة بالنسبة لمن كانوا حول الملك فاروق، وتأثرنا كثيراً بأفكاره، وكانت لديه مكتبة كبيرة جداً يعيرنا منها

بعض كتبه لنقرأها ثم نجلس معه بعد ذلك لنتناقش فيها».

«كان عزيز المصرى ينمى فينا التوجه لاغتيال الجنود الإنجليز والحلفاء، بحيث نجعل القوات الإنجليزية تشعر بقوة وخطورة المقاومة الشديدة لاحتلالها من جانبنا، ولقد آمنت بهذه النظرية وبأن الاغتيالات السياسية، بما فى ذلك اغتيال الحكام من رؤساء الوزراء المرتبطين بالملك، يمكن أن تكون لها نتيجة، وقد تأثر عبد الناصر نفسه بهذه النظرية لفترة قبل الثورة، ولكنه عدل عنها بسرعة قبل ١٩٥٢ واتجه إلى التنظيم العسكرى الواسع الأكثر فاعلية فى تغيير كل علاقات القوى السياسية فى مصر».

(٦١)

وفى هذه المذكرات نرى أحكام الدكتور محمد مراد غالب على أولى فترات حياته وعمله فى الاتحاد السوفيتى وهى ممتزجة بنوع من خيبة الأمل تجاه مستوى هذه الحياة، بل إننا نجد هذا الانطباع وهو يسارع أو يتسارع إلى الوجود بينما هو وزوجته لا يزالان فى طريقهما إلى الاتحاد السوفيتى لأول مرة فيقارن بين خدمة الطائرات والمطارات وجو هذه الخدمة، ونوعية الطائرات مقارنات سريعة موحية:

«... لكن أولى الصدمات التى صادفتنى حتى من قبل أن تطأ قدماى أرض الاتحاد السوفيتى، كانت فى مطار هلسنكى فى فنلندا، فقد سافرنا إلى فنلندا، زوجتى وأنا، وكانت زوجتى لا تزال فتاة صغيرة اعتادت على السفر بالطائرات الضخمة الفخمة الأمريكية التى

تقدم خـدمة عـالية بذوق جمـيل من مضـيفاتهـا داخل الطائرة، وكن يُخترن من أجمل فتيات ذلك الوقت».

«بينما نحن ننتظر فى مطار هلسنكى عاصمة فنلندا، نادوا علينا لكى نركب الطائرة السوفيتية، واتجهنا إليها لنجد طائرة صغيرة بمحركين فقط من نوع «بتش كرافـت»، وأُخذت زوجتى من منظر الطائـرة وسألتنى: هل هذه هى الطائرة التى سنركـبها إلى موسكو؟ صـعدنا إلى الطائرة التى كانت فى حالة من التقشف الشـديد من الداخل، ومضيفها رجل عسكرى من سلاح الطيران السوفيـتى لا علاقة له بأمور الضيافة، ولم أُول هذه الأمور المظهـرية بالنسبة لى أى اهتمـام، فإننى كنت أتطلع لما وراء هذا».

«وصلت بنا الطائرة إلى لننجـراد وجلسنا، زوجتى وأنـا، فى صالة كبـيرة أغلقت علينا وليس مـعنا أحد سوانـا إلى أن استدعـونا لركوب نفس الطائرة التى حملتنا إلى موسكو، والحقـيقة أن جلوسنا فى صالة واسعة وليس معنا أحـد قد جعل خواطرنا تتجه إلى عـملية مقارنة بين المتناقضات، أى بين ما هو موجـود فى الغرب وما صادفناه فى الاتحاد السوفيتى من خدمات ووسائل مواصلات ومظاهر اهتمام بالمسافر القادم إلى بلادهم. المهم أنـنا وصلنا إلى مـوسكو سـالمين عـلى متن الطائرة المتقشفة ذات المحركين».

(٦٢)

وبعد حـديثه المباشر عن هذه المظاهر الأولى فى التـجربة الشيـوعية

يعبر الدكتور محمد مراد غالب عن بعض الملامح المبكرة التى أزعجته فى التجربة السوفيتية حين قدر له أن يعيش فى الاتحاد السوفيتى تحت رقابة لصيقة... وأن يرى من خلال إقامته جموعا من الشعب وهى تتحرك فى قتامة شديدة:

«... ومن البداية صُدمت لما رأيته لأول وهلة، فقد أقمت فى فندق ممتاز لمدة عامين، لكننى شعرت بمراقبة لصيقة وشديدة جدا تكاد تكون ليل نهار لأية حركة من تحركاتى أنا وزوجتى، لكننى استطعت أن أتفهم ما يدور وأن أقول لنفسى إن هذا بلد يدافع عن كيانه ضد قوى عاتية من الغرب، ومن المعقول أن تكون فيه هذه الإجراءات».

«ثم بدأت أتأمل منظر الجموع السائرة فى الشوارع وهم قادمون عند الغروب من العمل تراهم أعدادا هائلة من البشر يرتدون معاطف بلون مجلد أسود أو بنى داكن أو رمادى داكن أو كحلى، ويبدون مكدودين متعبين، والشارع كله يعكس قتامة شديدة، وتساءلت بينى وبين نفسى: هل هذه هى الاشتراكية؟ وهل هذا هو المجتمع الاشتراكى؟».

«كان السؤال محصلة ما رأيته منذ أن غادرت مطار هلسنكى، كذلك تأملاتى من مشاهداتى فى الفترة القصيرة الأولى من وجودى فى الاتحاد السوفيتى، وبعد بضعة أيام من وصولى ذهبت إلى البولشوى، وكان يعرض باليه جيزيل، وهى قصة حب جميلة بموسيقى رائعة وأداء راقص عالى المستوى، يصل إلى حد الإعجاز الفنى، وملابس غاية فى الكمال والروعة ألوانها جميلة. وتساءلت: هل هؤلاء الذين صنعوا كل هذا الإبداع هم أنفسهم السائرون فى الشارع بوجوه قاتمة

مكدودة؟!».

. . . .

ويصل الدكتور محمد مراد غالب بعد هذا كله إلى تشخيص ما رآه على أنه نوع من التناقضات العميقة، معترفا بأن هذه التناقضات سببت له صدمة فكرية لا يزال يتذكر أبعادها إلى الآن:

« . . . كل هذا جعلنى ألمس المتناقضات العميقة جدا فى المجتمع السوفيتى، وأستخلص من كل هذا صورة توضح لى كيف يسير النظام السوفيتى، وما الاتجاه الغالب فيه، ومَنْ الذى يحرك هذه الدولة بقوتها الجبارة، وإلى أية ناحية تسير، وما المجتمع الذى تريد إقامته؟».

«ولقد سبب لى هذا صدمة فكرية، فأنا ذاهب إلى الاتحاد السوفيتى ولدى قبول كبير لهذا البلد وللفكر الاشتراكى، وكنت متصلا بجماعات شيوعية فى مصر، وقرأت الكثير عن أفكارهم وإنجازاتهم، وكنا نتناقش فى انتصارات الاتحاد السوفيتى ونجاحاته والاكتشافات العلمية الكبيرة التى حققها، وها أنا الآن أقابل المجتمع وجها لوجه».

(٦٣)

لهذا كله فليس غريبا أن نرى الدكتور محمد مراد غالب وهو يوضح موقفه النهائى من الفكر الاشتراكى على النحو المتحفظ ـ ولا نقول المهاجم ـ الذى يشاركه فيه المثقفون غير المنتمين لليسار، بل بعض الذين كانوا منتمين لليسار ومنظمين فيه فيقول:

«... فمازلت أؤمن بالعدالة الاجتماعية، وأن الاشتراكية لم تمت، ولكن الذى انهار هو النظام الشمولى الذى شوه الاشتراكية، والفكر الاشتراكى سيظل حيا، ولست أقصد التطبيق السوفيتى أو أى تطبيق آخر، ولكن أعنى العدالة الاجتماعية بمعناها الواسع. وجدير بالذكر أن كلينتون وبلير وشرويدر رؤساء أمريكا وانجلترا وألمانيا أحسوا بالنواحى السلبية للعولمة الرأسمالية الكوكبية، ونادوا بالطريق الثالث، الذى يعنى الرأسمالية والعولمة ذات البعد الاجتماعى».

....

هكذا فإن الدكتور محمد مراد غالب فى الفقرة التى نقلناها لتونا يبدو وكأنه قد سار بالفعل خطوات فى طريقه إلى التحول إلى التبشير بعولمة ذات بعد اجتماعى.

(٦٤)

والواقع أن الدكتور محمد مراد غالب يجيد الحديث فى مواضع متعددة من مذكراته عن حصاد أربعة عشر عاما من معايشة المجتمع السوفيتى، وهى الأعوام التى قدر له أن يعيشها فى الاتحاد السوفيتى، وهى فترة لم تتح لأى مصرى آخر على هذا المستوى، وهو يلخص بعض هذه الملامح فى فقرات مختصرة تعبر عن إحساسه بوطأة الأمن وهاجسه والمراقبة على أبناء الشعب السوفيتى، كما يلمس بوضوح مدى المعاناة الصامتة التى كان الأدباء والفنانون يعانونها، وربما كان من حق القارئ أن ننقل له بعض هذه الفقرات الدقيقة والموحية:

«. . . وكانوا يتكلمون كثيرا عن الحرية، ولكن فى حذر، وكانوا يعرفون بعضهم البعض معرفة تامة، فكثيرا ما يغيرون موضوع الحديث إذا وصل مَنْ يعتقدون أنه من أجهزة المراقبة ويحذروننى منه، ولكن هذا كان يحدث من وقت لآخر وليس بشكل دائم».

«كانوا يحبون بلادهم وعاداتهم وطريقة حياتهم. حقيقة كان الفنانون والكتاب والشعراء يعيشون فى مستوى عال نسبيا، لكن ظلت حياتهم دون أقرانهم فى الغرب، وكان هذا يؤلمهم، وكثيرا ما حكوا لى عن متاعبهم فى الحصول على سيارة. . . روسية الصنع طبعا، وكذلك بالنسبة لشقة فى عمارة جديدة، ولم تكن لديهم القدرة على شراء شقق لأولادهم عند الزواج، لكنهم عموما كانوا يقضون وقتا سعيدا ومرحا مع بعضهم البعض».

(٦٥)

وفى فقرات أخرى يعبر الدكتور محمد مراد غالب عن معاناة مجموع أفراد الشعب السوفيتى العاديين من غير الفنانين والأدباء، ويقدم حديثه هذا فى عبارات دقيقة وصادقة دون أن يخشى الاتهام بأنه ينتقد السوفييت لصالح النظم الغربية:

«. . . أما عن باقى الشعب السوفيتى فكان يعيش فى ظروف قاسية. فالشقة ذات الحجرات الأربع تسكنها ٤ عائلات بأطفالهم، وعادة ما يكونون واحدا أو اثنين على الأكثر، وللجميع مطبخ واحد وحمام واحد، وكثيرا ما كانت تحدث خلافات بل ومعارك عنيفة بين العائلات أو زوارهم».

ويضرب الدكتور محمد مراد غالب مثلاً طريفاً وموحياً على هذه المشكلات الاجتماعية بقوله:

«. . . كانت تعمل فى منزلى إحدى الشغالات الروسيات، وكانت تمتاز بقوة بدنية هائلة تفوق اثنين من العمال الرجال، وفى يوم جاءت وفى وجهها بعض الكدمات وسألت «دوسيا» ـ وكان هذا اسمها ـ عن السبب فقالت إن زوجها ضربها وكانا مطلقين، ولكن لعدم وجود مأوى لأى منهما فكانا يعيشان رغم طلاقهما فى نفس حجرتهما معا، ولما سألتها عن الذى أحدثته لزوجها من إصابات أجابت بابتسامة ساخرة: إنهم نقلوه إلى المستشفى».

(٦٦)

ويتحدث الدكتور محمد مراد غالب بالتفصيل الذى لا يقدر عليه غيره عن بعض مظاهر الأزمة التى وصل إليها تطبيق النظام الشيوعى والتى قادت ضمن عوامل أخرى إلى ما نعرفه من انفراط عقد هذا النظام، وهو يتحدث عن طبيعة أو جوهر أزمة المساكن التى اجتاحت دول الاتحاد السوفيتى إلى أن يصل إلى قوله:

«الحقيقة أن خروشوف كان أول حاكم سوفيتى يهتم بهذه المشكلة، وقام بعملية بناء هائلة لمنازل مكونة من أربعة طوابق، ولكن دون مصاعد، وكانت كلها مشيدة بطريقة الوحدات سابقة التجهيز حتى وصلوا إلى بناء حجرتين مثلا ونقلهما على لوريات ضخمة لمواقع التشييد».

(٦٧)

وفى موضع ثالث يتحدث الدكتور محمد مراد غالب عن أزمة

النظام السوفيتى مع أفراد الشعب الذين بدءوا يتطلعون إلى الأفضل ويتشككون فى قيمة ما تقدمه لهم الدولة السوفيتية فى ظل الوعى بالظروف الأخرى للحياة فى الغرب التى بدأت تصل إلى أسماعهم وعيونهم أو حواسهم فى ظل ثورة وسائل الاتصالات فيقول:

«... لا أنسى حديثا دار مع أندروبوف، فقد قال: إن الأمر كان سهلا أيام ستالين، وكنا نضع فى كل حجرة مكبرا للصوت متصلا بمراكز الإذاعة، وكنا نقول لهم إنكم تعيشون فى مستوى أعلى من مستوى الشعوب الرأسمالية، لكن الحرب العالمية وظهور الترانزستور جعلت أى سوفيتى يستطيع سماع الإذاعات الغربية ويسمع كلاما مضادا».

«كذلك كان يخرج الاتحاد السوفيتى يوميا حوالى ١٢٠ ألفا فى وفود مختلفة ومثلهم يأتون إليه ويتكلمون عن تجربتهم ورؤيتهم للكيفية التى يعيش بها الإنسان فى الغرب».

«أما فى المستقبل - وهذا مهم جدا - فإن أى سوفيتى يملك جهازا تليفزيونيا يستطيع أن يرى قنوات من الغرب من خلال الأقمار الصناعية، وسوف يسمع ويرى الصورة بنفسه.. لا يمكن أن نخفى عنه أى شىء، وهذا يعنى أننا لابد أن نعمل لشعبنا الذى هو فى حاجة إلى الكثير».

(٦٨)

ومع كل هذا الإحساس بالواقع الثقيل الذى يتبدى بوضوح من

خلال قراءة ما يعبر عن مدى القلق الذى اكتنف تجربة مراد غالب المواطن العربى الأول فى موسكو، وفى العلاقات مع الاتحاد السوفيتى، فإن المذكرات لا تخلو من كثير الطرائف والمبهجات.

ومن أطرف ما تتضمنه مذكرات الدكتور محمد مراد غالب تلك التعليقات التى ينقلها عن الرئيس خروشوف فى أثناء زيارته لمصر فى ١٩٦٤، وهى تعليقات موحية أراد بها الدكتور محمد مراد غالب أن يصور بعض ما أدركه هذا الرجل الذكى من غرائب وطرائف الأوضاع فى مصر فى ذلك الوقت، وتكتسب هذه التعليقات أهميتها من أنها تنشر لأول مرة، إذ لم يكن من المعقول ولا من المقبول أن يبادر نظام الحكم فى مصر إلى إثبات مثل هذه الانتقادات التى أبداها خروشوف، ولا إلى السماح بنشرها أو تداولها، كما أنه لم يكن من المتوقع أن يسرب أعوان خروشوف مثل هذه الانتقادات إلى الصحف السوفيتية التى كانت حريصة على الالتزام بالجو الجديد من حسن العلاقة والتزام الاحترام المتبادل بين التجربتين السوفيتية والمصرية ونظامى الحكم فى البلدين، ومع هذا فإن الشعب المصرى بما عرف عنه من تواصل أبنائه وحرصهم على نقل ما يدور فى الكواليس كان قد سبق الدكتور محمد مراد غالب إلى نقل هذه التعليقات والآراء والانتقادات ولكن بطريقة شفاهية، وها هو الدكتور محمد مراد غالب يوثق بعض التعليقات التى كان هو نفسه بمثابة أقرب الناس إلى سماعها:

«... ثم زرنا معالم الإسكندرية ومنها قصر المنتزه، وكان مدير القصر يشرح لخروشوف فخامة القصر وكيف كان الملك يعيش فى كل

هذا الترف، وخرجنا من القصر والتف حوله الصحفيون وسألوا خروشوف عن انطباعاته. كانوا ينتظرون خطبة عنترية ضد الملكية والاستعمار والإمبريالية، وإذا بخروشوف يفاجئهم بقوله: «أنا مش فاهم طردتم الراجل ده ليه؟».

وهنا يعلق الدكتور مراد غالب بقوله:

«طبعا كان فى ذهنه المقارنة مع قصور القياصرة المذهلة فى الفخامة والثراء والتى يتضاءل بجانبها قصر المنتزه».

(٦٩)

وفى موضع ثان يصور الدكتور مراد غالب ذكاء خروشوف فى اكتشافه السريع (أو الذكى) لظاهرة البطالة المقنعة فى المصانع المصرية التى كانت تحفل بجيوش العمال دون عمل مواز لأعدادهم الكبيرة:

«... وأخيرا ركبنا القطار إلى القاهرة، ولأول مرة يرى خروشوف جماهير مصطفة على جانبى قضبان السكة الحديد ومحطاتها من الإسكندرية إلى القاهرة».

«ونزل خروشوف فى قصر القبة وقام بزيارة لمعالم القاهرة وكثير من مصانعها والآثار المصرية العظيمة، الأهرام وأبى الهول والمتحف المصرى.. إلخ».

«وكان أكبر حشد شاهده فى سرادق لمصانع أبى زعبل، وكان عدد العمال هائلا لا يتناسب مع إنتاجها، وكان تعليق خروشوف: ما هذا

العدد الهائل من العمال!! وما إنتاجهم!! أحسن لكم أن تسرحوهم وتعطوا لهم أجرهم لأنهم بالقطع يعطلون الإنتاج!».

. . . .

وفى موضع ثالث يذكر مراد غالب بعض ما دار فى زيارة على صبرى لموسكو قبل تنحية خروشوف بأسبوع فيشير إلى سخرية خروشوف من ضخامة عدد الوفد المصرى الرسمى الذى صحب على صبرى رئيس الوزراء فى زيارته لموسكو:

« . . . كان الوفد المرافق للسيد على صبرى كبير العدد ، فقد كان معه وفد صناعى برئاسة الدكتور عزيز صدقى وزير الصناعة، ويصحبه جميع رؤساء المؤسسات الصناعية، والسيد عبد المحسن أبو النور وزير الزراعة، ويصحبه رؤساء المؤسسات الزراعية، وتجمع جميع أعضاء الوفد فى مطار موسكو لاستقبال السيد على صبرى الذى وصل إلى موسكو بعد وصولهم، وكان فى استقباله خروشوف لكونه رئيس الوزراء السوفيتى. أخذ خروشوف يصافح كل فرد فى هذا الوفد الذى كان يقترب من مائة شخص، وأخيرا التفت إلىّ خروشوف وقال مازحا: «هو لسه حد باقى فى مصر».

(٧٠)

على أن أعظم ما تقدمه هذه المذكرات فى حق خروشوف ما يرويه الدكتور مراد غالب عن إيمان ذلك الزعيم السوفيتى بالتكنولوجيا والتقدم العلمى ودورهما فى تحقيق التنمية والقيمة المضافة، ويعترف

مراد غالب بطريقة غير مباشرة بأنه، هو والزعيم عبد الناصر، كانا بعيدين عن إدراك ما أدركه خروشوف من فهم لسر التنمية، وقدرتها على توظيف العمال توظيفاً سليماً بعيداً عن دعاوى محدودية الموارد، وكثافة السكان، وما إلى ذلك مما كان خروشوف يعتبره بمثابة كلام فارغ.

وهذا هو ما يرويه الدكتور محمد مراد غالب عن واقعة محددة قادت إلى هذا الحديث المهم:

«... ودارت مناقشة مع الرئيس عبد الناصر حول ضرورة توظيف العمالة، لكن خروشوف كان من رأيه أن الفيصل هو التكنولوجيا العالية، فهى التى تنفع وتدر دخلا للدولة لإعادة استثمار القيمة المضافة. وفى النهاية قال لى عبد الناصر: «خد صاحبك ده ووصله لقصر القبة». وفى السيارة قلت لخروشوف: إننا دولة محدودة الموارد وكثيفة السكان، فرد خروشوف: «حتى أنت تردد هذا الكلام الفارغ.. انظر إلى اليابان لا يوجد فى باطن أرضها سوى البراكين، ولكنها تملك الإنسان المدرب الواعى، وانظر إلى إنتاجها!! ثم إنها أكثر منكم سكانا». والحقيقة أن خروشوف كان يؤمن إيمانا قاطعا بالتكنولوجيا، وكان سابقا لعصره فى الاتحاد السوفيتى، وحتى عندما زار الهرم الأكبر علق قائلا: إن التكنولوجيا الحديثة تستطيع أن تبنى أكبر منه فى مدة وجيزة، ونسى أنه بنى منذ أربعة آلاف سنة».

(٧١)

ولا يكف مراد غالب عن امتداح قدرات الزعيم السوفيتى خروشوف

وشخصيته وسياساته وحبه لمصر:

«كان خـروشوف يؤمن بالتكنولوجيـا إيماناً لا يتزعـزع، ويرى أنها الأساس للصناعة السوفيتية، لكن الوقت لم يسمح له باستكمال تطبيق أفكاره، فقد أزاحوه من السلطة فى ١٥ سبتمبر ١٩٦٤».

. . . .

وهو يلخص أهم إنجـازات خروشوف السـياسـية مركـزا على عناية خروشوف بحرية الفكر وازدهار الفنون والآداب:

«والحقـيقـة أن خروشوف بعـد المؤتمر العشـرين للحزب الشـيوعى السوفيتى وتصفـية الستالينية، جنح إلى التخفيف والـترفيه عن الشعب السوفيتى، وظهر هذا واضحاً فى الاهتمام بتوفير الأغذية فى الأسواق، ومشاريع الإسكان الكثيرة، بعد أن كانت مشكلة الإسكان قد استعصت إلى حد أن الرجـل كان يطلق زوجتـه ويضطر للبقـاء معـها فى غـرفة واحدة، مما يسبب مشاكل خطيرة قد تصل إلى القتل».

«وأطلق خروشـوف حرية الفكر ولكن فى حـدود، وأتاح قدراً من حرية التعـبير لفنون الرسم والنحت والتصـوير، وإن كان له موقف من التجريدية والسريالية، وله وصف يقـول: «إذا أتيت بذيل حمار وتركته يشخبط على الورق فالنتيجة رسم كالسريالية».

«وأتذكر أنه سمح لفـرقة جاز أمريكية لأول مرة بإحـياء حفلات فى موسكو، وهو نفسه لم يكن يستسيغها، لكنه يقول: دع الشعب يستمع ويحكم بنفسه عليها».

«وبدأت المسارح تعرض مسرحيات فيها الكثير من الحرية فى التناول ونقد المجتمع السوفيتى، كما شهدت انتعاشاً لعروض من المسرح العالمى، وفى مقدمتها أعمال شكسبير، وسمحوا بعرض روايات لديستويفسكى، وكانت محرمة مثل الإخوة كرامازوف، وأنتجوا منها أفلاما سينمائية، وأنتجوا أفلاما عن روايات تولستوى الذى كان يحظى باحترام كبير لدى السوفييت، منها رواية الحرب والسلام».

«أى أن فترة حكم خروشوف شهدت نهضة أدبية وفنية وفكرية، وكان لخروشوف منطق غير مألوف بالنسبة للتفكير السائد، فقد وُجهت إليه الانتقادات مثلاً لأنه اشترى قمحاً من الولايات المتحدة وكندا والدول الإسلامية ليواجه المجاعات التى حدثت فى بعض الأماكن من الاتحاد السوفيتى، وكان رده: ماذا تريدون؟ هل أفعل مثل ستالين ولا أستورد القمح من أجل الكرامة وأترك الناس يموتون من المجاعة».

(٧٢)

ويواصل الدكتور مراد غالب قصيدة المديح فى هذا الزعيم السوفيتى فيقول:

«كان خروشوف سابقاً لزمنه فى رؤيته بالمقارنة بكثيرين من زملائه فى المكتب السياسى واللجنة المركزية، وكان يشعر تماماً بتخلف الاتحاد السوفيتى عن الولايات المتحدة من الناحية التكنولوجية، وكان يرى أن الحزب يجب أن يتحول إلى قوة دفع للتنمية العلمية والتكنولوجية والإدارية».

«وكانت علاقتى به أكثر من ممتازة، فقد أصبح بالنسبة لى صديقاً

حميماً، صحيح أن علاقتى فيما بعد كانت طيبة مع بريجنيف وكاسيجين، لكن فيها بعض الكلفة بعكس علاقتى مع خروشوف التى كانت بلا حواجز».

....

«وذات مرة سألته: هل تريد أن تكون مصر شيوعية؟ فقال: هذا يتوقف على رغبتكم أنتم، فلو رغبتم فى هذا فسأرسل لكم برقية تأييد، لكننا لا نعمل من أجل أن تكونوا شيوعيين، فإن تجاربكم هى التى ستعلمكم إلى أين تذهبون».

«كان خروشوف يعبر عن حبه لمصر، وأذكر أنه بعد انتهاء زيارة السيد على صبرى وسفره قال لى خروشوف: إننى أحب مصر، وإن هذا الحجم من المساعدات التى قدمتها لمصر لم أكن مفوضاً بها من المكتب السياسى».

«وبالفعل حدث حين حاكموه فى اجتماع اللجنة المركزية الذى انتهى بعزله أن اتهموه ببعثرة أموال الاتحاد السوفيتى، واتخذوا من مصر وكوبا مثلين على هذا».

(٧٣)

ويبدى الدكتور محمد مراد غالب اعتزازه بعلاقته بخروشوف وسعادته البالغة بما أحسه من تقدير خروشوف له:

«والحقيقة أننى كنت أحب هذا الرجل وأعتقد أنه كان يبادلنى نفس الشعور، فأنا السفير الوحيد الذى ذكره فى كتابه «خروشوف يتذكر»،

سواء من سفراء من الغرب أو الشرق، وقد شمل كتابه فقرة خاصة بى ذكر فيها تقديره وإعجابه وأننى كنت أترجم أحاديث شخصية بينه وبين عبد الناصر، وختمها بقوله: «ولقد كنا نحترمه».

(٧٤)

ويروى الدكتور محمد مراد غالب بعض المواقف الطريفة التى دارت عرضاً والتى تبين مدى ما وصلت إليه سطوة الزعيم السوفيتى خروشوف على زملائه، وكيف كانت له السيطرة حتى على الرئيس السوفيتى فوروشيلوف، وكان أحد القادة العسكريين، وهو يقول:

«... وحدث فى أثناء بداية الجلسة وهجوم الرئيس على الذين يتقولون على مصر باتباع سياسة اللعب على الحبلين، أن استنكر المارشال فوروشيلوف ـ وكان رئيساً للاتحاد السوفيتى ـ موقف مَنْ يقول ذلك، والتفت إليه خروشوف وقال له: مَنْ قال لك أن تقول مثل هذا الكلام؟ ومَنْ عينك محامياً لعبد الناصر؟ وسكت فوروشيلوف ولم ينطق بكلمة».

. . . .

وفى واحد من مواضع حديثه عن علاقته الوثيقة بخروشوف يروى الدكتور محمد مراد غالب هذه القصة الطريفة:

«وسألته مرة عن مصير مالينكوف وكان رئيسا للوزراء بعد ستالين فأجاب: إننا عيناه مديرا لمحطة كهربائية «فول أوتوماتيك» حتى لا يستخدم عقله!!».

. . . .

ويروى الدكتور محمد مراد غالب فى مذكراته هذه الواقعة الإنسانية الطريفة التى تنم عن إنسانية خروشوف:

«كان خروشوف يبدو رجلا فظا، والحقيقة أن الجانب الإنسانى فيه كان كبيرا للغاية، وكثيرا ما كانت تتغلب عليه مشاعره. وأتذكر أنه زار الهرم الأكبر وهو فى مصر ووقف يشاهد رجلا صعد الهرم ونزل فى عشر دقائق، وما أن نزل الرجل حتى احتضنه خروشوف وقبله والدموع فى عينه وقال له: أنت بطل».

(٧٥)

وتتضمن مذكرات الدكتور محمد مراد غالب كثيرا من تفاصيل وخبايا الحياة السياسية السوفيتية، ومنها على سبيل المثال ما عرفه صاحبها من تفصيلات قرار تنحية خروشوف، وهذه هى روايته المختصرة والدقيقة عن عزل خروشوف على يد اثنين من الزعماء السوفيت كان أحدهما بريجنيف الذى لم يكن يحظى بالقدر ذاته من حب مراد غالب:

«وفى ١٤ سبتمبر ١٩٦٤، أعلن رسميا عزل خروشوف بعد أسبوع من زيارة الوفد المصرى، ولا داعى لتحليل كامل الأسباب عزله، ولكن سخاؤه فى تقديم كل هذه القروض لمصر أحد الأسباب التى ذكرت فى محاكمته أمام اللجنة المركزية».

«كان عزل خروشوف نتيجة لمؤامرة بريجنيف وشيليين، ورتبوا عزله

بإتقان، فقد كـان على شاطئ البحر الأسود للراحة بعـد مغادرة الوفد المصرى لموسكو، وطلبوا منه الحضور فوراً لمناقـشة أمور مهمة، وطلب خروشوف تأجيلها لكنهم أصروا على حضوره».

«وعندما حضـر واجهه بريجنيف وأعضاء المكتب السـياسى بضرورة اعتـزاله والتخلى عن مناصبـه فرفض، وخيروه بأن يسـتقيل هو بنفـسه ويكرم تكريماً لائقاً ويصبح المواطن الأول شـرفياً، ولكنه رفض وأصر على طرح القضيـة على اللجنة المركزية للدفاع عن نفسـه، وكان يوجه الاتهام له فى اللجنة المركزية سـوسلوف، وبدا كل شىء مرتباً فى هذه الجلسة التى أدانته وعزلته بعـد قائمة طويلة من الاتهامات، من أخطرها ما سـبق ذكره عن تقـسيم خـروشوف الحـزب الشيـوعى إلى صناعى وزراعى، وعدوا ذلك بمثـابة تدمير للحـزب وسلطاته، وتفكيك وحدة الاتحاد السوفيتى التى يرعاها الحزب ويؤمنها».

«والحـقيـقة أن الأمـر لا يخلو من أسـباب شـخصـية، فـقد كـان خروشوف يعاملهم باستخفاف، يصل أحياناً إلى درجة الإهانة، وأتذكر أن السيد على صبرى طلب مقابلة خروشـوف على انفراد، وكنت أنا معه، وهمّ بريجنـيف بأن يتبعه، لكنه أشار إليـه إشارة فيهـا الكثير من التحقير، وقال له: «هذا ليس شأنك»!!».

(٧٦)

كذلك يروى مراد غالب فى هذه المذكرات بعض ما عرفه من أسرار عهـد سـتالين، وذلك من خـلال حديثـه عن صداقـته ولقـاءاته بابنة ستالين، وهو يتحـدث عن مواقف كثيرة ومهـمة، بل إنها تمثل ضرورة

لإطلاعنا على تاريخ هؤلاء الأصدقاء الذين دامت علاقتنا بهم ردحا من الزمن، ونجتزئ من هذه المواضع ببعض ما يرويه عن بعض الجوانب الإنسانية والشخصية والسياسية فى شخصية ستالين وأسرته، ونبدأ بهذه القصة التى يتحدث فيها عن قسوة ستالين حتى على ابنه:

«كثيرا ما وصفت [الضمير يعود على ابنة ستالين] قسوته حتى فى إدارته للحزب، وأنه كان يتعامل بمنتهى الصرامة والحزم والقسوة المتناهية مع مَنْ يهمل فى الحرب، وحدث عندما وقع ابنه [أى ابن ستالين] جيكوب فى أسر الألمان فقد أرادوا أن يبادلوه بالمارشال فون باولوس الذى أسر فى ستالينجراد، وكان رد ستالين: أنا لا أبادل مارشالا بضابط صغير ورفض المبادلة، ومات ابنه فى الأسر من التعذيب».

. . . .

ربما جاز لنا أن نعقب هنا بأن هذا الذى تتحدث عنه المذكرات ربما كان فى نظر ستالين أقرب إلى العدل منه إلى القسوة.

. . . .

وأنظر أيضا إلى هذه الفقرة:

«وقد روت لى أن تخلصه من أصدقائه كان يتم بطريقة فظة للغاية، حتى إن واحداً مثل بوخارين، وكان من أكثر أعضاء المكتب السياسى ثقافة وتطوراً من ناحية الماركسية والاشتراكية، ركع أمام بيريا لينقذه، لكنه قتله بالمسدس بأمر ستالين، وفعل هذا مع كثيرين آخرين مثل كامينيف، وزينوفييف، وتروتسكى الذى أرسل وراءه مَنْ قتله فى منفاه فى المكسيك»

(٧٧)

ومن المهم أن نلخص للقارئ أيضا بعض ما يرويه الدكتور مراد غالب من آراء ابنة ستالين التى كانت صديقة له، وأفكارها المناهضة للشيوعية، وهو على سبيل المثال يورد بعض آرائها الإنسانية، وهى الآراء التى كونتها بعد تجربة إنسانية مرت بها حين أقدمت على الزواج من هندى فعارضها بولجانين رئيس الوزراء بينما وافقها النجم السينمائى المثقف تشيركاسوف.

لنقرأ ما يرويه الدكتور مراد غالب:

«. . . وكان لها موقف ضد النظام السوفيتى، إذ لم تكن مع النظام الشيوعى، وكانت تقول لى: إنهم منافقون. . لقد قلت لبولجانين، وكان رئيسا للوزراء، إننى سأتزوج هنديا، وقال لى: ألم تجدى غير هذا الهندى؟ إنه رجل من بلد فقير من العالم الثالث ومن شعوب متخلفة. ثم قالت لى: هذا هو رئيس الاتحاد السوفيتى الذى ينادى بالاشتراكية ويهاجم العنصرية ويقول لى هذا الكلام. وأضافت: إننى قابلت تشيركاسوف وهو نجم سينمائى فى الاتحاد السوفيتى، وكان يمكن أن يكون من أكبر نجوم السينما فى العالم لولا أنه روسى، فقلت له: إننى سأتزوج رجلا هنديا فأخذ تشيركاسوف يشيد بالهند وحضارتها وثقافتها والحضارات الشرقية عموما. وأردفت تقول: انظر إلى الفرق بين رجل مثقف مثل تشيركاسوف وبين رجل يردد الشعارات طوال الليل والنهار وهو غير مقتنع بها».

كذلك يروى الدكتور محمد مـراد غالب بطريقة مركزة جوهر نقاش دار بينه وبين ابنة ستالين حول مدى تقديرها وحبها لأبيها:

«قلت لها: كيف تكرهـين أباك وهو رجل متقشف يضحى برفـاهيته ليعمل كل شيء لبلده؟! قالت لى: لا.. إن العنصر الإنسانى هو أهم من أى شىء آخر».

(٧٨)

وقبل هذا يروى مراد غالب قصة معرفته بابنة ستالين، وتوثيق علاقته بها وهى قصة مهمة :

«... كان لى حظ التـعرف عن قرب على سـفيتلانا ابنة سـتالين، وكـان ذلك بالطبع بعـد وفـاة أبيـهـا، حـيث إننى ذهبت إلى الاتحـاد السوفـيتى لأول مرة عـام ١٩٥٣، وكانت قد مـرت على وفاته بضـعة أشهر».

«قامت بينى وبينها عـلاقة عائلية فى فترة عملى سـفيراً فى موسكو، التى بدأت منذ عـام ١٩٦١، واستـمرت هذه العـلاقة حـوالى ثلاث سنوات ونصف السنة، كنا نتـبادل فيهـا الزيارات، وتدور بيننا أحاديث ومناقشات جعلتنى أقترب من عالم هـذه الشخصية التى ربطتها بوالدها (ستالين) علاقـة حب وكراهية فى الوقت نفسه، وكان كـلامها يعكس هذه العلاقة الغريبة، والذى تصرح به تعبيراً عن حقيقة شعورها».

«كانت تصر على أن تدعى باسم سفيـتلانا ألا لويفا نسبة إلى عائلة أمها، كانت تُحمل ستالين المسئـولية المباشرة عن موت أمها، فقد دأب

على إهانتها أمام الضيوف وأمـام أعضاء المكتب السياسى، وحدث فى حفل كبـير فى الكرملين أن أهانها وبطريقة واضحـة، وكان يصرخ فى وجهـها، فأخذتـها زوجة مولوتوف وزير الخـارجية، وكـان من أقرب الناس إلى ستالين، إلى خارج القاعة، ثم ذهـبا معا للتنزه بالسيارة فى شوارع موسكو، وعند عـودتها إلى منزلها وبعد أن أصـبحت وحدها وليس معها أحد، انتحرت».

(٧٩)

ويصف الدكتـور مراد غالب هذه السـيدة وحياتهـا وطباعها وصـفاً دقيقاً فيقول:

«كانت سفيتلانا متوسطة القامة، شقراء منمشة، ولون شعرها أحمر طبيعى، وشكلها مـعقولا، لكن لا يمكن وصفها بأنهـا كانت جميلة، وهى سيدة مثقفة جدا تتكلم الإنجليزية بطلاقة».

«تعرفت عليها من خلال السفير الهندى ت.ك. كول، وذلك لأنها تزوجت رجـلاً هندياً يسمى بريجـيش سينج، كـان عضـواً فى الحزب الشيوعى الهندى، وكان قصير القامة، وديعـاً، مثقفاً، مصاباً بالصدفية فى يديه، وتعجبنا جـميعاً لماذا اختارت هذا الرجل خـاصة أنه يكبرها بعدة سنوات!».

«كان يتـعامل معهـا المسئولون السوفـييت وكأنها السـيدة الأولى فى الكرملين، والجميع يدللها».

«وكانت حيـنما تتكلم معى عن والدها تصفـه بالقسوة فى معـاملته

لها، وأنه كـان يفرض عليـها حيـاة متقـشفة، وإذا شم رائحـة بارفان يتساءل فى الحال: من أين جئت به؟».

«وقـالت لى: إن الذى كـان يُهـرّب لى هذه البـارفـانات والملابس الجمـيلة سفيـر الاتحاد السـوفيتى فى برلين (لدى هـتلر)، وكان يدعى ديكانوسوف، وأنه كان يتبع بيريا مـباشرة،وهو من رجاله، وذكرت لى أن بيريا كان له تأثير كبير على والدها، فكان يثق فيه ثقة عمياء».

«كانت سـفيتلانا تنحـو نحو الروحانيات، وتعـرفت على كاردينال لينتجراد، وقامت بينها وبينه صداقة حميمية، وأعتقد أن نزعتها إلى هذه الروحـانيات هـى التى جعلتـهـا تقبـل الزواج من رجل هندى لما هو معروف عن الهند من جاذبية شديدة للروحانيات».

«كانت سفيـتلانا تهاجم ستالين هجومـاً شديداً، وفى الوقت نفسه تحكى عنه قصصـاً وحكايات عظيمة جداً، فهى تنتقـده وتصفه بأنه فظ غليظ القلب، لا يحمل أى حس إنسانى، ويشتد فـى قسوته معها إلى حد أنه ينـهرها بشدة إذا لاحظ أى تـغييـر فى ملابسـها أو سلوكـها، ويطلب منهـا أن تكون منضبطة ومـتقشـفة ثم تقـول: لكننى كنت فى الكرملين مدللة، والكل يلاطفنى، أما أعـضاء المكتب السياسى فكانوا يعاملوننى برقة كابنة ستالين».

(٨٠)

ويورد الدكتـور مراد غالب مـلامح من بعض الحوارات التى دارت بينه وبين ابنة ستالين:

«قالت لى: كيف تدافع عنه؟ هل أنت شيوعى؟ قلت: لا أنا لست شيوعياً، ولكنى لست ضد مَنْ يعتنق الشيوعية، وأعتقد أن فيها الكثير من النواحى السلبية، ولكن والدتى من قرية فى محافظة الشرقية فى مصر، ولو استطاع أحد أن يحول أى شخص من فلاحى هذه القرية إلى رجل فضاء، فإنى مستعد أن أغفر له أى شىء قد فعله، والحقيقة أننى كنت أتكلم بروح شاب متحمس، وقد سألتها: كان [أبوك] قاسياً عليك ويريد لك حياة متقشفة فكيف كانت عيشته هو؟ دخلت إلى حجرة أخرى فى منزلها وأحضرت عدداً كبيراً من الصور لأبيها وقالت لى: انظر إلى الصور وسوف ترى كيف كان يعيش».

«فى هذه الصور رأيت ستالين العظيم وأقوى رجل فى العالم، يجلس على شاطئ البحر الأسود يربط رأسه بمنديل مثل المنديل المحلاوى المعروف عندنا، وقد عقده فى ٤ عقد على جوانب رأسه، وقلت: لقد كان يستطيع أن يشترى أبدع قبعة فى العالم، رأيت حجرة نومه، وكانت فى غاية البساطة، صحيح أن الأثاث قديم وضخم، لكن الحجرة ليس فيها أى شىء من الرفاهية بأى حال».

«ثم رأيت صورة له وهو نائم فى شرفة بيته خارج موسكو فى الشتاء والثلج يتساقط عليه، ونوافذ الشرفة مفتوحة للهواء، وقد وضع بطانية من الفراء فوقه للتدفئة، وكان ممتداً على كرسى غليظ لا شكل له».

(٨١)

ونبتقل مع الدكتور محمد مراد غالب إلى ما يرويه فى هذه المذكرات

عما يعتبره السر فى صعود نجم جارباتشوف [هكذا كان مراد غالب حريصا على كتابه اسم هذا الرجل الذى شاعت كتابته جورباتشوف] وهو لا يشير إلى مواهبه أو قدراته، وإنما يكتفى بأن يروى ما يعرفه من تاريخه ناسبا نجاحه وصعوده إلى علاقاته «البسيطة» بأندربوف ليس إلا، وكأنما الدكتور محمد مراد غالب حريص على أن يتحدث عن جارباتشوف على هذا النحو الملتبس[!!]:

«. . . ومن الأماكن المشهورة فى الاتحاد السوفيتى، منطقة تسمى منطقة المياه المعدنية، وكان بها الكثير من منشآت الاستشفاء وحمامات المياه المعدنية، وبها استراحات فاخرة لقادة الاتحاد السوفيتى، وتقع هذه المنطقة شمال القوقاز وتتبع محافظة «كراسنودار»، وكان جارباتشوف السكرتير الأول لهذه المنطقة، وتعرف فيها على القادة و الزعماء السوفييت الذين يأتون إليها للاستشفاء، وكان من المترددين على هذه المنطفة أندروبوف،وكان سكرتيرا للجنة المركزية ورئيسا للـ«كى. جى. بى» (المخابرات السوفيتية) قرابة ١٤ سنة، ثم انتخب سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى السوفيتى ورئيسا للاتحاد السوفيتى».

«كان جارباتشوف قد رسم لنفسه وضعا بالنسبة لأندروبوف، الذى كان على جانب كبير من الثقافة، فلم يفرض عليه نفسه ولكنه وضع نفسه قريبا بحيث يمكن استدعاؤه فى أى وقت، وتحولت العلاقة إلى صداقة ، ومرافقة أندروبوف من وقت لآخر فى نزهاته فى الغابات والجبال، واستفاد جارباتشوف من هذه الصداقة، فالفضل يرجع لأندروبوف لوصوله إلى أعلى سلطة».

(٨٢)

ومن بين الزعماء العرب والأفارقة يحظى الملك الحسن الثانى ملك المغرب بثناء الدكتور محمد مراد غالب على استيعابه المبكر للقضايا السياسية وموقفه الرائع فى مؤتمر القمة الإفريقية فى الدار البيضاء سنة ١٩٦١، وكان فى ذلك الوقت لا يزال وليا للعهد:

«... بدأت القمة الإفريقية، وكان يجلس فى المقعد المجاور لى مباشرة الأمير الحسن (الملك الحسن الثانى فيما بعد)، وشعرت بأنه هو الذى يشرف على كل ما يتعلق بهذا المؤتمر برغم صغر سنه، وهو المسئول عن النشاط السياسى والأفكار التى يطرحها المغرب فى المؤتمر. وروى لى الأمير الحسن واقعة مازلت أتذكرها جيدا إلى اليوم، قال لى ونحن جلوس: الآن سوف يتكلم نكروما رئيس غانا، وسيدافع عن علاقته بإسرائيل وعلاقة إسرائيل بإفريقيا، ونريد أن يكون الرئيس جمال عبد الناصر جاهزا للرد عليه فورا وإسكاته، فقمت من جانبى بإيصال هذه الرسالة إلى الرئيس عبد الناصر، وحدث بالفعل ما قاله الأمير الحسن عندما وقف نكروما يتكلم، وبعدها بدأ الرئيس عبد الناصر يشرح دور إسرائيل فى إفريقيا، ودور مصر كحامية للبوابة الشمالية الشرقية لإفريقيا، وما الذى تقوم به إسرائيل فى الشرق الأوسط وإفريقيا».

«وفى أثناء ذلك مررت على الرئيس الغينى سيكوتورى، ورئيس مالى موديبو كيتا، وأبلغتهما بما سيقوله نكروما، فقالا لى: دعه يفتح فمه وسيرى. وبالفعل ما إن انتهى الرئيس عبد الناصر من شرحه حتى انبرى لنكروما كل من سيكوتورى، وهو خطيب بارع، وكذلك موديبو

كيتا، وتحدث سيكوتورى بطريقة مرتبة تناول فيها القضايا أولا بمقدمة عن الموضوع، ثم أعقبها بشرح للموضوع وبعده توصية بأن نفعل كذا وكذا».

(٨٣)

ونأتى إلى انطباعات الدكتور محمد مراد غالب عن بعض شخصياتنا المصرية المهمة التى أتيح له أن يعمل أو يتعاون معها على مدى تاريخه السياسى والدبلوماسى.

ونحن نرى الدكتور محمد مراد غالب حريصا على أن ينفرد بالحديث [عما يصوره هو انفرادا] عن معرفته نية الرئيس عبد الناصر استخلاف عبد اللطيف البغدادى ليكون نائبا له بدلاً من أنور السادات، وكيف أن الرئيس عبد الناصر طلب من الدكتور محمد مراد غالب أن يتولى ترتيب مقابلات ولقاءات للبغدادى فى موسكو، ولنقرأ النص الكامل لما يرويه الدكتور محمد مراد غالب فى هذه الجزئية، التى كان حديثه فيها بمثابة المصدر الأقوى لتدعيم هذه الرواية:

«كان الرئيس (عبد الناصر) يقضى شهر أغسطس فى الإسكندرية فى استراحة المعمورة، وهى استراحة متواضعة الأثاث، وكنت أتطلع إلى هذه المقابلة بعدما ذكره البروفسير شازوف إخصائى القلب فى الكرملين، الذى أسر لى عندما كنا فى موسكو بأن حالة قلب الرئيس غير مطمئنة، وأن شرايين القلب الفرعية لم تنفتح ومازالت مسدودة، رغم كافة الأدوية وتزويده بالأكسجين المخصص لرواد الفضاء».

«وجدت الرئيس بادى النشاط وفى حالة استرخاء ومعنويات عالية، ولم يكن يعرف شيئا عن حالة قلبه، وطبعا لم أذكر له شيئا عنها. تركز الحديث حول المرحلة المقبلة وأهمية تحريك حائط الصواريخ، وكان هذا الموضوع بالغ السرية، وفى لقائى مع الرئيس شرح متطلبات تنفيذ أهداف المبادرة ومطالبة السوفييت بتصعيد مساعدتهم فى كافة الأسلحة، خصوصا بالنسبة لدعم حائط الصواريخ الذى سيتقدم إلى ضفاف القناة، ثم شرح الرئيس رأيه فى الحل السلمى ولم يكن متفائلا».

«وأخيرا انتهت المقابلة وهممت بالانصراف وإذا به يقول: «لا.. انتظر أنا عايزك فى مسألة مهمة»، ولما استفهمت عنها قال: «أنا عايزك ترتب عدة مقابلات مع الزعماء السوفييت بريجنيف وكاسيجين وبادجورنى وجريتشكو وجروميكو.. إلخ»، مع السيد عبد اللطيف البغدادى الذى سيزور موسكو قريبا، فلما قلت له: «إيه ده ياريس ده الحكاية كبيرة»، قال لى: «بلاش لماضة! أنت فاهم كويس! روح نفذ اللى قلت لك عليه».

(٨٤)

وعند هذا الحد من التصريح الخفى أو التلميح القوى يستطرد الدكتور محمد مراد غالب إلى رواية ما دار بينه وبين عبد اللطيف البغدادى من حديث مهم ويقول:

«وخرجت من عند الرئيس ومعى كل الخلفية التى ذكرتها من قبل،

وفهمت ما يرمى إليه الرئيس، وذهبت مباشرة إلى بلاج «عايدة» فى المنتزه، وكانت هناك مفاجأة غريبة تنتظرنى، فقد وجدت البغدادى فى كابينة الصديق المشترك سليمان جميعى فى بلاج عايدة، فسألنى: أين كنت؟! انتحيت به جانبا وذكرت له أننى جئت توا من لقاء مع الرئيس، وأخبرته بما ذكره الرئيس بالنسبة لزيارته لموسكو ومقابلته الزعماء السوفييت، ولم يكن الرئيس قد أبلغه بعد، واستفهمت منه عن تطور علاقته مع الرئيس فأجاب بأنها تغيرت تماما، وهو يتصل به بالتليفون عدة مرات فى اليوم، كما يرسل له الكثير من التقارير، وبدأنا نتزاور، أما ما ذكرته الآن فهذا يدفع الأمور فى اتجاه جديد، وقلت له: ألا تشعر بأن هذا يعنى أنك نائب الرئيس القادم؟ قال: إن الرئيس أشعرنى بهذا لكنه لم يقلها صراحة؟».

«وعلمت فيما بعد [لا يذكر الدكتور مراد غالب مصدر معلوماته هذه مع أنه كان المتفرد بما لم يعرفه غيره] إن الرئيس كان ينوى إعلان هذا الخبر فى اجتماع خاص باللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى!! ولكن طغت أحداث الأردن والصراع بين الملك حسين والفلسطينيين وما نعرفه جميعا من أحداث «أيلول الأسود»، وتوفى جمال عبدالناصر وهو يودع أمير الكويت».

«وهكذا شاء القدر أن يظل أنور السادات هو نائب الرئيس، وتسير الأمور بعد ذلك كما نعرفها، وتبقى قصة تعيين عبد اللطيف البغدادى نائبا للرئيس معروفة فى أضيق الحدود، ولم يثرها البغدادى، فقد كان

حريصا على كرامته وعزة نفسه إلى أقصى الحدود. كما أن وفاة عبدالناصر منعت الإعلان عنها، وهكذا انفتح الطريق على مصراعيه لكى يصبح أنور السادات رئيسا للجمهورية، وكان رجال عبد الناصر يفضلونه على البغدادى ظنا منهم أن السادات ألين عريكة وأسلس قيادة، كما أنه ـ والحق يقال ـ منسجم مع الشرعية، فقد كان السادات نائب رئيس الجمهورية الرسمى والتف حوله الكثيرون من كبار رجال الدولة مثل المهندس سيد مرعى، والدكتور عزيز صدقى، والأستاذ هيكل».

(٨٥)

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور محمد مراد غالب كان معجباً إلى أقصى حد بعبد اللطيف البغدادى، وقد ظهر هذا الإعجاب بوضوح فى موضع آخر من هذه المذكرات، وإن كان قد جاء بعد تسعين صفحة من الحديث السابق، وفى هذا الموضع يتبلور ثناء الدكتور محمد مراد غالب على عبد اللطيف البغدادى ضمن حديث مستطرد عن فترة الرئيس عبد الناصر حين كان البغدادى لا يزال فى السلطة:

«... وكان البغدادى على درجة كبيرة من الكفاءة، وأدار اللجنة الاقتصادية إدارة قادرة، فكان يذاكر ملفاته ويدرسها بكل دقة، وكان يعرف مشاكل وقضايا كل عضو فى اللجنة، وكان متزنا وعاقلا فى مناقشاته، ويعطى الحرية لكل عضو فى عرض مشكلته دون مقاطعة».

(٨٦)

وتنفرد هـذه المذكرات أيضا بالإشـارة إلى قصـة نية الرئيس جـمال عبدالناصر تعـيين حسين ذو الفقار صبرى رئيـسا لأركان حرب القوات الجوية بعد حرب ١٩٥٦، ومن الجدير بالذكر أن الدكـتور محمد مراد غالب كان يتـمتع بعلاقة جيـدة مع كل من حسين ذو الفقـار صبرى، وشقـيقـه على صبـرى، وهو يشير إلـى هذا فى أكثر من مـوضع من مذكراته، كما أنه يشير إلى أن حسين ذو الفقار صبرى هو الذى طلب نقله (أى نقل الدكـتـور محـمد مـراد غالب) لـيعـمل معـه فى وزارة الخارجية كقائم بعمل وكيل الوزارة حـين كان حسين ذو الفقار صبرى هو الرجل القـوى فى وزارة الخارجـيـة، وإن كان بدرجـة نائب وزير فقط.

يروى الدكتور محمد مراد غالب واقعة نية عبد الناصر تعيين حسين ذو الفقار صبرى رئيساً لأركان حـرب القوات الجوية فى معرض حديثه عن خلافات الرئيس عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر ويقول:

«جاءت أولى مراحل الخلاف بعد حرب ١٩٥٦ مباشرة، وفى أوائل ١٩٥٧ بدأت ألاحظ أن الخـلافـات تبـدو واضـحـة وشـديدة فى هذا الوقت. فقـد قرر الرئيس عبد الناصـر تعيين السـيد حسين ذو الفـقار صبرى، وهو طيار سابق، رئيسا لأركان القوات المسلحة الجوية، لكن المشير عبـد الحكيم عامر كان رافضا تمامـا لهذا التعيين، كمـا عارضته القوات الجوية بدعوى أنه ابتعد طويلا عن السلاح الجوى، بالرغم من

أن حسين ذو الفقار كان رجلا مثقفا وواضحا وأمينا صادقا، وكان معينا من قبل عضوا فى المجلس الاستشارى فى السودان كمرحلة انتقالية لاستقلال السودان الشقيق».

«ثم عُين حسين ذو الفقار صبرى فى رئاسة الجمهورية رئيسا للجنة مهمتها الاجتماع يوميا للنظر فى القضايا الجارية، وتضم السادة: عبدالقادر حاتم، وأمين هويدى، وسامى شرف، وكنت عضوا فيها عندما انتقلت من موسكو إلى الرئاسة فى أول مرة».

(٨٧)

ونأتى إلى موضع من أهم مواضع تاريخنا المعاصر التى ظلت ملتبسة حتى جاءت مذكرات مراد غالب فكشفت النقاب عن وجه الحقيقة فيما كانت ملتبسة فيه، وهو موقف رجال الثورة من أبيهم الروحى عزيز المصرى، ويبدو أننا فى حاجة إلى أن نقدم بالقول بأن الفريق عزيز المصرى كان يحظى منذ فترة مبكرة بكثير من تقدير الدكتور محمد مراد غالب، ونحن نرى هذا المعنى واضحاً فى المذكرات التى بين أيدينا، حين يشير صاحبها إلى حقيقة ارتباطه المبكر به ضمن مجموعة من الشباب الذين كانوا يرون فيه مثلا أعلى وقائدا لتطلعاتهم. لكنه مع هذا الإعزاز والتقدير يقدمه لنا فى صورة أقرب ما تكون إلى الطرافة (ولا نقول الانتقاد) فى أدائه لوظيفة السفير المصرى فى موسكو.

وعلى كل حال فلنقرأ من مذكرات مراد غالب ما يرويه عن إحدى وقائع عزيز المصرى فى موسكو وقد شهدها صاحب المذكرات حين

كان عضواً فى البعثة الدبلوماسية المصرية فى موسكو، ومن الطريف أن هذا الحوار ينبئ بوضوح عـن ثقافة عزيز المصرى، كـما ينبئ بوضوح أيضاً عما قـادت إليه العقلية الشيوعـية من تصنيف كاتب روسى (هو مفخرة بكل المقاييس) فى صفوف أعداء الشعب.

(٨٨)

ومن الجدير بالإشارة أن مـراد غالب كان متأثراً ـ فى مـوقفه ـ برؤية السوفييت، ويبدو أنه على الـرغم من استنارته لما يتخـلص من آثار ما نعرفه مـن سيطرة السياسـة على الثقافة، ولهـذا نراه ينحو باللوم على عزيز المصرى، وكان أحرى به أن ينحو باللوم على جروميكو:

«. . . كان للفريق عزيز المصرى أفكاره الثورية التى لا تنسجم كلها مع دبلومـاسية المنصب، وأذكـر يوم ذهابه لتقـديم أوراق اعتـماده إلى أندريه جروميكو الذى كـان قائما بأعمال وزير الخارجـية، وكان مازال شابا فى أوائل الأربعـينيات، وفى أثناء اللقاء سأله جـروميكو: مَنْ هو كـاتبك المفـضل من الأدباء السوفييت؟ فـرد عزيز المـصرى قـائلا: إن الكاتب الذى أحترمه هو دستويفسكى، ولم يكن يعرف أن كتبه محرمة فى الاتحاد السوفيتى، فسأله جروميكو: ألا ترى أنه لم يكن يكتب من أجل الشعب، فـرد عليه قائلا: إنه كان يصـور المتناقضات النفسـية فى الشخصية الروسية أبلغ تصوير».

«وامتعـض جروميكو من هذا التشـبيه ولم يواصل المناقـشة، وقال: على كل حال إذا كانت لكم أى طلبات تستطيعون أن تتكلموا فيها مع السفير السوفيتى فى القاهرة».

«وفى اليوم التالى قابلت الفريق عزيز المصرى ووجدته متهيجا تماما بعد رد جروميكو عليه الذى اعتبره إهانة كبيرة له، وقال: ما هى ضرورة وجودى إذا كانت طلباتنا تبحث مع السفير السوفيتى فى مصر!».

(٨٩)

ويبدو لى أن مراد غالب كان يحس أو ظل يحس بعقدة ذنب فى موقفه من عزيز المصرى، ولهذا فإننا نجده حريصاً على أن يبرر موقفه من عزيز المصرى بقوله:

«... والحقيقة أن عزيز المصرى كان قد تقدم فى السن ووصل إلى أواخر السبعينيات وبدأ يتأثر صحيا، لكن الواقع أيضا أن فكره العسكرى لم يكن يخلو من إبداعات، ومن ومضات الذكاء الحادة، ومن إطلاق خياله العسكرى فى قضايا ومشاكل بحيث يتناولها برؤية غير مألوفة».

«ولقد وجدت نفسى بين عاملين متناقضين، أحدهما أننا كنا حوارييه المتأثرين بتاريخه الحافل والمتعاطفين قلبيا مع هذا الرجل الأسطورة، ومن ناحية أخرى كانت شخصيته العسكرية تغلب على دبلوماسية المنصب، وتغلب شخصيته الثورية فى التمسك بآرائه القاطعة التى لا تحتمل أية رؤية أخرى. وأذكر من ضمن مظاهر عبقريته العسكرية أنه

هو الذى اختار منطقة العلمين كنقطة تقف فيها قوات الحلفاء لصد قوات روميل المتقدمة نحو مصر».

(٩٠)

على أن الأهم من ذلك والأولى والأسبق تاريخيا هو ما تقدمه مذكرات الدكتور محمد مراد غالب من رواية مخالفة للروايات والأحاديث الشائعة فيما يتعلق بصحبته لعزيز المصرى فى منصبه إلى الاتحاد السوفيتى، فالشائع حتى الآن فى كثير من الأدبيات أن قيادات الثورة لم تكن تثق تماما بعزيز المصرى، وكانت تتخوف من قدراته الكبيرة وشعبيته الواسعة التى كان من الممكن أن تعصف بوجود المجموعة التى وصلت إلى الحكم، ولهذا أرسلت مراد غالب معه للسيطرة عليه!!! لكن مراد غالب فى المقابل يحرص على أن يروى أن عزيز المصرى هو الذى اشترط ضرورة سفره (هو أو واحد من ثلاثة آخرين) معه، وقد أجلنا عرض هذه الفقرة إلى ما بعد حديثنا عن انطباعات مراد غالب عن الفترة التى قضاها بصحبة عزيز المصرى فى موسكو، وربما نستطيع الآن أن نفهم بعمق بعض الآليات الحاكمة لشغل المناصب وتحريك الرجال والرموز فى بداية عهد الثورة.

ومن الطريف أن هذه السياسة رغم كل شىء كانت أفضل بكثير مما آلت إليه الأوضاع بعد ذلك فى أواخر الخمسينيات وطيلة الستينيات وما بعدها:

«... وكان عزيز المصرى بمثابة الأب الروحى للثورة، وبسبب هذا

الوضع كان أصدقاؤه يتقدمون إليه بطلبات معظمها يخص بعض أفراد العائلة المالكة والطبقة التى كانت الثورة تقوم بتصفيتها لكى ينقل هذه الطلبات إلى قيادة الثورة، فقد كانت علاقاته وثيقة بالعائلة المالكة، وكان مجلس قيادة الثورة يخجل أن يرفض له طلبا، لكن المجلس بدأ يشعر بأن هذه الطلبات لا تتماشى مع مبادئ الثورة، وفكر المجلس فى طريقة تبعده عن الذين راحوا يلتفون حوله لأغراض شخصية، وفى الوقت نفسه تكريمه بعد حياته الوطنية الحافلة، فتقرر تعيينه سفيرا فى بون فى ألمانيا الغربية، وعند إبلاغه بهذا القرار قال: إننى لا أستطيع السفر للخارج إلا إذا كان معى هؤلاء الأربعة: صلاح دسوقى، وكمال رفعت، وحسن التهامى، ومراد غالب، وكان الرد عليه أننا لا نستطيع أن نستغنى عن العسكريين ولا مانع من الموافقة على أن يسافر معك المدنى الوحيد فيهم وهو مراد غالب، وقد أيدت هذه المجموعة نفسها سفرى معه على أساس أنه قد تقدم فى العمر ويحتاج إلى جواره أحد الذين يرتاح إليهم ويثق بهم».

(٩١)

أما تقييم مراد غالب لعزيز المصرى ومجمل حياته فتقدمه لنا هذه الفقرة الموجزة التى استطاع مراد غالب أن يعبر من خلالها عن آرائه فى مراحل كفاح عزيز المصرى المتعددة والممتدة ، ونحن نرى قصة كفاح الرجل وقد تحولت إلى هذه السطور المحملة بالأحكام القطعية!!

«كان عزيز المصرى بالنسبة لنا بمثابة أسطورة، فقد كان فى الأصل

ضـابطاً فى الجـيش التركى، ورجـلاً عـسكرياً مـشهـوداً له بالكفـاءة والشجاعة، وكـان قد تخرج فى الكليات العسكرية التـركية، وشملت حروبه مع الجـيش التركى البلقان واليـمن وليبيا، حـتى أنه سمى بطل «برقـة» بعـد أن حارب دفـاعـاً عن هذه المدينة الليـبـية أمـام الجـيش الإيطالى، وأنشأ جمعـيات سرية منها جمعية العـهد التى اشتركت فى انقلابات عسكرية ضد السلطان العـثمانى، إذ شارك أنور باشا، ولكن أنور باشـا أوقف مغـامراته للاسـتـيلاء على العـرش، وتزوج من ابنة السلطان العثمـانى،ثم اتصل عزيز المصرى بأحمد جـمال باشا الملقب بالسفـاح، وكان حاكمـاً على سوريا، ولكنه مثله مثل أنور بـاشا كان يطمع فى أن يسـتقل بسـوريا عن الباب العـالى. وأخيراً وصـل عزيز المصرى إلى اليـمن حيث أصيب بالكوليرا وأسس الجـمعية القـحطانية التى كانت تستهدف انفصال دول المـنطقة عن تركيا، وأخيراً حاول مع الشريف حـسين والى الحجـاز، ولكن البريطانيين كـانوا أسرع منه فى استقطاب الشريف حسين لتفتيت الإمبراطورية العثمانية».

«وكمـا هو واضح من تاريخـه فقـد كان رجـلاً ثورياً، لديه ثقافـة واسعة، وتصميم على تغيير الأوضاع السائدة فى العالم العربى، وكان ينزع إلى الاغتيالات السيـاسية، ويرى أنها يمكن أن تؤدى إلى إرهاب الحكام وزعزعة مكانتهم، ثم القضاء عليهم بعد ذلك».

(٩٢)

ونأتى إلى أحكام المذكـرات على بـعض الشخـصـيـات العـسكرية

والسياسية التى قدر له أن يحتك بها، وقد تعرضنا فيما نقدم لبعض أحكامه عن المشير عبد الحكيم عامر، وعبد اللطيف البغدادى، كما رأينا ثناءه المستفيض على شخصية مدكور أبو العز.

ونحن نرى مراد غالب دائب الثناء على أداء المشير أحمد إسماعيل فى عدة مواضع، فهو ـ على سبيل المثال ـ يثنى على دوره فى التجهيز لترحيل عائلة لومومبا من الكونغو على نحو ما رأينا من قبل، كما أنه يثنى على عمله كرئيس للمخابرات العامة ويقول:

«وظلت المخابرات العامة كأحد المراكز الرئيسية فى الدولة، والحقيقة أن تعاملى [أى كوزير للخارجية] مع جهاز المخابرات برئاسة المشير أحمد إسماعيل كان إيجابيا للغاية، وكنت أطلب منه الكثير من التقارير، كانت ميزة هذا الجهاز الكبيرة هى أن القائمين على فروعه المختلفة (إفريقيا ـ الدول العربية ـ القضايا الاقتصادية ـ الأمم المتحدة... إلخ) ثابتون لا تنالهم حركة تنقلات، فكانوا حقيقة على معرفة متعمقة فى دائرة اختصاصهم».

. . . .

ويتحدث الدكتور محمد مراد غالب بتقدير أيضاً عن دور المشير أحمد إسماعيل كوزير للحربية فيقول:

«وأخذ السادات يستعد للمعركة بشكل جاد، ولحسن الحظ تمكن المشير أحمد إسماعيل من عقد صفقة الأسلحة المتطورة مع السوفييت

التى دخلنا بهـا حرب أكـتوبر وفى مـقدمـتهـا صواريخ مـوجهـة ضد الدبابات يحـملهـا جنود المشـاة «مـالوتكا»، وكـانت مـفاجـأة تامـة للإسرائيلـيين، بل للعالم كلـه، كذلك المدفعـية الصاروخـية الموجـهة بالرادار، وصـاروخ «اسـتريلا» المحـمـول على الكتف ضـد الطيـران المنخفض، والصاروخ أرض ـ أرض الذى وعدنا به السوفييت وكان فى الأصل يحمل رءوسا نووية، وإن ظل فى أيدى الخبراء السوفييت ولكنه كان خاضعا لقرار القيادة العليا المصرية».

(٩٣)

ومن الطبيعى أن يحرص الدكـتور محمد مراد غالب على مـهاجمة الفريق محمـد أحمد صادق فى مواضع كثيـرة من كتابه، وهو يحكى انطباعاته عن الفترة الـتى عملا فيها معا كوزيرين للخـارجية والحربية وكعضـوين فى لجنة رباعية ضمتـهما (أى محمد صـادق ومراد غالب) هما وحافظ إسماعيل مـستشار الرئيس السادات للأمن القومى [ورئيس اللجنة]، والمشـير أحـمد إسمـاعيل رئيس المخـابرات العامـة فى ذلك الوقت. ومن الطريف أن هذه اللجنة ضمت ثلاثة من العسكريين كانوا قد وصلـوا إلى أرفع المناصب (أو المكانات) العسكريـة بينما كـان مراد غـالب المدنى الوحـيد بـين هؤلاء، ومن الطريف أيضـاً أن بين هؤلاء الثلاثة اثنيـن تعاقبـا على وزارة الحربية، وتعـاقبا مـن قبل (ولكن مع اختلاف الترتيب) على رئاسة الأركان، بينمـا كان ثالثهم مرشحاً لهذا المنصب وقد شـغل منصبـاً مناظراً له من قبل، كمـا أن من بينهم اثنين عمـلا فى رئاسة المخـابرات العامة، على حـين كان الثـالث قد رأس

المخابرات الحربية، وقد أطلت فى هذا التصوير لأصور مدى نجاح مراد غالب فى أن يكون عضواً وقطبـاً بين هذه الأقطاب الصعبة، ومع هذا فقد نجح.

يروى الدكتور مـحمد مراد غالب قـصة لجنة رباعية عاليـة المستوى كلفها السادات بالعمل الدائب فى بداية السبعينيات:

«. . . وكنا نجتمع بشكل دورى لمناقـشة تطورات الموقف العسكرى والسـياسى والموقف الدولى بشـكل عام، ومـوقف الاتحاد السـوفيـتى وأمريكا بـشكل خاص. كان مـحمـد صادق مثـار تعليقـات منا نحن الثلاثة الباقين، فلم يكن مقنعا فى عرضه لتطورات الموقف العسكرى، وفجأة سحبه السادات من هذه اللجنة وأظن أنه شكا من تعاملنا معه».

(٩٤)

وفى موضع آخر يؤكد الدكتور مـحمد مراد غالب هذا المعنى الذى لا يزال مقتنعا به فيقول:

«واستمر الفريق محمـد صادق فى حملته ضد الخبراء السوفييت إلى أن خرجوا وقدم نفسه على أنه الرجل الذى يحمى الوطن من السيطرة السوفيتية، وكان يردد دائما فى اجتماعات اللجنة الرباعية السابق ذكرها (حافظ إسـماعيل، وأحـمد إسماعـيل، ومحمـد صادق. . . وأنا) أنه يتصرف كرجل وطنى، مما أثار حافظ إسماعيل وصاح فيه: «يعنى أنت اللى وطنى بس، وإحنا يا أخى غيـر وطنيين!! لا. . . خـد بالك من كلامك».

«أما كبار المستشارين حول أنور السادات [هكذا يقول مراد غالب دون أن يصرح باسم أو أسماء هؤلاء الذين يقصدهم مراد غالب بهذا التعبير أو هذا الوصف، وإن كانت حقيقة تحالفات صادق فى هذه الفترة كانت معروفة جيدا، كما أن ذكاء القارئ كفيل بأن يلفت نظره إلى حرص الدكتور مراد غالب الشديد على تجنب الصدام مع بعض هؤلاء] فقد أيدوا محمد صادق فى موقفه وأقنعوه بأنه الرجل الذى يحمى أمن مصر واستقلالها».

. . . .

هكذا يقول الدكتور مراد غالب، ولو أنى كنت مكانه لحذفت «أقنعوه» ووضعت بدلاً منها «خدعوه»، وعلى كل الأحوال فإن رأيى فى هذه الجزئية واضح ومعلن، وربما أسعدنى أن أجد الدكتور محمد مراد غالب وهو يذكر ما يدل على صواب استنتاجى، وإن كانت ألفاظى أكثر جرأة منه.

(٩٥)

ويحظى المهندس محمد صدقى سليمان بثناء الدكتور محمد مراد غالب على دوره الرائع فى إتمام بناء السد العالى فى الوقت المحدد له، وذلك بفضل همته والتزامه:

«. . . وتكلم المهندس والرجل العظيم، المتواضع، المتفانى فى عمله، صدقى سليمان، الذى كان على رأس العاملين عندما دخل،

فى مقدمتهم، الأنفاق بعد حدوث بعض الانهيارات فيها، وأعطى مثلا فى شجاعة القائد وروعة قيادته».

(٩٦)

ويثنى الدكتور محمد مراد غالب فى مذكراته على السيدة جيهان السادات بنفس الأسلوب والروح والتفصيلات التى يثنى به عليها خلفه فى وزارة الخارجية محمد إبراهيم كامل، وهو - على سبيل المثال - يقول:

«كانت السيدة جيهان السادات تلعب دورا مهما فى تهدئة السادات، وعاملا ملطفا لانفعالاته، كانت تفصل بين غضب زوجها على أحد وبين علاقتها هى شخصيا معه، والحقيقة أنها لم تبتعد عن زيارتنا والاتصال بنا عندما أقالنى السادات من الوزارة، فقد ظلت علاقتها طبيعية ومجاملة، وحتى عندما استقلت احتجاجا على زيارة زوجها للقدس فى نوفمبر ١٩٧٧ وكان خطاب استقالتى عنيفا وهجوميا، فإنها لم تغير من سلوكها أو مجاملاتها».

(٩٧)

ومن بين أعوان الرئيس السادات يختص الدكتور محمد مراد غالب المهندس سيد مرعى بثناء واضح، وهو يقول:

«... عرفت سيد مرعى منذ هذا الاجتماع، فكان رجلا أنيقا يهتم بهندامه ويجيد عرض المشكلة الزراعية عرض خبير زراعى متمرس،

وكان يجيد الحديث سهل العبارة. ثم استمرت مقابلاتنا عندما كنت أحضر إلى القاهرة فى أثناء عملى فى موسكو، وكنت حريصا على زيارته وكان يسألنى كثيرا عن المشكلة الزراعية فى الاتحاد السوفيتى، وعن الميكنة الزراعية وصعوبة تطبيقها فى مصر لتفتت الملكية».

(٩٨)

وعلى الرغم من تحفظات الدكتور محمد مراد غالب على المهندس عثمان أحمد عثمان، وعلى علاقته بالرئيس السادات، وعلى أثره فى السياسة المصرية فى عهد السادات، بل وعجبه ودهشته [وربما استنكاره] أن يتم حصولهما (أى هو وعثمان) على الوسام السوفيتى الرفيع فى الوقت نفسه، فإن الدكتور محمد مراد غالب يحرص على إنصاف عثمان فى جهده فى بناء السد العالى.

ومن الطريف أن يأتى إنصاف الدكتور مراد غالب لعثمان أحمد عثمان متزامناً مع إنصاف المهندس حلمى السعيد لهذا الرجل فى أخريات حياته، وكأنما يأتى هذان الإنصافان ليواجها، ولكن بعد حين، حملات بعض الناصريين واليساريين على عثمان التى صورته فى صورة مقاول الأعمال الترابية فحسب، ومن الجدير بالذكر أننا أشرنا إلى معنى مشابه من قبل:

«... سألت أليكسندروف كبير الخبراء السوفييت عن أحسن شركة تعمل فى السد العالى فقال لى المقاولون العرب وعثمان أحمد عثمان. كانت مساهمة عثمان فى بناء السد العالى مساهمة كبيرة وفعالة بشهادة

السوفييت أنفسهم، وعندما زار خروشوف السد العالى فى مايو ١٩٦٤ وزع على العاملين نياشين، وكان ممن نالوا نيشانا سوفيتيا عثمان أحمد عثمان، وهو نفس النيشان الذى حصلت عليه أنا، وكان اسمه «نيشان بطل العمل الاشتراكى»، وكانت مفارقة عجيبة أن ينال عثمان وساما اشتراكيا، وهو المعروف بعدم اشتراكيته، وأظنه أنه لم يتحل به فى يوم من الأيام، بل لم يأت ذكره على لسانه مطلقا».

(٩٩)

وعلى الرغم من طول الفترة التى عمل فيها الدكتور محمد مراد غالب فى الدبلوماسية المصرية، فإننا لا نراه معنيا بانتقاد أحد من زملائه فى السلك الدبلوماسى المصرى فيما عدا إسماعيل فهمى ومجموعته، ويحرص الدكتور محمد مراد غالب على تقديم قصة «ندوة الأهرام» الشهيرة التى عقدت فى غيابه، وهى الندوة التى شارك فيها إسماعيل فهمى وكيل وزارة الخارجية، وتولت صحيفة الأهرام من خلالها تلميع وكيل وزارة الخارجية إسماعيل فهمى، ونحن نقرأ رواية الدكتور محمد مراد غالب فنراه غير حريص إلا على فكرة واحدة هى تأكيد أنه كان آخر مَنْ علم بأمر هذه الندوة على الرغم من أنه كان وزير الخارجية ، وهو يروى، بدقته المعهودة، وبضجر شديد أيضاً، تفصيلات ونتائج هذه الندوة من وجهة نظره فيقول:

«... ولقد حدث فى أثناء زيارتى ليوغوسلافيا، وكنت وزيرا للخارجية، فى عام ١٩٧٢، وكنت أتحدث مع الرئيس تيتو، فوجدته

يفاجئني بقوله: هناك تغيير في سياستكم مع السوفييت؟ ولما استوضحته أجاب إنه عرف عن ذلك من الصحافة المصرية. هنا تدخل وزير خارجية يوغوسلافيا وقال موجها الكلام لي: سنتحدث عن هذا فيما بعد. ولأول مرة أسمع منه عن ندوة عقدت في صحيفة «الأهرام» وانتقد المتحدثون فيها الاتحاد السوفيتي بشدة، أبديت دهشتي لما قاله وزير الخارجية، وتذكرت حديثا دار مع الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل اقترحت فيه أن يكون هناك تعاون بين وزارة الخارجية والصحافة ووسائل الإعلام، واقترحت أن تعقد اجتماعات لتبادل وجهات النظر حول القضايا المهمة، وهي كثيرة، ووافق الأستاذ هيكل، غير أننا لم نحدد موعدا معينا أو الطريقة المناسبة لتنفيذ هذا».

ويمضي الدكتور محمد مراد غالب ليقول:

«وعند عودتي إلى القاهرة قرأت ما نشر في هذه الندوة بكاملها، وشعرت بالأسف لأن يكون مَنْ نبهني إليها هم الأصدقاء اليوغسلاف، وأسفت لأن الندوة عقدت في غيابي، واشترك فيها دبلوماسيون من وزارة الخارجية دون علمي، ولا أدري مَنْ الذي أذن لهم بذلك. وكان من الطبيعي أن أفتتح أنا وزير الخارجية والأستاذ هيكل أولى جلسات الندوة، أما أن تعقد الندوة وأنا غائب دون إذن حتى من الوزير المكلف بالإشراف على وزارة الخارجية [يقصد مَنْ كان يتولى تسيير أمور الوزارة بالنيابة في أثناء غيابه، على عادة النظام الوزاري المصري الذي ينوب فيه وزير محل آخر]، فقد أدهشني وآلمني ذلك».

(١٠٠)

ثم يلخص الدكتور محمد مراد غالب رأيه فيما تضمنته ندوة الأهرام التى وجه إسماعيل فهمى وكيل الخارجية فيها نقداً لاذعاً للسوفييت فى قوله:

«... أما عن الندوة نفسها فكانت بعيدة كل البعد عن الخط الذى كنت أتصور أننا سائرون فيه، وقد وجه السيد إسماعيل فهمى وكيل وزارة الخارجية فى كلمته نقدا لاذعا للسوفييت وهم بطبعهم فى منتهى الحساسية للنقد، خصوصا إذا كان بهذه الحدة، وعلمت أن الأستاذ هيكل نفسه قد خفف كثيرا مما قاله وكيل الوزارة إسماعيل فهمى، والسيد تحسين بشير مدير إدارة الصحافة بالخارجية، وكان معهما الدكتور أسامة الباز الذى كان موضوعيا فى حديثه، وادعى بعضهم أننى أذنت له بالمشاركة فى هذه الندوة، وهذا لم يحدث بتاتا لسبب بسيط لأننى كنت غائبا فى زيارات عمل لكل من فرنسا وبريطانيا ويوغسلافيا، وقابلت بومبيدو فى باريس فى ١٦ مايو ١٩٧٢ الساعة الثالثة بعد الظهر، ومن السهل التحقق من ذلك».

(١٠١)

ثم يردف الدكتور محمد مراد غالب بالإشارة إلى أنه بهذا الحديث أغضب كلا من الرئيس السادات، وحسنين هيكل، ووكيل الوزارة إسماعيل فهمى [الوزير اللاحق] بسبب تعليقاته وآرائه فى هذه الندوة وما دار فيها:

«. . . وقد علقت على هذه الندوة تعليقات غاضبة أثارت هيكل، ثم ذهبت إلى الرئيس السادات فى القناطر وأطلعته على نتائج رحلتى، ولم يكن متحمسا لسماع أى شىء عن هذه الزيارات، ولم يهتم إلا بموضوع إعادة العلاقات مع ألمانيا، ثم فاتحته فى أمر الندوة وجرت معه مناقشات متوترة، فقد وجدت تعليقاته على الندوة أقرب إلى ما ذكره السيد إسماعيل فهمى».

. . . .

ويروى الدكتور محمد مراد غالب بعض ما حدث من حوار بينه وبين الرئيس السادات، وانتهى إلى أن ترك له الرئيس السادات الحرية فى التصرف مع إسماعيل فهمى:

«. . . وهنا واجهته بشكل حاسم بأننى لا أقبل ما حدث، وأن يقوم برسم سياسة الوزارة شخصيات أخرى غير الوزير، ويؤسفنى أن أبلغ سيادتك بأننى سأتخذ الإجراءات المناسبة تجاه إسماعيل فهمى وتحسين بشير، وسأوقفهما عن العمل، وأعطيهما إجازة مفتوحة لحين البت نهائيا فى الأمر. وكظم السادات غيظه لكنه قال: أنت الوزير المسئول ولك أن تزاول مسئولياتك كما ترى».

(١٠٢)

على أن الدكتور محمد مراد غالب لا يتوقف عند هذا الحد من توتر علاقته بإسماعيل فهمى وكيل الوزارة فى عهده، وإنما هو يشير

إلى واقعة أخرى لعب «الأهرام» فيها دورا فى تأجيج الخلاف بينهما:

«... وكان قد حدث قبل هذه الندوة أن طلبت لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشعب مشاركتى فى مناقشة حول سياستنا الخارجية، وكنت مضطرا للسفر فى مهمة رسمية وطلبت من إسماعيل فهمى وكيل الوزارة أن يذهب إليهم بدلا منى، وإذا بالعنوان الرئيسى فى أعلى الصفحة الاولى للأهرام يقول: إسماعيل فهمى يصرح فى مجلس الشعب بكذا وكذا، ثم أورد تصريحاته، كان هذا حوالى مارس أو إبريل على ما أتذكر سنة ١٩٧٢، وقلت لنفسى: وليكن.. إن إسماعيل فهمى رجل كفء، وإذا أراد هيكل تلميعه فلا بأس، ثم جاءت الندوة بعد ذلك وبدا الأمر وكأنه خطة مرسومة، ومعهما الرئيس السادات الذى كان يخطط لسياسة بعيدة عن الجميع».

....

هكذا يقدم الدكتور محمد مراد غالب روايته وكأنما كان إسماعيل فهمى ومحمد حسنين هيكل هما المنشئان للسياسة الجديدة مع الأمريكيين، بينما كان السادات معهما!! وكأنما يريد الدكتور مراد غالب أن يشير إلى شىء آخر غير كل ما أنفق هيكل وحواريوه سنوات ربع القرن الأخير من حياته فى إثباته!........

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

(١٠٣)

ويحرص الدكتور محمد مراد غالب على إبداء رأيه فى محمد

حسنين هيكل، وهو حريص فى إبداء هذا الرأى على أن يبدو أقرب إلى روح الجراح الذى يتتبع المسار البيروقراطى للمشكلة الجراحية فحسب، دون أن يعلن تشخيصا محددا للحالة، ولكن رأيه مع هذا التحفظ والتحرز لا يخلو من لقطات ذكية، سواء نسبها إلى استنتاجاته أو إلى الرئيس السادات شخصيا، ومن ذلك قوله:

«كان الأستاذ هيكل يريد أن يكون أكثر نفوذا مع السادات مما كان عليه مع عبد الناصر، لكن السادات صبر عليه حتى انتهت حرب أكتوبر وقال كلمته المشهورة عن الأستاذ هيكل: «أنا لا أقبل ممن يعمل معى أن يعتقد فى نفسه أنه الملقن على خشبة المسرح».

(١٠٤)

ونأتى إلى الواقعة التى يمررها الأستاذ الدكتور محمد مراد غالب بنعومة ضمن حديث يبدو وكأنه يتضمن ثناء على هيكل، وهو يلخص بهذه الواقعة ما يصوره على أنه جوهر مشكلة هيكل النفسية العميقة فيقول:

«أما هذه المكانة الفريدة للأستاذ هيكل فقد كان لها أثرها فى نفسيته، وتضخم لديه الشعور بالذات، فقد حدث أن كان الرئيس عبدالناصر فى زيارة لموسكو ومعه الأستاذ هيكل، وطلب هيكل إجراء حديث خاص مع كاسيجين رئيس الوزراء، فرفض، ثم طلبت منه أنا شخصيا فرفض أيضا، وكلمه الرئيس عبد الناصر ولكن كاسيجين رفض، بحجة أن هذا الإجراء ليس من عاداتهم، وفى المساء أقاموا لنا

حفل عشاء ضيقا، وذهبت إلى بريجنيف وقلت له إن الأستاذ هيكل رجل له مكانته المرموقة فى الدولة ولدى عبد الناصر،ورجوته أن يراعوا ذلك، فأخذنى من يدى وذهبنا معاً إلى الأستاذ هيكل، وكنت أنا المترجم وتبادلا بضع كلمات من المجاملة، وسأله بريجنيف عما إذا كان مسرورا من نتائج الزيارة فأجاب بالإيجاب».

(١٠٥)

وبعد هذه الرواية الدقيقة يصل الدكتور محمد مراد غالب مباشرة إلى المفارقة التى تمثلها رواية هيكل للواقعة على نحو مختلف عما حدثت به، وهو الأسلوب الذى نعرفه عن هيكل ومازلنا نراه عليه:

«وعندما كتب هيكل هذه الواقعة شرح كيف أن بريجنيف سعى إليه ودار بينهما حديث طلب فيه بريجنيف سماع رأى الأستاذ هيكل فى المباحثات.. إلخ».

. . . .

وببساطة شديدة وبراءة ظاهرة الاصطناع أشد يعقب الدكتور محمد مراد غالب على هذه الواقعة ويقول:

«عموما هذا لا يقلل من كفاءة الأستاذ هيكل أو مكانته، وأعتقد أن أى إنسان وصل إلى هذه المكانة لابد أن يتأثر وقد يصل إلى تضخم الذات أو ما هو أكثر من ذلك».

. . . .

هكذا يلجأ الدكتور محمد مـراد غالب إلى ثقافة الأطباء في تعليقه على مشكلة هيكل مع نفـسه، مصوراً المرض على أنه نتـيجة طبيـعية، لكنه يسـتبقى من خـلال التشـخيص حقـيقة أن المـرض مرض، ولسنا نستطيع أن نمنع قلمنا من الإعجاب بهذه الطريقة فى التناول

(١٠٦)

وهذه واقعـة أخرى يمررها الـدكتور مـحمد مـراد غالب فى براءة ظاهرة ليوضح مدى تغلغل نفوذ هيكل فى علاقـته مع السفراء الغربيين (على حد وصف مـراد غالب)، وكيف أنه كـان يستاء بشـدة حتى من مجـرد تصور أنه لا يعرف حـقيقة مـا دار فى حوارات وزير الخارجـية الذى هو الدكتور محمد مراد غـالب نفسه، وهى واقعة جديرة بالقراءة والتأمل:

«... وعندما عدت مـن موسكو لوزارة الخارجية لمست بـنفسى ما يتمتع به هيكل من علاقات وثيقـة مع السفراء الغربيين، والمشرف على رعاية المصـالح الأمريكيـة، وكان من المخابرات الأمـريكية، فقـد كان هؤلاء السفـراء يتصلون بى بصفتى وزيرا، وكنت ألاحظ أنهـم يشيرون إلى أحاديثهم مع هيكل كـمرجعية رئاسية، وأذكـر أن أحد كبار هؤلاء السفراء طلب مـقابلتى بعد يومين من مقابلتى مـع يارنج مبعوث الأمم المتحدة، ودهـشت عندما ذكر فى آخر المقـابلة: هل يعلم هيكل ما تم فى حـديثك مع يارنج؟ فـقلت له: أظن أنه لا يعلـم!! فمـا كـان من السفـير إلا أن أبلغ هيـكل بما قلته من عـدم معـرفته، وغـضب هيكل وشكانى للرئيس السادات الذى أبلغنى بدوره بغضب هيكل، والحـقيقة

أننى لم أقصد بتاتا الإساءة إلى هيكل، ولكن الموضوع جاء عفوا وتلقائيا».

(١٠٧)

وفى نهاية حديث مستطرد عن هيكل يفاجئنا الدكتور محمد مراد غالب بما يبدو مخالفا للشائع بقوله: إن هيكل لم يكن يعبر عن فكر السادات، ولم يكن يكتب له خطبه أو رسائله، وإنما كان يعبر عن نفسه:

«... ولكنى أود أن أختم كلماتى عنه بأنه كان بالنسبة للسادات المستشار الرئيسى له، ولكن يلاحظ أن السادات لم يكلفه بكتابة خطبه أو رسائله، ولم يكن الأستاذ هيكل المعبر عن فكر أنور السادات، بل كان فى عهده يعبر عن فكره هو، وكان للسادات كتابه وأقلامه، ولكن الأستاذ هيكل استمر فى التعامل مع السادات من موقع صانع الملوك والرؤساء، وقد قبل السادات ذلك فى أول الأمر، ولكن بعد حرب أكتوبر وظهور كيسنجر على مسرح العمليات فضل أن يتعامل هو شخصيا معه. وكان الأستاذ هيكل يعارض أن يقابل السادات كيسنجر مباشرة ومنفردا، واستشاط السادات غضبا عندما علم بذلك وقال كلمته المشهورة: «أنا لا أريد أحدا ينصب نفسه ملقنا على خشبة المسرح».

(١٠٨)

على أن أهم وأخطر واقعة فيما كتبه الدكتور محمد مراد غالب عن

هيكل هى تـلك الواقـعـة التـى تكشف عن إجـادة هيـكل دور لعب «القومـسير» فى تعامله مع زمـلائه من كبار رجـال الدولة، وقد لعب هيكل هذا الدور مع الدكتور مراد غالب نفـسه حين استطاع بمهارة أن يقنعـه أنه تمكن من أن يخفى عن الرئيس السـادات رسالة خـاصة من مراد غـالب لسامى شرف، كـانت كفيلة بوضع الدكـتور محمـد مراد غالب نفـسه ضمن مجـموعة المتـآمرين فى ١٥ مايو، ويبدو الدكـتور محـمد مراد غالـب حريصا على أن يظهـر نفسه بمظهـر المقتنع بالدور الذى لعبه محمد حـسنين هيكل لصالحه دون أن يتطرق إلى احتمال أن يكون هيكل بمفرده أو هيكل والسـادات معاً قد تآمرا عليه بإظهـار الثقة له حتى يفيدا منه إلى النهـاية نظرا لما كان يتجمع تحت يده من خطوط العلاقات مع الاتحاد السوفيتى:

«. . . عندما كنت سفيرا فى موسكو زارنى السـفير الفرنسى روجيه سيدو فى مارس ١٩٧١ وكان سفيراً ممتازا، وأطلعنى على خطة مقترحة من الرئيس السـادات لانسحـاب القوات الإسـرائيلية من سـيناء وذلك لتقسيمها إلى ثلاث مناطق، على أن يكون الانسحاب على مراحل من كل منطقة على حـدة، وذكر أن هذه الخطة وصلته من السفـير الفرنسى فى القاهرة والتى ناقشـها السادات معه، وسألنى عن مـعلوماتى حول هذا الموضـوع وهل وصلتنى أى تفـاصـيل عنهـا، وهل أبلغت شـيئـا للسوفييت بشأنها».

«ولم يكن قـد وصلنى أى شىء عن هذه الخطـة، ولكنى تظاهرت بأنى أعرف أن هناك خطة ولو لم أكن على علم بتفاصيلها ولم تصلنى

تعليمات من السادات بأن أبلغ السوفييت أى شىء بخصوصها».

«وأرسلت خطابا خاصا للأستاذ سامى شرف يحمله أحد أفراد مكتب المشتريات العسكرية، وكان قد تم استدعاؤه لمهمة فى القاهرة، وشرحت فى الخطاب حديث السفير الفرنسى وطلبت منه أن يوافينى بأية معلومات عن هذا الموضوع، وهل علم هو وزملاؤه عن اقتراح السادات، أو أنه أخفاه عنهم، وقد وقع هذا الخطاب فى يد الأستاذ هيكل عند جرد خزينة المعلومات وملفاتها بعد ١٥ مايو ١٩٧١، وأبلغنى هيكل أنه لم يعرضه على السادات حتى لا يسبب لى أية متاعب أو أى إجراء عنيف ضدى. وقد شكرته على هذا العمل، فقد كان السادات فى قمة غضبه وعنفه فى أحداث ١٥ مايو ١٩٧١، وكان هذا الخطاب كافيا لانفجاره».

. . . .

والحق أن إحساسى بالنص يجعلنى أشك فى أن لهذه القصة بقية لم يحن أوان كشفها بعد!!

(١٠٩)

وتنفرد مذكرات الدكتور محمد مراد غالب برواية مهمة ينقلها عن الرئيس عبد الناصر نفسه، وتتضمن هذه الرواية الخطيرة أن على شفيق مدير مكتب عبد الحكيم عامر جاء بمدفعية القوات المسلحة ووجهها نحو بيت عبد الناصر، ولنقرأ ما يرويه الدكتور مراد غالب من تفصيلات هذه الواقعة الخطيرة:

«... وقد علمت فيما بعد، وبعد حرب ١٩٦٧ والتخلص من المشير عامر، واقعة حكاها لى الرئيس عبد الناصر نفسه، فقد كنت ذاهبا إليه بطلب من على شفيق سكرتير المشير عامر، الذى قال لى إنه يكاد الآن يموت جوعا، بعد قطع مرتبه، ووقف زوجته مها صبرى عن الغناء فى الإذاعة، وجاءنى للتوسط للسماح لمها صبرى بالعودة للغناء، وذهبت إلى الرئيس عبد الناصر أعرض عليه بعض الأمور، من بينها هذا الموضوع، فقال لى الرئيس عبد الناصر: ألا تعرف ما الذى فعله معى على شفيق؟».

«قلت: لا! فقال الرئيس عبد الناصر: فى عام ١٩٦٢ سرت شائعة بأن القوات المسلحة انضمت كلها إلى عبد الحكيم، ولا يقف مع عبدالناصر سوى القوات الجوية، وجاء على شفيق فى هذه الظروف بمدفعية القوات المسلحة ووجهها إلى بيتى، وقال: لو حلقت طائرة واحدة من القوات الجوية من أى مطار فى مصر، فسوف نضرب بيت عبد الناصر بالمدفعية، هذا هو على شفيق الذى تتوسط له، ثم سألنى: مَنْ الذى بعث معك بالرسالة؟ هل هو على شفيق أم مها صبرى؟ قلت ضاحكا: والله ياريس هو على شفيق، وليس مها صبرى».

(١١٠)

وتنفرد مذكرات الدكتور محمد مراد غالب [تقريبا] وليس انفراداً كاملاً بالإشارة إلى دور الاتحاد السوفيتى فى فرض معاهدة الدفاع المشترك مع سوريا على عبد الناصر:

«... زار وفد سورى الاتحاد السوفيتى، وكنت سفيرا هناك فى مارس ١٩٦٧، وكان يرأسه صلاح جديد رئيس حزب البعث السورى حينئذ، ويوسف زعين رئيس الوزراء، وإبراهيم ماخوس وزير الخارجية، وكان قد حدث انقلاب فى سوريا قام به هؤلاء الثلاثة ومعهم نور الدين الأتاسى رئيسا للجمهورية، وحافظ الأسد وزيرا للدفاع ضد الرئيس أمين الحافظ رئيس سوريا حينئذ. اعتبرت موسكو هذا الانقلاب فى صالحها، حيث ذهب أمين الحافظ اليمينى وأتى انقلاب بعثى عسكرى يسارى أقرب بكثير لموسكو من الرئيس السابق. واستقبل الوفد استقبالا حافلا، ووضح أن السوفييت سعداء بالانقلاب،ودارت المحادثات بين الطرفين فى جو ودى وشملت جميع ميادين العلاقات الثنائية، وكذلك الأوضاع فى منطقة الشرق الأوسط والصراع الإسرائيلى.. إلخ».

«والمهم فى هذه المحادثات أنها تطرقت إلى العلاقات مع مصر، وبلغنى أن السوفييت وجهوا الوفد السورى إلى أهمية عقد معاهدة دفاع مشترك بين البلدين، وكان مصدر المعلومات عضوا بارزا فى السفارة السورية، وقد أطلعنى على هذه المعلومات وهو فى غاية السعادة، ثم بلغنى الكلام نفسه من الصديق العزيز صلاح الطرزى سفير سوريا فى موسكو، وكان على جانب كبير من الكفاءة والذكاء، وله ذاكرة حديدية بالتواريخ والأرقام والأحداث بشكل مبهر، وكان تعليقى أن مسألة الوحدة مع سوريا أو دفاع مشترك معها قضية فى منتهى الأهمية، وقلت ضاحكا ولو أنى كنت أقصد ذلك: «يا أخى إحنا لسنا على قد إيديكم مرة تعوزوا وحدة ومرة ثانية تنفصلوا ثم تعودوا الآن للوحدة

مرة ثانية»، قال: سترى ما سيحدث غدا!! إن السوفييت سيلوون ذراع عبد الناصر لكى يقبل دفاعا مشتركا مع سوريا، وقد حدث هذا فعلا. كان هدف السوفييت الأساسى حماية النظام الجديد فى سوريا، وكانوا يعلمون أن سوريا وحدها لا تستطيع الوقوف أمام أى تهديد من إسرائيل، ولكنها مع مصر تستطيع القيام بذلك، وكما قلت كان النظام السورى الجديد حليفا لهم ويريدون المحافظة عليه».

(١١١)

وتنفرد مذكرات الدكتور محمد مراد غالب بالإشارة إلى أنه عند وقوع الحرب فى ٥ يونيو ١٩٦٧ كانت هناك وحدات مدرعة من القوات المسلحة المصرية فى العراق لتأمين حكم عبد السلام عارف، وذلك بالإضافة إلى خيرة القوات المسلحة التى كانت موجودة فى اليمن.

. . . .

وبعد : فهذه ، كما رأى القارئ، مذكرات جميلة، دسمة، مثقفة، تعبر بصدق وتثبت وتنفرد، لكنها مع ذلك كله مذكرات مظلومة ومتجاهلة، ولا يخفى على القارئ أسباب مثل هذا التجاهل الجزئى لمذكرات مهمة لرجل مهم شارك فى كثير من اللحظات الصعبة فى تاريخ أمتنا، بل فى تاريخ التحولات السياسية العالمية التى كانت بلادنا مسرحاً لها، وسوف يأتى اليوم الذى تعول الكتابات التاريخية تعويلاً كبيراً على ما تضمنته هذه المذكرات من حقائق وروايات ورؤى تدحض كثيراً من الأفكار المعلبة والمقولبة التى صاغها دعاة الإفك لمصلحة أخرى غير مصلحة وطنهم ومواطنيهم.

الباب الثانى

خطى .. اجتزناها

مذكرات الدكتور حامد عمار

(١)

هذه مـذكرات حـافلة بآثار مـتعـددة من علوم الاجـتمـاع والتربيـة والتاريخ، كـما أنها حافلة بالانطبـاعات المتأثرة بمنهجـية هذه العلوم، وكأن صاحبها الدكتور حامـد عمار يأبى إلا أن يعبر بمذكراته عن نفسه وعن تخصصاته التى مر بها فى حياته العلمية.

وهى مذكـرات ذات طابع خاص، لأن صاحـبها كـتبهـا وهو يسرع الخطى فى كتابتها حتى نكاد نحن الأطباء نراه يلهث وهو يكتبها، وكأنه يعبـر بمذكراته التى بين أيدينا عن حـياته التى مـضت هى الأخرى فى لهـاث من أجل العمل وتحـقيق الـذات، ثم تحقـيق السعـادة للأبناء، وإتاحة الفرصة لهم فى تعليم متميز يجنون ثماره.

وهى مذكرات تحفل بالصراحـة فيما ترويه، وإن كانت لا تخلو من تجاهل تام لما لا ترويه.

وهى رابعاً مـذكرات تحفل بما تنجح فى تسـجيله من مشـاهداتها، لكنها فـى الوقت نفسه تعـانى بوضوح من العـجز عن تصـوير ما لم

تشهده، وما لم تعـرفه، فإذا أرادت القفز على مالا تعرفـه ظهر القفز واضحاً للعين الخبيرة.

(٢)

وهى قبل هذا كله فهى مذكرات ممتعة، بل حافلة بالإمتاع الذى كان صاحبـها بحكم مهنته قادراً عـلى إتاحته، وإن كانت كثـير من الأجزاء تقع تحت سيطرة الشعور الطبيـعى بالملل بصورة أو أخرى على نحو ما تقع مجالات حديثـها التى لا تفلح خبرات صاحبـها فى أن تزيح عنها الملل أو الإملال نهائياً.

وقد أحس المؤلف نفـسه بهذه المعانـى وعبر عنها تعـبيراً جمـيلاً فى قوله:

«. . . ولا يخالجنى الغرور أو التزيد فى إيراد ذكـرياتى بأن كثيراً من مقـاطعها وأحـداثها ومما عانيـته من الضيـق والمكاره، أو مما انشرح له الصدر من النشوة والإمتاع قد يعتبر أموراً متفردة فى مسيرتى، وأن قليلاً أو كثيراً من البشر قد عـانوها وصادفوها كما أسلفت، ومع ذلك فهى فى نوعية سياقها وفى صدماتها الحادة أو انطلاقاتها الفسيحة، قد تكون لها خـصوصـياتها. أحـسب أن ملايين المصـريين قد تعـرضوا لمآسى الفقر، لكن طفولتى وصباى وشبـابى كان مما يطلق عليه الفقر (الدكر) الخانق، وهو ما حـاولت اجتيازه، كذلك واجه غـيرى صدمات الحظ والصدف المحبطة لتـنبلج بعدها عجائب الفرج، لكنـها فى تقديرى لم تتوافـر وتتابع لـديهم فى كل نقلة أو تحول فى حـياتهم بوتيـرة مطردة مفاجئة بمثل ما تعرضت لها».

«ومع ذلك فقد ترسخت تلك الظروف فى قاع الذات لتمثل قوى دافقة للدفاع والمقاومة والثقة بالنفس، هيأت لى من الإيمان بأن (مَنْ زرع حصد، ومَنْ جد وجد)».

(٣)

تجيد مذكرات حامد عمار تصوير النقلات الحضارية فى حياة صاحبها، حتى لتكاد تصطنع الحضارة فى كل نقلة، وحتى أننا نحس فى حديثه عن هذه النقلات صدى خبرة اجتماعية بأكثر مما نحس فى الحديث من خبرة وجدانية أو ذاتية أو نفسية.

وانظر على سبيل المثال إلى حديثه عن أول عملية جراحية تعرض لها وهو فى لندن عام ١٩٤٦:

«أتذكر فى هذه اللحظة مثالاً واضحاً لعجائب نقلاتى متمثلاً فى كيف أننى لم أذهب إلى طبيب للعلاج فى مصر، حتى حين تخرجت فى الجامعة، رغم ما تعرضت له من أوجاع وجروح منذ طفولتى تداويها أمى بالأعشاب أو بمسحوق البن، أو بمهارة حلاق القرية فى الفصد والحجامة، وكان أول ذهابى للطبيب فى القاهرة عام ١٩٤٢ من أجل مشكلة رواسب زلالية فى البول كادت أن تحرمنى من الالتحاق بمعهد التربية، أو من البعثة إلى الخارج عام ١٩٤٦، وكان العلاج فى كلتا الحالتين بالإكثار من شرب اللبن، والامتناع عن أكل اللحوم».

«ثم أذهب إلى لندن لأعانى من احتقان فى اللوزتين، فيحيلنى مكتب البعثات إلى جراح فى شارع الأطباء المشهورين (هارلى ستريت) للتخلص منهما، وفى حجرته يمر بى على صور من المغنين

والمغنيات، والممثلين والممثلات ممن أجرى لهم العملية، وعادت أصواتهم، كما قال، صادحة شجية أحسن مما كانت، ولم يكن لدىّ ساعتها أية لحظة من القلق، فأنا مع جراح فى هارلى ستريت، تنتهى العملية، وأفيق من تخدير البنج بعد مدة أطول مما هو منتظر عادة، والجراح إلى جوارى يسألنى: هل تدخن أو تشرب الكحول؟ فأجبت بالنفى فى الحالتين، وكانت ملاحظته أن ذلك هو مرد التأثير الأطول فى الإفاقة من البنج فى حالتى، ثم يرينى اللوزتين فى زجاجة متغزلاً بقوله: هذه خبرة، لا ينبغى لأى إنسان ألا يمر بها».

«أخرج من العيادة متحسساً موقع اللوزتين، وأتعجب كيف يمكن للإنسان أن يعيش دون لوزتين، ثم وما حال أولئك الفقراء من الفلاحين فى سلوان الذين يعيشون بها ومعها طوال حياتهم مهما كانت أحوال حلوقهم. أليست هذه نقلة ذات مساحة حضارية واسعة تهزنى وتهز تفكيرى، وتدعونى للتأمل فيمن يملكون ومَنْ لا يملكون فى احتمال الألم؟».

(٤)

و من الطريف أن يردف الدكتور حامد عمار حديثه عن هذه الخبرة بحديث يتناسى فيه، عن عمد لذيذ، عوامل الزمن وفعلها فى جسم الإنسان فيقول:

«وهنا أتذكر اليوم عدد الأطباء الذين أتردد عليهم، وعدد المختبرات ومراكز الأشعة والرنين المغناطيسى التى تختبرنى، إلى جانب عدد

الأقراص التى أتناولها: هذه للصـدر والقلب، وللمخ والمخيخ، وتلك للعظام والعينين والضغط، أتناولها بعد أو قبل وجبات الطعام الثلاث، ماذا أحـدث العلم وقرينتـه التكنولوجـيا فى عالم الطـب من علاج، شريطة أن تكون قادراً على تحمل تكلفتها الباهظة».

«أذكر هذا المثل مع إيجازه لعله يقدم صورة من صور أحداث النقلة الحـضاريـة التى مررت بهـا، ومـا أثارته من دلالات وتأمـلات، ومما حـاولت أن أعنى بهـا، وأنا أنظر إلى مـرآتى وصـور الضـفـيـرة فى تشكلها».

(٥)

ربما كان أولى مواضع هذه المذكرات بالبدء فى مـدارسته هو حديثها عن انتقال صـاحبها المبكر إلى آفاق العـمل الدولى فى المجال التربوى على يد أستـاذه إسماعيل القـبانى، والشاهد أن حـامد عمار يتـحدث بحب وشغف واعتزاز عن دور عميد التربويين الأستاذ إسماعيل القبانى فى حياته، وكيف أتاح له الفرصة للنفاذ إلى المجتمع الدولى فيقول:

«. . . وذات يوم وأنا فى الكلية [يقـصد: كلية التربيـة عقب عودته مبـاشرة من بعـثته فى لندن] لابـساً فى قدمى صندلاً مـفتـوحاً، ودون شراب من شروط التـخلص من (التنيا) التى استطال علاجـها، يتسلم العميد إشارة تليفونية من مكتب وزير التربية والتعليم إسماعيل القبانى، يستدعـى فيها د. حامـد مصطفى عمار للقـاء الوزير فى أقرب وقت، أبلغت بالإشـارة، وعلى الفـور دون تردد وبحـالة قـدماى [يـقصـد:

قـدمى]، اتجهت إلى الوزارة لمقـابلة السـيد الوزير، أذن لى بالدخـول محيـياً، وكان أول عبـاراته: عامل إيه يابلية، وكانت كلمـة (بلية) من لوازمه الحميمة فى الحديث إلى طلابـه، منذ أن عرفناه حين كان عميداً لمعهد التربية، ومـؤسساً للمدرسة النموذجية الثـانوية فى حدائق القبة، والتى اختارنى لأكـون أول مدرسى المواد الاجتماعيـة بها عام ١٩٤٣، واستطرد فى حديثه لينبئنى بأنه اختارنى لأكون عضواً فى الوفد المصرى الذى سيذهب للمشاركة فى المؤتمر العـام لليونسكو فى باريس (نوفمبر ١٩٥٢)، والوفـد مـــؤلف برئاسـتـــه وعـضـوية د. إبراهيـم حلمى عبـدالرحمن لدراسـة تقرير ومـيزانيـة المنظمة فـى مشروعـات العلوم الطبيعية، ود. محمد عوض محـمد أستاذى فى الجغرافيا بكلية الآداب للمشروعات الثقافية، وحامد عمار للمشروعات التربوية».

«شكرته متلعثماً وأنا ألقف أنفـاسى من غمرة الفرح، سائلا الله أن أكـون عند حسن ظنه، (آه لو كـانت والدتى قـد سمـعت هذا الخبـر لأطلقت زغـرودة ساخنة كى يسـمعـها كل مَنْ فى كليـة التربيـة)، ثم استدركت بصـوت ملؤه الشجن بأننى ياسيادة الوزير ليـست لى وظيفة الآن، ولم يتم تعيينى فى كليـة التربية منذ عودتى من البعـثة، وكما لو كان غير مصدق ليستجيب (هذا غير معقول)».

«وعلى الفور يمسك بالتليفون ليتحدث إلى د. مصطفى نظيف رئيس [يقصد: مدير] جامعة إبراهيم باشا الكبير فى لهجة تقترب من العتاب: يادكتـور نرسل بعثـات إلى الخارج وننفق عليـها من مـواردنا المحدودة لتعود فـلا تجد لها عملاً، الحـالة التى أمامى للدكتور حـامد مصطفى

عمار، الذى يعتبر أول حاصل على الدكتوراه فى التربية من جامعة لندن ولا يتم تعيينه حتى الآن، أرجو أن يتخذ اللازم لتعيينه، خصوصاً أنه سيسافر معى عضواً فى وفد مصر إلى المؤتمر العام لليونسكو بعد أسبوعين».

«ثم أفادنى بأنه علىَّ أن أقابل مدير الجامعة غداً».

(٦)

ويجيد الدكتور حامد عمار وصف النهاية السعيدة :

«وبالصندل ودون شراب فى قدماى [يقصد: قدمى]، كنت صباح اليوم التالى مع مدير الجامعة، الذى أعطيته بعض بيانات عن مؤهلاتى، وعلى الفور أيضاً يتصل بعميد الكلية ليحيطه بتعليمات الوزير بضرورة اتخاذ الإجراءات اللازمة لتعيينى بالتمرير من مجلس الكلية».

«وبعد ثلاثة أيام من هذا اللقاء كنت خلالها أتردد على الكلية مزهواً بالانتصار على قهر الكلية، ومندهشاً كيف ومتى خلقت الدرجة للوظيفة؟!».

«التقى بالعميد للتهنئة على إتمام تعيينى، واصطنعت فى استقبال الخبر بقدر من البرود الإنجليزى، وبذلك تحققت دعوات شيخنا تقى الدين المقريزى بزوال غمتى، بعد إغاثة وزيرنا الجليل إسماعيل القبانى رائد التربية الحديثة فى مصر».

(٧)

وهو يتحدث بتفصيلات كثيرة مما يذكره عن تلك السفرة الجميلة التى

صحب فيها الوزير القبانى إلى باريس، وعن طبيعة مشاركاتهم فى المؤتمر فيقول:

«... وكنا نلتقى بسيادته كل صباح لنذهب معاً إلى المؤتمر، وكان قد طلب منى فى الطائرة أن أعد له الكلمة التى سيلقيها بحيث لا تستغرق أكثر من عشرين دقيقة على الأكثر باللغة الإنجليزية، وقد رضى عن معظمها مع تشطيبات وإضافات، لا يخلو منها قلم القبانى فى مراجعاته، وكان يبصرنى بحكمة ودلالة ما قام بتعديله، وهل ثمة مدرسة أفضل من هذا السياق يمكن أن يتعلم المرء فيها الجديد والمفيد».

(٨)

على أن الخطوة التى تقل أهميتها عن أهمية هذه الخطوة كانت سابقة على مؤتمر اليونسكو، وقد أتيحت لحامد عمار فى أثناء تلمذته فى البعثة كان لأستاذه شفيق غربال دور كبير فيها، ومن العجيب أن هذا الأستاذ العظيم ظل حريصاً على رعاية تلميذه الذى ترك التاريخ واتجه إلى البعثة لنيل الدكتوراه فى التربية، مع أنه كان قد رشحه فى التاريخ، ويأتى حديث حامد عمار عن هذه الفرصة الذهبية ضمن حديثه عن بعض الخبرات التى شارك فيها عبر القارة الأوروبية حيث يقول:

«... وكان أولها فى باريس للانضمام إلى وفد مصر لحضور مؤتمر التربية فيما بعد الحرب العالمية، والذى ترأسه الفيلسوف الفرنسى

لانجيفان، وكان خطيب المؤتمر الرئيسى إيليا اهنبرج من أقطاب الحزب الشيوعى فى فرنسا، وقد وفد من القاهرة أ.د. [هكذا كتب حامد عمار هذا اللقب رغم انتقاده لهذا الأسلوب] عبد العزيز القوصى، والسيدة أسماء فهمى عميدة معهد التربية للبنات، وكنت العضو الثالث فى الوفد، وكان انضمامى إليه تطبيقاً للسياسة الحكيمة التى سنّها الأستاذ شفيق غربال بإشراك طلبة البعثات فى الخارج فى المؤتمرات الدولية لاكتساب أوسع وأغنى الخبرات، من خلال تلك المؤتمرات، خصوصاً إذا كان انعقادها فى مقر بعثاتهم أو قريباً منها».

(٩)

ويروى الدكتور حامد عمار أيضاً كيف بدأ عمله فى سرس الليان، وما تصادف من الشك فى أنه شقيق للمدير المسئول عنه وهو الدكتور عباس عمار:

«ولم يكد ينتصف الأسبوع الثالث من عودتى إلى القاهرة [يقصد: عودته بعد حضور مؤتمر اليونسكو مع إسماعيل القبانى]، إلا وأصادف فى الطريق أستاذى محمد فؤاد جلال، الذى أصبح أول وزير للإرشاد القومى، ليطلب منى مقابلة الدكتور عباس عمار، وقد عين من قبل اليونسكو مديراً للمركز الدولى للتربية الأساسية فى سرس الليان، وزودنى بعنوان مكتبه فى القاهرة، التقيت بهذا الرجل بناء على طلب الأستاذ جلال، وبادرنى بأنه قد وقع اختياره علىّ لأكون خبيراً محلياً للتربية الأساسية فى مركز سرس الليان، وشرح لى رسالة هذا المركز، وتركيزه على التدريب العملى للقيادات الريفية من العاملين فى مجال

الإصلاح والتنمية الريفية، ولم أتردد فى تسجيل موافقتى وتسجيل مؤهلاتى ليرسل بها إلى اليونسكو فى باريس، فجاء رده بعدم الموافقة لأن المنظمات الدولية لا توظف أخاً للمدير فى مؤسساتها، كما يتضح من المقارنة بين الاسمين».

«وعند تسلمه هذا الخطاب استدعانى للرد عليه، وهو مطمئن على سوء فهمها، ومصدر الريبة لدى اليونسكو نابع من التشابه فى اسم المدير عباس مصطفى عمار، واسمى حامد مصطفى عمار، ومع ذلك لا توجد أية قرابة بيننا، هو من المنوفية، وأنا من سلوان، حررت مسودة خطاب اليونسكو بهذا الرد الصحيح، فلا قرابة، بل ولا واسطة ولا محسوبية».

(١٠)

ويأبى الدكتور حامد عمار إلا أن يواصل حديثه الطريف عن هذه المصادفة فيقول:

«وبالمصادفة أيضاً كان عنده ابن اسمه مصطفى، ولما تزوجت سميت ابنى مصطفى، والتحق بمعهد ماساتشوتس التكنولوجى فى بوسطن، كما كان قد التحق به ابن عباس من قبل، وأخبرنى ابنى بأنه عند بدء الدراسة بذلك المعهد وجد اسمه (مصطفى عمار) على إحدى لوحات الشرف فى ذلك المعهد، فأوضحت له قصة التشابه!!».

(١١)

ومن الإنصاف لأنفسنا أن نتأمل فى طبيعة حديث الدكتور حامد

عمار عن أساتذته الأجانب وما يحفـل به هذا الحديث من اعتزاز كبير بالقدرات العلمية الكبيرة لهؤلاء الأساتذة:

«. . . وكان مـن بين أساتذتنا العظام (كـارل مانهـايم) من أقطاب مدرسة الاجتـماع النقدى، الذى كان أستاذاً جامـعياً فى المجر واضطر للهجرة إلى إنجلترا قبيل اجتياح هتلر لها، وكان يدرس فى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، وانتـقل فى السنة التى التحقنا فيها بالمعهد إلى معـهد التربيـة فى لندن. لقد كان ربعـة من الرجال فى جسـمه، عميق الفكر فى تنوعـه، يهتز وهو يحاضر جـاهداً فى توصيل ما يريد توصيله إليـنا، ومع ضعفى فى تسـجيل محـاضراته باللغـة الإنجليزية، كنت أكتب ما أستطيع كتابته بالإنجليـزية وأكمل بقية الجمل أو الفقرات باللغـة العربية، ومـازلت أحتـفظ بذلك (الكشكول) لمحـاضراته، ولا تختزن ذاكرتى أحداً من أساتذة المواد الأخرى، فقد طغى عليهم جميعاً فى مرحلة الدبلوم، حيث توفى فى السنة التالية».

(١٢)

وبهذا القدر من الافتـتان العميق، والامتنان الأعمق يتـحدث حامد عمار عن أستاذه فى مرحلة الماجستير الأستاذ لاورابز، وهو يلفت النظر إلى ما قد نعتـقده من عدم التوافق بين دراسات هذا الأستـاذ العلمية وما اختير له من وظيفة تربوية:

«. . . وبعد الانتهاء من الدبلوم الأكاديمية، انفسح المجال للتسجيل لدرجة الماجـستيـر واختيـار موضوع الرسالـة بعنوان: «بحث فى عدم

تكافؤ الفرص التعليمية فى مصر»، وتم اختيار الأستاذ جوزيف لاورابز للإشراف عليها، وهذا الأستاذ من أصل بلجيكى، حاصل على دكتوراه الفلسفة فى العلوم فى تخصص الكيمياء، يجيد الفرنسية والألمانية والإنجليزية، لكن لم يكن فى مؤهلاته ما يدل على أنه درس علوم التربية، ويبدو أن تنقله فى جامعات متعددة وسيطرته على كل تلك اللغات وسعة ثقافته وخبراته فى التدريس قد أهلته ليكون أستاذ أصول التربية والتربية المقارنة فى معهد التربية بجامعة لندن، وقد أحسست فى إشرافه على رسالتى بما اتسم به من فكر ناقد، وما تحلى به من ملاحة النكتة، وعندما اخترت عنوان الرسالة بادرنى بمناقشة «عدم تكافؤ الفرص»، والخشية من أن ذلك قد يسبب لك حرجاً مع حكومتك، ولما أصررت عليه باركه على أنه أكثر تحديداً للمشكلة».

(١٣)

ويتكثف حديث الدكتور حامد عمار الناقد لأحوال النظام التربوى فى مصر حين يقدر له أن يستطرد فى حديثه إلى سوء أحوال كلية التربية بعد عودته إليها بعد فترة غياب طويلة في المنظمات الدولية:

«... لقد تعددت أقسام الكلية العملية، ومعها تفتت المناهج والمقررات، وتضخمت أعداد الطلاب بالآلاف، بعد أن كانت بالمئات، سواء فى الدرجة الجامعية الأولى، أو فى الدبلومات ودراسات الماجستير والدكتوراه، وتواصلت حدة التكالب على الإعارة إلى النفط ليعود بعضهم أستاذاً فى الكلية بعد أن غادرها مدرساً، وتغولت قضايا التنافس على تأليف الكتب الجامعية المقررة، وما تبعها من مذكرات

حتى غدت للمناقشات كتب، ولأعمال السنة دليل أسئلة فى ذيل الكتاب، يجيب عنها الطالب ليتنزهه من الكتاب الأم، ويقدمه للأستاذ ليكون أحد معايير التقييم فى أعمال السنة، وهذا الدليل مطبوع على ورق لا يمكن استنساخه. أكرر هذه الظاهرة هنا لاستمرارها وترسيخها، ويزعجنى انحطاطها إلى حد كبير، وأذهلتنى هذه البدعة أو الإبداع التكنولوجى الذى يؤدى بالضرورة إلى شراء الكتاب، واختلطت المناهج بين التخصصات الأكاديمية والتخصصات التربوية والنفسية المتعددة، وكان الله فى عون الطلاب!!».

(١٤)

وهو حريص على أن يكرر المجاهرة برأيه فى ضرورة العدول عن النظام المأخوذ به حالياً فى كليات التربية، والعودة إلى النظام التتابعى، وهو يفيض فى شرح النظام الذى درس عليه فى كلية التربية ثم يقول:

«... أسرد هذه التفاصيل لأبين موقفى الملح فى تطوير كليات التربية، وبخاصة فيما يتعلق بنمط كليات التربية الحالى المعروف بنمط التكامل، الذى يجمع خلال أربع سنوات بين المواد التخصصية والعلوم التربوية والنفسية، ومكون ثقافى نظرى مثل تعلم اللغة الإنجليزية والكمبيوتر، وبدلاً من أن يقتصر إعداد المعلم فى التركيز على المواد التربوية والنفسية مستقبلا خريجى الكليات الجامعية وقد أعدوا إعداداً علمياً، تشغل الكليات التربوية نفسها حالياً بما تقوم بها الكليات الجامعية الأكاديمية التخصصية، وبدلاً من أن تجمع المواد التربوية والنفسية فى خمسة أو ستة مقررات مترابطة، تفتت هذه المواد إلى

حوالى ٢٠ مـادة مسـتقلة، وتكاد تنعـدم مجـالات التكوين الرياضى والهوايات، وتحتل التربية العملية أهمـية ثانوية يشرف عليها من الكلية فى معظم الحالات معاونو أعضاء هيـئة التدريس، مع فريق من مفتشى وزارة التربية والتعليم دون أسس معروفة فى اختيارهم».

«ولا يتسع المجال للتفـصيل فيما ينبغى أن تكون عليـه كليات التربية من حيث برامـجهـا، لكنى باختـصار لو خيـرت بين نظامهـا الحالى والنظام القـديم الذى أعددت من خـلاله، لفـضلت الأخيـر [يقصـد القديم] مع تحديث المعـرفة وتوظيف الوسائط التكنولوجيـة فى التعليم والتعلم واستمرار الإعـداد على مدى عامين، وقد أبديت رأيى هذا فى عدة منـاسبات مـفضـلاً النمط التتـابعى القديم على التكاملى الـسائد حاليا».

(١٥)

وبعد ٦٥ صـفحة من هذا الموضع يعود الدكـتور حامد عـمار إلى الإفاضة فى بيان هذا المعنى ويقول:

«وكنت منذ أن بدأ النظام التكاملى معارضاً وناقداً، ومازلت، بحيث تزداد قناعـتى بأنه نظام كالمنبت لا تـخصصـاً أوفى، ولا تربيـة أشاع، لكن المصالح والأهواء وتجارة الكتب التربوية والنفـسية وتوزيعها لمدى سنوات على الأعـداد الكبيـرة التى احتـشدت فى كليـة التربيـة خلال العقود الثلاثة الماضية، قـد تغلبت على النمط التتابعى، وأهدرت مزايا التركيز على الإعـداد الجيد فى كليات التربية وأجوائها الحـميمية، التى

سادت خلال الأجيال السابقة، ومازلنا حتى اليوم نعانى مشروعات تطوير إعداد المعلم، دون أن نلتفت إلى اضطراب وتعقد الهيكلة ذاتها، خصوصاً بعد إضافة شعبة التعليم الأساسى، حين تم إلغاء معاهد التربية للتعليم الابتدائى، ولا خلاص لأزمة إعداد المعلم فى تقديرى إلا بالنظام التتابعى، مع جعله سنتين للدبلوم، وفصل إعداد المعلم الابتدائى فى مؤسسة خاصة مستقلة تحت مظلة التعليم الجامعى».

(١٦)

كذلك يتحدث الدكتور حامد عمار فى ثنايا مذكراته حديثاً مهما عن نظام البعثات، وما أصاب هذا النظام من اضطراب فى العقود الأخيرة:

«ومما يستحق التنويه أنه فى نظام البعثات حتى حقبة السبعينيات كانت الوزارة أو الجامعة هى التى تحدد الجامعة الأجنبية لطلاب بعثاتها، وكان يتولى هذه المهمة نيابة عنها مكتب البعثات فى دولة الإيفاد، أما اليوم فإن على الموفد أن يبحث بنفسه عن الجامعة التى تقبله عن طريق المراسلة وهو فى مصر، وقد يؤدى هذا إلى قبوله أية جامعة بصرف النظر عن سمعتها ومستواها، ومازلت أعتقد أن النظام القديم هو الأفضل، وأتساءل: لماذا أجد كل نظام قديم أفضل؟!!».

(١٧)

ويتحدث الدكتور حامد عمار عن مشاعره تجاه جامعته وكليته وقسمه بمرارة لا تفتقد المبررات، وإن لم تكن بحاجة إلى هذا القدر من

التعبير والتصريح المباشر، الذى لا يخلى مسئولية صاحب المذكرات عن وصول الأحوال إلى ما وصلت إليه، ومن الطريف أننا نجد حامد عمار فى كثير من مواضع مذكراته حريصاً على الإشادة بأشخاص كثيرين من زملائه فى القسم والكلية، ومعنى هذا أنه يظهر نفسه على أنه يتهم النظام لا الأشخاص، وإن كان هذا أيضاً لا يعفيه من المسئولية بحكم أقدميته ومسئولياته عن صناعة الوضع الذى صنعه، ومن المهم أن نقرأ هذا النقد الذى يوجهه بعد أن يعترف بما لقيه فى البداية من ترحيب:

«... بيد أنه لا يفوتنى هنا تقدير قسم أصول التربية فى الترحيب بعودتى إلى القسم بعد انتهاء عملى بالأمم المتحدة، وقد ظل هذا التقدير فترة ثم انطفأ حين أدركوا أن الأستاذ غير المتفرغ أو المتفرغ بعد السبعين من العمر، لا حول له ولا طول فى اتخاذ القرار، وقد أضاف إلى ذلك نقدى المخلص لبعض ما يدور فى القسم من أحداث، أو نقدى اللاذع للاتجار فى الكتب، أو فى انتهاك الأمانة العلمية فيما يؤلفون، أو فى الصخب على توزيع الجدول، أو التشاحن فى الإشراف على طلاب الدراسات العليا من معاونى أعضاء هيئة التدريس، حتى يكون لكل أستاذ مدرسة منهم بالولاء والانتماء له شخصياً، وليس على أسس مدرسة علمية، أو مناهج بحثية».

«وبخلت الكلية والقسم حتى بكلمة شكر شفاهة ـ لا كتابة ـ عندما وفرت للكلية مبلغ نصف مليون جنيه قدمها الوزير الجليل د. حسين كامل بهاء الدين للمكتبة، حين عرضت عليه حالها وأوضاعها المزرية

والمتخلفة فى جلسة من جلسات رابطة التربية الحديثة، وصرف المبلغ وتمت من خلاله بعض الإصلاحات التى لم تتطلب إلا قدراً محدوداً من هذا المبلغ، والله يعلم فيم أنفق ما تبقى.

«لكن فيما أحرزته من تقدير خارج الكلية من الهيئات الدولية والعربية والمصرية ما عوضنى عن مرارة الشعور بأجواء القسم والكلية، واعتبرت مواقفهم فى رصيدى الإيجابى لا السلبى».

(١٨)

وهذه فقرة أخرى تأتى بعد الفقرة السابقة يلخص فيها حامد عمار ما يشعر به من ألم تجاه كليته التى لم ترشحه للجوائز التى نالها:

«... فمرارة الإحباط أن كلية التربية لم يخطر على بالها أن ترشحنى لجائزة عين شمس التقديرية، مع أنى كنت حاصلاً على جائزة الدولة التقديرية، وجائزة الكويت للتقدم العلمى، ويأبى علىَّ اعتزازى بنفسى أن أذكر الكلية بذلك، وليس فيها ممن حصل على مثل تلك الجوائز، بيد أنى بعد أن حصلت على أكثر مما أستحق من الجوائز والشهادات التقديرية لبعض مؤلفاتى».

. . . .

ربما جاز لى أن أستنكر على الدكتور حامد عمار أن يسعى للحصول على جائزة الجامعة بعدما حصل على جائزة الدولة التقديرية، وأصبح فى مقام مَنْ يمنحون جائزة الجامعة لا مَنْ يحصلون عليها:

«أثرت الموضوع من قبيل العتاب مع رئيس الجامعة أ.د. صالح هاشم، الذى أراد أن يقنعنى بأن عندى من الجوائز ما هو أهم من جائزة الجامعة، فكان ردى بأنه ليس هناك ألذ ولا أشهى من مذاق طعام بيتى، وما كان إلا أن ينصرف إلى هاتفه ليرد على أحد الباشوات فى الطرف الآخر».

(١٩)

ويعبر الدكتور حامد عمار عن سعادته بفرح طفولى لا يزال يتمكن منه على الرغم من تقدمه فى السن، وهو حريص على أن يتحدث باستفاضة عن كثير من النجاحات فى حياته، وعن سعادته بهذه النجاحات عند تحقيقها وعند تذكرها على حد سواء، وهو على سبيل المثال يتحدث عن تفوقه فى الابتدائية فيقول:

«... وقد أنهى دراسته فى المدرسة الابتدائية فى أسوان، وتظهر النتيجة لأجد ترتيبى الأول بين طلاب المدرسة، ورقم ١٨٠ على مستوى القطر من حوالى سبعة آلاف ناجح فيما أتذكر».

كذلك فإنه يتحدث عن تفوقه فى المدرسة الثانوية، وأنه جمع التفوق الرياضى إلى التفوق الدراسى، وهو يتحدث عن هذا التفوق بطريقة طريفة فيقول:

«ولعل تفوقى فى الدراسة، حيث ترتيبى من الأوائل فى كل السنوات، كان من المكانيزمات التعويضية التى كانت سنداً لثقتى بنفسى وما صاحبها من تقدير الزملاء والمدرسين، ومن بين هذه الميكانيزمات

أيضاً اقتحامى لمجالات الألعاب الرياضية من تراث (القسم المخصص) فى مدرسة أسوان الابتدائية، وقد تمكنت فى المرحلة الثانية (قسم البكالوريا) أن أصبح فى الفريق الأول للمدرسة فى تنس الطاولة، وفى كرة القدم والسلة، وكنا نتبارى مع مدرسة قنا الثانوية (قسم خارجى فقط) منذ تأسيسها عام ١٩٣٤، وكنا ننتصر عليها دائماً فى كرة القدم،فنرسل برقية الفوز فى صورة مختصرة متكررة (اثنان كالمعتاد)، لكننا كنا نخسر دائماً مع فريق كرة القدم فى مدرسة أسيوط».

وعند هذا الحد يتحدث الدكتور حامد عمار عما لايزال يذكره من عبث الشباب حين أخذ ينفس عن الهزيمة أمام فريق أسيوط تنفيساً بلاغياً:

«... وكلفت حين أقامت لنا المدرسة حفلاً أن أقول كلمة لمضيفنا، أذكر منها بعد تقديم الشكر ما كنت قد تعلمته من صياغات الكناية والتورية، مشيراً إلى أن (فريقكم يتميز دائماً بأنه بارز الصدر، عالى الكعب، لا يجاريه فريق فى رشاقة وسطه، أو مغازلة أو صعوبة فى دخول مرماه)، وقد كان وراء هذه العبارات ما وراءها من التنفيس الصعيدى عن مرارة الهزيمة».

(٢٠)

ويتحدث الدكتور حامد عمار أيضاً عن ترتيبه المتقدم فى شهادة البكالوريا وعن زمالته فى هذا الترتيب للدكتورة سيدة إسماعيل كاشف، وأن تكون هذه الزمالة بداية لزمالة مستمرة فى الكلية، وفى القسم العلمى، وفى تخصص الامتياز، وفى المواد الإضافية فى الامتياز أيضاً:

«تظهر النتيجة ويأتى ترتيبى السادس من بين مجموع الناجحين فى القطر، وتنشر صحيفة «الأهرام» أسماء العشرة الأوائل، وقد أطلعتنى منذ حوالى خمس سنوات أمينة مكتبة وزارة التربية والتعليم على صحيفة الأهرام التى بها أسماء العشرة الأوائل فى عام ١٩٣٧، وأرجو بعد أن تذكرت ذلك، وأنا أكتب هذه السطور أن أصور نسخة من تلك الصحيفة، إن استطعت إلى ذلك سبيلا»:

«وقد كان لظهور اسمى فى الصحف لأول مرة وقع عميق بالاعتزاز، كما أثار موجة هادرة من الزغاريد بأن اسم (ولد الشيخ مصطفى فى الجرنان)، ومن الصدف العجيبة فى نتائج هذا الامتحان أن تشاركنى فى ترتيبى السادس مكرر فتاة اسمها (سيدة إسماعيل الكاشف)، ومما يزيد الصدفة عجباً أن تزاملنى فى كلية الآداب (قسم التاريخ)، وأن نتفوق معاً لنتزامن فى دراسات الامتياز، التى توفر للحاصلين على مجموع ٧٥٪ فى امتحان النقل من السنة الأولى إلى الثانية، مع الاستمرار فى الحصول على هذا المجموع حتى نهاية السنة الرابعة من أجل استحقاق درجة الليسانس الممتازة، وكانت دراسات الامتياز تقوم على اختيار مادة أكاديمية فى التخصص، ولغة أجنبية إما ألمانية أو إيطالية فى ذلك الوقت، وتشاء الصدف أن يختار كل منا المادتين نفسيهما (تاريخ إسلامى، ولغة إيطالية)، وهى اليوم أ.د. سيدة إسماعيل الكاشف، أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية البنات جامعة عين شمس، وإن التقينا فى الجامعة فقد افترقنا فى التخصص والكلية فيما بعد».

(٢١)

يجدر بنا هنـا أن نتوقف لنشيـر إلى أن الدكتـورة سيدة كـاشف قد وصلت إلى أعظم الدرجات الجامعية فى مـجال تخصصها فى التاريخ الإسلامى، وأنها تزوجت من الدكتور زكى مـحمد حسن، الذى كان من خريجى أول دفعة فى كلية الآداب، والذى كان أول مَنْ وصل إلى منصب عميد كلية الآداب نفسها.

(٢٢)

ومن الجدير بالإشـارة المبكرة أن نذكر أن الدكتـور حامد عمـار كان واعيـاً تماماً لمـدى الحظ الذى رزق به حين أتاحت له الظروف زمـالة شخصية نسائية مصرية عـرفت بالجد والاجتهاد، وقد زاملها على مدى سنوات طويلة فى تنافس كان مـحسوماً لصالحـها، مما أدى إلى تكوين صورة مشرقة عن المرأة المصرية فى ذهن حـامد عمار، وربما كان حامد عمـار بافتـقاد هذا النمـوذج قد عـاش فى صورة مـضطربة عن المرأة المصرية وقدراتهـا، ويبدو أن الأقدار قد سـاقت هذه الزميلة فى طريق أستـاذ التربية لتكون فكرة تلـيق بتربوى مصـرى رائد عن المرأة المصرية وقدراتها:

«... وفى الجامعة ترسخت على مدى سـنواتها قيمة التواصل مع الجنس الآخر، وتقدير إمكاناته وطاقاته المتكافـئة مع الذكور، وبخاصة حين ألفيت مـا لزميلتى فى قسم الامتـياز من عقل راجح، وشخـصية واثقة، وقدرة على المثابرة والتفوق، وكان غـيرها كثيرات من المتفوقات

على زملائهم في أقسام الكلية الأخرى، وانمحى من فكرى الريفى كل ما كان يغشاه من هواجس الاختلاط بين الجنسين، بل وطاقات القدرة على التنافس بينهما، وتحقق لدىّ الحديث الشريف: (إنما النساء شقائق الرجال)».

(٢٣)

ويتحدث الدكتور حامد عمار باعتزاز عميق عن الجهد الذى بذله فى رسالته للماجستير فى التاريخ، وعن فضل أستاذه محمد مصطفى زيادة على هذه الرسالة، وعن فضل الأستاذين اللذين ناقشاه وهما الأستاذان محمد شفيق غربال وحسن إبراهيم حسن فيقول:

«... وبعد عودتى من البعثة ومن انشغالى بهموم التربية والتعليم والعمل مع الأمم المتحدة حتى عام ١٩٨٧، افتقدت مخطوطة الرسالة إذ ذاك، وعندما عثرت عليها فى أحد صناديق سلوان، لم أتردد فى نشرها، اعتزازاً بأنها كانت باكورة كتاباتى فى البحث العلمى، كذلك أردت ـ كما أشرت فى مقدمة الكتاب ـ أن تكون رمزاً للوفاء والتقدير والعرفان بفضل الأستاذ الجليل الدكتور محمد مصطفى زيادة، الذى أشرف على هذه الرسالة، وخط بقلمه فى تدريباته وتصحيحاته وتعديلاته وتساؤلاته فى كل صفحة من صفحاتها. كذلك أردتها أن تكون تقديراً وإجلالاً للأستاذين اللذين اشتركا فى مناقشتها والحكم عليها، وهما الأستاذ شفيق غربال، والدكتور حسن إبراهيم حسن الأستاذان بالجامعة».

(٢٤)

وهو يثنى ثناء كبيراً على أستاذه فى مرحلة الماجستير الدكتور محمد مصطفى زيادة، الذى أشرف على رسالته، والذى كان له الفضل فى تحقيق المقريزى، وهو يرى أن تحقيقه وتحريره ونشره لمجلدات المقريزى فى كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك)، وفى كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) يمثل إسهاماً رائعاً من مصادر عصور السلطنة المملوكية وأخبارها، وهو يتحدث عن زياراته لأستاذه فى منزله وتلمذته عليه ويقول:

«. . . وأذكر أننى كنت أزور أستاذى د. زيادة فى بيته بمصر الجديدة لأقدم له ما تيسر لى كتابته من فصول، وأذكر كذلك أنه علمنى كيف تكون الكتابة التاريخية المنضبطة، فكان يقوم بإعادة كتابة صفحة مما كتبت مشيراً إلى المفارقة بين الأسلوبين، وكانت هذه التدريبات متكررة فى مختلف الفصول لأحاول إعادة كتابتها، مما توافر لهذه الرسالة من ثناء الممتحنين بالإحكام فى أسلوبها، والتدقيق فى معلوماتها، والقدرة على ترجيح الآراء وتفسير مجريات الأحداث وترابطها، مما يعتبر عدة الكتابة العلمية فى التاريخ. وإنى لمدين له بهذه المهارات فى كتاباتى التربوية فيما بعد».

(٢٥)

ويحفل كتاب الدكتور حامد عمار بأحكام تقييمية عديدة يصدرها فى شأن أساتذته وزملائه وتلاميذه أيضاً، وهو يسخو بالثناء المستطاب على بعض الشخصيات التى قدر له أن يزاملها أو أن يدرس على يديها، ومن ذلك ما يرويه عن الأستاذ عبد المنعم الصاوى وزير الثقافة

والإعلام فى عهد الثـورة، الذى قدر له أن يزامله منذ السنة الأولى فى كلية الآداب:

«. . . وصعدت إلى أعلى المدرج لأتخـذ مكانى، وشاءت المصادفة أن يكون على يسارى طالب عفى وجيه تعارفنا مـعاً، اسمه عبد المنعم الصاوى، والذى أصبح من قيادات الكلية فى مظاهرات الطلبة فى أثناء الدراسة، ثم انتهى به المطاف أن يحتل منصب وزير الثقافة أخيراً».

كذا يقول الدكتور حامد عمار، ويبدو أن هذه الفقرة كانت جزءاً من نص كان قـد نشر قبل مـذكراته بما يقـرب من ثلاثين عاماً حـين كان الصاوى وزيراً (١٩٧٧ ـ ١٩٧٨)] فى عهد الرئيس السادات.

«ومع هذا التعارف الأولى اطمأننت بصحبته وحرصت على الجلوس إلى جانبه، كلما استطعت إلى ذلك سبيلا فى أثناء السنة الأولى».

وهو حريص على أن يشير إلى صداقته لعبد العزيز كامل، الذى كان أحد أقـطاب حركة الإخـوان المسلمـين، وإلى أن مجـموعـة الإخوان المسلمين على حد تعبـيره كانت مجموعة ملتزمـة، وهو يقول ما نصه: «ولم تثر المجموعة أى اضطرابات فى الكلية، كما أنها لم تتعرض لأى معوقات فى أداء رسالتها الدينية».

(٢٦)

ومن الطريف أننا نرى الدكتور حامد عمار حريصاً على أن يقول فى فقـرة من مذكـراته إن كل زملائه فى مـرحلة الدراسة فى بريطانيـا قد أصبحوا وزراء بينما لم يصبح هو كذلك!!

ومن الطريف أيضاً أن هؤلاء أصبحوا وزراء فى مصر، وفى الأردن، وفى الكويت.

كذلك فإن اثنين من بين زملائه فى كلية الآداب من الذين تحدث عنهم باعتزاز فيما نقلناه عنه فى الفقرة السابقة قد وصلا أيضاً إلى الوزارة وهما الدكتور عبد العزيز كامل، والأستاذ عبد المنعم الصاوى.

ومن الممتع أن نقرأ بعضاً من وصف الدكتور حامد عمار لهؤلاء الثلاثة زملاء الدراسة فى بريطانيا الذين وصلوا إلى الوزارة فى بلاده.

وتحدث حامد عمار عن خليل السالم من الأردن فيقول ضمن حديثه:

«... كان شاباً ذكياً، متقد الذهن، والحركة، والانفعال، ولم أنقطع عن زيارته كلما سافرت إلى الأردن فيما بعد، رحمه الله رحمة واسعة».

وهو يتحدث عن الوزير الكويتى عبد العزيز حسين فيقول:

«... عربياً وسيماً، هادئ الطبع، عذب الحديث، تخرج فى كلية العلوم فى مصر، ويكن لها كل التقدير والعرفان، وقد أصبح فيما بعد وزيراً وعلماً من أعلام الثقافة فى دنيا العرب».

أما زميلته المصرية الدكتورة حكمت أبو زيد فيتحدث عن حرصها على أن تراه متزوجاً، وعن بعض مناقشاتها معه:

«... وكثيرا ما كانت تحتدم المناقشات بيننا فى أوضاع مجتمعاتنا

العربية، وفى المقارنة بينها وبين أحوال التعليم وسلوك البشر فى انجلترا، بيد أنه فى مواجهاتنا مع الطلاب الإنجليز كنا نتماهى مع أوضاعنا مدافعين عنها، مبررين حتى فساد حكامنا واستبدادهم، وأن ما يرونه من تخلف إنما يعزى كله إلى الاحتلال البريطانى، وأن ذلك دفاع عن النفس مع وعينا التام الذى شحنته حينا فى الأجواء التى نعيشها، بما نحن عليه من تخلف».

(٢٧)

ومن بين الذين زاملهم حامد عمار فى سرس الليان يتحدث عن زميله الدكتور رشدى خاطر حديثاً مقدراً لجهوده فى تأليف الكتب المدرسية، والكتب الخاصة بمحو الأمية. ومن الجدير بالذكر أن رشدى حافظ تخرج مع الدكتور حامد عمار فى الدفعة نفسها من كلية آداب القاهرة:

«.. ولعل من أهم برامجه (الحديث عن مركز سرس الليان) ما أسند إلى د. رشدى خاطر فى مجال محو الأمية وتعليم الكبار، وقد كان لاجتهاداته فى تأليف كتب للمتبدئين فى تعلم القراءة والكتابة، وفى كتب المتابعة لمن تحرروا حديثاً من الأمية، ما يمكن اعتباره بحق رائداً طليعياً فى هذا المجال».

ويتحدث أيضا باعتزاز شديد عن زميله الدكتور محمود الشنيطى

«ومما أفدته من عملى فى مركز سرس الليان توافر مكتبة غنية بمراجعها العربية والإنجليزية، ويكفى أن يكون أمينها د. محمود

الشنيطى رائد علم المكتبات فى مصر».

(٢٨)

ونعود للدكتور حامد عمار وهو يتحدث عن أساتذته الذين لايزالون يحتلون مكانة عالية فى وجدانه، ونحن نلاحظ أن الدكتور محمد شفيق غربال يحظى بأكبر حظ من حديث هذه المذكرات عن أدائه أستاذاً للتاريخ فى مرحلة الليسانس، وفى مرحلة الماجستير، ووكيلا للوزارة مشرفا على البعثات فيما بعد ذلك، وهو يستعيد من ذاكرته صورته الأولى فيقول:

«... أتذكر شفيق غربال، وهو يقص علينا فى حراكه أمامنا تاريخ الحملة الفرنسية، إذ يقول: تعجبون من أن بونابرت كان يعتقد أن غزوه لمصر سوف يكون نزهة حربية، فإذا به يجدها مغامرة رهيبة، بل مقامرة فادحة الخسران. وفى هذا الإطار يتابع وقائع تلك الحملة».

«وبكل الاحترام والامتنان أذكر أن شفيق غربال قد أهدى طالبا [يقصد : طالبى] الامتياز د. الكاشف كتاباً من المراجع لا أتذكر اسمه، كما أهدانى تاريخ الجبرتى (عجائب الآثار) طبعة بولاق الذى افتقدته ضمن ما افتقدته من كتبى فى أثناء غيبتى فى البعثة».

(٢٩)

وفى موضع آخر يتحدث الدكتور حامد عمار عن لقائه بأستاذه شفيق غربال عند حضوره إلى مصر فى أثناء بعثته ليمارس البحث الميدانى الذى تتطلبه رسالته للدكتوراه عن التنشئة الاجتماعية فى قريته،

وهو حريص على أن يشير إلى عظمة شفيق غربال القارئ النهم، الذى كان على معرفة بأقطاب الفكر الاجتماعى، ونحن نقرأ ما يرويه حامد عمار فنأسف على المستوى الذى وصلت إليه الأمور فى كراسى المسئولية عن التعليم، وفى كل شىء على وجه العموم:

«... بمجرد وصولى إلى القاهرة، اتصلت بإدارة البعثات من أجل مسائل المرتب خلال تلك الفترة واحتياجى إلى كاميرا لرصد بعض المشاهد فى القرية، وهنا تظهر مفاجأة لم تكن فى الحسبان، فقد عرض طلبى بالصدفة على وزير المعارف بالنيابة فؤاد سراج الدين باشا، حيث كان طه حسين يشارك فى مؤتمر عالمى فى فلورنسا فى تلك الفترة، وفى طلبى المقدم ذكر لتفاصيل ما حصلته من شهادات وعنوان الرسالتين فى الماجستير والمقترح للدكتوراه، ويبدو أن معالى الباشا قد ارتاب فى الموضوعين «عدم تكافؤ الفرص التعليمية فى مصر»، و«التنشئة الاجتماعية فى قرية مصرية»، وأحال الطلب إلى وكيل الوزارة، وقد كان إذ ذاك شفيق بك غربال أستاذى فى حقبة كلية الآداب، استدعانى الرجل إلى مكتبه وأخذ يسألنى عما درسته، ومَنْ هم أساتذتى فى (بلاد الأنكتار) وهو تسمية مؤرخى العصور الوسطى الإسلامية للمحاربين (الإنجليز)».

«عندما بدأت بذكر كارل مانهايم قاطعنى بأنه أستاذ فحل قرأ له كتاب «الأيديولوجيا واليوتوبيا»، دهشت وكنت أظن أننى الوحيد الذى قرأ هذا الكتاب فى مصر، وإذ بوكيل وزارة متابع لمصادر المعرفة وكتبها المتجددة مما ليس مستغرباً على هذا المؤرخ الواسع الاطلاع. أليس هذا

مصــدراً للتعجب والتقــدير بالمقارنة مع شواغل أصــحاب هذا المنصب اليوم فى الشئون البيروقراطية؟!».

«وأخــيراً بعــد حوار طويل أنبــأنى بتأشــيرة فــؤاد باشا، ومــا أثاره موضوعا رسالتى الماجستير والدكتوراه من شكوك فى أن هذا الطالب (ينشــر غسيلنــا الوسخ فى الخارج)، وأردف قــائلاً: إن ما اختــرته من الموضوعــين هو اشتباك مع الواقع المــصرى، وتمثل مناهجهمــا أحدث المقاربات فى مجــال فهم نظام التعليم فى مصــر، وأنه ليس من المتوقع أن يكون الباشــا على دراية بتطور مناهج البحث الحــديثة ومجــالاتها، وليــتــذكــر القــارئ أن ذلك الزمــان هو أوائل عــام ١٩٥١، طمــأننى واستدعى مدير مكتبه ليملى عليه تأييده لقيمة بحوث الطالب، وأنه كان من بين تلاميذه مع ما يتسم به من الصفات الطيــبة التى يتميز بها وحبه لوطنه. انزاحت الغمة، وتيــسرت الأمور المالية بما فيهــا حصولى على كاميرا حديثة تُرد بعد استخدامها».

(٣٠)

وهو يقدم لنا قصــيدة من النثر (إن جاز مثل هذا التعــبير) فى مديح الدكتور سليمان حزين:

«. . . كان من بين أشد مَنْ انبهرنا بهم د. سليمان حزين، وقد كان عائداً حديثاً من بعثته فى إنجلترا، شــاباً وسيماً، شامخ القامة، يحاضر فى الجغــرافيا مرتجــلاً، وبلغة عربية فــصيحــة، وبمصطلحات جغرافــية جديدة علينا، مثل الحركات التكتونية والأخاديد، والبرارى إلى المداخل

الحربية فى جغرافية مصر. وكما كان دقيقاً فى أفكاره وعباراته، طالبنا منذ البداية أن نكون كذلك، مقدماً مثل ذلك الطالب الذى استخدم فى إجابته تعبير (بحر النيل) بدلاً من (نهر النيل) فأعطاه (صفرا) على هذه الإجابة».

ويصل الدكتور حامد عمار فى مديحه للدكتور سليمان حزين إلى ذروة عالية يصورها تصويراً كمياً طريفاً حيث يقول:

«... وقد دعا انبهارنا بالأساتذة إلى اقتراح عبد المنعم الصاوى بأن علينا أن نثمن كل محاضرة بين حدين من القيمة النقدية تمتد من قروش إلى شلن. فهذه العبارة البارزة فى محاضرة الأستاذ فلان تساوى قرشاً فقط، وأخرى لدى أستاذ آخر تساوى نصف فرنك، أى قرشين، وأخرى تساوى شلناً وهو الحد الأقصى، ومع ذلك اضطررنا إلى تجاوز هذا الحد الأقصى فى بعض محاضرات الدكتور حزين، حيث كانت مادة الجغرافيا العسيرة تتحول إلى لغة سلسة يصك فيها الأستاذ مصطلحات ومجازات ممتعة، مما أسهم به هو وزملاؤه من الأساتذة فى تعريب كثير من مصطلحات علم الجغرافيا».

(٣١)

وهو يثنى على الدكتور إبراهيم مدكور ثناء موجزاً، لكنه حافل بالأوصاف الدقيقة:

«وأذكر أن أول محاضرة استمعت إليها فى مادة مبادئ الفلسفة التى كان يلقيها الدكتور إبراهيم بيومى مدكور، ذو الطلعة البهية، والقامة

الشـامخـة، والأناقة المتـألقـة، وفى صوته الحـيوى، وبـلغتـه العربيـة الفصحى».

. . . .

وهو يخص الدكـتورة سـهـير القلمـاوى بثناء جـميل، ويعـزو إلى شخصـيتها بعض الأثر فى حسن تذوقه للأدب، وحـرصه على حلاوة الأسلوب:

«لقد كان إعجابى بالغاً بأول امرأة مثقفة أديبة أنيقة ذات إيقاع صوت سحرى، تتحدث معنا ونتحدث إليها فى احترام وانضباط، وأحسب أن لهذه الحلقات تأثيراً هائلاً فى حسن تذوقى للأدب والشعر، إلى جانب اهتمامى بالتفكير المنطقى، وحلاوة الأسلوب.

. . . .

وهو يتحدث عن الأستاذ محمد عوض محمد حديثاً ممتعاً يخلط فيه بين شاعرية مـحمد عوض وبين محـاولته هو النزول بقارئه إلى أرض الواقع المتـواضع، كمـا أنه يروى واقعـة شخصـية حـدثت له على يد الدكتور محمد عوض محمد فى إحدى محاضراته:

«. . . ومن الطرائف السـاخـرة التى تعـتبـر من لوازم د. عـوض إشـارته إلى محـصول الـتفـاح، وإلى جمـال التـفاحـة شكلاً ولوناً وملمساً، وأنه من النزعات الإنسانية المتوحشة قضم التفاحة وأكلها، فى حين أنه من الواجب أن يضعها الإنسان أمامه ليستمتع بجمالها. وأعتقد أن معظم الطلاب مثلى لم يروا التفاحة، ولم يمارسوا الاعتداء عليها.

«وفى محاضرة أخرى من محاضراته كان يحدثنا عن السمات الفسيولوجية للأجناس ومقاييس وأشكال رءوسها، ذكر لنا أحد الأجناس الإفريقية التى تتميز بظاهرة (القذال)، وهو امتداد فى مؤخرة رأسها، وفى نظرة عامة على الطلاب التقى برأسى واستدعانى للوقوف بجانبه، وأدار رأسى لكى يراه بقية الطلاب، وقال: هذا هو شكل (القذال) الذى أحدثكم عنه، وهو ما ورد فى أحد أبيات من شعر المتنبى، وقام بإيراد البيت الذى لم أعد أتذكره».

(٣٢)

ويحرص الدكتور حامد عمار على أن يطلعنا عن قصد على الأخلاق الجامعية الرفيعة التى كان يتحلى بها اثنان من أشهر أساتذة التاريخ فى الجامعة المصرية، وقد قدر له أن يدرس على يديهما وهو طالب فى قسم الامتياز بقسم التاريخ، وهو يروى أنه ناقش الرجلين علنا وهو طالب فنال رضاءهما وتقديرهما وتشجيعهما:

«... أناقش د. حسن إبراهيم حول ما أورده فى حاشية مرجعية فى كتابه (الإسلام السياسى) حين كان يحدد موعد ولادة النبى صلى الله عليه وسلم فى عام الفيل، معتمداً فى ذلك على ثلاثة مصادر من بينها مرجعان أجنبيان إلى جانب سيرة ابن هشام هما (نللينو وتوماس أرنولد)، فأستأذنته مشيراً إلى أن تلك الحقيقة ليست فى حاجة إلى مراجع، لأن ذلك التاريخ يعلمه كل مسلم، وقد تعلمته فى الكتاب، وأعتقد أنه يصبح للمرجع قيمته لو كان هناك اختلاف بين المؤرخين، وإذا كان ولابد من مراجع، فإنه يمكن الاكتفاء بسيرة ابن هشام،

فكانت إجابته: معك حق، ولعلى أردت أن أشجع القارئ على الاطلاع على هذين المرجعين أيضاً. وقد كان مسروراً من ملاحظتى».

«ومع د. إبراهيم نصحى، وهو يحدثنا عما ساد مصر من رخاء فى عصر البطالمة، [أستاء] لأطرح سؤالاً يجول فى خاطرى: إنى أتساءل عن أية فئة كانت تنعم بذلك الرخاء؟ ألم يكن ذلك الرخاء من نصيب الأغارقة من رجال الحكم والسلطات ومَنْ تبعهم من التجار والأثرياء؟ أما بقية الشعب المصرى فقد عانت من القهر والفقر، وكان شأنهم كما يقول الشاعر:

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ   والماء فوق ظهورها محمول

«يضحك بعض الطلاب فى المدرج لهذا الشعر فى محاضرة عن تاريخ البطالمة، وتأتى استجابة الأستاذ إبراهيم نصحى بالثناء على وعلى هذا الوعى التاريخى، ناصحاً مَنْ ضحكوا بأن يقتدوا به، فهو بحق جدير بأن يكون طالب امتياز».

(٣٣)

ومن طرائف هذه المذكرات فيما يتعلق بكاتب هذه السطور ما أذكره من أننى عندما بدأ إطلاق لقب شيخ التربويين على الدكتور حامد عمار قلت لبعض مَنْ تبنوا إطلاق هذا اللقب ونشره إنه لقب لا يعبر عن إعزازهم لصاحبه، الذى يستحق لقباً آخر من قبيل العمادة أو الريادة، فضلاً عن أنه حين إطلاقه لم يكن يتمتع بالدقة لأسباب تتصل ببقاء آخرين سابقين على قيد الحياة، لكن كثيرين كانوا قد مضوا فى

نشر اللقب الذى سعد به صاحبه.

وفى هذا السياق أذكر أنى كررت كثيراً إن بعض أساتذة حامد عمار من التربويين لا يزالون على قيد الحياة، وذكرت على وجه التحديد اسمى الدكتورين عبد العزيز القوصى، ويوسف صلاح الدين قطب، وقلت: إننى أتصور أن حامد عمار كان تلميذاً لهما بحكم فارق السن، وكان هذان الرجلان قد وصلا فى المحيط العلمى والجامعى إلى ما لم يصل إليه حامد عمار حتى ذلك الحين، ومضت الأيام حتى نشر الدكتور حامد عمار مذكراته، واتضحت فيها بصورة قاطعة تلمذته للدكتور عبد العزيز القوصى، لكن الطريف والعجيب أن مذكرات حامد عمار دلتنى على أن يوسف صلاح الدين قطب كان أستاذاً لحامد عمار فى مدرسة الملك فؤاد الأول الثانوية فى سوهاج، وأن حامد عمار نفسه كان معجباً بطريقته فى تدريس الكيمياء والفيزيقاء:

«... أذكر منهم مع الاحتفاظ بالألقاب صلاح قطب مدرس الطبيعة والكيمياء، والذى أصبح عميداً لكلية التربية جامعة عين شمس، ثم رئيساً للجامعة فيما بعد، ولا أنسى كيف شد انتباهنا وبهرنا فى أول حصة للكيمياء، حين بدأها فى معمل المدرسة بوضع مادة الفوسفور فى محلول لتشتعل، وشريط المغنسيوم الذى يولعه فتشع أضواؤه».

(٣٤)

وربما كان التعقيب السابق مدخلاً إلى تعقيب آخر لا يقل طرافة،

والبطل فيه هو الدكتور حامد عمار راويه وصاحب موقفه، فمع أن حامد عمار وصل من الشهرة (الآن) إلى ما لم يصل إليه الدكتور مصطفى الأمير عالم الآثار والعميد الأول لكلية الآثار، فإنه يقدم لنا هذا العالم فى صورة القدوة التى ترسمها بكل وجدانه فى حياته الأولى حين سكن فى منزل أسرة الأمير عندما أتيح له أن يلتحق بالمدرسة الابتدائية فى إدفو، ويشى حديث الدكتور حامد عمار عن مصطفى الأمير بكثير من أخلاقه الكريمة والنبيلة، وروحه الواثقة من النفس.

ومن الجدير بالذكر والإشارة أن نرى الدكتور حامد عمار وهو لايزال يحتفظ للدكتور مصطفى الأمير بكل هذا التقدير والتصوير، على الرغم من وفاة الدكتور الأمير، وهو لا يخفى أنه التحق بقسم التاريخ للاقتداء بهذا الرجل الذى سبقه إلى الجامعة المصرية، مع أنه كان من إقليمه:

«... وحين أذكر إدفو وأسرة مضيفى الأمير، كان يلمع فى مخيلتى أحد أبنائها (مصطفى) الذى كان يدرس فى جامعة الملك فؤاد الأول بالقاهرة، ويتخصص فى مجال الآثار الفرعونية، ولقد كانت صورته ـ مع أننى لم أره ـ تداعب خيالى باعتباره الجامعى الوحيد، الذى سمعت عنه من بندر إدفو، وملأنى هذا إعجاباً، وأثار لدى تساؤلات كيف يصل المرء ليتعلم فى الجامعة؟ وقد رسخت صورة مصطفى الأمير فى نفسى نموذجاً وقدوة، ، لا أشك فى أنها دفعتنى إلى اختيار قسم التاريخ حين التحقت بالجامعة فيما بعد».

(٣٥)

وهو يشير إلى لقــائه الأول بالدكتور مصطفى الأميـر بعد عودته من بعثته:

«ولم ألتق بهذه القدوة إلا بـعد أن عاد هو من بعثتـه للتخصص فى التاريخ الأثرى لمـصر الفرعـونية حـاصلاً على الدكتـوراه من جامـعة كمبردج، وقد أصبح أستـاذاً فى جامعة القاهرة، وبعد أن عدت أنا من بعثـتى فى جامعة لندن للتـخصص فى التربية، وأذكـر أن ذلك كان فى منتصف الخمسينيات، حيث عـاد بى حديثى معه أيام إقامتى مع أسرته، وتقديرى وعرفانى بفضلها وبفضل أخـويه جلال أفندى والسيد محمد، وكانا قد انتقلا إلى رحمة الله، وقد اسـتمر هو أستاذاً فى معهد الآثار بجامعة القاهرة، أستاذاً متميزاً فى تفرغه لعلمه وفى تواضع شخصيته. له إسهامـات رائدة فيما فهمت منه، وفـيما سمعـته من بعض تلامذته فيــما بعــد من أنه أول مَنْ فك طلاسم اللغة الديمـوطيقـية، كـإحدى اللغات أو اللهـجات الهيروغليـفية، ويمـثل فى هذا السياق شامـبليون الفرنسى الذى فك طلاسم حجر رشيد».

(٣٦)

ونأتى إلى طرفة ثالثة من طرف الزمالة التى تحدث عنها حامد عمار فى مذكراته، وتتـعلق بحديثه عن الدكتور محـمد على العريان، الذى تخـصص هو الآخر فى علوم التـربية، ولمع اسـمه فـيهـا، ونهج فى علومها وفى تأليفـها نهجاً قريباً وموازياً من نهج الدكتـور حامد عمار مع اختــلاف الأدوات والموضوعـات والمناهج، وأستطيع أن أشــهد أن

كتابة الدكتور العريان لمذكراته «العريان والزمان» كانت بمثابة دافع قوى للدكتور حامد عمار كى يسجل مذكراته، وقد حدث هذا التنبه أمام عينىّ، ولعل القارئ يذكر أنى تدارست مذكرات العريان فى الباب الثالث من كتابى «تكوين العقل العربى» مذكرات المفكرين والتربويين.

ونحن نجد فى سمات الرجلين قدراً كبيراً من التشابه فى أسلوب التناول، ومن النظر إلى الأحداث نظرة الطائر، ومن الحرص على توجيه النقد لمن يستحقه، ومنح الثناء أيضاً لمن يستحقه، ومع أن الرجلين لم يكونا صديقين بالمعنى الكامل، فإن زمالتهما كانت كافية لهذا الحديث الذى يقدمه حامد عمار متحدثاً عن بعض الأطوار الغريبة فى سلوك محمد على العريان:

«. . . إن صداقة محمد العريان، الذى كان موفداً مع فوجنا للتخصص فى آداب اللغة الإنجليزية، مليئة بالعجائب. كان أول مَنْ حصل على الليسانس الممتازة فى الأدب الإنجلزى من خريجى المدارس المصرية، وليس من مدرسة فيكتوريا الإنجليزية، مثلاً ذهب صاحبنا إلى الجامعة يتعرف على مقرراته لدراسة الماجستير ثم الدكتوراه، لكنه صدم بأن مجلس الكلية [فى الجامعة الإنجليزية] قد قرر أنه من الضرورى أن يلتحق بالدرجة الجامعية الأولى للحصول على الليسانس أولاً، وكانت فاجعة له، وقد كان شاباً معتزاً أشد الاعتزاز بنفسه، وبجدارة صاحب خيال مبدع فسيح، مع أعصاب حساسة، وكانت الصدمة عنيفة لم يفلح مدير مكتب البعثات فى تهدئتها، وقرر الاعتصام فى مكتب البعثات حتى تحل مشكلته، لكن قرار الكلية كان قاطعاً».

(٣٧)

ويواصل حامد عمار تصوير سلوك محمد العريان المتعنت الذى واجه به تعنت الإنجليز فيما يتعلق بتسجيله للدراسات العليا:

«وبقى حوالى ٣ أشهر جالساً فى مكتب البعثات، وكنت أحاول تهدئته كلما رأيته فى حجرة الاستراحة، مشيراً إلى ما جرى لى فى برنامج بعثتى، فيصرف النظر عن موضوع بعثته ليحدثنى عن مساخر الحياة التى يعايشها فى لندن، وبخاصة ما تمتلئ به حياتهم من ادعاءات ونفاق، فيذكر على سبيل المثال ما تقول به مديرة البيت الذى يسكنه عندما يلتقى بها صباح كل يوم: (صباح يوم جميل يامحمد)، ويكون الطقس بارداً ممطراً معتماً، وهم منافقون عندما يزعمون أن كل واحد معنى بحاله دون تدخل مع الآخرين، لذلك قرر أن يقوم بتجربة عملية مع بعض مَنْ كانوا يناقشونه فى هذه الصفة، وتحدى اثنين منهم، وطلب منهم أن يركبوا المترو معه ليبرهن لهما على صحة أحكامه، استقلوا المترو واتخذوا مقاعدهم، وهو فى الكرسى الأمامى خلع حذاءه وتربع على المقعد، وأخذ يقرأ أى كلام باللغة العربية، كما لو كان يجود آيات قرآنية، ومع بداية تجويده بدأ بعض مَنْ كانوا يقرءون صحفهم فى العربة فى الالتفات إلى هذا القارئ، ومع استمرار القراءة بدأ يقترب بعض الأفراد من مقعده، وتدريجياً تكاثر الركاب الإنجليز تاركين صحفهم ليلتفوا حوله، ولما سألوه ماذا تفعل؟ قال لهم: إننى أردد بعض الصلوات، وتوالت التعليقات من المتجمهرين حوله بمعظم مَنْ كانوا فى العربة (إن هذا لشىء ممتع) ترجمة لعباراتهم وهم

يحادثون بعضهم، وأخيراً لبس حذاءه محيياً جمهور العربة، الذين بادلوه إشارات التقدير، لينزل فى أول محطة يرسو فيها القطار».

«وعند نزوله يتجه إلى الزميلين المذهولين ليقول لهما: فين، ألم تريا كيف تركوا بزنسهم وساقهم حب الفضول للاستفسار عنى مع أنهم لو لم يكونوا منافقين لانصرفوا عما أفعله؟!».

«وقد اضطر مكتب البعثات، مع إصراره على عدم قبول شروط الجامعة إلى إعادته إلى القاهرة، حيث ألف كتاباً عن خبرته فى لندن بعنوان (مائة يوم على الأنقاض) خرابات لندن بعد الحرب، وبعد هذه الصدمة الإنجليزية بعامين فى القاهرة أرسل فى بعثة إلى الولايات المتحدة ليتخصص فى التربية، واستطاع أن يحصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا، وهو الآن من أقطاب الفكر الإسلامى فى أستراليا، حيث هاجر إليها منذ عقود».

. . . .

هكذا يقول الدكتور حامد عمار، ولعل القارئ فهم ما بين السطور على نحو ما استمتع بما فى السطور نفسها من سلوك الدكتور العريان الذكى الناقد الجرىء.

(٣٨)

وعلى الرغم من انحياز حامد عمار لثورة يوليو فإنه لا يجد حرجاً فى أن يشير بكل وضوح فى كثير من المواضع فى مذكراته إلى ما يفتقده عصرها من سمات الليبرالية التى قدر له هو وزملاؤه أن

يعيشوها فيما قبل الثورة، وهو يتحدث عن هذه الفترة الليبرالية باعتزاز مقرون بالأسى والأسف للنقيض الذى حل محلها فيقول:

«... ولم تكن هناك لوائح تمنع الطلاب من المشاركة فى النشاط السياسى والحزبى، وقد قدمت كلية الآداب شهيدين (الجراحى، وموسى) يقوم نصبهما التذكارى أمام ساحة الكلية رمزاً لدورهما فى النضال والتضحيات الوطنية ضد الإنجليز، ومن أجل صيانة الدستور، واحتشدت المظاهرات فى الحرم الجامعى وخارجه، يقود معظمها فى كلية الآداب عبد المنعم الصاوى، وفى كلية الحقوق عبد العزيز الشوربجى الذى انتهى فى مدارج حياته لكى يصبح نقيباً للمحامين فيما أتذكر».

«وكانت تلك المظاهرات والاحتجاجات مجالاً للخطابة الحماسية والشعر المحرض، وقد كان من بين الشعراء المتميزين أحد الزملاء من الأقباط، والذى كان طالباً فى قسم اللغة العربية، وقد كان بعض القادة السياسيين يلتقون بالمظاهرات داخل الحرم الجامعى، وأذكر خطاب محمد حسين هيكل من أقطاب الأحرار الدستوريين أمام نصب الشهيدين فى كلية الآداب، وهو يحرضنا على الإضراب فى عبارته التى أذكرها: (لقد أدينا واجبنا وعليكم أن تؤدوا واجبكم)، فلم يمنعه حرس جامعى، حيث لا وجود له أصلاً، ولم يُقبض على أحد من الطلاب ممن كانوا يستمعون ويصفقون له، والواقع أن الطلاب قد مارسوا أدواراً فعالة فى الحركة الوطنية منذ تلك الفترة حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢».

ويتأكد هذا المعنى الذى يحرص حامد عمار على الحديث عنه عندما نراه حفياً بالإشارة إلى محنته مع أجهزة الأمن، وهى محنة تكاد تكون ضئيلة جداً إذا ما قورنت بمحن غـيره من الزملاء الذين عانوا الأمرين، ودفعوا بعض حياتهم وبعض نفوسهم ثمناً لآرائهم أو اجتهاداتهم، ومع هذا فإن تجربة حامـد عمار جديرة بالتأمل، وهو يتحـدث عن واقعتين محددتين.

أما الأولى فتتصل بترشيحه للعمل أستاذاً فى الولايات المتحدة عقب حرب ١٩٥٦، وقد تكفل بحمايته فيها الأستاذ أحمد نجيب هاشم:

«... لكن الحياة لا تظل حلوة ميسرة على الدوام فى مصر، ولابد من منغـصات بين الحين والآخـر، وقد ارتبط إحـداها بخطاب أرسله مورو بيرجر أستاذ الاجتماع بجامعة برنستون فى أواخر ١٩٥٦ يدعونى فيه إلى العـمل أستاذا زائراً فى جامعة برنسـتون لمدة عام، بديلاً عنه، حيث إنه سوف يقـضى إجـازة ذلك العام فى زيارات ودراسـات فى الشرق الأوسط، وهى فتـرة تمنحها الجامعات الأمريكيـة لأساتذتها كل خمس أو سبع سنوات، لإنعـاش خبراتهم وتجديد مـعلوماتهم، سواء فى الداخل أو الخارج».

«والحاصل أنه عندما وصلت هذه الدعـوة، كان من الضرورى إبلاغ مكتب الأمن الجامعى بها، وبناء على ذلك جـاء إلى الكلية أحد رجال الأمن ليتعرف عـلى مصدر هذه الرسالة ومبرراتهـا، ولماذا تم اختيارى

بالذات حيث كان ممنوعـاً على الأساتذة الاتصال بالهيئـات الخارجية، خصوصاً أن ذلك تم فى أعقاب حرب ١٩٥٦، والتقيت برجل الأمن، وقد نفـيت نفيـاً قاطعـاً قيامى بأى اتـصال مع الأستـاذ أو مع جامـعة برنسـتون، وبين أخـذ ورد لماذا أنت بالذات؟ وما صلتك بـالجامـعات الأمـريكية؟ أوضـحت له أننى خـريج جـامعـة بريطانيـة ولا صلة لى بالجامـعات الأمـريكية، وانتهـيت فى أقوالى بنبـرة من الزهو، مفـسراً دعـوتى لأننى أسـتاذ مـشـهـور ولى كتـاب بالإنجليـزية (رسـالتى فى الدكتوراه) منشـور فى أحسن دور النشر البريطانيـة، ومن ثم توجهت إلىّ بالدعوة جامعة من أشهر الجامعات الأمريكية».

«وقفل المحضـر، بيد أن هواجسى ومخاوفى قد اشـتعلت، وأخذت أفكر فى كيفية مواجهة تلك المحـاكمة، واهتديت إلى الاتصال بالأستاذ أحمد نجيب هاشم ليـجد لى مخرجاً، وقد كان وزيراً للـتربية والتعليم فى تلك السنة (ربما كـان علينا أن نعقـب هنا أن الأستـاذ أحمد نجـيب هاشم لم يصـبح وزيراً إلا فى أكـتوبر ١٩٥٨، وهو مـا يتعـارض مع تاريخ الواقعـة التى ذكرها الدكتور حـامد عمار على أنهـا حدثت فى أواخر ١٩٥٦، لكننا مع هذا نذكـر أن أحمد نجيب هاشم كـان وكيلاً للوزارة قبل توليه الوزارة، وكان أداؤه قد بلغ حداً من المسئولية والفهم والشـجـاعة يـفوق أداء الوزراء النـبلاء)، ولما شـرحت له مـوضـوع المشكلة، أفادنى بأنه كـان فى زيارة رسمية للولايات المتـحدة، وكانت جامعة برنسـتون ضمن برنامجه، والتقى بالأستاذ مـورو بيرجر، وكان من نتائج حديثهما أن ذكـر اسمى لأقوم بالتدريس فى أثناء إجازة ذلك الأستاذ، طمأننى [واستـدعى] موظف الأمن وأملى عليه ما ذكره لى،

مؤكداً وطنيتى وحرصى على اتباع القوانين والأنظمة الجامعية».

(٤٠)

وهذه هى الواقعة الثانية التى مر بها الدكتور حامد عمار عقب الحرب الثانية حرب ١٩٦٧، وقد كانت بسبب حديث الدكتور حامد عمار الشهير عن نمط الفهلوة فى الشخصية المصرية، وهو الحديث الذى لايزال كثيرون ينقلونه ليطعموا به رواياتهم عن أسلوب إدارة الدولة فيما قبل حرب ١٩٦٧، وهو الأسلوب الذى أدى إلى هذه الهزيمة، ومن الطريف أن نذكر أن جزءاً كبيراً من شهرة الدكتور حامد عمار فى أوساط المثقفين قد قامت أساساً على هذه الفقرات الطريفة التى صور بها الأنماط «المرضية»، ولهذا فلربما قال قائل، وهو محق، إن ما حدث مع الدكتور حامد عمار بسبب هذا الموقف لم يكن شيئاً يذكر إلى جوار ما فعله هو نفسه بالنظام:

«... تأتى محنة أخرى عام ١٩٦٧ عقب مأساة حرب الأيام الستة، يأتى إلى الكلية أحد رجال الأمن للتحقيق معى، فى شأن ما ورد بكتابى (فى بناء البشر) الذى اقتبس منه صادق جلال العظم فى كتابه (ما بعد النكسة) إذا لم تخنى الذاكرة، بما يوحى بفساد فى النظام، استند إليه جلال العظم فى تبريره لعوامل النكسة، ولست أدرى كيف استيقظ الأمن إلى هذا الكتاب الذى نشر عام ١٩٥٨، كأحد المطبوعات التى يصدرها مركز سرس الليان، التى تقوم دار المعارف بتوزيعها، وتركزت الأسئلة فى محاولة للتعرف على علاقتى بجلال العظم، حيث عرف بأنه ماركسى ملتزم فى فكره وكتاباته، مع

أنى لم تكن لى أية صلة به على الإطلاق، وكنت مطمئناً إلى أن ما ورد فى كتابى من إرهاصات لا يعادل أقل ما قيل فى أسباب النكسة بعدها على صفحات الجرائد والمجلات، وفى مختلف المنتديات».

ودون أن يتوقف الدكتور حامد عمار ليأخذ نفساً أو ليبدل قلماً فإنه سرعان ما يدلى بتعليقه الساخر على مثل هذا السلوك السلطوى ويقول:

«وهكذا تزدهر الحرية الأكاديمية، وتتاح الفرص للنمو المهنى والعلمى لأعضاء هيئة التدريس!!».

(٤١)

وتحفل مذكرات حامد عمار بكثير من التعبير الدقيق عن بعض مصاعب الحياة، والسعى فى طلب العلم فى الزمن الذى نشأ فيه، ونحن قادرون على أن نفهم بسهولة ونقدر مصاعب الفتى الريفى فى سبيل الوصول إلى المدرسة الابتدائية فى إدفو أو أسوان، لكننا ربما نعجب ونحن نتأمل هذا الموقف الطريف، الذى يصوره حامد عمار وهو يتقدم لامتحان القبول فى معهد التربية العالى فى يوم أضربت فيه وسائل المواصلات القاهرية، وهو ما يصوره بطرافة حيث يقول:

«... ومن المصادفات العجيبة أنه فى اليوم الأول من الامتحانات التحريرية فى أوائل شهر سبتمبر، أعلن فى المساء [يقصد: فى الليلة السابقة] عن إضراب عام فى صباح الغد لجميع وسائل المواصلات بالقاهرة، وكنت قبل فترة الامتحان ضيفاً على أحد بلدياتى الطالب فى

الأزهر، حيث مقر سكنه فى الدراسة، وفى ليلة هذا الامتحان ناقشت معـه كيفيـة التغلب على المأزق، واستـقر الرأى على أنه لا مناص من قطع المسـافـة مشـيـاً من الدراسـة [حيث يقـيم بلدياته] إلـى المعهـد بالأورمان، الذى يقع فى مـواجهة البـاب الخلفى لحديقة الحـيوان على مقربة من الجامعة».

«واستعدادا للرحلة اشتريت (سبـاطة موز) ليلتها واستيقظت مع أذان الفجر حوالى الساعة الرابعة، استعنت بالله، وبتناول موزة كلما تعبت خلال الرحلة، ووصلت إلى المعـهد الثامنة والنصف، أى بعد مـسيرة أربع ساعات ونصف قبل الامتحان بنصف ساعة، وبعد هذا العناء كان علىّ أن أجيب عن أسـئلة علم النفس وما كـانت تتضمـنه الأسئلة من موضوعات مـجرى الشعور، ومعالجـة مشكلات النظام، ومراحل نمو الطفل، وأزمات المراهقـة مما كان متـاحاً من معـرفة فى علم النفس إذ ذاك. ولما كان العـود إلى الدراسة أيسـر غيـر مقلق، لجـأت إلى أحد المطاعم فى الطريـق لتناول الغـداء ثم استـأنفت العـودة، وفى اليـوم التالى انفك الإضـراب، وركبت التـرام من الأزهر حتى العتـبة، ومن العتبة إلى الجيزة بستة مليمات».

(٤٢)

ومع أن حامـد عمـار وهو يتحـدث عن تجربتـه فى البعثـة فى بلاد الإنجليز يبخل علينا بكثـير من التفصيلات بسبـب انشغال ذاكرته بما هو أكثر التصاقاً بموضوع خطابه الاجـتماعى والتربوى، فإنه لا يبخل علينا بحديث شيق عن أولى تجـاربه مع الجنس الآخر فى تلك البلاد، ومن

الطريف أننا نراه يعبر بصدق عما كان يشعر به من خوف من أن يُرى وقد تأبط فتاة أجنبية:

«... فى الأسبوع الأول من إقامتى فى بيت الطلبة، وأنا عائد من الغداء فى بيت الطالبات [هكذا كان النظام بسبب ضيق بيت الطلبة عن أن يستوعب المطعم] اشتد المطر، ولم أكن قد اشتريت شمسية/ مظلة، فبدأت أبتل بغزارة، وفجأة تأتى إحدى الطالبات من خلفى لتضع ذراعها فى ذراعى وتحمينى من المطر بشمسيتها، وكان هذا أول احتكاك مع الجنس اللطيف، فشكرتها متلعثماً خائفاً حتى لا يرانى أحد من مكتب البعثات أو أى مصرى يبلغه بهذا المنظر، واستمر شعورى بالخوف حتى دخلنا إلى مبنى المعهد وطويت الشمسية، ولكن صداقتنا ظلت حتى تخرجت (أى الزميلة) من المعهد بعد حصولها على دبلوم التربية».

وهو سرعان ما يجد الشجاعة لأن يخوض فى مثل هذا الحديث محتفظاً فى الوقت ذاته بروح الحذر وبالحرص على إظهار الاندهاش لهذا الاختلاف الحضارى، ونحن نراه حريصاً على أن يستهجن فكرة مشاركته فى الرقص، وأن يستبقى هذا الاستهجان حتى بعد أن وصل إلى سن الثمانين، وهو موقف يستحق بعض الدراسة والتأمل:

«... بيد أن هذا الخوف من الحديث والصداقة قد أخذ يتبدد رويداً رويداً، خاصة عندما شهدت أول حفل من حفلات المعهد بمناسبة عيد الميلاد المجيد فى قاعة المسرح الفسيحة، وكان ثمن تذكرة الدخول ٦ بنسات، ومن برنامجها أغانى الميلاد (الكارول)، يلعب على البيانو

أحد أساتذة علم النفس، كما كان يشارك فيه عدد كبير من الأساتذة، ذكوراً وإناثاً، إلى جانب حشد كبير من الطلاب والطالبات، وأعقب ذلك بداية الإعلان عن الرقصات بأسمائها (وولس، سلوفكس تروت، تانجو، سامبا، رومبا)، ولم تكن الرقصات الجنونية الحالية قد عرفت بعد، وعجبت لرقص الأساتذة مع زميلاتهم، ومع الطالبات، وبين الطلبة والطالبات، وبقيت متسمراً فى مقعدى، وأنا فى حالة ذهول مما أرى».

«ومن تقاليد حفلات الرقص أن يدعو الرجل الأنثى لترقص معه، مع استثناءات بين الحين والآخر،يدعو فيها مذيع الحفل عن رقصة تدعو الإناث فيها الذكور ليرقصوا معهن، وتعرف بـ Ladies exu-see, dance، وتخوفت من أن تتجه إلىّ واحدة منهن لأرقص معها، وحدث ما كان فى الحسبان».

هل رأى القارئ هذا اللفظ الذى أفلت من صاحبه دون أن يدرى فقال «ما كان فى الحسبان» ولم يقل «وحدث ما كنت خائفاً منه»، وهو لا يلبث إلا لحظة واحدة كى يعود إلى ما يعتقد أنه عقله فيعبر عما يوازى قولنا وددت لو أن الأرض انشقت وبلعتنى.

«... وتمنيت لو غادرت القاعة قبلها، وبأدب وانحناء تتقدم هذه الشابة الفاتنة لتطلب أن أرقص معها دون معرفة سابقة، حاولت الاعتذار بأننى لست على دراية بهذا الرقص، لكنها شدتنى من يدى قائلة: سوف أعلمك، وسوف ترى أنك راقص ممتاز. استسلمت ولفتت نظرى إلى تحرك قدمى أماماً وخلفاً مع الإيقاع، وبعد اللحظات الأولى

بدأت أنسجم فى عـملية الرقص، وشكرتنى على ما بذلت من جـهد، وبادلتها الشكر علىٰ ما تعلمت، ولكننى اكتـفيت بهذه التجربة فى هذا الحفل، وعدت بعدها إلى بيت الطلبة سالماً غانماً».

هكذا يعتقد الدكتور حامـد عمار أن نجاته من الوقوع فى الحب بعد الرقص كانت مغنماً ولم تكن سلامة فحسب!!

(٤٣)

ومن الطريف أننا نرى الدكتور حامـد عمار وهو لا يزال حائراً تجاه التقاليد الغربية فى التمسك بالدين أو بشعائره فى بعض المظاهر، مع أن هذه الحضارة تبالغ فى الحرص على الرقص فى الوقت ذاته:

«. . . وأختتم سلسلة الاحتفالات [الحـديث عن احتفالات التخرج] باجتمـاع فى قاعة (ألبرت هول) لتـوزيع الشهادات على المتـخرجين، تسبـقه موعظة وتراتيل دينية يقـودها الأرشيبشـوب أُف كنتربرى، وهو رئيس الكنيـسة الإنجليكانـية فى إنجلتـرا، ولا تنس أيها القـارئ [هكذا يقول الدكتور حـامد عمار وكأنه يذكر نفسه] إننا فى مـجتمع علمانى، لكن يظل الدين وقيـمه ركناً من أركان حـياة المجتـمع والجامعة، كـما كانت تفـتتح الدورة البـرلمانية باحتـفال دينى مناسب فى كنيـسة وست منستـر، ويحدث هذا أيضاً فى حـفل توزيع الشهادات، وقـد اتشحنا جميعاً بالأرواب والقبعات حسب ألوان الكليات».

. . . .

ربما جاز لنا أن نضيف هنا ما لم يذكره الدكـتور حامد عمار من أن

مؤسسات التعليم ومنها الجامعة نفسها قد نشأت فى أحضان الكنيسة:

. . . .

«ويبدأ توزيع الشهادات للحاصلين على درجة الدكتوراه، حاملين أروابهم على أيديهم اليسرى والقبعة فى اليد اليمنى، ويقوم المتخرج بالركوع أمام رئيس الجامعة، ثم يقف ليلبسه الروب لامساً كتفه، وواضعاً قبعته على رأسه، ويتسلم الشهادة دون سلام بالأيدى، ويبدو أن هذه المراسم قريبة الشبه بمراسم الفروسية فى العصور الوسطى، وهى تتفاوت بين الدكتوراه والماجستير وشهادات الليسانس التى تقتصر على تسليم الشهادات، كما تتفاوت بين جامعة وأخرى».

«وأتى ختام تلك الاحتفالات بالعشاء ثم حفلة الرقص، وبها انتهت صلتى بعالم الحفلات الراقصة، واكتفيت بأن أكون دكتوراً وفارساً».

هكذا يكرر الدكتور حامد عمار الحديث المعتقد فى السلامة والغنم أن نجا من حفلات الرقص.

(٤٤)

وفى مذكرات حامد عمار ما هو أهم من هذه الأمثلة فى الحديث عن تشبع الدكتور حامد عمار بأخلاق الصعايدة وعاداتهم، أقصد ذلك الأسلوب الذى يقدم له بنا قصة زواجه، فهو حريص على أن يقدم هذه القصة على نحو روتينى يخلو من كل عاطفة، وكأنه يظن أن سنه أو أصله أو علمه يحول بينه وبين الحب، أو يحول بينه وبين الاعتراف بالحب، وكأنه لم يفكر طيلة الشهور التى انقضت بين اللقاءين الأولين

اللذين جمعاه مع زوجه، وكأنه لم يتمن من الله أن يوفقه إلى هذه المحبوبة، وكأنه لم يرحب بزيارة بيروت فى السنة التالية على أمل أن يلقاها، وكأنه لم يسعد بكل هذه المفارقات التى أسعده بها القدر، لكن ماذا نقول فى رجل لايزال يظن نفسه ملزماً بالوقار الصعيدى حتى لا يضبطه أحد وهو متلبس بالحب، وكأنه وهو أستاذ التربية والتعليم يرسخ ما هو معروف عند بعض المصريين أو عند كثير منهم من أن الحب خطيئة، أو هو على أقل تقدير عورة ينبغى سترها، ولو كنت مكان الدكتور حامد عمار لخصصت فصلين على الأقل للحديث عن هذه النعمة المزجاة التى هى أولى بالحديث فى هذا الكتاب من الحديث عن مسارب كلية التربية فى عهدها الجديد، ومن الحديث عن مسارب القرية فى عهدها القديم:

«... وتأتى المصادفة حين استدعتنى الجامعة الأمريكية فى بيروت لإلقاء محاضرة ضمن برنامجها الثقافى التربوى فى موضوع التربية الأساسية عام ١٩٥٣، ودعتنى إلى منزلها بعد المحاضرة السيدة الفاضلة مليحة فاخورى، التى تعرفت عليها فى إحدى الحلقات الدراسية التى كانت تنظمها الجامعة العربية فى إطار قضايا إصلاح المجتمع، وفى تلكم المناسبة عرفتنى بفتاة وسيمة فارعة بنت أخيها، تعمل مساعد باحث فى قسم التربية بالجامعة الأمريكية، وفى السنة التالية ذهبت إلى بيروت فى مهمة اختيار المرشحين للالتحاق بمركز سرس الليان، وصدفة يتصل بى الأستاذ الكبير أحمد طوقان، الذى أصبح رئيس وزراء فى الأردن فيما بعد، ليوصينى بأحد المرشحين، ودعانى لحضور حفل يقيمه القسم التربوى فى الجامعة الأمريكية احتفاءً

به بعد أن ألقي محاضرة فى برنامجها الثقافية، وكان السيد طوقان شخصية عربية مرموقة، مرحاً، عذب الحديث، فعرفنى فى تلك الليلة بنفس الفتاة التى التقيت بها من قبل في بيت عمتها، وفى تقديمه لها أشار إلى أسرتها الكريمة المثقفة، فوالدها صلاح اللبابيدى مدير شرطة بيروت، وشاعر معروف باسم بنته (أبو ليلى)، وعمها كان فناناً فى ريعان شبابه وهو يحيى اللبابيدى، ملحن أغنية (ياريتنى كنت طير لأطير حواليك) التى غناها فريد الأطرش».

. . . .

ومع هذا كله فإننا لا نستطيع أن ننكر أن الدكتور حامد عمار كان حريصاً، وربما جاء حرصه هذا بعد فوات الأوان على أن يعترف بامتنان كبير لزوجه، حيث يشركها فى إهداء كتابه الذى أهداه لوالديه، وهو يعبر فى حروف الإهداء عن امتنان عميق لهذه السيدة:

«. . وإلى شريكة حياتى ليلى، أم الوليد البكر، والتوءم، أشعت حياة المودة والسكن، رعيت المسيرة تحقيقاً للحلم، مقاومة كل المخاطر والوهن، فتقوى العوافى، وينزاح السقم، وتشتد طاقات العزائم والهمم».

(٤٥)

وتحفل هذه المذكرات بأحاديث لا تنتهى عن عادات أهل الريف الاجتماعية، وعن طرق علاجهم، وعن طرق أفراحهم واحتفالاتهم بختان الذكور والإناث، وعن طبائعهم فى الأكل، والشرب، والسكن، والبناء، وعن اقتصاد القرية، ونظام السخرة والفردة. . إلخ،

وهو بلاشك يجيد تصوير كثير من المظاهر الاجتماعية فى قريته، ولا ننسى أنه كتب عن هذه القرية بالذات فى رسالته للدكتوراه، ومن الجدير بالذكر أو النقل عن حامد عمار أنه سجل أحوال قريته فى رسالته للدكتوراه بجامعة لندن عام ١٩٥٢، والتى كان عنوانها: «التنشئة الاجتماعية فى قرية مصرية». بل إن ابنته من بعده، وبتأثيره بالطبع، قد كررت ما فعله بدراسة ما درسه مرة أخرى بعد انقضاء السنوات:

«وقد قامت ابنتى نوال بدراسة تتبعية للتعرف على ما طرأ فيها من تغيرات بعد ثلاثين عاماً، وسجلت مظاهر التغير عام ١٩٨٢، فى رسالتها للدكتوراه من جامعة فلوريدا، ولاحظت تغيرات فى عديد من المظاهر الحضرية، مما تشير إليه صياغة عنوان رسالتها: «النمو فى قرية مصرية».

. . . .

لكننا نحس وكأننا نفتقد فى كثير من أحاديث حامد عمار ما كان هذا الرجل مهيئاً له من مهارات القبض على عناصر المفارقة، وهو مع هذا لا يحرمنا من إظهار قدرته هذه فى مواضع قليلة، وهو يتحدث على سبيل المثال بدخول جهاز المذياع إلى القرية لأول مرة حين كان دون الخامسة من العمر فيقول:

«. . . لقد كان يوماً تاريخياً حين جاء صرَّاف القرية، وهو من أهالى مدينة جرجا، بذلك الساحر الصوتى (الجرامافون) الذى عرّبه المجمع اللغوى باسم (الحاكى)، وتجمع حوله حشد غفير من الأطفال

والشباب والرجال ليسمعوا غناء شجياً يصدر من تلك الآلة الصماء، ولم يكن القوم يعرفون أياً من أسماء المغنين، وما كان يعنيهم ذلك كثيراً حيث اكتفوا بأغانيهم المرتجلة المرددة (لما قابلنى وسلم على.. سلم علىّ) وسط نقر الطبول ودق الدفوف والكفوف».

«لكن تلك الآلة المغنية أحدثت لدىَّ - وأنا لم أتجاوز الخامسة من عمرى - أول صدمة ثقافية، وكانت كذلك بالنسبة لمن استمعوا إليها من أهل القرية، وقد تردد بينهم تعقيباً عليها فيما بعد، ومن بينهم والدتى (ياالله!! الخواجات ما غلبهم إلا الموت)».

هنا يتوقف الدكتور حامد عمار بعيداً عن وجدانه، مركزاً على ذهنه وذاكرته، منطلقاً إلى آفاق دراسته الجامعية ليعبر عما كان أولى به أن يعبر عنه بتجربته الشخصية التى كانت تستحق قدراً من الاستبطان والاستبصار بخل بهما الدكتور حامد عمار، لكنه فى الوقت نفسه لم يحرمنا من الاستذكار والاستظهار، ولست أنقد الدكتور حامد عمار فى هذا، فإنى على ما أعرفه من نفسى أكثر منه وقوعا فى هذا الخلق، وعلى كل حال فلنقرأ ما يرويه:

«واختزنت تلك المقولة فى عقلى الباطن، حتى انطلقت حين قرأ لنا أستاذنا الجليل محمد شفيق غربال من تاريخ الجبرتى تعليق هذا المؤرخ عند زيارته للمعمل العلمى، الذى أنشأته الحملة الفرنسية بعد مجيئها إلى مصر، بما يشير إلى ما أصابه من صدمة ثقافية حين عبر عن ذلك بأنه رأى عجباً ورعباً، وحين دوت قنابل الفرنسيس الغزاة فى أرجاء القاهرة عام ١٧٩٨ فصاح سكانها (ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف)، وكذلك أصابت مؤرخنا الدهشة وهو يشاهد عساكرهم تتدرب فى

ساحة الأزهر معبراً عن ذلك (ومن عجيب أمر الفرنسيس أنهم إذا قالوا لعساكرهم (مارش) تحركوا)، وهو لم يدرك بالطبع أن كلمة (مارش) بالفرنسية مرادفة للكلمة العربية (تحركوا). لقد كان انبهار الجبرتى المذهل حين زيارته لمخبرهم العلمى (ولهم فيه أمور وأحوال وتراتيب غريبة ينتج عنها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا)، إيذاناً ببداية الوعى بالتحديث فى مصر».

(٤٦)

كذلك يتحدث الدكتور حامد عمار عن العوامل المكونة للثقافة الريفية والمعرفة القروية، ودور المشاهدة فى هذه الثقافة، ودور المعارف الدينية والأساطير المتوارثة والأنساب القبلية. كما يتناول بالنقد والمدارسة طبيعة دور الكتاب والعريف والمدرسة الإلزامية، وهو يلفت النظر إلى مدى العقم فى هذا التعليم، ويسميه بالطريق المسدود، بل إنه يستغل معارفه التربوية ليحدثنا عن حقيقة وجوهر تأصل مبدأ الطاعة فيه:

«... وكانت تلك الدروس من النظام والطاعة، وتقبل كل ما يدر من الأساتذة على أنه فى مصلحتنا، مع جانب نوع أرق وألطف فى سياق الطاعة المنزلية، معززة لنظام السلطة والتسلط لدور المؤسسات فى حياة الفرد، والواقع أن إحدى اللوائح الوزارية التى أصدرتها وزارة المعارف عن هدف التعليم الإلزامى، هو (تعليم أهل الريف الطاعة، والتزامهم بموقعهم الاجتماعى، ومهنهم الزراعية)، وكأنما كان الأديب الروائى الطيب الصالح يقصدنا فى روايته (موسم الهجرة إلى الشمال)، حينما يقرر (إنهم يرسلوننا إلى المدارس لكى نقول لهم نعم)».

(٤٧)

ويصور الدكتـور حامد عمار على لسان أحـد أعلامنا البارزين وهو الدكتـور إبراهيم حلمى عبد الرحـمن مدى ما أحـسه هذا الرجل من إفراط حامد عمار فى اعتزازه بقريته:

«ومع ذلكم الذى جـرى ويجرى فى (سلوان)، تبـقى فى صورتـها الأولى مسقط رأسى وأحواله القديمة مثار ذكرياتى هنا، متذكراً ما كان يدعونى به الراحل الكريم أ.د. حلمى عبد الرحمن، مؤسس عمليات التخطيط فى مصر حين نلتقى (أهلاً يادكتور (حلوانة فى سلوانة)، لقد أدمنت الحديث باسم (سلوا)، فى مـسيرة حياتى، كـما تفعل ابنتى د. نوال، إذ أصبـحت آثارها وذكرياتها لحـمة فى نسيج حـياتى، أحبـها وأعتز بهـا وبأهلها، وبالأحفاد، وأبناء الأحـفاد فيهـا، وبما شهدته من الإقبال الهائل على تعليم أبنائها وبناتها فى مراحل التعليم المختلفة».

«ولو كنت أديباً عـالمياً شامـخاً مثل نجـيب محفـوظ حين خلّد حى (الجمالية) وأحياءه وشوارعه، أو أديبـاً شاعراً مثل الدكاترة زكى مبارك حين خلّد مسقط رأسه قرية (سنتـريس) من قرى المنوفية، لاستطعت أن أخلد (سلوا) على الخريطة المصرية».

(٤٨)

وفى هذا الكتاب مجمـوعة من أخطاء التشابه التى نقع فيها جـميعاً مؤلفين، ومعلمين، ومـتحدثين حين نذكر شيئاً ونحن نقـصد شيئاً به، ومع أنى توقـفت منـذ أكـثر مـن عـشر سـنوات عن نشـر مـثل هذه الملاحظات فى مدارستى للـكتب التى أستعرضهـا مع القارئ، فإنى لا

أحب أن أترك هذه المدارسة من غير إشارة محددة لها بسبب طرافتها الشديدة، والواقع أنى أقدمها لا للتنبيه إلى الخطأ غير المقصود ولكن لتقديم الطرفة اللطيفة، ومن الواضح فى بعض المواقع أن الجو الاجتماعى والتربوى هو الذى جعل الناسخ يلجأ إلى هذا اللفظ بدلاً من ذاك، ففى صفحة ١٨ يتحدث الدكتور حامد عمار عن إفاقته من التخدير فإذا بالكتاب يسجلها على أنها إفاقة من التحذير، وفى صفحة ٦٩ يقصد التحدث عن مجلس النواب فإذا به يسميه مجلس الأمة الذى لم يوجد إلا بعد هذه الواقعة بأكثر من ربع قرن، لكن العذر موجود، وهو أن بعض الأعضاء فى هذا كانوا أعضاء فى ذاك، وبدلا من أن يذكر اسم الدكتور إدوارد سعيد عند الحديث عنه فى صفحة ٢١٩ فإنه يذكر اسم الدكتور رشدى سعيد!! والعذر موجود أيضاً، فكلاهما قبطى عربى هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى مرحلة ما من عمره، وحين يتحدث عن رئيس تحرير الرسالة (فى صفحة ١٠٦) يذكره على أنه محمد حسن الزيات (الذى كان وزيراً للخارجية)، بدلاً من الأستاذ أحمد حسن الزيات، والعذر موجود أيضاً، فقد حصل وزير الخارجية على الدكتوراه فى الأدب العربى على نحو ما اشتهر كتاب «تاريخ الأدب العربى» الذى ألفه الأستاذ أحمد حسن الزيات، وحين يتحدث عن الأستاذ سلامة أحمد سلامة (فى صفحة ١٢٦) يذكر اسمه على أنه أحمد سلامة، وهو خطأ غير شائع، ويتحدث عن الدكتور عطية عاشور (فى صفحة ١٥٧) فيذكر بدلا منه اسم سعيد عاشور، وكلاهما عالم جليل، هذا فى الرياضة، وهذا فى التاريخ، ويتذكر أبياتاً قيلت فى رثاء سعد زغلول (فى صفحة ٢٨١)، فينسبها إلى شاعر النيل حافظ إبراهيم، بينما الأخطل الصغير بشارة

الخورى هو الذى قالها، والعذر موجود، فكلاهما رثى سعد زغلول

ومن الطريف أيضاً أن الدكتور حامد عمار يتحدث عن زميل يهودى على أنه كان أحد طـلاب قسم التاريخ فى فرقتـه طيلة سنوات الدراسة الأربع، وأن اسمه مـراد، فلما رجعت إلى كشوف الدفعـات فى دفعة ١٩٤١ لم أجد من الذين تخـرجوا فى دفعـة حامد عمـار أحداً باسم مراد، وإنما وجدت مـراداً تخرج فى الدفعة التاليـة (١٩٤٢)، واسمه مراد موسى القدسى.

. . . .

بقى أن نشير إلى حرص الدكتور حامد عمار على الإشارة إلى فضل الدكـتور رءوف عـباس فى دفـعه إلى كـتابة هذه المذكـرات، وإلى أنه اقتبس منه عنواناً جميلاً لها فى مقابل عنوانه «خطى مشيناها».

ونحن لا نملك إلا أن نشكر الـدكتـور رءوف أيضـاً على هذا الذى أتاحه لنا.

الباب الثالث

رحلة عمر..

ثروات مصر بين عبد الناصر والسادات

مذكراتِ الدكتور رشدى سعيد

(١)

الدكتور رشدى سعيد واحد من علمائنا المرموقين فى الجيولوجيا، وقد درس فى كلية العلوم فى جامعة القاهرة، وتخرج فيها متفوقاً ونال منها الماجستير، ثم ابتعث إلى الخارج فحصل على درجة الدكتوراه وعاد إلى وطنه فمارس العمل فى سلك هيئة التدريس إلى أن رقى أستاذ كرسى الجيولوجيا فى جامعة الإسكندرية، وانتدب لجامعة عين شمس.

وبالإضافة إلى هذا فقد كان من الذين اختارتهم الثورة للعمل معها فى تنظيماتها السياسية، وقد بدأ شوطه فى هذا المجال عضواً فى اللجنة التى ناقشت الميثاق، ثم عضواً فى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى، ثم مسئولاً عن تنظيم سرى لأساتذة الجامعات فى إطار الاتحاد الاشتراكى، كما عين عضواً فى مجلس الأمة ١٩٦٤ (ضمن مجموعة المعينين الذين يختارهم رئيس الجمهورية)، وقد تكرر تعيينه فى هذا المجلس فى عهد الرئيسين عبد الناصر والسادات، ووصل إلى رئاسة لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشعب فى عهد السادات،

وشارك فى وفود برلمانية وسياسية كثيرة بهذه الصفة.

وقد اختير الدكتور رشدى سعيد عام ١٩٦٧ ليتولى مسئولية هيئة المساحة الجيولوجية والتعدين، وهو منصب جيولوجى كبير القيمة، لكن مصر لا تزال بعيدة عن الاعتراف بقيمته وأهميته، وقد احتفظ بهذا المنصب حتى ١٩٧٧ حين تركه وهو فى السابعة والخمسين من عمره.

وقد قدر له أن يهاجر وهو فى هذه السن المتقدمة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكان من حسن حظه أن وجد فى جامعة أمريكية عملاً يليق بتاريخه، ومن ذلك الحين آثر البقاء فى المهجر مع زيارات متكررة لوطنه.

وقد نشرت دار الهلال مذكرات له بعنوان «رحلة عمر: ثروات مصر بين عبد الناصر والسادات».

(٢)

يمكن لنا أن نبدأ مدارستنا لهذه المذكرات بالقول بأنها مذكرات «نموذجية» ليسارى مصرى، من حيث إنها تعبر بكل وضوح عن إحباطات اليسار المصرى من عصر الثورة، لكنها، شأنها شأن كثير من أدبيات اليسار المصرى المعاصر، تحاول أن تلتوى بهذا التعبير عن الإحباط لتركزه على عصر الرئيس السادات وعلى ما بعد عصر الرئيس السادات، وتحاول أن تقتصر فى نقدها لعهد الرئيس عبد الناصر على نقد مجموعات أو جماعات ممن كانوا حول الرئيس، كما تحاول المذكرات، من أجل حسابات سياسية معقدة ومعروفة، أن تصور أخطاء

ذلك العهـد فى إطار بعيـد عن اعتـقادات صاحب المـذكرات فى هذه الأخطاء، بل عن حقيقة الأخطاء نفسها.

وقد صادفت هذه المذكرات ما صادفتـه أية مذكرات لواحد من كبار اليساريين، حيث جرت العـادة على ألا يقرأها أغلب الذين يعرضونها من أصحاب القلم، وعلى ألا يبحثوا فيها عن الجديد، أو عما يميزها، أو عمـا تنفرد به من قصص وحكايات، مكتـفين بالثناء على شخصـية صاحـبهـا ورحلة حياتـه، وربما جاد علينا بعض العـارضين بفـقرة من المذكرات تصور محـنة الرجل فى موقف من المواقف، ولكن أحداً من الذين عرضوا المذكرات لم يُعن بما فيها من حـقائق كثيرة عن مجالات كثيرة.

وقد كان الذين أشاروا على المؤلف بالعنوان الفرعى للمذكرات على قـدر من الدهاء المعـاصر المـستـهلك، بفـتح اللام، وهو دهاء صـار مكشوفـاً ومنبوذاً، حـيث أشاروا على المذكرات بعنـوان فرعى هو أقل بكثير جدا من محتوى المذكـرات ومن طيفها الزمنى الممتد، وجاء هذا العنوان «ثروات مصـر بين عبد الناصـر والسادات»، وقد وضـعوا هذا العنوان المقحم الذى لا يصور إلا ما لا يزيد على فـقرة على الأكثر من المذكرات، وفضلاً عن هذا فإنه عنوان ملتبس الدلالة، غـير قاطع فيما يعنيه، قابل للعبث به حين يراد العبث. وعلى سبيل المثال فإن مثل هذا العنوان لا يمانع تفـسيراً له يقول مثـلاً بأن الثروات توزعت بين هذين الرجلين!!

والواقع أن ما فعل فى عرض هذه المذكرات، وكذلك ما فعل بوضع

هذا العنوان الفرعى عليها، دليل على مدى الجرم الذى يُرتكب فى حق كثير من الأعمال المهمة التى يكتبها علماؤنا بعناية فإذا بِمَنْ يشيرون عليهم يختزلون قيمتها إلى حد لا يمكن وصفه إلا بأنه مزرٍ بالمذكرات وبأصحابها.

(٣)

وعلى نحو ما نعرف، وما نقرأ فى المذكرات التى بين أيدينا فقد ظل صاحبها الدكتور رشدى سعيد رئيسا لمؤسسة التعدين [والمساحة الجيولوجية] منذ ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٧، ومن ثم فإنه كان فى ذهن مَنْ أشاروا عليه بهذا العنوان مسئولاً عن الثوة المعدنية المصرية، ومع كل الاحترام له ولمسئوليته عن هذه الثروة المعدنية، فإن المفاجأة فى أمر هذه الثروات أنها، حسبما ينبئنا صاحب المذكرات نفسه، لم تكن لا فى عهد عبد الناصر ولا فى عهد السادات ولا قبل هذين العهدين ولا بعدهما بمثابة ثروات مصر، ولا بمثابة جزء كبير أو صغير من هذه الثروات التى بددت أو أسىء استخدامها، ودليلى على هذا هو ما كرره صاحب المذكرات فى كثير من مواضعها، وسأكتفى من هذه المواضع بأن أنقل للقارئ قول الدكتور رشدى سعيد نفسه فى هذه المذكرات:

«... وكنت على طول خبرتى أعرف أنه ليس بمصر من المعادن الثمينة ما يمكن أن يجذب المستثمرين إليها، فكل المعادن المعروفة فى مصر معادن ترابية يصعب تصديرها، ولا تصلح إلا للاستخدام المحلى فى بناء الصناعات التى كان لدينا الأمل فى نشرها فى ربوعها، وكنت دائم التحذير من العيش فى وهم انتظار الأجانب لكى يستغلوا ثرواتنا

المعدنيـة، ولكن تحذيرى لم يلق أى اهتـمام، بل أخذ على أنه تثـبيط للهمم، فقد فضلت القيادة السياسية العيش فى الوهم بدلا من مجابهة الحقائق».

«وبعد أن خرجت من الهيـئة لم يكن هناك من هم لرؤسائها الذين خلفونى غير اللهاث وراء المستثـمرين الأجانب، فقد كان نجاحهم رهنا بمقدار ما يستطيـعون اقتناصه منهم، وبلغت الذروة عندما عـادت الهيئة إلى إشراف وزارة البتـرول التى أرادت أن تجعل منها نسـخة أخرى من هيئـة البترول: هيـئة مـشرفة على الأعـمال التى تتعـاقد على عـملها الشركات الأجنبيـة الباحثة أو المستغلة للثروات المعدنيـة، وبعد أكثر من خمس وعشرين سنة من البدء فى هذه السياسة، فإن مستثمرا واحدا لم يأت إلى مـصر، ولا توجـد فى الوقت الحاضـر أية شركـة أجنبيـة أو مشتركة تقوم باستغلال أى حقل تعدينى فى مصر».

. . . .

ربما أقف هنا لأسـأل القـارئ عن جـدوى العنوان الفـرعى، الذى صارت المذكـرات تعرف به، إذا كـانت عقـيدة صاحـب المذكرات فى حجم ثرواتنا المعدنية على هذا النحو!!

(٤)

على أن أهم مـا فى هذه المذكرات ليس هو هذا الرأى القـاطع فى تقييم صـاحبها لثروة مصـر المعدنية، وإنما هو اعتراف الدكـتور رشدى سعيد بمسئوليته الأولى عن مشروع فوسفات أبى طرطور، وقد يتعجب

القارئ لمثل هذا الخبر الذى ننهيه إليه فى مطلع مدارستنا لهذه المذكرات، بيد أن الحقيقة هى أن الدكتور رشدى سعيد لا ينكر مسئوليته عن البدء فى مشروع فوسفات أبى طرطور، وهو المشروع الذى لايزال ينتظر ويتحمل كثيرا من الاتهامات التى تلقى بشدة على عاتق كل من أشاروا به ومضوا فيه، ومن المدهش، بل من المذهل أن يعترف الدكتور رشدى سعيد بأنه هو الذى أشار بهذا المشروع، وهو يقدم مبرراته فى تقديم المشورة بهذا المشروع، لكنه بسرعان ما يهاجم مَنْ خلفه فى المسئولية عنه، وكأنما كان تغير المسئول على المشروع فى حد ذاته سببا لهذا الانحراف بالمشروع عن مسار عبقرى إلى مسار عديم الجدوى، ومن العجيب، بل من المذهل أن الدكتور رشدى سعيد بكل علمه لا يقدم لنا أرقاما وإنما هو يقدم عبارات أقرب إلى الإنشاء والطنطنة فحسب، وهو على سبيل المثال يبدأ حديثه بأن يقول:

«... كان مشروع فوسفات أبى طرطور كبيرا حقا، كانت احتياطياته ضخمة وصالحة للاستخراج بالطرق الميكانيكية، مما أعطى الأمل فى إمكان استغلاله بأحجام كبيرة يمكن أن تعطى عائدا للاستثمارات الكبيرة التى كان تشغيله ونقله سيحتاجها من هذا الموقع البعيد، وكان حجم المستخرج الذى جئنا به من الدراسة الأولية لاقتصاديات هذا المشروع من الضخامة بحيث إنه كان يفوق سعة مرفقى السكة الحديد وميناء الإسكندرية فى ذلك الوقت. فعلى الرغم من أن مصر سبقت الكثير من البلاد فى بناء هذين المرفقين، إلا أنها لم تقم بتطويرهما ليتماشيا العصر، فشكلا أحد أكبر العقبات فى تنمية تجارتها الخارجية».

هكذا يتحدث الدكتور رشدى سعيد عن هذا المشروع فى بعض أجزاء من مذكراته دون أن يكلف نفسه استعراض أى رقم، إنما هو يكتفى بالألفاظ التى قرأناها من قبيل: كبير، ويفوق، والضخامة، الأمل، كبيرة، سبقت... إلخ.

(٥)

ويبدو من الفقرة السابقة بوضوح وكأن الدكتور رشدى سعيد كان يبيع لنا الحلم فى فوسفات أبى طرطور على حساب انتقاد عدم التوسع فى مرفقى السكة الحديد وميناء الإسكندرية حتى يكونا جاهزين لهذا الحلم أو لهذا الوهم، ونحن نتمنى أن يتوسع مرفقا السكة الحديد والميناء لعشرات الأسباب الأخرى، سواء أكان منها مشروع فوسفات أبى طرطور، أم لم يكن.

وهو يمضى فى حديثه [الذى تنقله مذكراته فيما يبدو نقلاً عن نص قديم له] ليتحدث عن «الإنتاج» الذى لم نر شيئا منه فيقول:

«... كان إنتاج المشروع الذى كنا نعد له أكبر من جملة ما كانت تحمله سكك حديد مصر من بضائع على جميع خطوطها، أو ما يتناوله ميناء الإسكندرية على مدار العام، ومن هنا اتجه فكرى (هكذا يقول الدكتور رشدى سعيد بكل صراحة ناسباً هذه الفكرة التى ثبت عدم جدواها إلى نفسه) إلى أن يكون التصدير من ميناء جديد وحديث على البحر الأحمر، نربطه مع هضبة أبى طرطور بخط حديدى يذرع مصر من الشرق إلى الغرب ويعطى للبلاد بعدا جديدا، واخترت ميناء الحمراوين إلى الشمال من القصير، الذى كنا قد بدأنا فى تطويره

لاستقبال السفن ذات الغاطس الكبير، لاستخدامه فى تنمية مشروع فوسفات الحمراوين ليكون الميناء النهائى على البحر الأحمر، والذى كان قد استخدم وقت الحرب العالمية الثانية بواسطة قوات الحلفاء وربط بوادى النيل بطريق لعله أقصر الطرق العرضية فى الصحراء الشرقية التى تربط النيل بالبحر الأحمر، هذا بالإضافة إلى أنه ميناء طبيعى محمى بجزيرة وقابل للتعميق، إلا أنى رأيت أن هذه الميزات تقابلها صعوبة ربطه بخط حديدى دون الدخول فى استثمارات كبيرة، فقد كان ينفصل عن وادى النيل بسلسلة جبلية عالية، لذا فقد اقترحت أن يتم اختيار ميناء الحمراوين بديلا بسبب إمكان ربطه بخط مباشر من السكك الحديدية دون أن يخترق هذه السلسلة الجبلية، وكان هذا الخط قد بدئ العمل فيه بالفعل فى سنة ١٩٣٣ بعد انتهاء جميع أعماله المساحية وتمهيد جسوره لأكثر من ثلاثين كيلومترا إلى الشرق من مدينة قفط».

. . . .

هكذا نفهم من حديث الدكتور رشدى سعيد أنه لجأ فى تخطيطه إلى ميناء تأسس وعمل فى عهد يصفه الذين نشروا كتابه وهللوا له بأنه كان عهد «الرجعية»، ومن الحق أن نشير إلى أن رشدى سعيد نفسه لم يكن يوافقهم على هذا التوجه، بل إنه كان يعتبر ذلك العهد أزهى بكثير من العهود التى عمل فيها فى مواقع متقدمة.

ومع هذا كله فإن رشدى سعيد فى حديثه عن هذا المشروع وعن غيره يلجأ إلى تقنية معروفة، فهو يأبى إلا أن يشير إلى أحلامه أولاً ثم

يعترف بصعوبة تحقيقها بعدما أفاض فى الحديث عن جمال الأحلام، فإذا جاء إلى الواقع الجميل الذى كان قد سبقه اكتفى بذكر أنه واقع دون أن يشير إلى فضل الذين أنشأوا هذا الواقع، وهى شنشنة نعرفها جيدا فى بعض كتابات بعض رموز اليسار المصرى عن هذه الفترة الجميلة من حياتنا.

(٦)

ثم يشير الدكتور رشدى سعيد بعد ست صفحات إلى المأزق الذى واجه المشروع، وهو لا يجد أى حرج فى أن يكتفى بنسبة هذا المأزق إلى ما يشخصه ويحصره من سبب واحد لا يمكن النجاة به من الوصف بأنه يتمتع باختزال معيب، ذلك أن السبب الذى يلقى رشدى سعيد بالعبء عليه هو جهل وزراء الصناعة!!! وعدم رجوعهم إلى شخصه!!! وهو يقول:

«... وتواجد على وزارة الصناعة فى هذه الفترة وزراء كانوا يتخذون القرارات الخاصة بشئون الثروة المعدنية دون الرجوع إلينا(!!) أو إلى أى شخص من المختصين بشئونها، ومن الوزراء مَنْ كان لا يعرف شيئا من شىء فى شئونها، إلا أنهم كانوا يعملون وفقا لجدول أعمال خاص أملى عليهم من الأجهزة (هكذا يقول رشدى سعيد الذى كان على وشك تولى الوزارة) ومن أصحاب المصالح الخاصة الذين ارتفع نجمهم فى سبعينيات القرن العشرين».

ثم يدخل الدكتور رشدى سعيد بنا إلى بيت القصيد مهاجما أحد

الوزراء بالذات أو بالتحديد فيقول:

«... وجاء من هؤلاء وزير قام - فى سرية تامة - بنقل تبعية مشروع فوسفات أبى طرطور من إشراف الهيئة التى أرأسها والتى كانت مختصة بتنفيذ المشروعات التعدينية طبقا للقرار الجمهورى الصادر بشأنها، إلى الجهاز التنفيذى لمجمع الحديد والصلب الذى لم يكن فيه واحد يعرف شيئا عن التعدين، واتخذ الوزير ذلك القرار دون إبلاغنا، وعلى الرغم من قرار مجلس إدارة الهيئة المختصة بضرورة بقاء المشروع تحت إشرافها حتى تتم دراسة خاماته وجدواه، بل وحتى يتقرر أنسب موقع لاستخراج الخام الذى كان يوجد على طول الهضبة الممتدة بين الواحتين الخارجة والداخلة».

(٧)

ولا يكلف الدكتور رشدى سعيد نفسه بأن يقدم مقارنة بين الخطط التى كان قد أعدها لتحقيق ما يتمناه، وبين خطط غيره، إنما هو يكتفى بما قاله فى الفقرات السابقة معتمداً على إيماننا أو إيمان قرائه بملائكيته هو، وبشيطانية الآخرين، وهذه، مرة أخرى، شنشنة أخرى نعرفها فى بعض كتابات بعض رموز اليسار المصرى فى هذه الفترة.

ثم يبدأ الدكتور رشدى سعيد فى إلقاء بعض التلميحات وبالتالى بعض التبعات على عاتق مَنْ لم يكن لهم علاقة من قريب ولا من بعيد بالتبشير بأن «أبو طرطور» تحوى الكميات الهائلة من الفوسفات التى كان يبشر بها الدكتور رشدى سعيد:

«... وفى ظنى أن هذا الوزير قد جىء به تحت ضغط رجال المقاولات الذين كانوا يدبرون للبدء فى تنفيذ أعمال المشروع الإنشائية والتى كنت أرفض القيام بها قبل الانتهاء من دراستنا للمشروع ومعرفة جدواه. ومما يؤكد ظنى هذا أن المقاولين كانوا أكبر المستفيدين من نقل المشروع الذى ما كاد يخرج من إشرافنا حتى ارتفعت على أرضه المبانى الشاهقة وبدئ فى مد خطوط الكهرباء والسكك الحديدية وشق الطرق، ولما يكن له دراسة للجدوى، كما أنهم كانوا أول من التقط الوزير بعد خروجه من الوزارة وعينوه فى خدمتهم».

(٨)

ويصل رشدى سعيد بعد كل هذه المقدمات غير المترابطة إلى أن يبلور السبب فى الفشل كله إلى نقل المشروع من إشرافه هو، وهو كما نرى، سبب لا يتعارض مع السبب الذى شخصه من قبل بجهل وزراء الصناعة وعدم سؤالهم له!!:

«... وتسبب نقل المشروع من إشرافنا إلى مجموعة الهواة التى أدارته منذ ذلك الوقت، إلى خسائر كبرى تحملتها البلاد على مدى أكثر من اثنتين وعشرين سنة، عندما أثير الموضوع وفتح ملفه فى سنة ١٩٩٦ وأصبح حديث الصحافة وموضوع لجان تقصى الحقائق فى المجالس القومية المتخصصة وفى مجلس الشعب، وفى خلال هذه السنوات الاثنتين والعشرين أنفق ما يزيد على سبعة مليارات من الجنيهات بعثرت على المقاولين وبيوت الخبرة الأجنبية التى جىء بها من كل أركان الأرض، وانتهت بإغلاقه وإخراج المدير من عمله لحين

البحث عن مخرج من البلاء الذى سببه قرار وزير خائب فى سبعينيات القرن العشرين!».

«أما خط السكة الحديد فقد مد من الواحة وحتى البحر الأحمر دون أى اعتبار لما سبق واقترحناه مخترقا سلسلة جبال البحر، مما تسبب فى إطالته وارتفاع تكلفة إنشائه وازدياد فرص تقطعه بعد كل سيل يأتى فى موسم الأمطار. ومن الطرائف أن هذا الخط الذى بنى قبل تشغيل المناجم كان بلا فائدة، فأقفل بعد أسابيع من حفل افتتاحه الذى تم بحضور رئيس الجمهورية!».

(٩)

وبعد كل هذا يبلور الدكتور رشدى سعيد مشاعره تجاه هذا المشروع، وهو يقدمها فى صورة اعترافات رجل مثالى يعترف بالخطأ، ويشعر بالندم، ويحاول أن يثبت براءته على الرغم من أن النصوص التى أوردها تتعارض ظاهرياً مع هذه البراءة، وهو ما يبدو بوضوح فى قوله:

«... وسبب لى ما آل إليه مشروع أبى طرطور الكثير من الأسى، بل والشعور بالذنب، فقد كان المشروع من بنات أفكارى، فتحت به بابا كنت أتصور أنه سيجلب الخير، فإذا به ينقلب عبئا، على أن الشىء الذى يخفف عنى هو أننى نبهت المسئولين منذ اليوم الأول من مغبة نقله قبل استكمال دراساته، وقد كنت أعرف أن الجهاز الذى نقل إليه المشروع لم تكن له الخبرة الفنية لاستكمالها، فضلا عن فهم أبعادها،

ويستطيع القارئ المهتم بهذا الأمر أن يعرف تفاصيل هذا الموضوع وتاريخ المشروع وأهدافه الأولى وما حدث له بعد نقله من إشرافنا بمراجعة مقالاتى عنه بمجلة المصور (الأعداد الصادرة فى ١٧/٥/١٩٩٦، ٢٤/٥/١٩٩٦، ٢٦/٧/١٩٩٦)».

(١٠)

ومع كل هذا الحب القديم لمشروع فوسفات أبى طرطور فإن الدكتور رشدى سعيد لا يزال حين كتب هذه المذكرات مصرا على رأيه فى أن مستقبل مصر يكمن فى الصناعات التحويلية فى المقام الأول، وهو ما يعنى، على حد فهمنا المتواضع، البعد عن سياسات استخراج الثروة المعدنية، وهو بهذا يعلن ما يؤمن به، بل إنه يجهر بما يوده لبلاده من أن تنصرف عن التفكير فى أمر الثروات المعدنية، ومن العجيب أن يكون هذا هو رأى الرجل الذى اختير (ولا نقول: اختار) لمذكراته عنوان فرعى عن «ثروات مصر فى عهدى عبد الناصر والسادات»(!!) وهو يقول فى هذا المعنى:

«. . . وكلما أمعنت النظر فى الطريق الذى ينبغى على مصر أن تسلكه إن هى أرادت أن تتفادى مستقبلا تزايد الفاقة فيه، فإنى لا أرى طريقا غير التركيز على بناء قاعدة سليمة للصناعات التحويلية، فهى الوحيدة القادرة على توليد الثروة وخلق الوظائف التى يحتاجها تشغيل الآلاف الذين يفدون إلى سوق العمل كل عام، وهى الكفيلة بأن تعطى معنى لمؤسسات البحث العلمى الوطنية التى أرى لها دورا أساسيا فى علمية بناء الصناعة الموائمة لخامات مصر وظروفها. وليس

من شك فى أن هناك فائدة يمكن أن تجنى من التوسع فى مجال الخدمات أو السياحة، أو حتى الصناعة النقلية التى يسود نمطها فى الوقت الحاضر والتى يركز فيها على تصنيع منتجات للاستهلاك المحلى بترخيص من مصنع أجنبى، غير أن جملة ما تستطيع أن تضيفه مثل هذه الأنشطة التى تعتمد على الاستيراد الواسع قليلة».

. . . .

هكذا يقول هذا الرجل، ومن حقه علينا أن نفيد من آرائه هذه التى لم يصل إليها إلا بعد أن شارك (بحسن نية أو بغيرها) فى إدخالنا فى مغامرات غير محسوبة سميت «مشروع أبى طرطور».

(١١)

ونأتى إلى جزئية أخرى من أهم الجزئيات التى أولتها مذكرات رشدى سعيد عناية خاصة، وهى الجزئية الخاصة بتقييم الدكتور رشدى سعيد للتعاون الدولى بين مصر والدول المتقدمة فى مجال عمله، ومن العجيب أن نراه ـ وهو اليسارى العتيد ـ متحفظا على الخبرة السوفيتية وفى الوقت ذاته مبهورا بالخبرة الأمريكية، وليس هذا بغريب على الرجل الذى آثر فى نهاية حياته أن يعيش فى الولايات المتحدة مستبقياً تاريخاً من العلاقة القديمة مع اليساريين المصريين، وهو التاريخ الذى ساعد بعض هؤلاء على أن ينتصروا لهذا الكتاب من دون أن يقرءوه.

ونحن نراه يُجمل رأيه فى الخبرة السوفيتية حين يصل فى نهاية حديثه عن جهوده فى مؤسسة التعدين إلى القول بأن الخبرة الروسية لم

تكن ذات فائدة كبيرة فى تقديم فهم أفضل لأرض مصر، وإن كانت قد أفادت فى ميدان تقييم الخامات، وهو يفصل هذا المعنى فيقول:

«... كان هذا فى ميدان تقييم الخامات الذى وجدت أن الخبرة الروسية قد أفادت فيه، ولكن ماذا عن موضوع فهم أفضل لأرض مصر حتى يمكن الكشف عن ثرواتها المدفونة فى باطنها، هنا لم تكن الخبرة الروسية ذات فائدة كبيرة، لأن الطريقة التى تمت بها الاستفادة منها فى مصر لم تكن كاملة، فقد كانت تعتمد على جمع البيانات فقط دون الدخول فى تفسيرها، وكان جمع البيانات يتم حسب قواعد صارمة لم يكن للفنيين الذين يقومون بها أن يغيروها، وهذا النظام الذى يمكن وصفه بـ«الشعبى» كان يسمح للآلاف من خريجى جامعات الأعداد الكبيرة، ممن لم يكن مستواهم يسمح بقيادة البحث العلمى، بالمشاركة فيه، وكان هذا النظام يستكمل فى الاتحاد السوفيتى فى أكاديميات العلوم، التى كانت تجند لها أحسن العقول، والتى كانت تستقبل هذه البيانات لتفسرها ولتبنى على أساسها النظريات أو التطبيقات العملية لها، أما فى مصر فلم تكن لدينا القيادات القادرة على القيام بهذه المهمة المكملة».

(١٢)

وفى مقابل هذا الانتقاد الصريح للأسلوب السوفيتى فى إدارة البحث العلمى فى هذه الجزئية يرسم الدكتور رشدى سعيد صورة مشرقة للآليات الأمريكية فى بدء التعاون العلمى واستمراره، ونحن نراه مبهوراً بهذه الآليات إلى أقصى حد، وهو يبدى إعجابه بالاستجابة

الفورية من الجانب الأمريكى، وهو ما تم بسرعة فائقة بعد مفاتحته لوزير الخارجية الأمريكية الشهير هنرى كيسنجر فى لقاء سياسى شبه عابر فإذا به حين يصل الفندق يجد أن رئيس هيئة المساحة الجيولوجية الأمريكية يطلب لقاءه من فوره، وهو يحدثنا عن لقاءه بالأمريكيين وموافقتهم الفورية على تنفيذ اقتراحاته وهو ما تم على النحو الذى يرويه هو حيث يقول:

«... وظل الحال كذلك حتى سنة ١٩٧٥ عندما ذهبت مع وفد برلمانى مصرى أوفد لتعزيز العلاقة مع الكونجرس الأمريكى، وأعدت لنا مقابلة مع الرئيس الأمريكى جيرالد فورد وعدد كبير من كبار المسئولين، وفيه فاتحت هنرى كيسنجر فى موضوع التعاون العلمى، فأومأ برأسه ولم يعد بشىء أو يعلق على الأمر، إلا أنى حال وصولى إلى الفندق الذى كنت أنزل فيه وجدت رسالة من مكتب رئيس هيئة المساحة الجيولوجية الأمريكية فى انتظارى يطلب فيها لقائى».

«وتم اللقاء بالفعل، ووافق على تنفيذ الاقتراح الذى كنت قد تقدمت به قبل عام تقريبا فى إقامة وحدة متكاملة لإعداد وعرض الرسوم والخرائط وحتى طبعها، وتدريب ما يلزمها من موظفين، وكانت هذه الوحدة هى أحد أكثر ما كان يلزمنا لتحسين ورفع مستوى الطريقة التى يتم بها إعداد التقارير والنشرات العلمية».

(١٣)

ويشير الدكتور رشدى سعيد، بعد هذا، إلى قيامه بزيارة مدينة

دالاس لدفع خطوات التعاون العلمى فى مجال الفيزياء الأرضية (الجيوفيزيقا)، وهو العلم الذى يذكر لنا بكل صراحة أن العلماء الروس لم يكن لهم فيه باع طويل(!!)

وهو يظهر انبهاره بأن الساعات لم تنقض حتى جاءت الموافقة على تمويل المشروع وبدأ العمل فيه.

هكذا يحدثنا رشدى سعيد عن الحماس الأمريكى للتعاون العلمى مع مصر من دون أن يشير ولو بحرف واحد إلى أن إنجازات وقيادة السادات فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وما بعدها كانت بمثابة السبب الرئيسى فى هذا كله.. بل إنه، مع كل هذا الاعتراف، حريص على أن يجعل من كتابه كله شيئا يصور بأقلام أعداء السادات ويقدم للشعب على أنه قصيدة هجاء فى أنور السادات ولفترة حكمه ولأسلوب هذا الحكم:

«... وقمت بعد ذلك بزيارة لمدينة دالاس بتكساس لكى أحث أساتذة جامعتها على الإسراع فى استكمال ما يلزم من خطوات للموافقة على المشروع الذى كنا قد تقدمنا به للقيام بعمل مشترك فى علم الجيوفيزيقا، وهو العلم الذى كان يتقدم بسرعة مذهلة، ولم يكن للروس فيه باع طويل. وما انقضت ساعات حتى جاءت الموافقة على تمويل المشروع، وجلسنا لنرتب اقتراحا نفصل فيه برنامج المشروع، الذى تركز على موضوع الدراسات السيزمية (هزات الأرض) ودرجات حرارة أعماق الأرض».

(١٤)

ثم يتحدث الدكتور رشدى سعيد عن بعض الإنجازات التى تمت من خلال هذا التعاون المصرى - الأمريكى، وإن كان، بالطبع، يظهر أسفه لأنه لم يبق فى موقع الإشراف على تنظيم هذا التعاون:

«.. كان التقدم فى كلا الميدانين كبيرا، ولم نكن قد لحقنا بهما فى مصر، وجاءت بعثة الجامعة فى خريف ذلك العام حاملة بعضا من أكثر الأجهزة تقدما فى هذه الميادين، وقامت بتدريب فنيينا وبإجراء بحوث مشتركة على مستوى عال كتبت عن بعض نتائج واحد منها فى مجلة الهلال عقب حدوث زلزال أكتوبر ١٩٩٢ (عدد ديسمبر سنة ١٩٩٢) بعنوان «الزلزال على أرض مصر»، وفى غضون أقل من ستة أشهر بعد ذلك طلبت هيئة المساحة الجيولوجية أن تقوم بعمل علمى مشترك، وهو الأمر الذى لم تتح لى فرصة تنظيمه لصالح الطرفين، فقد جاء متأخرا بالنسبة لى».

(١٥)

ومع كل ما رأينا من هذا الحديث المتيم بالأمريكيين والمقدر لأسلوب تعاونهم العلمى مع مصر، فإن الدكتور رشدى سعيد يحرص فى موضع آخر من كتابه على أن ينتقد - بصوت عال - أسلوب البرامج العلمية المشتركة، وهو يفضل، فى توجيه وصياغة هذا الانتقاد، اللجوء إلى طريقة غريبة تبدو وكأنها منحازة لروح المؤامرة، بل تبدو وكأنها منحازة لروح الإحساس بالدونية للأسف الشديد، ولكنه شأن

بعض مَنْ عرفناهم من الموتورين من نجاحات السادات يعلق الأمر على وجوده شخصيا، فإذا وجد هو بمستواه العبقرى (المذهل) فإن التعاون يكون مفيدا، أما إذا غاب ولم يوجد فإن التعاون لا يصبح مفيدا لمصر ولا لصالحها. . . ولنقرأ هذا النص المذهل فى نرجسيته، ومن العجيب أن يكون هذا النص لعالم كبير من وزن رشدى سعيد:

«. . . إن الاستفادة من البرامج العلمية المشتركة التى بدأت مصر فى إجرائها مع المؤسسات العلمية الخارجية منذ سبعينيات القرن العشرين، لا يمكن أن تتم فى صالحها دون أن يكون المسئول عنها من الجانب المصرى على نفس مستوى المسئول من الجانب الأجنبى، من حيث الوزن العلمى والمعرفة بمتطلبات مؤسسته وما يمكن أن ينفعها وما يمكن أن يضرها، وهذا أمر لا يبدو أنه كان متاحا لمصر، فمعظم مَنْ أداروا هذه البرامج المشتركة كانوا من الموظفين نتاج البيروقراطية المصرية عديمى الرؤية، قليلى المعرفة، مما جعل اكتتابهم لهذه البرامج مقصورا على تشهيل الأعمال نظير مكافآت وامتيازات مادية كان الجانب الأجنبى مستعدا لأن يدفعها».

. . . .

(١٦)

بل إن الدكتور رشدى سعيد يتمادى فى تسفيه البرامج العلمية المشتركة بين مصر والخارج، على الرغم من أنه كان واحداً من الأوائل فى هذه البرامج، وهو يصل فى ترسيخ هذا المعنى إلى أن يقول:

«. . . وإذا أردنا أن نحكم على نتائج هذه البرامج العلمية المشتركة التى طالت جميع جهات البحث العلمى بمصر، لوجدنا أنها كانت عديمة الفائدة فى تطوير العمل فيها، بل ولعلها قد ضرت بها، صحيح أنه لم يحدث أبدا أن كانت هناك مراجعة أو تقييم للنتائج لأى من هذه البرامج التى تمت فى مصر، إلا أن النتائج واضحة لمن له عينان للنظر، فبعد أكثر من خمسة وعشرين عاما مرت وملايين الجنيهات التى أنفقت عليها، سواء من أموال منح المجموعة الأوروبية أو برنامج المعونة الأمريكية أو المؤسسات والجامعات الأجنبية، فإن مراكز البحث العلمى فى مصر هى فى حالة أسوأ مما كانت عليه قبلها. صحيح أن عددا من البحوث قد تم نتيجة هذه الأعمال المشتركة، وحمل بعضها أسماء بعض المصريين، إلا أن معظم هؤلاء لم يكن لهم أى دور فاعل فيها، فقد أضيفت أسماؤهم إلى قائمة مؤلفيها بغرض إرضائهم. وقد طلبت من أحد هؤلاء أن يزودنى بنسخة من بحث كنت قد اطلعت عليه، ووجدت اسمه عليه، فوجدت أنه لم يكن يعرف أن اسمه قد جاء فى عنوان البحث أو حتى أن البحث قد صدر».

. . . .

(١٧)

على هذا النحو من التعميم غير المبرر يتحدث الدكتور رشدى سعيد، وهو يكاد يتجاهل عن عمد أن فى بلادنا اليوم ما لا يقل عن عشرة أضعاف العلماء الجيولوجيين من المستوى الذى كان منه الدكتور

رشدى سعيد نفسه، وأن كثيراً من فروع علم الجيولوجيا التى تطورت وتفرعت تجد بين العلماء المصريين مَنْ تميزوا فيها وأنجزوا فيها، وأصبحت للمدارس الوطنية الجادة والعلماء الجادين المتميزين مكانات بارزة، ولكن الدكتور رشدى سعيد لا يزال يعبر عن أمانيه هو وعن معتقداته القديمة، ظناً أن الزمن، فى تصويره للأوضاع العلمية، قد توقف عنده.

ويلجأ الدكتور رشدى سعيد إلى التعميم غير المبرر مرة أخرى من خلال مثل آخر يضربه ويقول فيه:

. . . .

«. . . ومنذ شهور صدر كتاب عن نهر النيل حرره أجنبى، فلما حصلت على نسخة منه وجدته يحتوى على مجموعة بحوث قرأت [يقصد: قرئت] فى مؤتمر عقد فى مصر عن النيل والأنهار الكبرى، ولم يستطع واحد من المصريين ممن حضروا المؤتمر وقيل إنه شارك فى تنظيمه أن يجمعها وأن ينشرها، فقد احتاج ذلك الأمر إلى الاستعانة بخبير أجنبى! ولدى من هذه الأمثلة الكثير».

(١٨)

وينتقد الدكتور رشدى سعيد فى مذكراته ظاهرة الاحتفاء الشديد بالعلماء المصريين العائدين من أمريكا واستقبال هؤلاء بضجة كبيرة، وهو يخص بالانتقاد اثنين بارزين كانا من أبرز هؤلاء العلماء العائدين فى السبعينيات، وهو لا يكلف نفسه أن يذكر اسميهما، ولكنه يقدم من التفصيلات ما يجعل اسميهما واضحين وضوح الشمس، ومن الطريف

أن هذين العالمين لم يكونا على وفاق، ولكن رشدى سعيد يأبى إلا أن ينتقدهما على التوالى وعلى التوازى، فى موضعين متتاليين من مذكراته، وهو فى صدد هذا الهجوم لا يجافى الصواب فى آرائه فحسب، وإنما هو حريص على السخرية من الرجلين، والتعالى عليهما دون أدنى مبرر لهذه السخرية وهذا التعالى حتى لو كان أحدهما (الذى لايزال على قيد الحياة) يعمل فى إطار سياسة البلد الذى اكتسب جنسيته ولا يزال، حتى اليوم، موظفا فيه.

وإنى أكرر أن الدكتور رشدى سعيد لا يقدم فى مذكراته نقدا أو تقييما علميا لهذا أو ذاك، أو لمدى الفائدة أو الضرر من وجود هذا أو ذاك، لكنه يخلط بين التوظيفات السياسية المؤقتة، وبين القيمة العلمية الثابتة والدائمة، كما أنه يبدو للقارئ وقد وضع نفسه فى وضع مناقض لسلوكه هو نفسه فى مرحلة تالية حين آثر الهجرة إلى أمريكا، وأصبح يعود إلينا من مهجره الجديد بين حين وآخر.

وها هو ذا يتحدث عن العالم المصرى الذى تولى برنامج الاستشعار عن بعد، وهو البرنامج الذى أصبحت له الآن هيئة قومية متخصصة، وقد أصبح هذا العالم فيما بعد رئيسا لأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا، وهو يقدم هذا الانتقاد فى إطار انتقاد كثرة وفود الجيولوجيين الأمريكيين، مع أنه حسبما يفخر فى المذكرات كان أول من استقدم هؤلاء، بل كان صاحب المبادرة المصرية إلى التعاون مع الجانب الأمريكى:

«... وتوافد على الأكاديمية (أى أكاديمية البحث العلمى

والتكنولوجيا) فى أثر ذلك العشرات من الجيولوجيين الأمريكيين وغيرهم، أوفدوا إلى كل أركان صحارى مصر، وأنفقوا ملايين كثيرة من الجنهات ذهب الكثير منها فى صورة مكافآت ضخمة، وفى الإنفاق على برامج لا يستطيع الواحد منا الآن أن يرى لها أدنى أثر، أو أن يجد ذكرا لما كتب عن نتائجها فى أى بحث لاحق».

(١٩)

وعند هذا الموضع من حديثه يبدأ الدكتور رشدى سعيد فى انتقاد العالم المصرى الذى تولى برنامج الاستشعار عن بعد، وهو يعبر عنه بأنه «أحد المهندسين المصريين» وذلك دون أن يذكر، حتى، أنه حاز درجة الدكتوراه، وكأن الهندسة ليست علما، ولعل الدكتور رشدى سعيد يقصد أنه كان مهندسا ولم يكن جيولوجيا، وظنى أن العلم نفسه لا يقبل مثل هذه الدعاوى:

«... وبعد سنوات قليلة، أوكلت المؤسسة القومية الأمريكية للعلوم إلى أكاديمية البحث العلمى تنفيذ برنامج آخر فى علوم الأرض، أعادت فيه أحد المهندسين المصريين الذين آثروا البقاء فى الولايات المتحدة بعد انتهاء مدة بعثته الحكومية ليقود بناء وحدة لدراسة مرئيات الأقمار الصناعية فيها والتى كان التقاطها مثيرا للاهتمام فى ذلك الوقت، ولم ينجم عن هذا البرنامج أية فائدة لمصر، فيما عدا المكافآت المالية الكبيرة التى حصل عليها بعض العاملين فيه، والفساد الكبير الذى حدث فى مؤسسات البحث العلمى بسبب تداخل أموال هذه البرامج التى فتحت لها حسابات خاصة مع المال العام، مما كان

مثار تحقيق الجهات الرقـابية على مدى سنوات طوال تسببت فى تحطيم و تحجيم القدرات العلمية للكثيـر من مؤسسات البحث العلمى العاملة فى مجال علوم الأرض فى مصر»

(٢٠)

ثم إننا نجـد الدكـتور رشـدى سـعـيد وهو يصـور الأمـر فى هذا الاخـتلاف علـى أنه صراع بين أسلـوب من الأساليب الحـديثـة وبين أساليب المؤسسة القديمـة، ومن العجيب أن يصدر مثل هذا الرأى عن العالم الذى يـعرف أن الوسائل الحـديثة مـعينة للمؤسـسات القـديمة وليـست بديلا لها، وأن التـفكيـر فى استـبدال هذا بذاك لا ينشـأ فى الأذهان إلا إذا تحـجر القـدامى فى رفضـهم للجديد وعـدائهم له، أو استهزائهم به على نحو ما يفعل الدكـتور رشدى سعيد نفسه فى النص الذى بين أيدينا والذى يقول فيه:

«. . . أما المسـاحة الجيـولوجية فـقد عانت من حـملة الدعاية التى جاءت بها هذه البرامج من أن الأقمار الصـناعية وما ترسله من مرئيات من الفـضاء يمكن أن تحل مـحل علم الجيـولوجيـا، فهى قـادرة على الكشف عن المعـادن ومكامن البترول ومـخازن الميـاه الجوفيـة وكل ما تشتهيه الأنفس، فالتكنولوجـيا الحديثة قادرة على كشف الأسرار وحل المعضـلات دون تعب. من أسف أن هذه الدعوة الساذجة لاقت قـبولا من الكثـير من المسـئولين الذين سلكوا مسـلك العوام وهم يحـيلون دراسات جدوى مشروعاتهـم إلى هذه الوحدة، التى لم يكن لنتائجها أو تقـاريرها أية فـائدة، دون أن يسندها عـمل المختصـين ممن كـانوا

يستطيعون الاستفادة من هذه المرئيات، وقد ضاعت على مصر بسبب العيش فى هذا الوهم الملايين من الجنيهات التى دخل بعضها جيوب القائمين عليها».

(٢١)

وننتقل مع مذكرات الدكتور رشدى سعيد إلى الفقرات التى ينتقد فيها زميلا جيولوجيا لاحقا له (فى السن والتخرج)، وهو يقدم القصة التى يبرر بها انتقاد هذا العالم المصرى الأمريكى المشهور على نحو كاريكاتيرى كفيل بأن يقلل من قيمة «الراوى» الذى هو صاحب المذكرات قبل أن يقلل من قيمة ذلك العالم المصرى الذى ينتقده.

يستهل الدكتور رشدى سعيد هجومه بقوله:

«ومن لطائف الأمور التى حدثت فى السبعينيات، عندما اختلط العلم بالسياسة. . .».

هل لنا أن نتوقف هنيهة عند هذه الاستهلالة لنشير إلى أن التعاون العلمى الذى بدأه الدكتور رشدى سعيد بدأ فى السبعينيات أيضا، وأنه بدأ من خلال حديث له مع وزير الخارجية الأمريكى كيسنجر، وقد قابل هو نفسه كيسنجر باعتباره سياسيا عضوا فى وفد برلمانى وليس باعتباره عالما. . ومع هذا فإن الدكتور رشدى سعيد لم يصف لقاءه هذا ولا إنجازه هذا بأنه اختلاط للعلم بالسياسية!!

ونعود إلى نص الدكتور رشدى سعيد:

«ومن لطائف الأمور التى حدثت فى السبعينيات، عندما اختلط العلم بالسياسة، قصة عودة أحد خبراء الفضاء فى أول السبعينيات إلى مصر وتعيينه مستشارا لرئيس الجمهورية، فحسب ما جاء فى الرواية التى أدلى بها هذا الخبير نفسه لمجلة «كايرو تايمز» فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٨/١٢/٢٤ و ١٩٩٩/١/٦، التى أعاد بثها عبر الإنترنت قسم العلاقات العامة بجامعة بوسطن بالولايات المتحدة، التى يعمل بها أستاذا، فإن الإدارة الأمريكية وقت رئاسة ريتشارد نيكسون رأت أن تستغل نتائج رحلات الفضاء المثيرة للإعجاب فى إبهار الحكام العرب فى محاولة للإقلال من التوتر الذى ساد علاقاتها معهم منذ حرب سنة ١٩٦٧، وعلى الأخص وقت وقف ضخ النفط خلال حرب سنة ١٩٧٣، وذلك بقبول «اقتراح وكالة الفضاء الأمريكية...» بإرسال عينة من صخور القمر (التى كانت قد التقطت من سطحه فى الرحلة الشهيرة والتاريخية التى هبط فيها إنسان على القمر فى سنة ١٩٦٩) إليهم، وكانت العينة التى جاءت من القمر قد قسمت إلى ذرات صغيرة ووزعت على مختلف الدول بواسطة الملحقين العلميين بسفاراتها، إلا فى حالة دول الجزيرة العربية التى رأت الإدارة الأمريكية أن تأخذ باقتراح وكالة الفضاء الأمريكية وأن توفد لها مندوبا خاصا لحمل هذه العينات».

(٢٢)

ثم يروى الدكتور رشدى سعيد بعض التفصيلات عن الدور الذى قدر للعالم المصرى ـ الأمريكى (وهو عالم جيولوجى على نحو ما أشرنا) أن يلعبه:

«... وكان هذا المندوب هو الخبير الذى سافر وسط حملة دعائية كبيرة لزيارة السعودية والبحرين والإمارات وقطر والكويت ومعه هذه العينات، وتسبقه شهرته العلمية التى كانت قد بثت عبر وسائل الإعلام لتأكيد وصولها إلى آذان الملوك والأمراء، الذين كان ترحيبهم به زائدا، فقد اعتبروه واحدا منهم، وحكى لهم هذا الخبير حكايات عن رحلات الفضاء فى لغة عربية عذبة، وأخبرهم بأنه أرسل صفحة من القرآن الكريم إلى السماء، وأنه سمى الكثير من علامات القمر والمريخ بأسماء علماء المسلمين فى الرياضيات والفلك».

ويردف الدكتور رشدى سعيد بعبارات فيها قدر كبير من التعالى غير المبرر وغير المقبول وغير الواقعى على الأشقاء العرب فيقول:

«ولم توضع مصر ضمن البلاد التى يمكن أن تنطلى عليها هذه الألاعيب التى قصد بها «أصحاب الجلالة من لابسى العباءات حسب ما وصفوا فى المقال، وتم تسليم نصيبها من صخور القمر إلىّ بصفتى رئيسا لهيئة المساحة الجيولوجية بواسطة الملحق العلمى بالسفارة الأمريكية بالقاهرة، الذى حملها إلى مكتبى، وقد شكرته نيابة عن الحكومة المصرية وأودعتها بالمتحف الجيولوجى».

(٢٣)

وعند هذا الحد يفاجئنا الدكتور رشدى سعيد بأن الرئيس السادات [الذى يُصور فى الأدبيات الشبيهة بمذكرات الدكتور رشدى سعيد على أنه لم يكن يقرأ أبدا] عرف بأمر هذا الخبر الذى تستحيل معرفته دون

قراءة واعية، وطلب من وزير الخارجية دعوة هذا العالم المصرى الذى يصفه رشدى سعيد فى تهكم بأنه «الابن الضال» مستغلا فى هذا اسم فيلم مشهور، وهكذا فإن رشدى سعيد من حيث لا يدرى يقدم للعالم المصرى رواية ذهبية المدلول تصور عودته بناء على طلب الرئيس المصرى لا على إيفاد الأمريكيين له أو على واسطة شقيقه الدبلوماسى الكبير!!:

«... إلا أن الأمريكيين كانوا قد أخطأوا التقدير، إذ أن الرئيس السادات لم يشأ أن يفوت عليه هذه الفرصة لجذب أنظار الإدارة الأمريكية خاصة إذا ما كان مجيئها من مصرى من أبنائه، وهكذا طلب الرئيس السادات من وزير الخارجية إسماعيل فهمى دعوة «ابنه الضال» إلى مصر، وقبل هذا الخبير الدعوة وعاد بعد ثمانى سنوات لم تطأ فيها قدمه أرض مصر، وعينه الرئيس السادات مستشارا علميا له، وظهرت الجرائد المصرية فى اليوم التالى وعلى صدر صفحاتها الأولى صورة للرئيس وهو ينظر إلى مرئية فضائية أفردها أمامه هذا الخبير وهو يشير فيها إلى مواقع كنوز مصر المعدنية والبترولية والمائية، وبهذه الصورة انضم رئيس مصر إلى نادى أصحاب الجلالة والفخامة من «لابسى العباءات!».

على هذا النحو كان قلم الدكتور رشدى سعيد، أو قلم مَنْ كتب له هذه المذكرات، يشتط فى التعبير إلى أن يصل إلى مثل هذا الحد غير المقبول.

(٢٤)

وقد حفلت مذكرات رشدى سعيد بآرائه فى كثير من السياسيين

المعاصرين له، ونحن نرى فى آرائه تعبيراً صادقاً عن انطباعات مهمة يجدر بنا أن نوليها أهميتها، وأن نقدرها، وأن نفيد منها.

ومن بين وزراء الثورة الذين قدر لصاحب المذكرات أن يتعاون معهم أو يعمل تحت رئاستهم، يشيد الدكتور رشدى سعيد بالدكتور عزيز صدقى على نحو سريع، أما إشادته فتأتى فى عبارات قصيرة تركز بصفة خاصة على الإشارة إلى تأثير التقارير المضادة لصاحب المذكرات على سرعة الانطلاق يقول فيها:

«... وكان لمؤازرة الدكتور عزيز الفضل فى الكثير من العمل المثمر الذى قمت به كما بينت، فقد كان من أكفأ الوزراء الذين عملت معهم،كما كان أكثرهم تعاونا معى حتى بدأ تقاطر هذه التقارير [يشير الدكتور رشدى سعيد إلى التقارير التى كانت تكتب ضده]، مما أثر على سرعة حركة الانطلاق التى كنا نسير فيها».

(٢٥)

ومع هذا الإعزاز الظاهر لعزيز صدقى فإننا نرى رشدى سعيد حريصاً على أن يبدو أكثر إشادة بالمهندس على والى (الذى عمل وزيرا للدولة للبترول والثروة المعدنية (فيما بين ١٥ مايو ١٩٧١ و١٧ يناير ١٩٧٢) أى فى نهاية الفترة التى كان الدكتور عزيز صدقى فيها نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للصناعة والبترول والثروة المعدنية) ويرجع الدكتور رشدى سعيد السبب فى إشادته الفائقة بالمهندس على والى بأنه

كان شجاعا فقد تحول من الهجوم عليه إلى الاعتراف له بالفضل حتى دمعت عـيناه، وهذه هى القـصة التى تصـور بدقة شديـدة نموذجا (لا يتكرر كثـيرا) للاعتـراف بالخطأ من قبل الوزراء الذين قد يغـرقون فى قراءة ودراسة التقارير حتى يكونوا من خـلالها رأيا خاطئا ثم يكتشفوا الصواب فيعدلوا عن الرأى الخاطئ.

ومن العجيب أن الدكـتور رشدى سعيد لا ينبئنا أنـه استفاد من هذا الدرس وعامـل الوزراء التالين لعلى والى بنفس المعـاملة التى عامـلها لعلى والى من حـيث تبصـيرهم بالخطأ الـذى وقعوا فـيه أو كـان من الممكن أن يقعوا فيه!

وعلى كل الأحوال فـإن عصر التقـارير (الذى يترحم عليه الدكـتور رشدى سـعيـد) لم يكن كفيـلا إلا بأن يفرز مـثل هذا الغثـاء والفشل وذلك من خلال تصوير الصالح فاسدا والفاسد صالحا.

بل إن القصة التى يرويها الدكتور رشدى سـعيد تنبئنا بما تتضمنه من تفصـيلات عن مـدى العبث الذى كانـت تعيشـه مصر فـى مثل هذه الأجواء.

ولنقرأ هذا الذى يرويه الدكتور رشدى سعيد:

«. . . وعندما ترك الدكـتور عزيز [صدقى] الوزارة، أحـال التقارير التى كانت تصله عنى إلى المهندس على الذى تولى وزارة البترول التى أضيـفت إلى أعمـالها شـئون الثـروة المعدنيـة، وطلب الدكتـور عزيز [صدقى] من المهندس على والى أن يبحث هذه التقـارير ويسترشد بها،

فلما قرأها تولد لديه انطباع بأننى أحد المتعصبين الدينيين والفاشلين، وناله منى ارتياب كبير، وقرر المهندس على والى أن يواجهنى بالاتهامات التى قرأها فى التقارير وأخذها على أنها صحيحة، فى اجتماع عام دعا إليه موظفى المؤسسة التى كنت أرأسها، رتب له من وراء ظهرى مع المدير العام، ودعانى إليه فى اللحظة الأخيرة، وذهبت بالفعل وبعد تردد إلى الاجتماع، ووقف الوزير ليلخص التقارير* التى وصلته والتى كان يتكلم عنها وكأنها صحيحة، وأخذت أسمع منه عن تقصير المؤسسة فى الكشف عن معادن مصر التى تمتلئ بها الصحارى، وعن إدارتها السيئة التى تحتاج إلى تطوير حتى تصبح فى كفاءة مؤسسة البترول الناجحة التى كان يرأسها قبل أن يعين وزيرا.
وبعد أن أنهى حديثه طلب من كبار موظفى هيئة البترول أن يلقوا علينا المحاضرات عن طرق الإدارة الحسنة، ثم علق الوزير على كلماتهم وذكر المجتمعين بأن مؤسسة البترول لا تعرف التمييز حسب الدين، وأنه قام بنفسه بتعيين قبطى رئيسا لمجلس إحدى شركات مؤسسة البترول، وهى فى هذا ليست كمؤسسة التعدين التى تعج بالشكاوى من تعصب رئيسها».

(٢٦)

هكذا يروى الدكتور رشدى سعيد ما حدث دون أن يشير إلى حقيقة أن رئيسى مؤسستى البترول (على والى) والتعدين (رشدى سعيد نفسه) لم يكونا قد عرفا بعضهما رغم تبعيتهما لوزير واحد هو عزيز صدقى نفسه، وسنترك هذه الجزئية لنقرأ ما يرويه صاحب المذكرات عن رد

فعله تجاه هذا الموقف وهو يقول:

«وظللت جالسا فى مكانى وأنا فى أشد الغليان، وراودتنى فكرة أن أترك الاجتماع احتجاجا، إلا أنى قررت أن أبقى وأن أرد على ما قاله الوزير، وتناولت الميكروفون وعلى مدى أربعين دقيقة انطلقت فيها عاتبا على الوزير بناءه أحكاما قبل أن يتحقق من صحتها، وقبل أن يتكلّم معى بشأنها أو يتعرف على المؤسسة التى أرأسها وما تقوم به من أعمال، وأبديت دهشتى من قوله عن عدم كفاءة المؤسسة وهو الذى تسلم منى وبعد ساعات قليلة من إرساله لى عينة صخرية تقريرا شاملا عن نتائج تحليلها، وكانت هذه العينة قد وصلت مكتب الوزير بمجرد تعيينه من مجهول ادعى فيها أنها عينة من جبل للنحاس يقع فى صحراء القاهرة، ويبدو أن الوزير قد صدق هذا الادعاء، فقد جاءته العينة بعد أن اطلع على تقارير الأجهزة عن مؤسسة التعدين التى أعطته الانطباع أنها سيئة الإدارة قد تفوت عليها هذه الجبال من الخامات الثمينة التى تمتلئ بها الصحارى والتى يتداول أخبارها الكثيرون، حتى أنها أصبحت جزءا من الفلكلور الشائع فى مصر. وكثيرا ما كانت تأتينى الرسائل من كثيرين ليرشدونى عن وجود المعادن فى أماكن يحددونها بالصحراء، وكنت أقوم بالرد عليها وأرفق بعض المعلومات الخاصة بالمعدن والمكان المذكورين فى الرسالة، ويظهر أن العينة التى وصلت المهندس على والى من «جبل النحاس» والتى أرسلها لى للتحليل، جاءت من واحد من هؤلاء الهواة، ويبدو لى أن المهندس على والى، كالكثير من رجال الثورة أنفسهم، كان يشارك باقى المصريين فى هذا «الفلكلور» الذى أفاد مؤسسة الأبحاث الجيولوجية

التى حصلت بسببه على أموال كثيـرة للقيام ببرنامج بحثى كبير ومنظم استمر لعـشرين عاما متصلة فى الصحـراء المصرية، أصبحت فى أثرها هذه الصحـراء من الأماكن القليلة فى العـالم التى تم مسحـها مسـحا يكاد أن يكون كاملا من حيث إمكاناتها التعدينية».

(٢٧)

ونصل مع رشـدى سعـيد إلى مـا وصل إليه هو نفـسه من اهتـداء الوزير على والى إلى الحقيقة بعيداً عن عبث التقارير السرية:

«وبعد أن عـددت للوزير الاكتـشافـات والإنجازات التى قـامت بها المؤسسة والتى كنت أذكر أسماء منفذيهـا أو المشرفين عليها وأشير إليهم من بين الجالسين فى القاعة، طلبت من الوزير أن يزور المؤسسة قبل أن يلقى أحكامـه عليها، وبعـد أن ألقيت هذه المحـاضرة التى أثنى عليـها الكثيرون ممن كنت أستشـهد بهم، شعر الوزير بأنه ربما يكون قد أخطأ بعقده هذا الاجتماع قبل أن يسألنى ففضه بعد أن وعد بزيارة المؤسسة».

«وقام الوزيـر بالفعل بزيارة المؤسـسة بعـد أيام، ومررت معـه على مخـتلف أقسامـها، وعرفتـه على نشاطها وأعطيـته بعضـا من تقاريرها ومطبوعـاتها، وأتحت له فرصة الاجـتماع بفنييـها الذين كانوا يتـيهون بعملهم وهم يعـرضونه عليه، وأعجب الوزير بشكل خـاص بالطريقة التى نظمنا بهـا الوثائق والتقـارير العلميـة، وكان هذا أمـرا جديدا فى مصر فى ذلك الوقت، كما أعجب بـاتساع أعمال البحث عن المعادن التى كـانت تجرى فى الصـحراء. وبعد أن انتـهت جولتنا، عـدنا إلى

مكتبى، وسرعان ما اغرورقت عيناه بالدموع واحتضننى، وشكرنى على الجولة، واعترف لى بأنه خدع بالتـقارير التى وصلته، وما كان يحق له أن يفعل ذلك، وهو الذى اكتوى منها من قبل، ووعدنى بأن يرسل لى ملفا كاملا بهذه التقارير فى الغد لكى أطلع عليه».

«وأكبـرت فى الوزير شعـوره واستعـداده لمراجعـة موقفـه وتوثقت العلاقات بيننا، وفى الغد وصلتنى بالفعل هذه التقارير التى كانت سببا فى انزعاج هذا الوزير، كـما كانت أيضـا السبب فى انزعاج الدكـتور عزيز صدقى من قبله».

(٢٨)

وبعد صفحات طوال يجيد الدكتور رشدى سعيد تصوير الأثر المدمر للتقارير السياسية التى كتبت عنه على نفسيته وعلى أدائه فيقول:

«وكان أكثر ما آلمنى من اطلاعى على الـتقارير التى كتبت عنى، هو مـعرفـتى بأسمـاء الذين زودوا كاتبـيـها بالمعلومـات أو الذين أرسلوا الشكاوى ضـدى، فقـد كان بعـضهم مـن بين مَنْ ساعـدتهم فى بناء حياتهم وأسديت لهم الكثير من الخـدمات، وبعضهم الآخر ممن كانوا يكيلون لى المديح صـبـاح مسـاء، وممن كـانوا كـثيـرا مـا يثيـرون فىّ الاشمئزاز عندما يزايدون فى ترحيبهم بى بمحاولة تقبيل يدى أو الإلحاح على حمل حـقيـبة يدى، وعرفت أن الكـثير من هذه التـقارير كـتبت بإيحاء من أحد كبار العاملين بالهيـئة ممن عينته الأجهزة عينا علىّ، أما مَنْ كتبوا الشكاوى ضدى من الفنيين فـقد كانوا قلة، وكانوا ممن انتموا

إلى جماعة الإخوان منذ أن كانوا طلابا بالجامعة [هكذا يكرر الدكتور رشدى سعيد عزف نغمته المفضلة]، على أن المناخ العام الذى خيم على الهيئة فى أثر هذه التقارير كان مدمرا، فلم يتوقف سيلها بعد هذه المجموعة من التقارير التى وصلتنى من مكتب الوزير، بل إنها زادت بعد أن وصل إلى وزارة الصناعة التى انتقلت تبعية الهيئة إليها بعد خروجها من إشراف وزارة البترول عدد من الوزراء الذين لم يكن لأكثرهم فهم للقواعد الأساسية لبناء صناعة متكاملة، أو للدور الذى يمكن أن تلعبه الثروة المعدنية فيها، فقد شجعوا النميمة، وزادت الشكاوى التى شارك فيها الكثيرون».

. . . .

وفى فقرة مهمة يتحدث الدكتور رشدى سعيد بأسى بالغ عن التقارير التى كانت تكتب فيه والتى قدر له أن يطلع عليها:

«وللحق فقد قدرت ما فعله المهندس على والى وحملت له جميلا، ليس فقط لأنه أطلعنى على التقارير، ولكن لشجاعته فى مجابهتى بها، وهو الأمر الذى لم يقم به وزير من قبله أو من بعده، وكذلك لاستعداده للرجوع عن أحكام اتخذها، وهذا أمر نادر الحدوث بين المصريين عامة».

(٢٩)

وبعد الحديث الذى نقلناه عن اكتساب صاحب المذكرات الدكتور رشدى سعيد لوزير البترول (أو وزير الدولة للبترول بعبارة أدق) على

والى إلى صفه!! فإن الدكتور رشدى سعيد يفاجئنا بأنه بدأ فى العمل على نقل تبعية المؤسسة من وزارة البترول إلى وزارة الصناعة، والواقع أن تبريره لهذا التفكير، وكذلك الخطوات التى اتخذها فى سبيل تنفيذه، يبدو وكأنه غير منطقى بالمرة، بل يبدو وكأنه أقرب إلى أن يكون أثراً من آثار العاطفية منه إلى آثار الفكر، فهو من ناحية يرى التعدين أهون شأنا من البترول، ومن ناحية أخرى يصور التعدين وكأنه القاعدة الأساسية للصناعة فى مصر على الرغم من أنه يجاهر فى فقرات سابقة نقلنا بعضها عنه، بنقيض هذا، ومع كل هذا فإنه من المذهل أن ما يرويه الدكتور رشدى سعيد فيما يتعلق بهذه الخطوة من نقل تبعية التعدين من وزارة إلى وزارة يخالف حقائق التاريخ على نحو ما سنبين بعد قليل.

يقول الدكتور رشدى سعيد:

«وعلى الرغم من الثقة والصداقة التى بنيتها مع الوزير [يقصد: على والى]، فقد صممت على أن أسعى لنقل تبعية مؤسسة التعدين من وزارة البترول إلى وزارة الصناعة، لأن وجودها مع البترول كان كالزائدة الصغيرة فى تركيب ضخم يتسم بالتعالى على غيره من التركيبات الدخيلة عليه، هذا بالإضافة إلى أنى كنت وما أزال مؤمنا بأن التعدين يشكل القاعدة الأساسية للصناعة فى مصر، وقد أفلحت بالفعل فى مسعاى، واستطعت أن أعيد تبعية المؤسسة إلى وزارة الصناعة فى أول تعديل وزارى جرى فى يناير سنة ١٩٧٢ بتولى الدكتور عزيز صدقى رئاسة الوزارة، والدكتور يحيى الملا وزارة الصناعة».

(٣٠)

هكذا يصور الدكتـور رشدى سعيد الأمر وكأنه خـرج بالتعدين عن نطاق عمل وزير إلى نطاق عمل وزير آخـر، لكن المفاجأة المذهلة التى ربما تفاجأ بـها ذاكرة الدكتور رشـدى سعيد نفـسه هى أنه عند تشكيل وزارة الدكتـور عزيز صدقى فى يناير ١٩٧٢ خـرج المهندس على والى من منصبه كوزير دولة للبترول والثروة المعـدنية، كما ترك الدكتور عزيز صدقى (بـالطبع) منصبـه كوزير للصناعـة والبتـرول والثروة المعـدنية، ومنصـــبـه كنائب أول لـرئيس الوزراء (بالطبـع)، ودخل الوزارة وزير جـديد هو الدكـتـور يحيى المـلا كوزير لـلصناعـة والبتـرول والثـروة المعدنية!! وهكذا فإن مـا يرويه الدكتور رشدى سعيـد ربما يقتصر على نقل تبعيـة المؤسسة إلى وزارة الصناعة بدلاً من وزارة البـترول، بينما كانت الوزارتان فى يد وزير واحد، وقد كـان الأمر كذلك بالفعل من قبل تشكيل عزيز صدقى لوزارته وظـل هكذا بعد تشكيل عزيز صدقى وزارته من بعـد، ولم يكن على والى فـيـمـا بين مـايو ١٩٧١ ويناير ١٩٧٢ إلا وزير دولة للبـترول والـثروة المعـدنيـة فى ظل وجود عـزيز صـدقى نفـسه الذى كـان لا يزال وزيرا للـصناعة ولـلبتـرول وللثـروة المعدنيـة، فكأن عزيز صدقى فى تلك الفـترة كان بمفـرده للصناعة على حين كـان معه وزير دولة للبـترول والثروة المعـدنية هو على والى، ثم سرعان مـا عاد الوضع فى يناير ١٩٧٢ إلى ما كان عليـه وأصبح هناك وزير واحد للصناعة والبترول والثروة المعدنية.

ولكن ماذا يقصد الدكتور رشدى سعيد بهذه التبعية التى جاهد من أجل نقلها؟ إنه يقصد التبعية التى تتم فى إطار الوزارات، فقد كان عزيز صدقى مسئولاً عن القطاعين: الصناعة والبترول معاً، لكن المسئولية عن التعدين كانت قد نقلت إلى وزير الدولة للبترول على والى الذى شغل بهذا المنصب فيما بين مايو ١٩٧١ ويناير ١٩٧٢ فى ظل انشغال عزيز صدقى بمنصبه كنائب أول لرئيس الوزراء، فلما شكل عزيز صدقى وزارته فى يناير ١٩٧٢ اختار خلفاً له فى الصناعة والبترول والثروة المعدنية (جميعاً) يحيى الملا، وهكذا فإن الفصل الذى يتحدث عنه رشدى سعيد لم يحدث حقيقة، فقد ظل الدكتور يحيى الملا وزيرا لهذه القطاعات الثلاثة حتى تشكلت وزارة الرئيس السادات الأولى فى مارس ١٩٧٣، وفيها عين إبراهيم سالم محمدين وزيرا للصناعة (فقط) بينما عين المهندس أحمد عز الدين هلال وزيرا للبترول والثروة المعدنية، فكأن هذا الفصل الذى تحدث عنه رشدى سعيد، والذى تم على مستوى الوزارات لا على مستوى الوزراء، لم يدم وتم العدول عنه فى أقرب فرصة وهى الوزارة التالية مباشرة، لكن رشدى سعيد كان حريصاً على أن يعطينا الإيحاء بأن هذا الفصل قد استمر منذ يناير ١٩٧٢ وباتصال.

والواقع أن الفصل الذى تتحدث عنه رواية رشدى سعيد [والذى يعنى أن تكون الثروة المعدنية مع وزير الصناعة، على حين يكون هناك وزير آخر للبترول لا يتولى الثروة المعدنية] لم يحدث إلا فى إبريل ١٩٧٤ حيث شكلت وزارة السادات الثانية فعادت الثروة المعدنية لتنضم إلى وزارة الصناعة التى كان يتولاها المهندس إبراهيم سالم محمدين.

ولعل هذا هو الضم (أو الانتقال) الذى يقصده الدكتور رشدى سعيد، وإن كانت الذاكرة قد خانته فى التاريخ فتحدث عما حدث فى إبريل ١٩٧٤ على أنه حدث فى يناير ١٩٧٢، وربما حدث هذا اللبس نتيجة هذا العبث المتكرر

وعلى كل الأحوال فقد ظل التعدين مرتبطاً بوزارة الصناعة منذ إبريل ١٩٧٤ حتى أكتوبر ١٩٧٧ فقط حين عادت الأمور إلى الصيغة القديمة الصناعة والبترول والتعدين تحت رئاسة وزير واحد، ومن المصادفة أن الوزير الواحد أصبح هو وزير البترول لا وزير الصناعة، وكان وزير البترول [منذ مارس ١٩٧٣] هو المهندس أحمد عز الدين هلال.

(٣١)

والواقع أنه فيما بعد الثناء على على والى الذى اعترف بالخطأ فإن مذكرات الدكتور رشدى سعيد تحفل بأحاديث متكررة فى نقد وزراء الصناعة المتتالين الذين عمل تحت رئاستهم، ومن الإنصاف أن أشير هنا إلى أسماء هؤلاء الوزراء لندرك مدى التجنى الذى مارسه الدكتور رشدى سعيد فى أحكامه، ففيما بين يناير ١٩٧٢ ومارس ١٩٧٣ كان الدكتور يحيى الملا وزيرا للصناعة والبترول والثروة المعدنية، وفيما بين مارس ١٩٧٣ وإبريل ١٩٧٤ كان إبراهيم سالم محمدين وزيرا للصناعة (فقط)، بينما كان وزير البترول والثروة المعدنية هو أحمد عز الدين هلال، وفيما بين أبريل ١٩٧٤ وسبتمبر ١٩٧٤ كان إبراهيم سالم محمدين وزيرا للصناعة والتعدين بينما كان أحمد عز الدين هلال وزيرا للبترول فقط، وفيما بين سبتمبر ١٩٧٤ وإبريل ١٩٧٥

أصبح محمـود على حسن وزيرا للصناعة والتعدين، وفـيما بين إبريل ١٩٧٥ وأكتوبر ١٩٧٧ أصـبح عيسى شاهين وزيرا للصناعـة والتعدين بينما ظل أحمد عز الدين هلال وزيرا للبترول فقط لكنه جمع الصناعة والبترول والثروة المعدنية معا فى أكتوبر ١٩٧٧، وربما كان من حقى هنا أن أشير إلى دراسـة لى ذكرت فيها أن هناك وزارتين مصـريتين تبدوان وزارتين لكنهمـا لم تنفردا ولو مرة واحـدة بوزير مستقل بأى منهـما، على الرغم من الإشارة المتكررة إليهما، وكأن كلا منهما وزارة مستقلة، وهما الثروة المعدنية (أو التعدين)، والتجارة الداخلية.

وربما كان من حق القارئ أن نعـود معه إلى سياق الدكـتور رشدى سعيد وهو ينتقد وزراء الصناعة، الذين عمل معهم فى سنتيه الأخيرتين فى الخدمة المدنية:

«... وأضعت من حيـاتى السنتين الأخيرتين من رئاسـتى لمؤسسة التعدين والمسـاحة الجيولوجية، فى أخـذ ورد مع هذه العينة الرديئة من الوزراء، وزاد من همـومى اسـتـمـرار توارد تقـارير الأجـهـزة على مكاتبهم، ولم يـكن لأى منهم الثقة بالنفس التى كـانت عند المهندس على والى، فلم يواجـهنى أحد بها، بل حـفظوها لأنفسـهم وحاولوا تحجـيم سلطاتى والعكننة علىّ، وعند هذا الحـد كان الكيل قـد طفح فتقدمت باستقالتى فى آخر سنة ١٩٧٧».

(٣٢)

ولا يقف انتـقـاد رشـدى سـعـيـد لوزراء الثـورة عند حـد وزراء السبـعينيـات الذين عمل مـعهم، لكنه ينتـقد أيضـا أول وزراء البحث

العلمى المصريين بمرارة ويقول:

«... ومن الذكريات المثيرة للأسف والتى تبين شراسة الحملة التى كانت تدبر لإبعادى، ذلك الموقف المأساوى لأول وزير للبحث العلمى فى مصر عندما حاول أن يثنى الأستاذ بلاأوسوف أحد أكبر أساتذة الجيولوجيا فى الاتحاد السوفيتى، الذى طلب أن يقابلنى عند زيارته إلى مصر بدعوة منه، عن الالتقاء بى والاكتفاء بمقابلة مَنْ يختارهم له هو من أساتذته المفضلين، وكان هذا الوزير أحد طلابى الذين كانوا يكثرون من مديحى والتنويه بأعمالى العلمية فى كل مقابلة معه».

. . . .

وسوف نستعرض فى موضع قريب موقف رشدى سعيد من بعض وزراء التعليم العالى، وهو موقف مزدوج، بيد أننا لابد أن نشير هنا إلى إشادته اليتيمة بواحد من مسئولى عهد الثورة هو محافظ الوادى الجديد المهندس عبد المجيد الجفيل:

«أذكره بالاسم هنا لفضله وأثره الكبير على تنمية الواحات، فقد كان بالإضافة إلى مقدرته الفنية العالية، ذا شخصية محبوبة، وتواضع جم، وإيمان وحب لموضوع تنمية الصحارى، الذى أراده أن يأخذ منحى علميا لإدراكه لصعوبته وتعقيده».

(٣٣)

لعلنا ننتقل الآن إلى الحديث عن موقف رشدى سعيد من مؤسسات التعليم والبحث العلمى فى عهد الثورة ، والواقع أن رشدى سعيد

كان حريصاً أيضــاً على انتقاد حالة التعليم المصــرى فى عهد الثورة فى عبارات واضحة، وفى مواضع متكررة، لعل أبرزها ذلك الموضع الذى يتحدث فــيه عن معاناته ومعاناة زوجــته نتيجة لمعاناة ابنهــما فى مرحلة الدراسة الثانوية!!:

«... وانتــهت سنى دراسة كــريم [ابن الدكــتــور رشدى ســعيــد] بالقوميــة لكى يلتحق بالمدرسة الثانوية بالمعــادى، التى كانت فى حالة أسوأ بكثير من مــدرستى الثانوية التى التحقت بها قــبل ذلك بأكثر من خمس وثلاثين سنة. فبالإضافة إلــى فساد الانضباط كان هناك انحطاط مستوى المدرسين، وتخلف المناهج التى كتب الكثير منها فى فترة وزارة السيد كمــال الدين حسين أحد أعضاء مجلس قــيادة الثورة، وقد كلفنا ذهاب أبنائنا إلــى هذه المدارس أكــبر الجــهــد لكى نزيــل منهم فى كل صيف مــا ترسب فى أدمغــتهم من السلبــيات التى كــانت هذه المناهج تصبــها فــيها، وكــانت وداد الأم تقضى الليــالى الطويلة لفك طلاسم النحو العربى حــتى يصبح له منطق، ولتعليم اللغــة الإنجليزية، ولقراءة كتب خــارجة عن مناهج الدراسة لتفــتح أمام أبنائنا حضــارات العالم الواسع، وكــانت وداد تؤدى هذا الدور نفســه الذى لعبــته فى حــياتى شقــيقتى [ســيأتى الحديث عنهــا] وقسم الصبــيان [سيــأتى الحديث عنه أيضاً]».

(٣٤)

كذلك يجــاهر الدكتور رشدى ســعيد فى هذه المذكرات بانتــقادات حادة للجــامعات المصــرية، ولدرجاتها العلمــية، ولأدائها التــعليمى،

ولنشـاطها البـحثى، وهو يفـعل هذا فى مواضع عـديدة من مذكـراته نقتطف منها للقارئ قوله:

«... لقد أهـملت مصر تـعليم أبنائها لسنوات طويلـة، ووضعت مسئـوليته فى أيد جـاهلة، وهى تجنى الآن ثمار ما زرعتـه، ولا يتعلق الأمر هنا بالصـدع الذى أحدثه هذا التعلـيم فى وحدة الوطن، بل إنه يتعلق أيضـا بعجز المـدرسة والجامعـة المصرية عن تخـريج مَنْ يقدرون على أن يديروا شئونها اليومية، فضـلا عن إدارة مستقبلها. فالمهندسون حديثـو التخرج لا يـعرفون من مـبادئ الهندسة مـا يكفى لكى يديروا منظومة الرى التى خلفها لهم الأجداد بأية كفاءة، أو ليراقبوا مبنى يقام حتى يـأتى سليما يـصون من يستـخدمـه، وخريجـو كليات الحـقوق والبوليـس لا يعرفون تاريخ بـلادهم، أو لا يعرفون شـيئـا عن ميـثاق حقوق الإنسـان، والكثير منهم غير مـؤهل لحماية الأرواح، أو الحكم بين الناس بالعدل والإنصاف».

(٣٥)

وفى إطار انتقـاده لما آل إليه حال الجامـعات المصرية يشيـر الدكتور رشدى سعـيد بمرارة غير مـبررة إلى تفصيـلات قصة ترقيـته إلى درجة الأستـاذية، وهو يضمن روايـته لهذه القـصة قـدراً كبـيراً من الانتـقاد القاسى لنـظم الجامعة المصرية. ومن الإنصـاف لمجتمـعنا ولجامـعاتنا ولوطننا أن نذكر أن الدكتور رشدى سعـيد قد رقى إلى درجة الأستاذية بصورة كان فيها قدر كبير من الإكرام لشخصه ولنشاطه السياسى، فقد كانت الترقيات فـى ذلك الوقت تخضع لنظام الكراسى، وكان كرسى

. الجيولوجيا فى كلية علوم القاهرة مشغولا بالفعل بأستاذ سابق على الدكتور رشدى سعيد، وهكذا فإن وزير التعليم العالى (عبد العزيز السيد) بحث عن طريق استثنائى لتكريم الدكتور رشدى سعيد بأن يرقيه على كرسى الجيولوجيا فى علوم الإسكندرية ثم ينتدبه إلى القاهرة، لكن الدكتور رشدى سعيد فى مذكراته يعمد إلى تصوير هذه الحقيقة تصويراً آخر ليصور الأمر وكأنه كان أكبر من هذه الترقية، وكأنه هو نفسه لم يكن يحفل بها، وهو يقول فى هذا الصدد:

«... وفى الحقيقة فلم يكن لدىّ أبدا أقل الاهتمام بهذه الألقاب لمعرفتى أن منحها سيجىء من أمثال هذا الأستاذ [يقصد: الأستاذ السابق عليه الذى هو رئيس القسم فى قسم الجيولوجيا فى كلية علوم القاهرة] ممن كانوا يجلسون فى لجان ترقيات الأساتذة والذين لم يكن لحكمهم بالنسبة لى أى تشريف، ولم أتقدم لمنصب الأستاذية إلا بعد ذلك بأعوام طويلة من صدور الكتاب، وبناء على طلب الدكتور عبدالعزيز السيد وزيرالتعليم العالى الذى دهش عندما عرف أنى مازلت أستاذا مساعدا، فلما أبلغته أن ذلك راجع إلى أنه لا توجد بجامعة القاهرة كراسى شاغرة لعلم الجيولوجيا صمم على تدبير كرسى لى لأشغله فلم يجده إلا فى جامعة الإسكندرية، وفى ذلك الوقت لم يكن الترقى إلى وظائف الأساتذة مفتوحا كما هو الآن، فقد كانت وظائف الأساتذة محدودة بكراسى تنشأ بقرارات جمهورية».

« وترددت كثيرا للتقدم لشغل كرسى جامعة الإسكندرية، لولا وعد وزير التعليم العالى بأن يعيدنى إلى جامعة القاهرة بمجرد حصولى على الأستاذية عن طريق الندب لها حتى أستمر فى معملى الذى كان يعرفه

الناس باسمى وذاع صيته بين المشتغلين بالعلم».

«ومع ذلك فقد ظللت مترددا ومحجما عن التقدم حتى آخر يوم عندما زارنى فى منزلى فى الصباح المبكر، وكنت مازلت أتناول إفطارى، طالبى العزيز الدكتور الأمين بسيونى الذى أصبح فيما بعد عميدا لكلية علوم عين شمس، ملحا علىّ بالتقدم لشغل الكرسى، وقام بنفسه بجمع أوراقى العلمية واستكتابى طلبا وحمل الأوراق والطلب إلى اللجنة وقدمها نيابة عنى، وعندما طلبت منى لجنة الفحص بعد شهر كامل استيفاء بعض البحوث التى كنت قد وضعتها ضمن قائمة كتاباتى تحت النشر رددت على الفور بأن لدى اللجنة من البحوث ما يكفى للحكم على صلاحيتى لشغل درجة الأستاذية ورفضت طلبها».

ربما يجدر بنا أن نذكر أن الدكتور محمد الأمين بسيونى انتخب فيما بعد عميداً لكلية العلوم ، كما انتخب عضواً فى مجمع اللغة العربية.

(٣٦)

ويشير الدكتور رشدى سعيد إلى أنه لم ينل ما كان يصبو إليه بعد حصوله على درجة الأستاذية، ويبدو أن هذا هو ما دفعه إلى ترك مناصب الجامعة والالتفات إلى وظائف موازية من قبيل رئاسة هيئة المساحة الجيولوجية:

«..... وبعد أن تمت ترقيتى لم يتم ندبى إلى جامعة القاهرة كما وعدنى وزير التعليم العالى، الذى ربما يكون قد أشفق علىّ من العودة

إليهـا بعد أن عرف مـوقف رئيس القسم منى، والذى لم يصـمم فقط على عدم عودتى إلـى جامعة القاهرة، بل وعلى حـرمان الطلاب من متابعة محاضراتـى التى كنت قد بدأتها معهم فى أول العام الدراسى، واقترح الوزير أن أقبل الندب إلى جامعـة عين شمس فقبلت ذلك على مضض، وظللت فى هذه الجامعة ضيفا بلا مكتب لمدة عامين».

يجدر بنا هنا أن نتوقف لنشير إلى أن الدكتور رشدى سعيد لم يذكر فى هذه القصة التى ضمنها كتـابه تاريخ حصوله على درجة الأستاذية، لكنه ذكـر أن هذا قد تم فى عـهد الوزير عـبد العـزيز السيـد، ونحن نعرف أن عبـد العزيز السيد قـد عمل وزيرا للتعليم العالى مـنذ أكتوبر ١٩٦١ وحتى أكتوبر ١٩٦٥.

ومن الجدير بالـذكر أن الدكتـور عبد الـعزيز السيـد كان هو نفـسه صاحـب فكرة إنشاء وظائف الأسـاتذة بدون كراسى، ويبـدو من هذا الذى نقرؤه للدكتـور رشدى سعيد أن الوزيـر كان على حق فى دعوته التى نفذها بالفعل بعدما رأى رموز جيل رشدى سعيد محجوبة برموز الجـيل السابق عليـهم الذين كانـوا لايزالون يحتلون وظائف الأسـاتذة ذوى الكراسى ولما يبلغوا سن الستين.

(٣٧)

ومن الطريف أن الدكتور رشدى سعيد يشير فى مذكراته إلى أنه بعد أن أصبح عـضواً فى اللـجان المسئولة عن ترقـية الأساتذة والأسـاتذة المساعـدين، لم يستمر فـى عضوية اللجنة الدائمـة للترقيات أكـثر من عامين، وذلك بسبب ما لاحظه من عدم جدوى مثل هذا العمل:

«... وبعد أعوام من ترقيتى (أى إلى درجة الأستاذية)، أصبحت عضوا فى اللجنة الدائمة لترقية الأساتذة، وحاولت لعدد من الأعوام أن أعيد لها بعضا من الاحترام والسمعة الطيبة وأن أنقل مناقشتها إلى الموضوعية، إلا أن ذلك كان يتطلب منى الكثير من الجهد والمناهدة، مما دفعنى إلى الاستقالة منها بعد عامين، كانت الجامعة بالنسبة لى قد انتهت كمكان يمكن أن تتم فيه أية أبحاث علمية على المستوى الذى يمكن أن يعتد به».

(٣٨)

وإذا كان هذا هو رأى الدكتور رشدى سعيد فى الجامعات المصرية ومستواها العلمى، فمما يؤسف له أن الدكتور رشدى سعيد ظل يضيع من سنوات عمره حقبة زمنية فى مثل هذا الذى يسميه عبثاً حتى أقنع نفسه بأنه أدرك الحقيقة، مع أن أستاذه العظيم الدكتور مشرفة كان قد نبهه مبكرا إلى مثل هذا الوضع الذى قد يندفع إلى القبول به (وربما السعى إليه) فى ظل رؤية قصيرة النظر، ولكن يبدو أن الدكتور رشدى سعيد قد ظل يأبى إلا أن يكرر الخطأ الذى أنقذه منه مشرفة فى المرة الأولى على حد ما توحى به روايته هو نفسه:

«... ومن الذكريات التى تستحق الذكر فى هذا المجال، ما حدث لى شخصيا بسبب هذا الموقف، فقد رفض الدكتور مشرفة أن يسمح لى بالانتقال إلى كلية علوم جامعة الإسكندرية مدرسا، بعد أن حصلت على درجة الماجستير فى سنة ١٩٤٤ والتى كانت كافية فى ذلك الوقت للقفز إلى عضوية هيئة التدريس بهذه الجامعة الجديدة، وعندما ذهبت

أشكو للدكتور مشرفة وقوفه ضد انتقالى مدرسا بهذه الجامعة الجديدة، قال لى وبما يكاد أن يكون بالحرف الواحد: «مالك ومال هذه الجامعات المائلة؟ لقد رشحناك لبعثة علمية إلى أفضل الجامعات لكى نعيدك أستاذا ملء ثيابه، فنحن نبنى جامعة لا نريد أن يقل مستواها عن أى جامعة فى الخارج»، وعلى الرغم من أن هذا المنع عطل ترقياتى وأقدمياتى وسبب لى الكثير من المضايقات نظرا لأن الكثير من زملائى الذين كانوا أقل منى خبرة وعلما أصبحوا أقدم منى، وفى مركز يحكمون فيه على أعمالى ويقررون ترقياتى، إلا أنى غير نادم على السنوات الطويلة التى قضيتها لإعداد نفسى أستاذا «يملأ ثيابه» كما أراد أستاذى الكبير».

(٣٩)

وفى مقابل كل هذا الحديث الآسف على الحاضر نرى الدكتور الدكتور رشدى سعيد يفخر على نحو عالى الصوت والنبرة بالمناخ العلمى والجامعى الذى قدر له أن يعيش فيه فى كلية العلوم فى عهد تلمذته فيها (١٩٣٧ ـ ١٩٤١)، وهو يصف هذا المناخ مقارنا بينه وبين تجربته غير السعيدة فى التعليم الثانوى حيث رسب فى السنة الأولى الثانوية، والواقع أن فقرات رشدى سعيد فى الحديث عن الجامعة المصرية لا تعدو الواقع، لكنها مع ذلك تمثل ما يشبه قصيدة غزل فى شىء أصبح غائباً أو نادراً أو بعيداً عن تصور إمكانية تحقيقه، وهو على سبيل المثال يقول:

«... كانت سنوات الدراسة بالجامعة من السنوات السعيدة فى حياتى. فعندما التحقت بكلية العلوم بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٣٧

(التى كانت تسمى حينئذ كلية العلوم البحتة بالجامعة المصرية) كان التعليم فيها حرا وفاتحا للأفق، كنا نستمع إلى محاضرات الأساتذة الذين كانوا يوجهوننا إلى المراجع لنعود إليها فى المكتبة نستخلص منها الجديد الذى كنا نناقشه معهم،وكان عمر الكلية عندما التحقت بها اثنى عشر عاما، وكانت [الكلية] الوحيدة التى تقوم بتدريس العلوم الحديثة فى مصر، بل وفى العالم العربى كله. وكان معظم أساتذتها من الأجانب الذين اختيروا من بين أفضل الأساتذة الأوروبيين ذوى الصيت الذائع، وكان عدد طلاب الكلية صغيرا، فلم يزد عدد طلاب دفعتى على السبعين، مما سمح بتوثيق العلاقة بين الطالب والأستاذ، وتيسير استخدام المكتبة، وممارسة الحوار الحر مع الأساتذة».

(٤٠)

وهو يتحدث عن مدى التقدم الذى كانت الجامعة المصرية تتمتع به فى ذلك الوقت حديثاً آسفاً على ما فات من نهضة لم يقدر لها أن تستمر:

«وكانت الجامعة المصرية بالفعل، وعلى الأخص كلية العلوم التى التحقت بها، معهدا متقدما به الكثير من الأساتذة الأوروبيين الذين كانوا ينتقون من بين أفضلهم، والذين كان من الممكن جذبهم للعمل فى مصر فى ذلك الوقت، فقد كانت مصر تتيح لهم، بالإضافة إلى العيش الطيب، الفرصة للقيام بالبحث العلمى الذى كان ولا يزال من أهم علامات الجامعة المتقدمة، وأهم ما يعتمد عليه الأستاذ الجامعى نفسه فى تثبيت مستقبله».

«وفى ذلك الوقت كان القيام بالبحث العلمى سهلا لمن كانت لديه العزيمة والإرادة، فلم تكن أدواته تحتاج إلى إنفاق كبير أو إعداد معملى هائل».

«لذا فقد كان من الممكن لكلية العلوم بالجامعة المصرية أن تجذب أعظم الأساتذة الأوروبيين للعمل فيها، وأن تكون على نفس مستوى أقرانها فى الخارج، وهو المستوى الذى حرصت على الحفاظ عليه حتى أنها كانت وحتى نشوب الحرب العالمية الثانية ترسل إجابات امتحانات طلاب البكالوريوس فيها إلى جامعة لندن ليشارك أساتذتها فى تقييمها وفى تقدير درجات الامتياز لها. كما أنها كانت تنتقى ممتحنى رسائلها الجامعية ـ لدرجتى الماجستير والدكتوراه ـ من بين المتخصصين من أساتذة أكبر الجامعات الأجنبية».

(٤١)

والحق أنه مع كل الهجوم الضارى والمرارة الشديدة التى يبديها الدكتور رشدى سعيد فى شأن الجامعات المصرية والتعليم المصرى فى عهد الثورة، فإننا لا نعدم فى كتابه بعض الجمل ، حتى وإن جاءت بطريقة عابرة التى يثنى فيها على كثير من علمائنا الكبار فى العصر الذهبى للجامعة المصرية، وقد كان من حسن حظ مصر أن استمر بعض هؤلاء على قيد الحياة وشاركوا فى الحياة الجامعية فى عهد الثورة:

«... وإذا كان لى فضل فى شىء، فهو يرجع إلى أننى استطعت

أن أحتفظ برباطة جأشى وأن أقف أمام الصعاب والإغراءات فى صلابة، وهو الأمر الذى ما كان من الممكن أن أحققه دون المساندة التى حصلت عليها من الكثير من أساتذتى الذين ساهموا فى صد الأذى عنى وأعطونى الأمل وساعدونى على أن تظل قامتى مرفوعة فوق الصغائر. أخص من هؤلاء بالذكر ممن سبقونى الدكتور نصرى شكرى رئيس قسم الجيولوجيا الذى تحمل معى الكثير منها حتى ترك الساحة كلها إلى منصب أممى فى إفريقيا فى منتصف سبعينيات القرن العشرين، والدكتور محمد مرسى أحمد عميد الكلية الذى أصبح فيما بعد رئيسا لجامعة عين شمس ثم وزيرا للتعليم العالى، والدكتور حسين سعيد عميد الكلية الذى أصبح فيما بعد وزيرا للتعليم العالى كذلك، ومن قبلهم الأساتذة: على مصطفى مشرفة، وحسن شاكر أفلاطون، وأحمد رياض تركى عمداء الكلية، فقد وقفوا جميعا معى وكانوا من كبار الرجال الذين ينتمون إلى جيل يقدر العلم، ويعرف معنى الجامعة، ويعيش الحياة المتمدنة، ولا يحمل فكرا مسبقا عن الآخر».

. . . .

وبنفس القدر من الإنصاف يتحدث الدكتور رشدى سعيد عن أستاذه الأمريكى فيقول:

«على أن أكبر الفائدة جاءتنى من أستاذى بجامعة هارفارد هنرى ستتسون، الذى أعاد معى قراءة رسالة الدكتوراه التى أعددتها، وعلمنى طريقة الكتابة العلمية وكيف أفرق بين الملاحظة والتفسير، وأن أزن كل كلمة أكتبها وألا أزيد واحدة دون أن يكون لها لزوم، وأن ألتزم

فى تنظيم كتاباتى بالشولات والنقط والفقرات، وكانت هذه الأمور جديدة على واحد يكتب بالعربية التى تعلم أن يجىء فيها اللفظ قبل المعنى، وأن تنساب دون فصلات أو فقرات».

(٤٢)

وربما يقودنا هذا الحديث المتيم بالجامعة المصرية فى عهدها القديم، والناقد لها فى عهدها الحديث، إلى تأمل ما يرويه رشدى سعيد وهو فى هذه السن المتقدمة عن العوامل التى أثرت فى تكوينه.

ونحن نرى الدكتور رشدى سعيد حريصاً على الإشادة بفضل شقيقته الكبرى فى تكوينه الحضارى، ومن الجدير بالذكر أن هذه الشقيقة كانت قد ابتعثت إلى بريطانيا فى بعثة تعليمية نظمتها وزارة سعد زغلول فى ١٩٢٤، وذلك عقب حصولها على البكالوريا مباشرة، ونحن نرى رشدى سعيد ينظر إلى هذه الخطوة فى إطار تقديره لمنجزات الحركة الوطنية فى تلك الفترة.

وهو يذكر عنايتها الذكية للنهضة الوطنية الرائعة التى حققتها ثورة ١٩١٩ بتعليم البنات، بل وابتعاثها لمجموعة من بناتها (كان من بينهن شقيقته الكبرى) إلى الخارج [يقصد فى ١٩٢٤]، وهو يروى هذه التفاصيل:

«... ولحقت هذه النهضة الشاملة عائلتى بصفة مباشرة عندما قررت أول حكومة وطنية تشكلت بإرادة الشعب وعن طريق الانتخابات الحرة المباشرة فى سنة ١٩٢٥ [الواقع أن الانتخابات تمت فى ١٩٢٣ وظهرت نتائجها النهائية فى ١٩٢٤، وتشكلت الوزارة التى

يقصدها رشدى سعيد فى ٢٤ يناير ١٩٢٤] أن توفد بعثة تعليمية من فتيات مصر لكى يتعلمن مختلف العلوم والفنون الحديثة لكى ينقلنها إلى وطنهن عند عودتهن، وكانت شقيقتى الكبرى إنعام إحدى هؤلاء الفتيات اللاتى اخترن ضمن هذه البعثة التى ضمت ست عشرة فتاة من خريجات المدرسة السنية بالقاهرة أوفدتهن الحكومة المصرية إلى إنجلترا، وألحقتهن بمدارسها، ورتبت لهن مسكنا ومشرفة إنجليزية. أما شقيقتى فقد التحقت بأحد معاهد الفن التشكيلى لتعلم فن الرسم».

(٤٣)

ويحرص رشدى سعيد على أن يجلو ، بقدر كبير من الفخر ، موقف عائلته من فكرة سفر شقيقته وهى لاتزال فى صباها لتتلقى التعليم فى الخارج:

«كانت شقيقتى إنعام فى سن السادسة عشرة من العمر عندما أوفدت فى هذه البعثة التى وافق عليها والداها دون تردد، مما يعكس مدى التقبل الذى كانت تحظى به حركة تحرير المرأة التى نشطت فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩، بل ومدى الثقة بين الحكومة والناس. فلم يخامر الآباء أى شك فى أن الحكومة ستقوم بواجب رعاية بناتهم فى الغربة على أحسن ما تكون الرعاية».

. . . .

بل إن رشدى سعيد ينبهنا إلى مدى التقدم الفكرى فى مصر (الذى

يعبر عنه مثل هذا القرار) إذا ما قورن بما كان يحدث فى أوروبا وأمريكا:

«... ولابد أن أذكر القارئ هنا أن مثل هذه الموافقة ما كان من الممكن الحصول عليها فى أوروبا وأمريكا، فقد سبقت مصر هذه البلاد فى إيفاد بناتها فى هذه السن المبكرة للدراسة فى الخارج. وعندما أروى قصة سفر شقيقتى لأى من الأوروبيين والأمريكيين فإن الدهشة وعدم التصديق يصيبانهم، فلم يكن مثل هذا الأمر مقبولا حتى فى بلادهم فى ذلك الوقت».

(٤٤)

كذلك فإن رشدى سعيد فى مذكراته يحرص على أن يشير بكل حب إلى مظاهر الحضارة(!!) التى جلبتها بعثة الشقيقة عند عودتها إلى مصر، فقد أحالت بيت العائلة شيئاً آخر غير الذى كان عليه، وغيرت من سلوكيات أسرتها تغييراً جذرياً، وكانوا هم أنفسهم - على نحو ما نقرأ لصاحب الذكريات - سعداء به وهو يقول:

«.... وعندما عادت شقيقتى من بعثتها، بعد سبع سنوات كاملة فى الغربة، تغير بيتنا تحت تأثيرها فأعادت تنظيم غرفه وأضافت عليها لمسة جمالية، وملأتها بالرسوم واللوحات، التى كانت قد رسمتها بنفسها أو اقتنتها، وبالتماثيل التى صبتها أو نحتتها خلال دراستها بالبعثة».

«كما قامت بتغيير الطريقة التى نتناول بها طعامنا الذى أصبح له

ساعات محددة نتناوله ونحن جلوس فى نظام، وبعد أن نرتب المائدة ونضع الشوكة والسكين فى المكان الذى ينبغى أن توضعا فيه دون أن يسبق واحد منا الآخر فى الطعام، وأصبح لنا نحن صغار العائلة ميعاد مبكر للنوم الذى أصبح له قميص خاص كنا نخلعه عند صحونا ونستبدل به لباسا آخر».

«كما أصبح لكبار العائلة ميعاد للقاء الأصدقاء هو ميعاد تناول الشاى بعد الظهر، الذى كان بمثابة الصالون الأدبى، فقد كان الكثير من الزوار هم من زميلات شقيقتى بالبعثة، واللاتى تولى الكثير منهن أهم المناصب، وقمن بأعمال مهمة فى الحياة العامة المصرية».

(٤٥)

كذلك نرى الدكتور رشدى سعيد يحرص على أن يعترف لجمعية الشبان المسيحية بدور كبير فى تنشئته على نحو متكامل، وهو يثنى على المربى الكبير يعقوب فام، وعلى طبيعة نشاط هذه المؤسسة الموازية للتعليم العام فى ذلك الوقت ويقول:

«... وبعد سنة واحدة من وصول شقيقتى إنعام إلى مصر [أى بعد عودتها من بعثتها]، قامت بإلحاقى أنا وشقيقى الأصغر كمال بقسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية بالقاهرة، التى كان مقرها شارع إبراهيم باشا (الجمهورية حاليا) بقصر نوبار باشا رئيس وزراء مصر وقت الخديو توفيق، وكان التحاقى بهذا القسم وأنا فى سن الثانية عشرة من العمر من أهم ما أثر فى تكوينى، فقد كان تحت رعاية

المربى الكبير الأستاذ يعقوب فام الذى كان قد عاد لتوه من بعثة بجامعة ييل بالولايات المتحدة بعد أن حصل منها على درجة الماجستير فى علم التربية، وكان يعقوب فام مربيا ممتازا وصاحب نظريات رائدة فى علمه، ضمنها فى كتبه، وطبقها فى قسم الصبيان الذى كلف برعايته، فأضاف إلى النشاط الرياضى الذى كان الغرض الأساسى من مثل هذه الأندية بعدا تربويا جديدا».

وهو يشير باعتزاز إلى بذور التربية السياسية الحسنة التى تلقاها فى هذه الجمعية:

«على أن أهم وأكبر استفادة من هذه التجربة، هو ما أثاره تعرضى للعمل مع الجماعة من فهم للطريقة التى ينبغى أن تدار فى إطارها أعمالها وشئونها حتى تأتى القرارات المنظمة لها مقبولة ومعبرة عن إرادتها. وهكذا عرفت طريق الديمقراطية وكيفية إدارة الاجتماعات ووضع جدول أعمالها وإدارة المناقشات حول الموضوعات المطروحة عليها وطريقة عرض الاقتراحات ومشروعات القرار بشأنها وأخذ الأصوات عليها».

(٤٦)

كذلك يشير الدكتور رشدى سعيد إلى العناية التى أولتها هذه المؤسسة التربوية للرياضة البدنية، وهو ما انعكس بدوره على تكوين شخصيته بعيداً عن خطايا المراهقة والشباب:

«ولم يقلل هذا النشاط الاجتماعى من اهتمامى بالرياضة البدنية التى

كانت من أهم الأنشطة التى أخذت منى معظم وقتى حتى أصبحت لاعبا على قدر كبير من المهارة فى لعبتى كرة السلة والفولى بول، وعلى قدر أقل فى لعبة التنس، وبلغت مهارتى فى لعبة كرة السلة أننى كنت أحد أعضاء الاحتياطى للفريق المصرى لكرة السلة فى أوليمبياد برلين سنة ١٩٣٦. وقد ساعدنى هذا النشاط المكثف على اجتياز مرحلة المراهقة دون الانزلاق فى المشاكل التى يمكن أن تأتى معها، خاصة فى الوقت الذى نشأت فيه عندما لم تكن هناك فرص كثيرة لمقابلة الجنس الآخر. كما ساعدنى على إيجاد مخرج لقدراتى الابتكارية التى لم تجد لها متنفسا فى المدرسة الثانوية العامة التى كان التلقين والضبط والربط أهم ما يميزها».

وهو يلخص مشاعره وذكرياته عن تجربة يعقوب فام فيقول:

«ويمكننى القول هنا إن اشتراكى فى تجربة يعقوب فام الفذة كان له أكبر الأثر فى تكوينى. ففيها تعلمت أصول الحوار، وقبول الآخر واحترامه، والعيش فى جماعة، والالتزام بالمواعيد، وتحمل المسئولية وأخذها بجد، والتيقن من أن خير الفرد هو فى خير الجماعة، وكان هذا التعليم يتم فى يسر وفى جو من البهجة على الرغم من التنافس الكبير بين الأعضاء المشاركين فى التجربة».

(٤٧)

والشاهد أن حديث رشدى سعيد المعتز بفترة نشأته فى عصر الليبرالية لا يقف عند حدود السعادة بفرص التربية والتعليم التى أتيحت

له، لكنه يتعدى هذا إلى ما هو أبعد من هذا أثراً، وتنبئنا مذكرات الدكتور رشدى سعيد بكل وضوح عن تقديره التام للتقدم الاجتماعى الذى كانت مصر قد حققته فى مجالات كثيرة بالمواكبة لثورة ١٩١٩:

«..... وعشت السنوات الأولى من حياتى وقت النهضة الكبرى التى أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ فى كل مناحى الحياة فى مصر، وموجة الأمل التى جاءت مع نجاحها فى وضع دستور يقيد سلطة الملك ويعطى الحق للناس - لأول مرة - فى أن يشاركوا فى حكم بلادهم وأن يختاروا لأنفسهم رئيس حكومتهم وعلى الرغم من الانقلابات التى حدثت لسلب هذا الحق، فإن الأمل لم يخفت، وظل مع الناس على طول فترة صباى وحتى سنوات الشباب».

(٤٨)

ويبدو لى واضحا أن الدكتور رشدى سعيد كان قد اكتشف ، قبيل كتابته لمذكراته، حقيقة أن الأزمة ليست إلا أزمة الصف الأول من السياسيين والقادة، ومدى إيمانهم الحقيقى بالديمقراطية والليبرالية والوطنية، وإن كان لم يعبر عما اكتشفه من حقيقة فى هذا الصدد مؤثراً أن يلجأ إلى بعض التهويمات العمومية من قبيل تلك القائلة بتصاعد المد الإسلامى(!!) وهو على سبيل المثال يتحدث عن تقدم مصر فى ظل النهضة الكبرى التى أحدثتها ثورة ١٩١٩ويردف هذا بالحديث عن موقف أسرته ووالده من النهضة ، وهو ما أثر بالطبع فيه وفى سلوكه:

«... ولم يكن أبى غـريبا فى هذا الاتجـاه، فقـد كان يمثل جـيله الذى نشأ فـى حضن الحركـة القومـية المصـرية التى بدأت خافـتة فى أواخر القرن التـاسع عشر وأصبحت ركـيزة الحركة الوطنية ومحـركها الأساسى عند قيام ثورة سنة ١٩١٩، وقـد نجحت الحركة فى أن تجعل المصـريين يستـمـدون هويتهـم من الانتمـاء للوطن، وفى تدعـيم بناء الجماعة الوطنية. وقد شارك أبى فى أفكاره معظم من عمل فى الحركة الوطنية، وساهم فى إنهاء الاحتلال من أرض مصر».

(٤٩)

والواقع أن رشدى سعيد ، الذى قـد يقدم على أنه صورة لليسارى التقليدى فى عصر السـتينيات والسبعينيات وما بعـدها، يفاجئنا بقصائد مديح عـالية القيمـة والمضمون تحـدثنا عن سعد زغلول حـديث المتيم الذى لا حدود لإيمانه بقدرة هذا الزعيم وفضله على الحركة الوطنية:

«تفتـحت عيناى عند مـولدى فى سنة ١٩٢٠ على النهضـة الكبرى التى أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ القومية، التى قادها سعد زغلول، ذلك الزعيم الفـذ الذى استطاع أن يأسر قلوب الأمة التى وكلتـه بالنيابة عن جميع أبنائها وبناتها للمطالبة بالاستقلال من الاحتلال البريطانى، الذى كان يجثم عليها ولتحـريرها من استبداد الحكام الذين كانوا يجدون من الاحتـلال سندا، كنت طفـلا عندما كـان الجمـيع يتحـدثون عن هذا الزعيم الذى مـلأت صوره منزل عائلتى، ولـم يكن هناك من حديث يدور إلا ويتطرق فى النهاية إليه وإلى الاستقلال الذى تطلع إلى تحقيقه الجميع كخطوة أولى لانطلاق مصر وتحريرها من الاستبداد».

ويدلنا رشدى سعيد على مدى التوحد الذى كان المصريون من جيله يشعرون به تجاه زعامة سعد زغلول، حين كانوا يرونه أباً لهم، حتى أنهم شعروا باليتم عند وفاته:

«كان سعد زغلول بمثابة أب ثان لى، فقد كانت صوره تطل فى حنو بالغ، وكان الحديث عنه ينبئنى بأنه لابد أنه كان حبيب كل مَن كانوا حولى، ومازلت أذكر حتى اليوم الحزن الكبير الذى خيم على عائلتى عندما جاءها نبأ وفاة هذا الزعيم فى أغسطس سنة ١٩٢٧، ونحن بالمصيف برمل الإسكندرية، مما دفع أبى وهو يجهش بالبكاء للعودة إلى القاهرة للمشاركة فى العزاء فيه».

(٥٠)

بل إن رشدى سعيد يقدم فى مذكراته تحليلاً دقيقاً للفارق الكبير بين ما عاشه هو نفسه من نشأة واعدة فى ظل الليبرالية وزعامة سعد الواثقة، وبين كهولة معذبة فى ظل الثورة وقادتها، وهو ما يجعلنا نتساءل عن جدوى ذلك العنوان الفرعى الذى أقحم على المذكرات وعلى روحها، وعن أحقية عنوان آخر يوحد اسمى عبد الناصر والسادات ، اللذين وضعا فى كفتى مقارنة فى العنوان الفرعى ، ويضع بديلاً عنهما سعدا فى كفة، ورؤساء ثورة ١٩٥٢ فى كفة أخرى:

«كانت نشأتى فى ظل ثورة سنة ١٩١٩، التى حركت المصريين

وأعادت لهم الثقة بالنفس والاعتزاز بهويتهم القومية التى أوشك الاستعمار العثمانى البغيض الذى جثم على الصدور لأكثر من أربعة قرون أن يطمسها ، وأن يئد ظهورها حتى ولو أدى الأمر به إلى الاستعانة بالإنجليز لاحتلال بلادنا(!!!)».

على هذا النحو يبث رشدى سعيد ما يشاء من تصوراته للتاريخ وسط كلامه بثاً متقناً.

ونمضى معه حيث يقول:

«كان عقد العشرينيات من القرن العشرين الذى نشأت فيه عقد نهضة شاملة فى مصر، لعله كان من أفضل عقود هذا القرن. ففيه تأصل الفكر السياسى الليبرالى الذى عبرت عنه النخب المصرية فى دستور ١٩٢٣، بل وفى محاضر جلسات اللجنة التى تشكلت لوضع هذا الدستور والتى تميزت بفكر سياسى رفيع أدخل على مصر الكثير من المبادئ المتقدمة التى أقرت حقوق الإنسان وساوت بين المواطنين أمام القانون بغض النظر عن أصولهم أو دياناتهم، وكفلت لهم حرية العقيدة والتعبير، وضمنت لهم المشاركة فى حكم بلادهم بتقييد سلطة الملك وإقرار مبدأ التمثيل النيابى بحيث لا يقوم تشريع إلا بموافقة نواب الأمة المنتخبين انتخابا حرا ومباشرا».

(٥١)

ويشير رشدى سعيد إلى مدى النجاح الذى حققته الليبرالية المصرية فى تلك الحقبة فى تأكيد هوية الشعب وإيمان الشعب بهذه الهوية،

ويلتفت فى ذكاء العـالم إلى القيمة الحقيقـية فى نجاح النوابغ فى ذلك الجيل، متخذاً من الفنان محمود مختار نموذجاً لهذا النجاح العبقرى:

«... وفى هذا العـقد [أى عقـد العشـرينيات] زاد وعى المصـريين بتاريخهم المجيد والتليد، الذى كانوا قد نسوه، وساعد على إحياء هذا الوعى كـشف آثار توت عنخ آمـون بوادى الملوك بالأقـصـر فى أوائل العقد، مما بهـر الأبصار وبعث فى المصريين الفخـر والاعتزاز بالوطن والأجداد، وشحذ فيهم الهمة لاقـتحام الكثير من ميادين الفن والأدب والعلم التى كـانوا قـد أهملوها، فلمـعت أسمـاء كـثيـرة حلقت فى الآفاق، وإذا أردت أن أختـار واحدا فقط على سبيل المثـال لا الحصر، ليـوضح قدر الدفـعـة الهائلة التى جـاءت بهـا ثورة سنة ١٩١٩، لما وجدت أفضل من مـحمود مختار،الذى حلق فى مـيدان النحت،وكان أول مصرى ينحت تمثالا بعد توقف دام لأكثـر من عشرين قرنا، فأعاد إلى مصـر فنا كان المصريون رواده الأوائل. وفى هذا العقـد أيضا برع المصـريون فى الفنون التشكيـلية والغناء، واقـتحـموا مـيادين المسـرح والسينما والقصص والأدب والعلم والصحافة اليـومية والأسبوعية، ولو أراد واحد أن يقـيس مقـدار ما أثارته الثورة من همـة، وما فـعلته فى وجدان الشعب لما وجـد أفضل وأصدق تعبيرا من أغـانى سيد درويش ابن هذه الثورة».

(٥٢)

ونحن نرى الدكتور رشدى سعيـد منحازا كل الانحياز إلى «الوفد» وإلى تراثه النضالى، وإلى نجاحاته السياسية والاجتماعية، وهو بعد أن

مضى الزمن يؤكد على ما كان قد آمن به فى شبابه، وما تحمس له، وما ظل على اقتناعه به:

«. . . وكان لحزب الوفد الذى قاد حركة الاستقلال وثورة سنة ١٩١٩ تأييد شعبى كاسح، وكانت عائلتى من أشد المؤيدين له، فقد كان بالنسبة لها الملاذ ومحط الأمل فى الوطن الكريم، وكانت على ولاء تام له ولقائده سعد زغلول، ومن بعده مصطفى النحاس، لم تغيره الانشقاقات التى حدثت له بخروج مجموعة الثمانية من قياداته فى أول ثلاثينيات القرن العشرين، أو مجموعة أحمد ماهر والنقراشى فى آخرها، أو مكرم عبيد فى أول الأربعينيات. وكانت هذه الانشقاقات بالنسبة لعائلتى ولى بمثابة الخروج عن إرادة الشعب والارتماء فى أحضان الملك».

. . . .

وهو يشير بكل شجاعة إلى أن عائلته لم تكن راضية ولا سعيدة بسلوك الزعيم الوفدى مكرم عبيد حين خرج على الوفد:

«وتسبب خروج مكرم عبيد وقبوله التحالف مع أحزاب الأقلية والقصر فى أكبر الأسف لدى عائلتى، فقد كانت تعتبره رمزا لوحدة الوطن، وتسبب استخدامه لشعبيته ولاسمه فى التشنيع على حزب الوفد بإصدار الكتاب الأسود الذى ضمنه وقائع فساد ذكر أنها حدثت وقت حكومة الوفد فى أكبر الغضب لدى عائلتى. فقد جاء توقيت الكتاب سيئا وفى وقت كان حزب الوفد فيه هو الملجأ الأخير للوقوف

أمام الحركات الفاشية التى ازداد نشاطها على الساحة السياسية فى مصر وقت الحرب العالمية الثانية».

(٥٣)

وعلى هذا النحو يمضى رشدى سعيد فى التعبير عن تقديره العميق لمجمل تاريخ مصطفى النحاس وإنجازاته، وهو يقدم ما يعبر به عن هذا التقدير فى إطار فهم عميق لحركة السياسة:

«... ولم يتغير ولاء عائلتى لحزب الوفد أو لزعيمه مصطفى النحاس بسبب أى من قراراته التى كانت مصدر غضب الحركات الفاشية أو المتطرفة مثل إمضائه لمعاهدة سنة ١٩٣٦ مع ممثلى الأحزاب الأخرى مع الإنجليز، فقد اعتبروها فى وقتها خطوة نحو الاستقلال. كما أننا لم نشارك غلاة الوطنيين غضبهم الذى صبوه على مصطفى النحاس بسبب قبوله منصب رئيس الوزراء، بعد أن أجبر الإنجليز الملك على تنصيبه فيه بعد أن حاصروا قصره بالدبابات فى فبراير سنة ١٩٤٢، فقد اعتبرنا أن التدخل كان بسبب حماقة الملك وتحديه إرادة الشعب، فصببنا جام غضبنا عليه واعتبرنا التدخل محمودا من حيث إنه أعاد الشرعية للحكم والاستقرار للبلاد، ومع ذلك فقد كان لهذا الحادث، بالإضافة إلى سلسلة التنازلات التى قام بها حزب الوفد للملك وللإنجليز خلال الحرب العالمية الثانية أكبر الأثر فى اهتزاز صورة الحزب عند الكثير من الشباب، إلا أن شعبيته ظلت كاسحة حتى خروجى من مصر فى بعثتى العلمية فى سنة ١٩٤٥».

وفى عبارات مفعمة بالذكاء يعبر رشدى سعيد عن الدور الذى لعبته روح النهضة فى تشكيل وعيه ووعى جيله وتوجيه هذا الوعى إلى أهمية الانفتاح على الحضارة الحديثة، وعلاقة هذا الانفتاح الوثيقة بحب الوطن:

«وكانت الوطنية التى جاءت بها ثورة سنة ١٩١٩ سمحة وغير متعصبة ومفتوحة على العالم وعلى مختلف الثقافات، استلهمت دستورها من مبادئ نقلتها عن أوروبا بعد أن خرجت من عصرها الوسيط والتى كان من أهمها تأكيد الهوية القومية والاعتزاز بالتاريخ، لذا فلم يشكل الانفتاح على الحضارة الحديثة أية مشكلة بالنسبة إلى الجيل الذى أنتمى إليه، وكان الانفتاح عليها هو الطريق للتعبير عن حب الوطن وخدمته، ولم يكن هناك أى طريق آخر لرفعة شأن الوطن غير الأخذ بمنهج العلم الحديث الذى هو سمة هذه الحضارة التى كنا نسعى إليها لنتعلمها لكى ننقلها إلى بلادنا».

. . . .

وبعد فقرات عديدة يعاود رشدى سعيد الإشادة بمناخ إجماع الأمة تحت راية الوفد ويقول:

«. . . وفى فترة المد الوطنى التى جاءت مع ثورة سنة ١٩١٩ وصدور دستور سنة ١٩٢٣، وحتى خروجى إلى البعثة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، كان هناك اتفاق بين كافة المصريين يكاد أن يشبه الإجماع على مبادئ عامة وأهداف محددة جمعت صفوف الأمة فى

رباط متين، ولم يحدث فى هذه الفترة ما عكر صفو هذه الوحدة،فقد كانت القيادة واعية تماما بما يمكن أن تسببه الفتنة بين الصفوف على مستقبل الأمة وعلى قدرتها على مواجهة المستعمر الغاشم. وإنه لمن محاسن الصدف أن كانت سنى تكوينى فى هذه الفترة التى عشت فيها دون أى إحساس بأنى غريب فى بلادى، أو أنى مختلف عن أى شخص آخر،فقد عشتها مواطنا ككل المواطنين، أتمتع فيها بجميع الحقوق، ولم أشعر أبدا أن حقوقا قد منعت عنى بسبب أنى على غير ديانة الأغلبية. كما أنى لم أشعر أنى عوملت معاملة مختلفة فى المدرسة أو الجامعة،أو فى مبدأ حياتى العملية بسبب أنى من الأقباط. وقد سافرت فى بعثة علمية على حساب الحكومة المصرية، ولما عدت منها فى سنة ١٩٥١ كانت الأحوال قد تغيرت، والتوتر شديدا، وعلامات الغضب والإحباط فى كل مكان، وأصوات التمييز على أساس الدين ترتفع بين الحين والآخر دون خشية أو خجل».

(٥٥)

ويشير الدكتور رشدى سعيد بكل وضوح إلى أنه لم ينضو فى التنظيمات الماركسية فيما قبل الثورة على الرغم من تردده على دار الأبحاث العلمية فى حى المنيرة فى القاهرة، وهو مع هذا يعترف بأنه أفاد من الفكر الماركسى ومن طريقته فى الربط بين العلم والمجتمع الإنسانى، وهو يقول فى كل وضوح:

«لم أكن عرف أن هذه الدار كانتا أيضا مكاناً لاجتذاب الشباب للدخول فى التنظيمات الشيوعية السرية، التى كان يجرى بناؤها فى ذلك الوقت، وقد حاول البعض بالفعل إدخالى فى هذه التنظيمات،

إلا أني وبعد أول اجتماع قررت الابتعاد كلية عنها فلم أستطع قبول قواعد هذه التنظيمات الصارمة، فقد كانت تنشئتى كما بينت ليبرالية لا تقبل الخضوع المطلق لأى فكر، فقد كانت حرية الفكر والحركة أحد أهم الثوابت التى تربيت عليها، وهكذا أفلتُ من قبضة هذه التنظيمات، وإن كنت قد استفدت كثيرا من الفكر الماركسى، فقد وجدت فيه تطبيقا لمنهج العلم لفهم حركة الحياة العامة والمجتمع الإنسانى».

(٥٦)

ويروى الدكتور رشدى سعيد فى هذه المذكرات أنه هو نفسه حاول بناء تنظيم لأساتذة الجامعات فى عهد الرئيس عبد الناصر، لكنه سرعان ما يعبر عن إحباطه بسبب عدم نجاح مسعاه فى تأسيس هذا التنظيم، وهو يقدم أسباباً منطقية لهذا الإخفاق الذى لم يكن يتوقعه، لكنه لا يروى أسماء بعض أعضائه ولا يذكر القيادة التى كانت تشرف عليه وتربط علاقته بالرئيس، ويبدو أن الوقت لم يحن بعد كى يصرح الدكتور رشدى سعيد بمثل هذه التفصيلات:

«... وأخذت عملى فى أمانة الجامعات مأخذ الجد، وبدأت اتصالات مكثفة مع عدد كبير من أساتذة الجامعات كنت أجتمع بهم دوريا فى نادى مجلس الأمة، الذى كان يشغل أحد القصور الجميلة التى بنيت فى أول القرن العشرين بحى جاردن سيتى بالقاهرة، والذى لم يكن قد عرف طريقه الكثيرون عندما كنا نستخدمه، وأتاح لى هذا

العمل التعرف على عدد كبير من الأساتذة، الذين حاولت أن أبنى معهم تنظيما يكون بمثابة مصنع للفكر يتيح للمثقفين المشاركة فى بناء بلادهم، ويجسر علاقتهم مع رجال الحكم، ولم يقدر لهذا العمل أن ينجح».

. . . .

ثم يقدم رشدى سعيد تشخيصاً دقيقاً موجزاً لحالة التنافر بين هاتين المجموعتين اللتين كان يظن نفسه قادراً على أن يجسر العلاقة بينهما:

«. . . . . فمن جهة كان معظم الأساتذة متوجسين من الثورة وغير مطمئنين لها، ولا يريدون أن يقحموا أنفسهم فى أى عمل معها، ومن جهة أخرى فقد كانت معظم قيادات الثورة غير راغبة فى إجراء الحوار أو فى الأخذ والعطاء مع المثقفين كما تصورت، بل كانت غايتهم هى بناء تنظيم طليعى سرى من بعض التابعين لهم من الأساتذة يمكن به إحكام القبضة على الجامعة ومعرفة أى نشاط مضاد يجرى فيها، أما الحوار وبناء مصانع الأفكار فلم يكن واردا عندهم».

(٥٧)

وسرعان ما يعترف رشدى سعيد بأسفه وحزنه عندما علم أن هناك تنظيماً آخر كان يتم بناؤه بينما هو لا يعرف، وبينما هو يتصور نفسه صاحب الأمر الأول والأخير فى بناء تنظيم رجال الجامعات، ومن الطريف أن علم رشدى سعيد وفكره لم يجعلاه يتصور إمكانية أن يكون واحداً من المجربين، وإنما ظن نفسه فى منزلة المختار الأوحد،

ولهذا فإنه وقع فى الإحباط بسهولة، وهو يعبر عن هذا الإحباط الشديد فيقول:

«وعلى الرغم من أن هذا التنظيم السرى الموازى كان يجرى بناؤه وقت أن كنت أمينا للجامعات، إلا أنه أخفى عنى كلية، فقد كان واحدا من تلك التنظيمات الخفية التى كان المشير عبد الحكيم عامر وزير الحربية فى ذلك الوقت وجهاز مخابراته الرهيب ينشئونها فى سرية(!!)».

. . . .

هكذا يقول الدكتور رشدى سعيد ونحن لا نعرف من أين اكتشف هذه الحقيقة، ولا كيف تصورها بمثابة الحقيقة الوحيدة، وهو الذى كان حتى ذلك الوقت يؤمن بحقيقة أخرى على أنها الحقيقة الوحيدة:

«ولا أعرف إن كان هذا التنظيم الموازى معروفا للرئيس عبد الناصر أو للأمين العام للاتحاد الاشتراكى أم لا، ولكن الذى أعرفه هو أن جميع رجال هذا التنظيم أصبحوا من النجوم اللامعة فيما تلا ذلك من أيام. فكان منهم الوزراء ورؤساء مجلس الشعب وغيرهم من الشاغلين لأكبر الوظائف».

. . . .

هل أحس القارئ بشىء من الندم فى هذه الجملة الأخيرة على نحو ما أحسست؟!

ربما كان من الأوفق أن نمضى مع نص الدكتور رشدى سعيد لنرى هذا الندم وقد تجسد فى صور أخرى.

(٥٨)

نرى تشخيص رشدى سعيد لأزمة الجامعة المصرية فى الستينيات قريبا من الدقة، لكنه فى ظل حرصه على عدم إغضاب الناصريين ومَنْ احتكروا الناصرية من أصدقائه وأشقاء أصدقائه سرعان ما يلجأ إلى لى الحقيقة وتصويرها وكأنها سر كان يقتضى البحث والمناقشة، بينما الحقيقة ساطعة أمام عينيه، بل إنها بارزة من خلال سطوره هو نفسه على نحو ما نقرؤها:

«أما التنظيم الذى كنت آمل أن أبنيه، فقد كان مبنيا على الحوار والأخذ والعطاء حول قضايا الوطن، التى رأيت أن أبدأها بقضية الجامعة التى كانت تشغل بال الأساتذة والناس، فقد كان عقد الستينيات من القرن العشرين عقدا عصيبا على الجامعات، ففيه زاد عدد الطلاب دون أن تتطور الجامعة لمقابلة هذه الزيادة، مما أحدث فيها الكثير من التشوهات التى أصبحت حديثا للناس، وبدأت الحوار بمقال نشر بجريدة الأهرام فى ١٩٦٥/١/١٧ حاملا بعض المقترحات التى تقدمت بها لتطوير الجامعة، لتتواءم مع الأعداد الوافدة إليها لكى تصبح «جامعة الأعداد الكبيرة» كما أطلقت عليها فى هذا المقال، وذلك بتغيير هدفها بحيث تصبح مهمتها حتى مستوى شهادتها الأولى إعداد خريج ذى ثقافة عامة وحرة، تؤهله لشغل باقة من الوظائف التنفيذية بقليل من التدريب، فمثل هذا الإعداد سيعطى للخريج فرصا

أوسع لإيجاد عمل له فى عالم متغير، كما سيعطى الجامعة فرصة إعادة تنظيمها لكى تتمكن من العيش فى إطار ميزانية محدودة، تتيح توجيه الجزء الأكبر منها إلى كليات الدراسات العليا التى اقترحت إنشاءها لتدريب خيار الخريجين، لكى يصبحوا الإخصائيين الذين سيقومون بقيادة البحث العلمى اللازم لتطوير البلاد».

. . . .

ربما جاز لى أن أعجب من أن يكون حل مشكلة الجامعات المصرية المعاصرة ممكناً من خلال هذا السطر الواحد أو السطرين اللذين جاءا فى مقال رشدى سعيد فى «الأهرام» فى يناير ١٩٦٥!!

ومن العجيب أننا طيلة أربعين عاماً لم نتنبه إلى قيمة هذا الترياق البسيط.

(٥٩)

ثم إننا نرى الدكتور رشدى سعيد يشير إلى ما يتصور أنه كان بمثابة بدء للصراع بينه وبين مجموعة أخرى من زملائه(!!) لا يسميها لكنه يحرص على أن ينتقدها:

«. . . واستجاب الأساتذة للحوار، وأدرنا نقاشا شارك فيه ما لا يقل عن خمسين أستاذا جامعيا على صفحات الأهرام، لخصت أهم حصيلته فى مقال صدر لى بتاريخ ٦/ ٣/ ١٩٦٥ بالأهرام تحت عنوان «الباب المفتوح والباب المسدود».

«وأكد المقال، والحوار الذى جرى فى أعقابه، مخاوف التنظيم الموازى الذى كان يعمل فى الخفاء، والذى كان أعضاؤه يحضرون اجتماعاتنا بين الحين والآخر من باب الفضول أو من باب نقل ما يدور فيها من أفكار، من أن التنظيم الذى كنا نبنيه قد يسحب البساط من تحت أقدامهم، فزاد الهجوم علىّ وأصبح شرسا عندما جندت الأجهزة له».

هكذا كان لكل تنظيم تنظيم آخر يراقبه ، بينما بعض الأساتذة حسنى النية من طراز رشدى سعيد يظنون أن بالإمكان أن يكون هناك أمل.

(٦٠)

يصل رشدى سعيد إلى الاعتراف بأن ممارسته للسياسة على هذا النحو «الناصرى» جعلته يصاب بمرض القلق وأنه أصبح يتعاطى الدواء من أجل علاج هذا المرض، ونحن نصدقه فيما يقول، ونعرف دوافعه إلى البقاء بالقرب من مسببات المرض على الرغم من معرفته بجدوى الابتعاد، لكنها النفس البشرية:

«وقد سببت ملاحقات هذه الأجهزة لى أكبر الإزعاج، وألجأتنى - لأول مرة فى حياتى - إلى استخدام حبات الفاليوم المهدئة. فقد أصبحت منذ ذلك التاريخ تحت المراقبة المستمرة، وموضوعا للتقارير الكثيرة التى أوكلت كتابتها لمن جندوا من موظفى مكتبى الذين كانوا من أقرب الناس لى فى العمل، أو من بين أعضاء مجلس الشعب

الذين كانوا يلحقون لهذا الغرض بالوفود البرلمانية، التى كنت دائم الانتظام فيها، وأتيحت لى فرصتان فريدتان لكى أطلع على بعض هذه التقارير، والتى لم يكن يدور بخلد كاتبيها أنها كانت ستقع فى يدى، وقد أعدت وبكل أسف هذه التقارير إلى مَنْ حولوها إلىّ دون أن أقوم بتصويرها، ولو كنت قد فعلت ذلك لما ترددت فى نشرها على الملأ حتى يتبين للناس إسفافها ومستواها الركيك، ونتائجها التى لا تتفق والمقدمات التى بدأت منها».

(٦١)

ونحن نرى الدكتور رشدى سعيد مع كل هذا الألم ومع كل هذه المعاناة يشعر بالأسف الشديد لفقدانه موقعه فى الاتحاد الاشتراكى ، وكأنه لا يدرى حقيقة أن ما جاء بقرار يذهب أيضاً بقرار:

«. . . وأدت هذه الجهود المكثفة إلى اقتلاعى من عضوية الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى. فبعد أقل من السنة من صدور قرار تعيينى بها، وجدت نفسى مطرودا منها بعد أن أعيد تشكيلها، ولم يرد اسمى بين أعضائها، وجاء قرار إبعادى مفاجئا وبلا مقدمات، ولم يخبرنى أحد بالسبب الذى من أجله تم إبعادى ولم آبه لمعرفته، وبذا كسرت تقليدا كان أصحاب الأمر ينتظرون أن أفعله، وهو أن سعى إليهم وأقف أمام أبوابهم مستعطفا وطالبا العفو عما يمكن أن يكون قد بدر منى، مؤكدا ولائى، وهذا التقليد الذى لا يزال مستمرا حتى اليوم يفسر

الرجوع المتكرر للكثيرين إلى ميدان العمل السياسى، بعد خروجهم منه لفترات طالت أو قصرت».

(٦٢)

ربما كان من الضرورى، بعد كل هذه المعاناة، أن نطلع القارئ على ما يرويه الدكتور رشدى سعيد عن بداية الفرصة التى أتيحت له ليصبح واحداً من رجال النظام، بدءا من أوائل الستينيات حيث شارك فى أعمال اللجنة التحضيرية والمؤتمر القومى للميثاق القومى وهو يقول:

«وفوجئت [كم يستخدم هذا الفعل فى غير المعنى الذى خلق له] بوجود اسمى بين أعضاء كل من اللجنة والمؤتمر اللذين انعقدا فى سنتى ١٩٦١ و١٩٦٢ على التوالى».

. . . .

«وكان المقصود من عمل اللجنة التحضيرية، استبعاد القيادات القديمة وإعداد قيادات جديدة من المستفيدين من القوانين الاشتراكية تمهيدا لدفعهم لخدمة معركة الانتخابات لمجلس الشعب، الذى كان يجرى الإعداد لإقامته، وتمخض اجتماع اللجنة التحضيرية بالفعل عن «عزل» الكثير من القيادات القديمة، ودفع قيادات جديدة من بين العمال والفلاحين ممن استفادوا من الثورة، والذين تقرر حجز نصف عدد مقاعد المجالس الشعبية المنتخبة على الأقل لممثليهم».

«أما المؤتمر العام فقد استهدف وضع ميثاق يكون أساسا لإنشاء

تنظيم سياسى كان يؤمل أن ينضم تحت لوائه كل قوى الشعب العاملة، وهكذا ظهر الاتحاد الاشتراكى الذى لعب دورا مهما فى توجيه شئون الأمة حتى تم حله فى منتصف سبعينيات القرن العشرين».

(٦٣)

كما نرى الدكتور رشدى سعيد يشير بقدر من السعادة إلى اختياره عضوا فى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى فى ١٩٦٤ حيث ظهر نجمه السياسى، وهو فيما يرويه يتصور [أو يصور] أن السبب فى صعوده كان تلك المناقشة التى أدارها مع الرئيس عبد الناصر، وكان جوهرها (فيما يرويه) هو مطالبته بعودة النظام الديمقراطى فى مصر.

ومن الطريف أن رشدى سعيد فيما يرويه يظهر امتنانه للمهندس سيد مرعى الذى نصحه بطريقة ذكية بالتريث فى عرض أفكاره وصياغتها وحذره من الاندفاع، وقد لجأ إلى مثل ريفى ليعبر عن المعنى المقصود بدقة!! ويبدو أن تعبير سيد مرعى كان دقيقاً:

«... وحدث فى الاجتماع الأول للأمانة العامة أن أجريت مناقشة مع جمال عبد الناصر، أخذت فيها وأعطيت معه عن أهمية العودة إلى النظام الديمقراطى فى مصر، وأثارت هذه المناقشة دهشة جميع المجتمعين حول منضدة الاجتماع، الذين لم يعتادوا أبدا على هذا النوع من الحوار مع الرئيس، وأخذوا يتساءلون عمن يكون ذلك القادم الجديد الذى جاء ليأكل منهم الجو، وعمن يكون سندى، وجاءنى المهندس سيد مرعى عضو الأمانة وممثل قطاع الرأسمالية الوطنية فيها

بعد الاجتماع مشفقا، لينصحنى بأن آخذ الأمور بهدوء وألا «أنطح أول ما أشطح» حسب تعبيره».

(٦٤)

وفى مقابل هذا الامتنان الخفى لسيد مرعى فإنه يروى أن على صبرى أمين التنظيم لم يكن سعيدا به، وأن هذا الرجل عالج الأمر على طريقته بأن سعى لتعيين أستاذ آخر من أساتذة الجامعة فى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى، ويفاجئنا رشدى سعيد فى وسط هذه الرواية بما يوحى أنه كان محسوباً على محمد حسنين هيكل، وكأنه يريد أن يقول إن هيكل هو الذى دفع به إلى هذا الموقع:

«وهكذا بدأت الزوابع تهب علىّ من كل جانب، ورأى الأمين العام للاتحاد الاشتراكى أن يظهر لعبد الناصر أنى لست الوحيد بين أساتذة الجامعة ممن لديهم العلم والفكر، وأن هناك مَنْ هم أفضل منى، فدبر تعيين عضو جديد من أساتذة الجامعة فى الأمانة العامة بعد أقل من شهرين من تشكيلها، وشن الأعضاء ممن كانوا يكرهون محمد حسنين هيكل هجوما علىّ خلال الاجتماع الثالث للأمانة، خفف من حدته ما لاحظته من عطف أبداه علىّ الرئيس جمال عبد الناصر».

(٦٥)

ويشير رشدى سعيد إلى ما أصبحنا نعرفه الآن عن طبيعة الصراعات فى مثل هذه الكواليس، وهى صراعات ضعيفة المضمون، خبيثة الأداء، ومن المدهش أن هذا الرجل يروى أنه عمل أمينا للجامعات

بتكليف من عبد الناصر دون أن يوافق على صبرى على ذلك.

ومن المدهش أيضاً أن هذا الرجل يحرص على أن يصور عبد العزيز السيد طرفاً فى الصراع معه، مع أننا قرأنا له فيما نقلنا عنه فى هذا الباب امتنانه لدور عبد العزيز السيد الاستثنائى فى ترقيته إلى درجة أستاذ كرسى، وكأنما كان هذا الرجل يعامل الوزير بازدواجية منطقية لكنها رهيبة تشكره على ما يستحق الشكر، وتلومه حين ترى حين تحس بالإحباط لفشله فى تحقيق أمنيته، وتصويره أن الوزير ربما كان طرفا فى هذا:

«... وزاد من حدة الهجوم ما شاع عن أنى أعد لتولى وزارة التعليم العالى، وهى الشائعة التى ظهرت بعد أن طلب الرئيس عبدالناصر منى أن أتولى أمانة الجامعات بالاتحاد الاشتراكى، وهو الطلب الذى لم يترجم أبدا إلى قرار إدارى من الأمين العام بتولى هذا المنصب، وإن كنت قد باشرت شئونه وأعد لى مكتب لذلك الغرض بمقر الاتحاد الاشتراكى العربى بسراى عابدين بالقاهرة. وقد أثارت هذه الشائعة علىّ ثائرة وزير التعليم العالى وقتها المرحوم الدكتور عبدالعزيز السيد، وكان رجلا شديد المراس لا يستهان بصلاته أو بمقدرته على قلب المناضد، وكان صديقه المرحوم المهندس أحمد الشرباصى وزير الأشغال وعضو الأمانة العامة عينه فى اجتماعاتها».

. . . .

ربما كان لنا أن نعقب بأن نقول بأن مقام الشرباصى كان أكبر من أن

يكون عيناً لعبد العزيز السيد، وإن لم تمنع الصداقة بين الرجلين من أن يفيدا من مثل هذه الظروف.

(٦٦)

والواقع أن مذكرات الدكتور رشدى سعيد تجيد إلى حد كبير تصوير الجو السياسى العكر أو المتعكر الذى شارك فيه منذ ١٩٦٤ منذ أن اختير عضوا فى مجلس الأمة (ثم مجلس الشعب)، وهو يصف بطريقة يسارية (وبمفردات يسارية أيضا) طبيعة الطبيعة السياسية الجديدة فى عهد الثورة وما أدت إليه هذه السياسة من ابتعاد كامل للأقباط عن النفوذ إلى المواقع البرلمانية، وربما جاز لنا أن نذكر الدكتور رشدى سعيد بما لم يكن يعرفه وبما يبدو أنه لايزال جاهلاً به، وهو أنه كان فى وسع أجهزة الثورة فى ١٩٦٤ أن تمرر نجاح أكثر من عشرين قبطيا يصلون إلى مجلس الأمة من خلال الانتخابات، وما كان أسهل هذا على أجهزة الثورة، لكن الحقيقة أن هذه الأجهزة لم ترد هذا التوافق، ولم يكن وارداً عندها أن تفكر فيه، لأنها كانت تريد الصورة التى كرستها منذ انتخابات ١٩٦٤ البرلمانية، وهى أن يكون وصول الأقباط إلى البرلمان من خلال الإنعام الرئاسى، ومن الإنصاف أن نقول إن الانتخابات لو كانت حرة حرية حقيقية لأسفرت عن فوز بعض الأقباط فى كثير من الدوائر، وقد كان هناك من نجوم عهد الليبرالية الأقباط وأبنائهم وأفراد عائلاتهم مَنْ كانوا لايزالون قادرين على اجتياز مثل هذه الانتخابات بنجاح ساحق، لكن أجهزة هذه الحقبة لم تكن تريد أبداً مثل هذه الوجوه، ولا مثل هذه الأسماء، ولامثل هذا التوجه ،

وكانت قد اكتفت طيلة حقبة الستينيات بالكمالين كمال رمزى استينو، ثم كمال هنرى أبادير، وكان هذا فى تقديرها كافياً لإرضاء الأقباط وإكمال الديكور أمام الخارج، ومع هذا فإن رشدى سعيد يبدو وكأنه يصدق ما صورته أجهزة النظام من صعوبة نجاح الأقباط فى انتخابات تتولى أجهزة الثورة كل أمرها من قبل أن تبدأ :

«... وفاجأت نتيجة الانتخابات (أى الانتخابات البرلمانية التى أجريت عام ١٩٦٤) القيادة السياسية لأنها لم تسفر إلا عن نجاح قبطى واحد هو الأستاذ جميل جورجى بشاى، الذى انتخب عن دائرة صدفا بالصعيد، مما دفع بها لأن تحاول تدارك الوضع بتغيير قانون الانتخاب ليعطى لرئيس الجمهورية الحق فى تعيين عشرة أعضاء بمجلس الشعب. ولاشك أن هذه النتيجة كانت، على الأقل فى جزء منها، بسبب الإبعاد الذى حدث للأقباط من ميدان الخدمة العامة، ومن الحياة السياسية وتنظيماتها، وللإدارة فى هذا المجال تاريخ ينبغى للمهتمين بمستقبل مصر النظر فيه وإصلاحه».

(٦٧)

لهذا كله فإننا نكاد نصدق ما يرويه رشدى سعيد من أنه فى قرارة نفسه لم يكن سعيداً بهذا الاختيار، وإن كان قد فرح به وأفاد من هذا الموقع، ووظفه لخدمة مسار حياته، ولاشك أن حياته قد أفادت من هذا الاختيار، لكنها كان من الممكن أن تفيد أكثر لو بدأت فى ١٩٦٤ ما لجأت إليه فى ١٩٧٧ وهو العمل فى سلك الجامعة فى الولايات المتحدة الأمريكية:

«...وتم اختياري عضوا معينا بمجلس الشعب فى برلمان سنة ١٩٦٤، ولم أكن سعيدا بهذا الاختيار، فقد أكد لى ما كنت قد بدأت أن أشعر به منذ عودتى من البعثة من أنى بالفعل قد أصبحت «الآخر» فى الوطن».

....

ويتأكد المعنى الذى أشرنا إليه من وجوم رشدى سعيد تجاه اختياره عضواً فى برلمان ١٩٦٤ من هذا الهجوم المنطقى الذى يشنه على هذا البرلمان ومكانته فى التاريخ المعاصر:

«لم يكن مجلس الشعب [يقصد: مجلس الأمة] الذى دخلته فى سنة ١٩٦٤ برلمانا بالمعنى الذى تعارفت عليه الديمقراطيات الغربية ذات الأحزاب المتعددة. فقد كان أعضاؤه ينتمون إلى تنظيم سياسى واحد، ومقتنعين بصحة سياسة هذا التنظيم وسياسة الحكومة التى بزغت منه والتى كانوا على استعداد للإشادة بها تحت كل الظروف. كما أن أحدا منهم لم يراوده التفكير فى إحراجها أو تغييرها، فلم يكن مبدأ تبادل السلطة أو حق البرلمان فى تعيينها أو عزلها واردا. وفى الحقيقة فإن المجلس كان بمثابة المنبر الذى استخدمته الحكومة للإعلان عن برامجها، كما استخدمه الأعضاء للتعبير عن مطالب الجماهير وشكاواهم، وكان للأعضاء حرية فى نقد وزارات الخدمات، ولكن حريتهم كانت مقيدة عندما كان الأمر يمس وزارات ومؤسسات الخارجية والجيش والرئاسة».

(٦٨)

ويستطرد الدكتور رشدى سعيد ليهاجم قيادة البرلمان الذى كان عضواً فيه، وكأنما كان يتصور هذه القيادة بمثابة سلطة أبوية بينما أن البرلمان نفسه كان لا يخرج لا بالفعل ولا بالقول عن السلطة الأبوية لعبد الناصر والناصرية، ولم يكن مسموحاً له أن ينكر هذه الأبوة من خلال إيمانه بأبوة أخرى:

«ولم أر من قيادة البرلمان أى جهد ينفق لتوسيع آفاق النواب وإعدادهم للعمل الكبير الذى ينتظر منهم، كما يحدث فى الكثير من البرلمانات التى تقيم الدورات لتعريف الأعضاء خاصة الجدد منهم بدور البرلمان، أو أن تعمل لإتاحة المعلومات متعددة المصادر لهم حتى تأتى أسئلتهم وتعليقاتهم مدعمة بالبيانات ومستندة إلى أساس».

. . . .

(٦٩)

ويمضى الدكتور رشدى سعيد على هذا الدرب فى انتقاد السياسات التى اتبعتها الدولة فى استئناس أعضاء هذا البرلمان الذين جاءت بهم، والذين لم يكونوا فى حاجة إلى مثل هذا الاستئناس، لكن الاستئناس قد حدث بالفعل:

«. . . لذا فلم تنته مدة هذا البرلمان حتى كانت لها كوادر من الدعاة، الذين كانوا على استعداد لتمرير أى قانون حتى ولو احتاج الأمر إلى الكروتة أو التشويش على أى معارض له أو حتى معلق

عليه، وانتهت مـدة هذا البرلمان وقد أصبح للكثير من أعـضائه سيارات خاصة، أو بعض الامـتيازات الصغـيرة كسلفة نقـدية أخذت من خزانة المجلس ولم ترد، أو توكـيـل لتـوزيع الوقـود أو الأسـمـدة فى بلدة العضو، أو شقة من شقق الحراسـة فى أحد الأماكن المتميزة بالقاهرة، ولابد من الاعتـراف هنا أن هذه الامتيـازات كانت أكثر مـا كان يمكن للعضو أن يحصل عليه».

(٧٠)

على أننا بعد هذا كله نصل إلى مـا نعرفه من أن رشدى سعـيد كان من الذين انحازوا كليـة إلى الرئيس السادات فى أثناء ثورة التصـحيح وفيـما بعدها، ونحن نفـهم دوافعه إلى مثل هـذا الانحياز، وبعضـها يتمثل فى علاقته الجيدة بهيكل، وفى عدائه الواضح لعلى صبرى، وهو يشيـر فى مذكراته بكل وضـوح إلى أنه كان أحـد أبرز مؤيدى الرئيس السادات فى حـركة ١٥ مـايو، وأنه وقف معـه تماما فى هذه الحـركة، وذلك دون أن يشير إلى تفصيلات اتصالاته بالرئيس فى ذلك الوقت، أو مدى معرفته بالنزاع القائم وحدوده.

ونحن نتعـجب من قفـزه على الحديث عن طبـيعة دوره فى حـركة التصحيح، وذلك فى مقابل حرصـه الشديد على أن يقدم مبررات قوية للوقوف إلى جوار السادات عند ترشيحه لرئاسة الجمهورية فى أعقاب وفـاة عـبد الناصـر، وكـأن السـادات كـان بحـاجة مـاسـة إلى هذا الوقوف!!:

«. . . وقد أطلت بعض الشيء فى وصف جو التوتر والمجابهة الذى

كان يسود التنظيم السياسى حال وفاة الرئيس عبد الناصر فى سنة ١٩٧٠، لكى أوضح شكل المناخ الذى سهل على الكثيرين، بمن فيهم كاتب هذه السطور الذى كان وقتها عضوا بالبرلمان، تزكية ترشيح الرئيس السادات والوقوف معه لتثبيت أقدامه عندما نشب الخلاف بينه وبين رجال الحرس القديم. ومن الوجهة العملية فلم تكن هناك خيارات كثيرة أو بدائل جاهزة لحسم موضوع الخلافة على الرئاسة بعد وفاة الرئيس عبد الناصر».

(٧١)

وفى موضع آخر يعرب رشدى سعيد عن بعض الأمانى التى تنطق بأنه كان على علاقة ما بجهات قادرة على حسم الصراعات السياسية فى مصر(!!)... وربما لم يحن الوقت بعد للكشف عن هذه العلاقة:

«... وأدت تصفية الرئيس أنور السادات الذى تولى رئاسة الجمهورية بعد وفاة الرئيس عبد الناصر فى سنة ١٩٧٠، لتكتل رجال الحرس القديم، الذى كان يلاحقه هو نفسه بالتقارير، إلى إعطائنا عاما آخر من الراحة التقطنا فيه أنفاسنا وأكملنا مسيرتنا فى العمل الجاد. وفى ظنى أن تصفية هذا التكتل كانت آتية لا محالة ولو لم يأت الرئيس السادات إلى السلطة».

(٧٢)

ومن المهم أن نشير إلى ما ذكره الدكتور رشدى سعيد عن مجهوداته فى الاتحاد البرلمانى الدولى ومحاولته الوصول إلى رئاسة هذا الاتحاد

الدولى، لولا أن السادات من ناحـية والسوفييت من ناحـية أخرى لم يساعداه على الفوز بهذا المنصب:

«. . . على أن الأحداث سرعان مـا تلاحقت خلال العام الذى تلا خريف سـنة ١٩٧٥، مما قلب كل الحسـابات. ففى خلال هـذا العام تكشفت عـملية التسوية التى كـان الرئيس السادات يجريها فـى الخفاء بعيدا عن كل القوى الفاعلة، التى كان من أهم متطلباتها أن تجرى فى السر بعـيدا عن المنظمـات الدولية وخـارج إطار التكتلات العـربية أو الإقليمية».

«وبعد أن تـقطعت العلاقـة مع الاتحاد السوفـيتى، وبانكـشاف هذه العملية انفرط عقد الجبهة التى كـانت مصر أحد أركانها، وفقدت مصر عطف الكثـير من دول العـالم الثـالث وتردت علاقـاتها مع الاتحـاد السوفيتى، وزادت مشاحناتها مع العالم العربى، وتفككت الجبهة التى كانت تساند ترشيحى لمنصب الرئاسة».

«وزاد الأمر صـعوبة ما قـام به الاتحاد السوفـيتى من تقـديم مرشح جديد للمنصب من المكسيك ليـعطى للعالم الثالث بديلا عنى، وهكذا انقسمت الأصـوات ونجح المرشح البريطانى، وكان هذا آخـر علاقاتى مع الاتحاد البرلمانى، بل ومع السياسة كلها».

(٧٣)

وربما كـان من الضرورى أن نتـحـدث عن بعض الإحبـاطات التى صادفـها صـاحب هذه المذكرات، وعلى الرغم من أن رشـدى سعـيد يبالغ بل يفرط فى تصوير إحباطه نتيجة لصعود المد الدينى على نحو ما

نرى، فإننا نرى إحباطه الأكبر يتمثل فى هزيمة ١٩٦٧، وقد كانت مشاعره فى نكسة ١٩٦٧ بالغة القسوة، وهو يصورها تصويرا جيدا فيقول:

«وأصابتنى الهزيمة، كغيرى من ملايين المصريين، بالحزن، حتى أن نفسى قد صدت عن القيام بأعمال كنت أتطلع إليها، ومن ذلك أنى امتنعت فى تلك السنة عن الذهاب كعادتى فى شهر يونية من كل عام إلى عشتى برأس البر، التى كانت تقع على شاطئ البحر مباشرة لكى أعدها لاستقبال عائلتى».

. . . .

«شاركنى الأبناء الحزن نفسه ودون أى إيحاء منى أو من الأم، وعندما حزمت أمرى وقررت أن أذهب للتشقير على العشة فى آخر شهر يولية من ذلك العام، وجدت أن المصريين جميعا شاركونا الحزن، فيقد كان المصيف خاويا على عروشه، ولم يكن به غير أقل القليل من الناس».

«وامتد الحزن بعائلتى حتى أننا امتنعنا عن الانتقال إلى الفيلا الجديدة، التى كنا قد انتهينا من بنائها فى حى المعادى بالقاهرة، وتم استلامها من المقاول قبل أيام من حرب يونية سنة ١٩٦٧، وظلت الفيلا التى كنا نتطلع ليوم انتقالنا إليها ونمر عليها كل يوم لنراقب تقدم العمل فيها، ولنتأكد أن بناءها كان يجرى حسب متطلباتنا ورغباتنا، خاوية حتى شهر نوفمبر سنة ١٩٦٧ عندما انتقلنا إليها، وإنى أذكر هذين الحادثين لأنقل للقارئ خاصة لمن لم يعش هذه الفترة من الشباب، حالة الحزن العام الذى حط على كافة المصريين بعد هزيمة يونية سنة ١٩٦٧».

(٧٤)

ولم تكن هزيمة ١٩٦٧ وحدها بمثابة ما أصاب هذا الرجل من يأس وقنوط، إنما ينبغى لنا أن نتأمل محنة هذا الرجل فى وفاة الرجل الذى كان يقوم على خدمة بيته وأسرته وقضاء حوائجه فى أمانة واقتدار، وهو يروى قصة وفاة هذا الرجل وما انتابه من ألم بهذه الوفاة، وما خسره نتيجة لهذه الوفاة المفاجئة، وهو يصل فى هذا الحد إلى أن يقول إن حياته ارتبكت بعد وفاة هذا الرجل، ثم إذا هو ينسحب بهذا الحكم على الوضع المصرى كله، وهى نظرة غير موفقة من ناحية، كما أنها من ناحية أخرى نظرة فوقية متعالية لا تليق بعالم مثله، وقد سبق لنا فى كتابنا «تكوين العقل العربى» أن انتقدنا سلوك الأستاذ محمد عبدالله عنان فى مثل هذه النظرة.

وعلى كل الأحوال فلنقرأ هذا النص الجميل الموحى الذى نعجب به على الرغم من اختلافنا مع بعض جزئياته، ومن الجدير بالإشارة والإشادة أن حديث رشدى سعيد عن السفرجى على جاد عيسى يتضمن من الثناء ما لم يتضمنه حديثه عن أى رمز من رموز عهد الثورة كله.

يقول الدكتور رشدى سعيد:

«وما إن بدأ الحال يستقر بى فى عملى الجديد، إلا وواجهتنى أنا وعائلتى أزمة كبيرة بفقدان «عم على» الذى كان يقوم بخدمتنا منذ أكثر من عشرين سنة، إثر حادث بالطريق صدمته فيه سيارة وهو عائد إلى منزله توفى فى إثرها، وارتبكت حياتنا بعد وفاته».

«فقد كان عم على ـ رحمه الله «على جاد عيسى» أحد أعمدة منزلنا، على الرغم من أنه كان فى وظيفة السفرجى فقد كنا نعتمد عليه فى إدارة شئون منزلنا، وكان يشرف على نظافته، وترتيب حديقته، وشراء حاجاته، وإعداد طعامه، وإرسال بريده وتسلمه، وإيداع وسحب الشيكات والنقدية من البنوك».

«كما كان يحافظ على أولادى عندما كنا نضطر للخروج من المنزل ونتركهم وحيدين فيه، وكان عم على المسئول عن توظيف من يحتاج إليهم من المساعدين، سواء فى الحديقة أو المنزل».

«وكانت أمانته فائقة ومواعيده مضبوطة يستطيع الواحد أن يضبط ساعته عليه. فعلى مدى عشرين سنة كان يأتى إلى منزلى بدراجته فى الساعة السابعة صباحا ليعد إفطارى، وكنت أنا ووداد والأولاد نتركه وراءنا طيلة النهار وحيدا فى الفيلا التى أصبحت معروفة باسمه بين سكان المنطقة. وكان عم على طويل القامة، أسمر اللون، وسيم الشكل، حسن الهندام، قفطانه الأبيض يكاد أن يقطر بياضاً. والتحق عم على للعمل فى شقتى بالمعادى فى سنة ١٩٥٥، ثم انتقل معى إلى الفيلا بعد أن تم بناؤها وظل فيها حتى وفاته فى سنة ١٩٧٨، وكانت بينى وبينه صداقة ومحبة كبيرة».

«وكنت أقضى الوقت الطويل فى الحديث معه، فقد كان على وعى سياسى يفوق وعى الكثيرين ممن كان علىّ أن أتعامل معهم، وكان يتابع الأخبار عن طريق الراديو، وارتفع قدرى عنده عندما سمع فى إحدى نشرات أخباره عن مقابلاتى مع عبد الناصر».

«كان عم علـى شديد التديـن، لا يترك فرضـا، وله احتـرام كبـير للأديان السمـاوية وأماكن عبادتهـا والقائمين عليـها، كما كـان شديد الاحترام والحب لامرأته، وعندمـا جاءت هوجة المد الدينى التى طالت مصر فى سبعينيات القرن العشرين، كان بعض زملائه ينعون عليه عمله عند الأقباط، لكنه كان يصدهم ويأتى لى شاكيا وهو حزن شديد على ما آل إليه فهم الدين على أيدى هؤلاء الجهال».

«وكـان لعم على منزل حـسن البناء فى قـرية المعادى حـصل عليـه تعويضـا عن عشته المتـواضعة التى فقـدها فى سيل سنة ١٩٤٢ الذى كسح منازل هذه القـرية العشوائيـة، قامت الحكومـة الوفدية فى أثرها بإعادة تخطيطها وتسكين أهلها فى منازل جديدة حسنة البناء، وكان من دواعى سعـادتى الكبيرة أن ساعـدته فى تحسين منزله وفـرشه لإسكان أبنائه عندما تزوجوا».

(٧٥)

وبعد كل هذا الرثاء الجميل لعم على، نرى رشدى سعيد يلجأ إلى تقنيات الأدب فى استخدام الرمز الموحى، لكنه يلجأ إلى هذه التقنيات بأسلوب العالم الطبـيعى الذى يمارس أستاذية الجـامعة التى تعلى من قدر الرمز والمثال وتصور العصر أو المجـموع مفيدة من صورة الرمز أو المثال، وتفعل كل هذا بطريقة مباشرة بعيدة عن اللجوء إلى الإيحاء ، وانظر إليه وهو يقول:

«كـان عم على رجـلا نبـيـلا، كلمـتـه واحـدة، لا يعـرف اللف والدوران، يحتـرم عمله ومواعيده والـتزاماته، وصادقا مع نـفسه ومع

غيره، وحاملا لتراث عريق من الحضارة لم تفسده مدرسة أو تطلعات لم يكن بالإمكان تحقيقها، وقد وجدنا تعويضه صعبا، كما وجدنا الفارق بينه وبين أولاده أبناء المدرسة وهوجة السبعينيات كبيرا».

. . . .

عند هذا الحد يبدأ رشدى سعيد فى رسم ملامح الصورة الأخرى مستخدماً طريقة تصير النقيض فى وصف المواقف، وانظر إلى المثالب التى يعددها فى الآخرين من أبناء الجيل الجديد، وانظر إلى ما تعنيه كل هذه المثالب فى نظره إذا انسحبنا بها إلى الوطن على نحو ما يريد رشدى سعيد أن يصور الأمور:

«كان عم على كما بدا لنا بعد وفاته نموذجا لجيل راح، وقد جربنا من بعد رحيله الكثيرين للعمل فى منزلنا، إلا أنهم جميعا وبلا استثناء واحد أعطونا من المتاعب والهموم أكثر مما أعطونا من الخدمة أو الراحة، فقد كان منهم اللص، ومَنْ لا يؤتمن على مال أو متاع، ومَنْ كان يغيب دون إذن أو يتأخر عن الميعاد، أو مَنْ يغد ولا يفى، ومَنْ لم يكن يؤدى عمله بأى اهتمام، وكانوا جميعا من الخبثاء لا يستطيع الواحد أن يقرأ ما بداخلهم ولا يعرفون طريق الصدق. أما عن السائقين فحدث ولا حرج، فقد جاءنا واحد كان يؤجر سيارتنا من خلف ظهرنا، بل ويقودها إلى الإسكندرية نظير أجر عندما كنا نغيب عن المنزل ليوم أو اثنين، وجاءنا آخر صدم السيارة وكلفنا الآلاف».

«وكما كانت هذه عينة الذين جاءوا للخدمة فى منزلنا، كذلك كانت عينة الذين دخلوا ميدان الأعمال فى عصر انفتاح السبعينيات من القرن

العشـرين، فقد كانـوا على الأقل أولئك الذين تعاملت معـهم، أقرب إلى النصابين منهم إلى رجال الأعمال».

(٧٦)

ويصور الدكـتور رشدى سـعيد على مدى صـفحات من مـذكراته معاناته بعد صدور قرار الرئيس بإدراج اسـمه ضمن المتحفظ عليهم فى سبـتمبر ١٩٨١، فـقد كان فى الولايات المتـحدة الأمريكية فـآثر عدم العودة إلى بلاده، وبدأ جهادا جـديدا ، وهو يصل إلى أن يتحدث عن حاجته إلى العمل وممارسته له فى هذه السن المتقدمة:

«... وكان القـيام بهذه الأعـمال ضروريا لـيس فقط لحاجـتى لها لتدبير معيشتى، بل ولأهميتها لاستكمال مدة العمل التى ينبغى أن أقوم بها بالولايات المتـحدة، والتى تستـحق عنها الضـرائب حتى يكون لى حق الحصول على الرعاية الصحية للمسنين، وهو الحق الذى حرصت على تدبيـره لى ولزوجتى، والذى لم أسـتطع الحصـول عليه إلا بـعد وصولى سن الثانية والسبعين».

(٧٧)

ومع ما رأيناه فى تجـربة رشدى سعيـد مع جمعيـة الشبان المسيـحية وتجربة يعقـوب فام فيها ومـا نتوقع أن يكون الدكتور رشدى سـعيد ، كنتيجة لهذه التجربة ، متمتعا به من الإيمان العميق بما يمكن للمؤسسة التعليمية المرتبطة بديانة ما أن تؤديه من دور متـميز فى تنشئة الشباب، فإننا نرى مذكرات الدكـتور رشدى سعيد وقد سـيطرت على كثير من أجزائها وساوس صاحبها وهواجـسه تجاه ما يسميه المد الدينى والتطرف

الدينى، وشعوره بالرهبة والضيق تجاه المكانة التى حصلت عليها الاتجاهات الدينية فى نسيج جهاز الدولة، وهو يجاهر على الدوام بانتقاده لهذا الوضع، بل ضيقه منه، وهو لا يكف ببراعة وافتعال أيضاً عن تحوير كل الظواهر ليجعلها نتيجة طبيعية ومنتظرة ومتوقعة لتغلغل هذا التيار الدينى:

«... وقضية الأقباط التى تزامن بدء ظهورها مع موجة الانكسار التى جاءت إثر الهزائم المتتالية التى حدثت لمصر والعرب منذ نكبة فلسطين فى سنة ١٩٤٨، هى من القضايا المسكوت عنها، والتى ظل المسئولون ينكرون وجودها حتى حطت عليهم بثقلها، ومست الأرواح والممتلكات، وشوهت صورتهم وصورة بلادهم، وشككت فى قدرتهم على إدارة أمورهم».

(٧٨)

ويحاول الدكتور رشدى سعيد فى هذه المذكرات أن يقدم مبررات يفسر بها ظهور التيار الدينى فى مصر، وهو يصل إلى حدود المبالغة فى الإشارة إلى علاقة قادة الثورة بالإخوان المسلمين، وربما أن نص رشدى سعيد هو أقصى ما وصل إليه نص مصرى فى الحديث عن توثق علاقة قادة الثورة بالإخوان:

«... وعندما قامت ثورة يولية سنة ١٩٥٢ كان كل الضباط الذين قادوها متأثرين بفكر جماعة الإخوان، ومنهم مَنْ كان عضوا منظما فيها، ومنهم مَنْ كان عطوفا عليها وإن لم يدخل فى تنظيماتها، لذا فقد كانوا يحملون الكثير من الأفكار التى كانت هذه الجماعة ترددها،

وساهموا فى مبـدأ حكمهم فى تدعيمها لتحل مـحل الأفكار الليبرالية والزمنية التى سادت مصر حتى مبدأ الحرب العالمية الثانية».

«أما عن الأقباط فقد كانت معـرفة رجال الثورة بهم قليلة جدا. فقد تخرجوا فى مدارس ومارسوا أعـمالا لم يكن بها وجود قبطى يذكر، مما كان يجعل صورة الأقباط عندهم غير واضحة».

(٧٩)

ونحن نرى أيضا فى حديث رشـدى سعيد عن عضـويته فى البرلمان المصـرى حرصـاً شديداً منه على أن يـكرر شكواه من تصاعـد التيـار الدينى:

«وقـد اسـتمـعت خـلال عـضـويتى بالمجلس إلى مـئـات الخطب والتداخـلات التى كانت تسـتشهـد بقصص قديمـة ومقولات سـاذجة استخرجت من كتب قديمة وتكرر استخدامها فى كل موضوع».

. . . .

ومن اللافت للنظر أن نرى رشدى سعـيد وهو يخلط عن عمد بين الإيمان الدينى الشعبى وبعض الميتافيزقا فيقول:

«ولم يكن الاعتقاد بوجـود هذه القوى الخفية مقـصورا على أعضاء مجلس الشـعب، بل كان منتشـرا بين عدد كبيـر من الوزراء وصانعى القرار، وقد رأيت بعينى وزراء يحملون الأحـجبة ويحضرون الأرواح، ومنهم مَنْ كان يستطلع الطالع ويستكشف المستقبل باستخدام المنجمين،

ومنهم مَنْ كان يحج إلى عارفى الأسرار من المشايخ فى المغرب وغيرها من البلاد فى أقاصى الأرض».

وهو يصل فى الاستدلال على خطورة مثل هذا التفكير إلى أن يروى واقعة مهمة:

«... وقد أمرت هيئة البترول المصرية، ضد توصيات كل خبرائها، بحفر بئر لاستخراج البترول فى وادى النطرون، بناء على توصية أعطتها سيدة اشتهرت بقدراتها التنجيمية فى إحدى جلساتها مع أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة فى الخمسينيات!!!».

(٨٠)

ويصف الدكتور رشدى سعيد حال مصر فى ظل وجود (وتنامى) الجماعات الإسلامية وصفاً يخلط فيه فيما بين مظاهر التدين وجواهره، وبين بعض السلوكيات الاجتماعية فيقول:

«وتغير حال مصر وشكلها تحت تأثير هذه الجماعات، التى أطلقت يدها وزودت بأموال النفط التى استخدمت لاستيراد وإنتاج كم هائل من الكتب والأشرطة المثيرة للفتنة، والداعية للعودة إلى أصول المجتمعات البدوية، واستولى المتطرفون على الكثير من الجوامع، وتحولت صلاة الجمعة إلى مظاهرة صاخبة كانت أصوات الميكروفونات ترتفع فيها إلى عنان السماء، وامتلأت الشوارع بالفتيات اللاتى تطرحن أو تحجبن، وبدأ التليفزيون والإذاعة يقطعان برامجهما إذا ما حان موعد الأذان، وانتشرت صحف الحائط الدينية بالجامعات، وزاد تحرش الطلاب المنتمين إلى الجماعات بزملائهم».

(٨١)

ومن الحق أن نشير إلى أن الدكتور رشدى سعيد لم يكن يقف عند انتقاد الدور المعطى للمؤسسة الدينية الإسلامية فحسب، لكنه أيضا كان يتناول بالانتقاد الدور الذى أعطى للمؤسسة الدينية المسيحية، وإن كان لا يكرر هذا المعنى بكثرة ولا يركز عليه، لكنه بذكاء شديد كان حريصاً على أن يشير إليه عرضا حيث يقول:

«... وزاد من عدم سعادتى ما عرفته من أن اختيار الأعضاء المعينين من الأقباط فيما عداى، كان قد تم من قائمتين أعدت واحدة منهما بطريركية الأقباط، وأعد الأخرى الدكتور كمال رمزى استينو الوزير القبطى بالوزارة، بعد مرورها على قلم شئون الأقباط بالأجهزة التى كان يشرف عليها أحد ضباط الصف الثانى من قادة الثورة، وكان أمر زج البطريركية فى اختيار السياسيين أمراً مثيراً للألم، وإشارة إضافية إلى تزايد اعتماد الدولة على المؤسسة الدينية فى علاج المشاكل الزمنية، وهو الاتجاه الذى لم أكن أحب أن أراه يتعمق، كما كان الطلب من الوزير القبطى بالوزارة بأن يرشح أقباطا للتعيين بالبرلمان مثيرا للأسى، فقد كان اعترافا بعزلة الأقباط الذين لم يعد أحد ـ خارج عنهم ـ يعرفهم».

ثم يصل الدكتور رشدى سعيد إلى بلورة ذكية لآرائه فى هذه الجزئية فيقول:

«ومن غرائب الأمور أن الدولة التى كثيرا ما تقحم المؤسسة الدينية

فى أعمالها الزمنية، هى نفسها التى تصمم على ألا يدخل الدين السياسة، والتى تمنع إنشاء الأحزاب القائمة على أساس الدين».

(٨٢)

ومن المهم أن نلفت نظر القارئ إلى ما أجلنا تناوله من حديث الدكتور رشدى سعيد بطريقة غير مباشرة عن محنة عائلية صادفها هو، وصادفتها عائلته من قبله ، حين اعتنق أحد أشقائه الإسلام، وقد صاحب هذا الاعتناق انفصال شقيقه الأصغر هذا عن العائلة، وهو لا يذكر لنا اسم شقيقه، ولا وظيفته، ولا شيئا من سيرة حياته، وإنما هو يكتفى بالحديث عن استخدام التقارير التى كانت تكتب ضد هذه الحادثة: اعتناق شقيقه للإسلام وتصويرها له فى صورة المتعصب المتمرد إلى عائلة متعصبة كان لها موقف شديد الوقع على نفسية هذا الشقيق الأصغر، وعن لقائه به بعد عودته من البعثة، وعن أن قصة أخيه كانت إحدى القصص التى تضمنتها التقارير التى كانت تحاك ضده فى فترة من فترات حياته الوظيفية:

«... أعود إلى موضوع التقارير التى كانت تكتب عنى والتى لم يجد كاتبوها موضوعا يعودون إليه المرة بعد الأخرى. غير أنى من الأقباط المتعصبين الذين ينبغى أخذ الحذر منهم، ولم تغب هذه الصورة فى أى من التقارير التى كتبت عنى، حتى أنى تصورت أن كاتبيها كانوا يبدءون منها كحقيقة مسلمة ثم يكيفون الأحداث والوقائع طبقا لها، ولا أعرف فى الحقيقة سببا للرجوع الدائم لهذه المسألة، ولكنه فى الأغلب يرجع إلى عدم وجود ما يمكن أن يشكل مادة

لكتابة التقارير عنى، سواء من ناحية الفساد، أو العلاقات المشبوهة».

«كما أنها ربما تكون أيضا جزءا من الصورة العامة التى يتربى عليها المصريون نحو «الآخر» الدينى، والتى يبدو أنها تأكدت بعد أن اكتشفت الأجهزة أن لى شقيقا يصغرنى بعامين كان قد تزوج من مسلمة وأعلن إسلامه فى سنة ١٩٤٩، وهو الأمر الذى لم تقبله العائلة وحاولت منعه مما أحدث قطيعة بينها وبينه، وهذا الأمر أخذته هذه الأجهزة دليلا على أنى من عائلة متعصبة».

(٨٣)

ويحرص الدكتور رشدى سعيد بعد هذه الإشارة السريعة إلى أن يجلو موقفه هو، وهو يوحى بأنه لم يكن ليعارض فى مثل هذا التصرف، وبأنه كان حريصاً على علاقته بشقيقه الأصغر، لكن الظروف كانت قد تطورت فى اتجاه آخر لم يشهد بدايتها ولا تطورها لأنه كان فى خارج مصر فى أثناء بعثته:

«... ولا أريد فى هذه المذكرات التعرض لتفاصيل أحداث حدثت منذ أكثر من خمسين سنة، يكاد أن يكون جميع أطرافها قد أصبحوا من الموتى، وأنا أعتبرها من أشد الخصوصيات التى لم أتكلم عنها أبدا طيلة هذه المدة، لولا أنها ذكرت فى صحيفة أحوالى عند الأجهزة، وساهمت فى تكوين صورة عنى، وأثرت على مجريات حياتى أيما تأثير، على الرغم من أنى لم أكن طرفا فيها بأى شكل من الأشكال، فقد حدثت كل أحداثها خلال وجودى بالبعثة بالخارج، ولم يكن لى بتفاصيلها أو ظروفها أى علم.

« ولما عدت من بعثتى بعد سنتين من نهاية أحداثها، حاولت أن أعيد الصلة مع شقيقى الذى كانت تربطنى به علاقة خاصة، إلا أنه صدنى وأبلغنى بقراره بقطع كل صلة بماضيه وبأنه بدأ حياة جديدة».

« وقد احترمت ما ارتأه ولم أره بعد هذه المقابلة الوحيدة غير مرة واحدة، وعلى باب منزله ليلة وفاة والدتى فى سنة ١٩٥٢ والتى كانت فى نزعها الأخير، لأرجوه أن يحضر جنازتها، فقد كانت لى رغبة فى أن أضع اسمه بين ناعيها، وهو الأمر الذى أبلغتنى عائلتى أنه لن يكون محل ترحيبه، فلما زرته فى تلك الليلة لم يشأ حتى أن يدخلنى شقته، بل قابلنى على بابها وكرر لى ما قاله لى من قبل من أنه أقفل ماضيه، وأنه يفضل ألا يحضر جنازتها».

« وهكذا انتهت علاقتى بشقيقى ولم أسمع عنه شيئا حتى وفاته التى وقعت علىّ وقع الصاعقة، وأنا أقرأ نعيه فى صفحة وفيات جريدة الأهرام فى سنة ١٩٨٦، وأنا جالس أحتسى القهوة وأقرأ الجريدة بأحد مقاهى مدينة برلين».

(٨٤)

فى مقابل شكوى الدكتور رشدى سعيد من الاتهامات التى كانت توجه إليه بالتعصب الدينى فإننا نراه أكثر ما يكون حرصاً على أن يصور نفسه مقتنعا بالعلمانية ومؤمنا بها، وقد كان من الممكن أن نصدق الدكتور رشدى سعيد فى هذا الذى يذهب إليه بإرادته، بيد أن هجومه المستمر على التيارات الإسلامية يكاد يذهب بكل حرصه هذا دون أن يدرى، ذلك أنه يبدو بهجومه الضارى قطبا آخر منغمساً فى الصراع

بدلاً من أن يكون علمانياً مبتعداً عنه، ومن الطريف الذى يؤكد رأينا أن نرى رشدى سعيد وهو يلجأ فى إثبات علمانيته إلى وقائع من سلوك والديه لا من سلوكه هو، وهو على سبيل المثال يشير باعتزاز بالغ إلى حرص والده ووالدته على الروح العلمانية ويقول:

«ومن الملاحظ أن والدىّ قد تعمدا أن يسميا أبناءهما وبناتهما بأسماء لا تنم على ديانة حامليها، لرغبتهما فى ألا يكون هناك ما يمكن أن يميزهم عن الآخر الدينى».

. . . .

والواقع أننا نعذر الدكتور رشدى سعيد فى مواقفه ضد الإسلاميين، وإن كنا بالطبع لا نوافقه على هذه الروح العارمة التى أساءت إلى صورة شخصيته دون أن تصيب مقتلاً فى متطرفين متعصبين، ونحن نستطيع أن نفهم دوافع شعور الإحباط التى دفعت رشدى سعيد إلى التفكير بمثل هذه الطريقة، لكننا لا نستطيع أن نقره على أن يجعل مثل هذا الاندفاع أو الانفصال بمثابة قاعدة يبنى عليها مواقفه من إخوانه فى الوطن وفى الإنسانية.

(٨٥)

ومن المهم أيضاً أن نشير إلى أن الدكتور رشدى سعيد يشير فى مقدمة مذكراته إلى أنه حين كتب مذكراته دون حساسية ودون هدف معين، وهو يكاد يتصور أن التجرد من الأمل فى منفعة عاجلة كفيل فى حد ذاته بأن يحقق الموضوعية، وهو يأخذ دليله على هذا من أنه كتبها بعد أن وصل إلى الثمانين، والواقع أن هذا لم يحدث على الرغم من

تصور صاحبه، وربما يقصد الدكتور رشدى سعيد التجرد فى أحكامه التى يضمنها أحاديثه ودردشاته، لكن الواقع أنه لم يصل بعد إلى هذا التجرد فيما قدمه فى هذه المذكرات، ولا يمكن لمثل هذا الحكم السريع أن يبرر لنا ما أخفاه صاحب المذكرات من تفاصيل فى مذكراته، أو ما اختزله من مواضع أخرى فيها، ونحن نراه يقع بالفعل فيما حاول أن يزعم أنه لن يقع فيه:

«. . . وإنى أكتب رحلة حياتى هذه بمناسبة بلوغى سن الثمانين، وهى سن تسمح لى أن أكتبها دون مواربة، فلم تعد لى فى هذه الدنيا مصالح أخشى عليها، كما أنه ـ فيما عدا الستر والصحة اللذين ليس فى قدرة البشر أن يمنحوهما ـ ليست لى مطالب عند أحد، أو مطامع أريد أن أحققها، وسيجد القارئ أنى كتبت هذه المذكرات دون أن تكون لدىّ أية حساسية، فليس فيها موضوع سكت عنه أو خبأته ليكون بعيدا عن الأنظار، كما جرت العادة فى مصر، حيث يهمل بل ويحرم الكلام فيها عن أى موضوع يمكن أن يشين أو أن يذكرنا بواقعنا الأليم، وقصدت من كسر هذه العادة واقتحام بعض هذه الموضوعات المسكوت عنها، والتى تؤثر على حياتنا ولا نتكلم عنها حتى تفاجئنا بتداعياتها الخطيرة، أن أضعها أمام المهتمين بمستقبل مصر ليبدءوا البحث فيها وإيجاد الحلول لها».

(٨٦)

وتحفل مذكرات الدكتور رشدى سعيد بكثير من طرائف الحياة العائلية، فهو يصف علاقة أمه بحماتها وصفاً دقيقاً ومؤثراً على الرغم

من أن الموقف سلبى!! وهو يقول:

«... ولابدَ أن العيش مع مثل هذه الحماة كان صعبا، حتى أن أمى لم تغفر لها أبدا ما فعلته بها من تنغيص مستمر وتدخل فى شئون بيتها، الذى كانت تحب أن يكون لها، وعندما كانت على سرير الموت فى سنة ١٩٥٢، وبعد اثنتين وعشرين سنة من وفاة حماتها، كانت آخر أمنياتها هى ألا تدفن معها فى مدفن واحد، وهى الأمنية التى لم نستطع أن نلبيها إلا بعد سنوات طويلة من وفاتها».

ولعل هذا يدفعنا إلى أن نتأمل تصويره لهذه الجدة وهو تصوير بديع تروى منه إحدى فقراته حيث يقول:

«خرج جدى وحيدا تاركا وراءه فى القرية زوجته وولديه، الذين سرعان ما لحقوا به فى رحلة لاحقة عبر النيل. وفى هذه الرحلة الأخيرة التى قادتها الأم، توفى ابنها الأصغر خلال الرحلة فكفنته بنفسها وشلشلته أمام الناس، ثم دفنته فى أرض المنيا بعد أن قامت بمراسم الجنازة والصلاة أيضا. والشلشلة عند المصريين هى تقطيع ملابس المتوفى أمام الناس للإعلان عن أنه ليس للمتوفى شىء يستحق أن ينبش قبره من أجل الحصول عليه، فحتى ملبسه فقد تقطع، ولم تعد له فائدة».

(٨٧)

وهو يتحدث أيضاً حديثاً جميلاً وموحياً عن عمه باعتزاز حقيقى لافتا النظر إلى ما قد يبدو من التناقض الظاهر فى بعض مكونات شخصيته فيقول:

«... وعلى الرغم من هذه الدراية الحضارية التى أظهرها عمى عندما أرسل والدى لمدرسة الفرير، فإن حياته الشخصية كانت متواضعة جدا، فلم يكن يعرف من أمور الدنيا شيئا غير عمله، وكسرة العيش التى كان يبل بها ريقه، والمسكن المتواضع الذى أعطاه سقفا. ولم تكن عند عمى أى تطلعات طبقية حتى بعد أن أصبح موسرا، وعندما جاء الوقت لزواج ابنته الوحيدة، قبل أن يزوجها لفراش فى مصلحة السكة الحديد عندما تقدم لخطبتها، وكان رده على أبى عندما احتج على هذا القرار بحجة عدم التوافق بتنبيهه بأن المتقدم رجل حسن الخلق، سليم الجسم، وليس هناك ما يعيبه، وهو لا يفترق عنه عندما بدأ حياته العملية».

وسرعان ما يردف رشدى سعيد بقوله:

«وهذا المسلك هو نفسه مسلك الجيل الأول لمهاجرى أمريكا الذين شقوا طريقهم وأثروا، فقد كانوا على درجة كبيرة من الشعور بالمساواة بين الناس، والثقة فى أن العمل هو طريق الثروة، فلم تكن قد تكونت لديهم مشاعر الانتماء إلى طبقة مميزة».

ومع إيمان رشدى سعيد بمثالية هذا التفكير الذى كان عمه يأخذ به، إلا أنه يثبت لنا أن الموقف سار على خلاف الأمنية، وقد جاءت هذه الحقيقة نتيجة تدخل والده هو فى أمور ابنة أخيه، وهو تدخل مدفوع بالحب فى المقام الأول:

«وقد نجح أبى فى ألا تتزوج بنت عمى هذا الرجل، وقد تزوجت بدلا منه أحد تجار المجوهرات الذى توفى بعد سنوات قليلة بعد أن أنجب منها ولدين شغلت تربيتهما حياتها بعد أن ترملت وهى فى سن مبكرة».

الباب الرابع

ذكريات من حياتى

مذكرات الدكتور عبد العظيم أنيس

(١)

أبدأ حديثى عن هذه المذكـرات بالإشارة إلى أن لصاحـبها الدكـتور عبد العظيم أنيس فضلا تعليميا وعقليا كبيرا علىّ، فهو صاحب الفضل فى فرض دراسات الرياضيات المعاصـرة على جيلى، وعلى توفير مادة هذه الرياضيات وكتبهـا، ولما كان هذا التدريس قد تم على نطاق ضيق واختصت به بعـض المدارس المتميزة أو التجـريبية على حد تعـبير ذلك الوقت، فقد كان الذين درسوا هذه المناهج قلة قليلة. ومن الطريف أن مدرسـة المتفوقين الـثانوية التى درست فيـها لم تكن من المدارس التى اختيرت لتـدريس الرياضة المعاصرة فيها عنـد بداية هذه التجربة، وكان السبب فى هذا وجيها، وهو أن طلبة هذه المدرسة من جميع محافظات الجمـهورية، وربما اضطرت الظروف أحدهم إلى أن يتـرك المدرسة فى أى وقت ويعـود إلى الإقـليم الذى جـاء منه، وهكذا فـإنه عند ذلك سيـواجه بدراسـة مناهج مخـتلفة عمـا شرع فى دراسـته فى مـدرسة المتفـوقين، وربما حـدث هذا فى السنة الثانيـة أو الثالثـة، حيث تكون المشكلة أكبر من أن يتصور حلهـا. . هكذا قيل، لكن مسئولى الوزارة وجـدوا بعد فـترة قليلة من بـدء التجـربة أن حرمـان أوائل الأوائل من

دراسة الرياضيات المعاصرة لا يعدو أن يكون أمرا مجافيا للمنطق والعقل، وهكذا تقرر أن تنضم مدرستنا للمدارس القليلة التى تدرس الرياضيات المعاصرة، وقد تقرر هذا فى شهر ديسمبر . . أى بعد أكثر من شهرين من بدء الدراسة، وهكذا تركنا دراسة مناهج الرياضيات القديمة كما كنا نسميها، وتحولنا إلى دراسة مناهج الرياضيات الحديثة كما كانت تسمى فى ذلك الوقت.

ومع حبى الشديد للرياضيات القديمة فإن غرامى بالرياضيات الحديثة كان عنيفاً. وقد أثر فى شخصيتى وتفكيرى وكتاباتى وإنتاجى منذ ذلك الحين الذى درستها فيه، وقد كنت حريصاً منذ ذلك الحين على أن أعرف الرجل الذى تحمل عبء إدخال هذه الدراسة العظيمة، وعلمت منذ ذلك الزمن أنه الدكتور عبد العظيم أنيس، وكنت بحكم قراءاتى أعرف اثنين من أشقائه هما الدكتور إبراهيم أنيس عميد دار العلوم وأستاذ علم اللغة الشهير، والدكتور محمد أنيس المؤرخ الشهير، وقدر لى فيما بعد وأنا فى كلية الطب أن أعرف عن قرب أخى العزيز الدكتور طارق ابن شقيقهم الرابع الدكتور حسن أنيس الذى كان سكرتيرا لنقابة المهندسين.

(٢)

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من فصول ذكرياته نشرها الدكتور عبد العظيم أنيس على مدى أعوام متفرقة، وقد جمعها هذا الكتاب تحت هذا العنوان، وقد صدرت هذه المذكرات ضمن سلسلة كتاب الهلال عام ٢٠٠٤، وليس من الصعب على القارئ أن يتوقع(ثم أن

يكتشف) أن كثيراً جداً من موضوعات أو جزئيات هذه المذكرات قد تكرر الحديث عنه هنا وهناك فى هذا الفصل أو ذاك، وقد لاحظت أن بعض القصص تكررت فى أربعة فصول، وأن التفصيلات اختلفت من موضع إلى آخر، وربما وقع التكرار مع اختلاف روح الحديث حتى بدت القصتان متناقضتين، وربما وقع التكرار مع اختلاف الروح حتى بدا تفسيرا القصة الواحدة متناقضين، لكن الطابع المذكراتى أو النسيج المذكراتى يبقى محفوظاً لمادة هذا الكتاب، وليس من الصعب على صاحبه أن يعيد تنظيمه حتى يخلص من التكرار. لا نقول التكرار الممل على حسب التعبير الشائع، وإنما نقول التكرار المتناقض على حسب الأمر الواقع.

وسوف نضرب فى مدارستنا لهذه المذكرات بعض أمثلة على هذا التكرار، وسوف نشير أيضا إلى مدى العناية أو الأهمية التى يبعث عليها هذا التكرار.

(٣)

لا يجيد الدكتور عبد العظيم أنيس الحديث عن «صدفة» تحوله من الاهتمام بالإصلاح الاجتماعى إلى الإصلاح الاشتراكى، فيشير إلى أنه على الرغم من نجاحه البارز فى أداء أدوار متميزة من خلال برنامج متميز للإصلاح الاجتماعى، كان السفير العظيم كامل عبد الرحيم يشرف عليه، فإنه أحس فى نفسه ميلا إلى الإيمان بما دعاه إليه صديقه السابق عليه فى الدراسة فى كلية العلوم: محمد عبد المعبود الجبيلى، وهو يمرر هذه الرواية علينا دون أن يروى أن نقاشاً حاداً أو غير حاد قد دار بينه وبين الجبيلى حول هذه الجزئية أو تلك، بل إنه لا يكاد يذكر

أنه دافع عن وجهة نظره فيما كان يفعل ويؤدى ولا عن فخره بما أنجز، وإنما هو يروى أنه اقتنع بما أنهاه إليه الدكتور الجبيلى وتحول «تلقائيا» إلى الإيمان بالعمل من أجل الاشتراكية.

ويصعب علينا بالطبع أن نفهم أن مثل هذا التحول قد حدث على هذا النحو، فإننا فى الوقت ذاته نجد لزاما علينا أن ننقل للقارئ ما يصور به صاحب المذكرات هذا التحول بعد أن أضأنا الموقف برأينا:

«عندما جاءت وزارة الوفد إثر أزمة فبراير سنة ١٩٤٢ بين الملك والإنجليز ـ وسط غارات جوية ألمانية وإيطالية على القاهرة والإسكندرية ـ وكانت قوات روميل قد وصلت إلى العلمين، تطوعت للالتحاق بمدرسة الوقاية من الغارات الجوية بالزيتون التى كانت قد أنشئت لتدريب المشرفين على أعمال الوقاية من الغارات، وكان سنى آنذاك لا يزيد على ستة عشر عاما».

«وعندما خصصت الجمعية التعاونية للبترول خمسة فى المائة من أرباحها السنوية للخدمة الاجتماعية وقامت بإنشاء مبرتين للأطفال الفقراء(مبرة الأميرة فادية بالدمرداش، ومبرة الأميرة فريال بالقلعة)، سارعت وأنا طالب بالجامعة بالتطوع للعمل المجانى فى المبرة الأولى التى كانت قريبة من منزلنا، وقضيت فترات الصيف لثلاثة أعوام متتالية أعمل متطوعا بتلك المبرة فى فصول محو الأمية، وفى الطواف على منازل الأطفال الفقراء بالمحمدى لبحث الحالة الاجتماعية لأسرة كل طفل واقتراح معونة مالية لها، وكان يشرف على هذا العمل من قبل الجمعية التعاونية للبترول اثنان من كبار الممولين فيها: كامل عبد الرحيم

وكيل الخارجية المساعد آنذاك وسفير مصر فى واشنطن بعد ذلك، والمستشار عبد المنعم رياض الذى كان من قضاة محكمة النقض».

«ولقد استطعت إقناع بعض زملائى ومنهم د. محمد عجلان بالاشتراك فى هذا العمل التطوعى الخيرى خلال فترة الصيف، ونجحت فى ذلك، مما أسعد المسئولين عن هذه المبرة، خصوصا كامل عبد الرحيم الذى كان يرى فى هذا العمل نقطة تحول فى توجهات الشباب نحو الخدمة الاجتماعية. وساعد على توثق صلتى به أنه قد بدأ يكتشف أن موظفى وزارة الشئون المنتدبين للعمل بالمبرة كانوا يختلسون بعض الأموال المخصصة للإنفاق عليها، فما كان منه فإن كلفنى بمسئولية الإنفاق على المبرة يوميا وتقديم كشف حساب له كل شهر، وعندما تخرجت فى كلية العلوم وعينت معيدا بالإسكندرية أقام كامل عبد الرحيم حفلة شاى بمنزله بمصر الجديدة لتحيتى وتوديعى، وأهدانى باسم المبرة أربعة كتب فى الرياضيات قيل لى إنها سوف تفيدنى فى حياتى العلمية الجديدة».

. . . .

«كان عبد المعبود الجبيلى معيدا بقسم الكيمياء تخرج قبلى بعامين، وكان محل انتباه الأنظار بالكلية له لتفوقه العلمى وذكائه واهتمامه بالشئون العامة، ولقد حاولت اجتذابه للعمل معنا فى الخدمة الاجتماعية بمبرة الأميرة فادية فلم أجد منه الحماس الذى توقعته، وأدى بنا هذا إلى حوار طويل حاول فيه إقناعى بأن الخدمة الاجتماعية لن

تؤدى إلى تغيير حقيقى فى الأحوال المتردية للمجتمع المصرى، وأنها لا تزيد على أن تكون مسكنا من المسكنات مثل الأسبرين، وأن الحل الحقيقى الجذرى هو الثورة على النظام الملكى القائم، وأن مثل هذا العمل فى حاجة إلى إعداد طويل».

«وشيئا فشيئا بدأت أشك فى أنه مرتبط بشكل ما بتنظيمات ماركسية غير معلنة، ثم تيقنت من صحة هذه الشكوك عندما بدأ يتحدث معى ببعض الصراحة ويعيرنى بعض الكتب الماركسية الإنجليزية مثل «ما الاشتراكية» لإميل بيرنز، وكتاب «الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» للينين، وملخص لكتاب «رأس المال» لماركس، وكتب أخرى ترضى اهتماماتى بالفلسفة مثل كتاب «الأيديولوجيا الألمانية ضد دهرونج» لماركس، وكتاب «المادية والنقدى التجريبى» للينين، ولقد التهمت كل هذه الكتب وتصورت أننى فهمت وإن كنت قد أدركت فى فترات لاحقة أن الفهم الحقيقى لا يتحقق إلا بمعرفة السياقين الاجتماعى والثقافى اللذين ألفت فيهما هذه الكتب».

. . . .

«تلك كانت البداية إذاً . . مناقشات مستمرة مع عبد المعبود الجبيلى وغيره من الأصدقاء، وقراءة متصلة فى كتب ماركسية كان يعيرنى إياها، وكل هذا انتهى بى إلى الاقتناع بوجهة نظره بأنه لا يوجد حل لمشاكل مصر الاجتماعية غير الثورة، وأن خير ما يفعله شاب مثلى هو المشاركة فى الإعداد لها، وهكذا ارتبطت بمنظمة «اسكرا» التى كان الجبيلى أحد قياداتها، وعندما تمت الوحدة بين «إسكرا» وبين «الحركة

المصرية للتحرر الوطنى» عام ١٩٤٧، وتكونت منظمة الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى «حدتو» أصبحت واحدا من أعضائها».

(٥)

وينتقل الدكتور عبد العظيم أنيس إلى حديث من أحاديث التأريخ الأيديولوجى للدور الذى لعبته مجموعته فى الحركة اليسارية المصرية، ونحن نرى عباراته حريصة على إثبات الفضل من ناحية والتحفظ فى الوقت نفسه، وحريصة على النفى كما هى حريصة على الإثبات:

«. . . لاشك أن مجموعة المعيدين بكلية العلوم بالإسكندرية قد لعبت دورا رئيسيا فى تشكيل مصرى فى أوساط طلاب الجامعة وشبابها، وساعد على ذلك أننا نجحنا فى إنشاء ناد ثقافى بحى [الأزاريطة) بالإسكندرية كان محل لقاء الشباب المتحمسة للشئون العامة، وفى تأسيس رابطة للمعيدين تدافع عن مصالحهم النقابية، كما أن صدور مجلة «الجماهير» الأسبوعية بالقاهرة كان عنصرا مهما فى تجنيد العناصر المتحمسة لقضية الثورة».

«وبطبيعة الحال كانت هناك خواطر من الحيرة والريبة تلم بنا نتيجة إدراكنا أن هناك تنظيما «لاسكرا» فى أوساط الأجانب لا نعرف عنه شيئا، ولكن مما خفف هذا الوضع علينا فى الإسكندرية أننا كنا نعمل بنجاح كبير فى أوساط الطلاب والعمال، وكان الانفصال الكامل بين التنظيمين المصرى والأجنبى يساعد على أن ننسى هذه المسألة على الأقل فى السنوات الأولى».

«وكانت تلك الفترة (١٩٤٥ ـ ١٩٤٨) تتميز بجيشان جماهيرى

واسع، وتحركات شعبية من السخط والاحتجاج ضد الاحتلال البريطانى الرابض فى القاهرة والإسكندرية، وضد النظام الملكي، الذى كان قد فقد شعبيته، وبالتالى شرعيته تماما، وبشكل عام كانت أحوال المعيشة سيئة بالنسبة للغالبية من المطحونين اجتماعيا، وكانت الأوبئة تكتسح البلاد ـ الكوليرا مثلا ـ وتفتك بالألوف».

(٦)

ويجيد عبد العظيم أنيس إضفاء عبارات الفهم الطبقى والماركسى على الحديث عن نشأته وأسرتيه: أسرة والده، و أسرة والدته، وهو يحاول أن يخلص من كل التاريخ الذى يرويه إلى ما يهمه من حقائق يتصورها بمثابة العامل المحدد فى نشأته وتوجهاته، بيد أنه شأنه شأن علماء الرياضة يجيد صياغة الرمز والتعامل معه كرمز فحسب من دون أن ينفخ فى هذا الرمز الروح الكفيلة بالصراع والتفاعل، ولعل حديثه عن نشأته يمثل نموذجاً كاشفاً عن السر، الذى يزيد من حفاوة بعض المثقفين بكتاباته ومغزاها فى الوقت الذى لا تلقى هذه الكتابات نفسها اهتماما أو حفاوة على نطاق أوسع، وانظر إليه على سبيل المثال وهو يقول:

«... كانت عائلة أبى جميعا من الحرفيين نزحت أصلا من إحدى قرى الشرقية واستقرت بجوار مسجد ابن بنت رسول الله [عليه أفضل الصلاة والسلام] تلتمس فى جواره البركة، فمنهم من كان صاحب محل جزارة، أو كان نجارا، أو احترف صناعة البناء كما فعل جدى. ولقد تعلم أبى وشقيقاه خبرة صناعة البناء عن أبيهم، ثم انفصل كل

واحد منهم عن أبيه بعد الزواج، وارتبطت أعمال أبى بوزارة الأوقاف خصوصا لتركيزه على بناء المساجد فى المراكز والعواصم المختلفة لمحافظات مصر، بينما تخصص أعمامى فى عمليات ترميم المساجد الأثرية، وبالتالى تركزت علاقاتهم بمصلحة الآثار».

«وكانت عائلة أمى ذات صلة أيضا بصناعة البناء، ومن هنا تم زواج أبى بأمى. فقد كان جدى لأمى مقاولا كبيرا نسبيا بمقاييس عصره، وكان بارعا فى صناعته إلى درجة أنه أطلق عليه لقب «المهندس»، وهكذا اكتسبت أسرته هذا اللقب من بعده، ولقد كسب جدى لأمى كثيرا وأضاع معظم ما كسبه فى أهواء الشرب والنساء، على عكس جدى لأبى الذى كان شديد الحرص على ماله، فضلا عن أنه كان شديد الإسراف فى منزله، وقد تزوج سيدة تركية الأصل هى جدتى لأمى لا أذكر شيئا عنها، وإن كنت أسمع دائما أنها من فرط سمنتها كانت عاجزة عن المشى فى السنوات الأخيرة من حياتها، فكان أولادها ينقلونها على «صينية» عشاء كبيرة إذا أرادت الانتقال من غرفة إلى أخرى، أو الذهاب إلى الحمام».

(٧)

ويتنقل الدكتور عبد العظيم أنيس إلى جيل أخواله الذين بدءوا صلة عائلتهم بالعلم والوظائف المدنية، وهو يجيد الحديث عن هذا الانتقال الاجتماعى وأثره بالتالي عليه وعلى أخوته:

«وعلى عكس عائلة أبى لم يمتهن أحد من أخوالى صناعة أبيهم،

فقد كان الوضع التقليدى فى أسرة أمى هو التوجه نحو التعليم كطريق مضمون للحراك الاجتماعى، وكان التعليم آنذاك فى الأسرة يعنى الذهاب أولا إلى الأزهر لحفظ القرآن، ثم من هناك إلى تجهيزية دار العلوم، ثم إلى دار العلوم للعمل بالتدريس فى مدارس الحكومة، هكذا فعل خالى زكى المهندس، ومن بعده شقيقه كامل، وهكذا فعل من بعدهما شقيقى الأكبر إبراهيم».

«وكان أخوالى من الهمة فى التحصيل والتفوق فى الدراسة بحيث أرسل خالى زكى إلى بعثة لبريطانيا عام ١٩١٠ حيث قضى أربع سنوات وعاد للعمل فى تفتيش اللغة العربية، كما أرسل شقيقه الأصغر كامل فى بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٢٣، وبقى فيها سبع سنوات وعاد عام ١٩٣٠ حيث عمل رئيسا لقسم الفهارس العربية بدار الكتب المصرية، وكان لهما شقيق أكبر - من الأم فقط - [يقصد أن يقول «أخ» لكنه على عادة المصريين يتحدث عن كل الأخوة بلفظ الأشقاء] عرف فى الأسرة باسم الشيخ على الشهداوى، درس أيضا فى الأزهر وارتبط بالحزب الوطنى حتى أنه أرسل فى بعثة على نفقة الحزب إلى فرنسا لمدة ثلاث سنوات كان فيها معاونا لمصطفى كامل، ومن بعده عبد العزيز جاويش».

(٨)

ويستأنف صاحب المذكرات الحديث التفصيلى عن دور عائلة والدته فى تنمية تكوينه الثقافى والعلمى والسياسى له ولأشقائه، وتحويل هذا التعليم إلى اهتمام حفى بالحركة الوطنية والحياة السياسية فيقول:

«... إن جو التعليم الذى اندمجت فيه أسرة أمى أدى بطبيعة الحال إلى انحيازات سياسية مختلفة. فقد كان خالى (الأكبر) الشيخ على الشهداوى من أنصار الحزب الوطنى، بينما كان خالى الأصغر كامل (المهندس) شديد الحماس للوفد ولسعد زغلول، وكثيرا ما تصارع الاثنان حول شئون السياسة، وفى هذا الجو انحاز شقيقى الأكبر إبراهيم (الدكتور إبراهيم أنيس) إلى جانب الوفد، وكان وهو طالب فى دار العلوم كثير التردد على بيت الأمة، يلقى القصائد الوطنية أمام سعد زغلول، ومن بعده مصطفى النحاس، ولهذا كان انحيازنا الأول ـ أنا وأشقائى ـ إلى الوفد بطبيعة الحال».

(٩)

ولا تحفل مذكرات عبد العظيم أنيس بالامتنان العميق لأحد بقدر ما تحفل بهذا الامتنان من صاحبها لشقيقه الأكبر الدكتور إبراهيم أنيس، وهو يذكر فى مواضع متعددة وفى وضوح أنه كان بمثابة صاحب الفضل الحقيقى فى تربيته:

«... وينبغى أن أذكر هنا أن سلوك الابن الأكبر فى العائلة فى طريق التعليم يكون له فى العادة أثر غير قليل على الأبناء الأصغر، فهو القدوة والمثل خصوصا إذا كان فارق السن كبيرا، وفى حالتنا كان لتفوق شقيقى الأكبر إبراهيم أكبر الأثر عندى طوال مراحل التعليم. فبعد سنوات قليلة من التدريس أرسل فى بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٣٤، وطول المدة التى قضاها بالخارج كان يرسل لى كل فترة خطابات على المدرسة يشجعنى فيها على التفوق الدراسى ويطلب منى

أن أبعث له بأخبارى ومشاكلى. أتذكر مثلا أننى عندما كنت فى سنة الشهادة الابتدائية بالمدرسة الحسينية أن دخل ضابط المدرسة يوما إلى فصلى ونادى اسمى، فلما وقفت ناولنى خطابا من إنجلترا، وبالطبع كانت سعادتى وفخرى أمام زملائى فوق الوصف، وقد حدث نفس الشىء لأكثر من مرة عندما دخلت مدرسة فؤاد الأول الثانوية، وقضيت بها السنة الأولى والسنة الثانية».

(١٠)

كذلك يشير صاحب المذكرات إلى تكفل هذا الأخ (بصفة رئيسية) وباقى أفراد الأسرة بنفقات تعليمه، ولا يجد حرجاً فى أن يعترف ضمنا بأنه لم يكن من المتفوقين الذين يؤهلهم التفوق للإعفاء من المصروفات:

«كان التعليم الابتدائى بالمصروفات (عشرة جنيهات تدفع على ثلاثة أقساط) إلا للمتفوقين أو نسبة ضئيلة جدا يتم إعفاؤها بناء على تقديم شهادة فقر، ولم أكن من المتفوقين،ومع أن الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٩ ـ ١٩٣٢) قد أصابت أبى بضرر شديد وصل إلى حد الإفلاس، فإننا لم نكن نرغب أن نتقدم بشهادة فقر، ورغم هذه المعاناة فقد دفعوا لى المصروفات فى السنة الأولى وجزءا من السنة الثانية، ثم أعفيت بعد ذلك من المصروفات بمناسبة شفاء الملك فؤاد وصدور قرار بإعفاء الخمسة الأوائل من كل سنة من سنوات الدراسة».

. . . .

«وبشكل ما استطاعت الأسرة أن تجتاز تلك المرحلة بصعوبة ودون خسائر فادحة، ذلك أن أخى إبراهيم قد عين فى مدرسة خاصة بمرتب عشرة جنيهات، ومع أنه كان الثانى فى دفعة دار العلوم عام ١٩٣٠ إلا أنه لم يعين بمدارس الوزارة بسبب قرار صدقى باشا وقف التعيينات، وكانت شقيقتى الكبرى عائشة تعمل مدرسة بالمدارس الابتدائية، وساعدنا ذلك على تدبير قساط المصروفات لى ولثلاثة من الأشقاء، لكننا اجتزنا هذه المرحلة بتضحيات وآلام نفسية غير قليلة».

. . . .

وفى موضع آخر يتحدث الدكتور عبد العظيم أنيس عن الفضل الثقافى الذى يدين به لشقيقه الأكبر ومكتبته ويقول:

«. . . استفدت من مكتبة أخى إبراهيم بالمنزل التى تركها عند ذهابه إلى بريطانيا، وفيها قرأت مقامات الحريرى، وديوان المتنبى، وديوان الحماسة لأبى تمام، وكتاب قدامة بن جعفر فى نقد النثر وغيرها، ولست أدعى أننى فهمت كل ما قرأت فى مكتبة أخى، لكن ذلك كان مقدمة لمواظبتى على الذهاب كل يوم خلال الصيف إلى دار الكتب حيث أظل بها من العاشرة صباحا حتى الواحدة ظهرا، وساعدنى على هذا أن خالى الأصغر كان آنذاك رئيسا لقسم الفهارس العربية بينما كان الشاعر أحمد رامى رئيسا لقسم الفهارس الأجنبية فى القاعة المقابلة».

(١١)

وهو يخصص فصلا جميلا من هذه المذكرات للحديث عن ظروف

وفاة شقيقه وذلك بمناسبة حلول ذكراه السادسة عشرة ويستطرد من قصة الوفـاة إلى إيراد تأبينه المتـأخـر له، وفى هذا الفصـل يقول صـاحب المذكرات:

«. . . ظل إبراهيم أنيس بالنسبة لى أبا روحيـا، وبالتأكيد تفرقت بنا السبل عندما كـبرنا واهتممت أنا بالعـمل السياسى الذى كان قـد فقد الاهتمـام به منذ أن كان طالبا وفـديا وشاعرا يلقى قـصائده أمام سـعد زغلول فى بيت الأمة، ثم أمام مـصطفى النحاس من بعده، لكنه ظل فى مكانة الوالد بالنسبة لى».

«ولن أخـجل من أن أقول إنه أحـد أبرز حراس اللغـة العربيـة فى العصر الحـديث باعتباره لغويا رائدا أحـدث ثورة حقيقيـة فى علم فقه اللغـة، بدءا من دراستـه للهجـة أهل القـاهرة، وانتهـاء بجهـوده فى استخدام الكمبيوتر فى إحصاء تكرارات الحروف العربية».

«ولاشك فى أنه يحـسب له أنه أول من بشـر بالمناهج العصـرية فى دراسة أصوات اللغة مستعينا بالأجـهزة الصوتية الحديثة، وأثمر هذا كله كتابه الرائد «الأصوات اللغوية»، وبعد ذلك صدرت له المؤلفات الآتية على التوالى: من أسرار اللغة العربية، مـوسيقى الشعر، فى اللهجات العربية، دلالة الألفاظ (وهو الكتاب الذى حصل به على جائزة الدولة التشجـيعية عام ١٩٥٧)، مـستقبل اللغـة العربية المشتركـة، اللغة بين القومية والعالمية، طرق تنمية ألفاظ اللغة (مجموعة محاضرات)».

«كما كانت له أربع مسرحيات منشورة هى:

«١ ـ «العجوز المتصابى» وقد كتبها خلال دراسته بكلية دار العلوم وأشرف على تمثيلها فى مسرح الأزبكية».

«٢ ـ إيناس أو ضحية المجتمع».

«٣ ـ المنصور بن عامر الأندلسى».

«٤ ـ المتنبى فى مجلس سيف الدولة».

«وقد نالت جهوده المتميزة فى خدمة اللغة التقدير، لا على نطاق العالم العربى وحده، وإنما على النطاق الدولى أيضا، وكانت هذه الحقيقة وراء اختياره فى مقدمة اللغويين الذين يؤرخ لحياتهم فى (معجم اللغويين العالميين) الذى تصدره جامعة «إنديانا» بالولايات المتحدة».

وعلى الرغم من أن مذكرات عبد العظيم أنيس تعنى فى المقام الأول بالحديث عن كفاحه الأيديولوجى والسياسى، فإنها لم تستطع أن تنجو من الحديث عن التكوين العلمى والمسار الوظيفى، وفى هذا الإطار لا نرى الدكتور أنيس ممتنا لأحد من أساتذته وأهل تخصصه بقدر ما هو ممتن للدكتور محمد مرسى أحمد مع أنه لا يفيض فى الحديث عن طبيعة علاقته بهذا الرجل وسر عناية هذا الأستاذ بأن يهيئ له الفرصة الأكاديمية مرة بعد أخرى، وإن كنا نعرف أن هذا كان من طابع هذا الأستاذ النبيل الذى كان حريصا على زملائه من أبناء تخصصه.

(١٢)

أما ذكريات عبد العظيم أنيس عن لقاءاته وتعاملاته مع أستاذه على

مصطفى مشرفة فتحفل بالإعجاب بعالمنا الجليل وإن لم تتخط هذا الإعجاب إلى مراحل أخرى من التحليل الذى يحرص عليه مَنْ هم مثله، وقد تحدث عنها دون تكرار:

«دخلت كلية العلوم بجامعة القاهرة فى أكتوبر سنة ١٩٤٠، وتخرجت فيها فى يونيو سنة ١٩٤٤، وفى السنوات الثلاث الأولى والشهر الأول من السنة الرابعة لم يكن هناك أى اتصال شخصى بينى وبين عميد الكلية، ورئيس قسم الرياضة التطبيقية الأستاذ الدكتور على مصطفى مشرفة».

«كنت أحضر بالطبع محاضرات فى السنة الثانية وفى السنة الرابعة، وكان آنذاك يحاضر فى علم الإستاتيكا فى السنة الثانية، ويحاضر فى النظرية الكهربائية المغناطيسية للضوء والبصريات فى السنة الرابعة، وكنا نحن طلاب الرياضيات ننظر إليه باحترام ومهابة شديدين، وكانت تنتشر فى أوساطنا نحن الطلاب أسطورة أن مَنْ يفهمون النظرية النسبية لأينشتين فى العالم عشرة بينهم واحد مصرى هو على مصطفى مشرفة».

«ثم وقع حدث طلابى فى أوائل السنة الرابعة جعلنى على اتصال شخصى به طوال العام، هذا الحدث هو انتخابات الجمعية الرياضية الطبيعية لطلاب وأقسام الرياضيات والفيزياء، التى تجرى كل عام وينتخب فيها طلاب كل صف من الصفوف الأربعة اثنين من الطلاب فى مجلس إدارة الجمعية لذلك العام، وقد رشحت نفسى عن السنة الرابعة فانتخبنى زملائى، ثم اجتمع مجلس الإدارة الجديد وأكرمنى

زملائى فانتخبونى رئيسا لمجلس الإدارة عن العام الدراسى سنة ٤٣ - ١٩٤٤».

«وبعد انتخابى رئيسا للجمعية بدأت فى إعداد البرنامج الثقافى للجمعية، أى سلسلة المحاضرات التى سيلقيها مختصون فى موضوعات رياضية وفيزيائية عامة تثير اهتمام الطلاب، وحرصت بالطبع على أن أضع فى مشروع البرنامج محاضرة عن النظرية النسبية يلقيها على مصطفى مشرفة، وعندما عرضت عليه الاقتراح لم يعارض وإن كان قد طلب تأخير موعدها».

....

ويحصر الدكتور عبد العظيم أنيس ذكرياته عن الدكتور مشرفة فى ثلاث وقائع يشير إلى أنها ذكرياته الأولى والثانية والثالثة:

«الذكرى الأولى تتعلق بطالب اسمه صالح كان زميلا لنا فى السنة الرابعة، وإن تخصص فى الفيزياء، وقد صار عميدا لكلية العلوم بالإسكندرية فى الستينيات».

«جاءنى صالح فى أحد الأيام واقترح علىّ أن يكون ضمن البرنامج الثقافى للجمعية محاضرة له فى الفيزياء، ورفضت طلبه على أساس أن طالبا مثلنا لن يفيدنا بشىء جديد، ولو فتحنا هذا الباب، باب أن يقوم الطلاب بإلقاء محاضرات فى الجمعية، فلن نقدم للطلاب جديدا، ولم يقتنع صالح فذهب إلى عميد الكلية شاكيا موقفى».

«أتذكر أن ساعى العميد جاء يبحث عنى وعندما وجدنى قال لى:

الباشا يريدك على الفور، وذهبت إلى غرفـة العميد ألهث من الجرى، وعندما دخلت ولاحظ حالتى قام من مكتبه وأخذ كرسيا ووضعه بجوار النافـذة التى فتحـها على الفـور، وقال: «نتكلم عـندما تهدأ وتلـتقط أنفاسك».

«وبعد خـمس دقائق جاء وجلـس على كرسى آخر بجـوارى وقال لى: «هل يرضـيك أن يجلس الأسـاتذة فى الأتـوبيس بينمـا الطلاب واقفون؟ وكان بطبعه يهوى الحديث بمثل هذه التشبيهات والاستعارات، ورغم أننى لم أفهم المقـصد من وراء هذا الكلام، إلا أننى رددت على الفور: إن هذا وضع طبـيعى، إذ على الطلاب أن يقـفوا فى الأتوبيس احتراما لأساتذتهم، فضلا عن أنهم أقدر على الوقوف لصغر سنهم».

«ضحك العـميد ضحكتـه المعهودة وقال: غلبـتنى! وتكلم فورا عن شكوى الطالب صـالح وشـرحت له وجـهة نظرى التى وافـق عليهـا مجلـس إدارة الجمعـية، لكنه قـال: ياسيـدى علشان خـاطرى أعطوه فرصة، ووافقت طبعا. . لا اقتناعا وإنما احتراما لرغبة العميد».

(١٣)

ويتنقـل الدكتور عـبد العظيم أنيس إلـى الحديث عن الفرصـة التى أتيحت له لتـقديم أستاذه الدكـتور مشرفـة فى محاضرة عـامة أقامتـها الجمعية الطلابية عن النظرية النسبية:

«بدأت أتساءل: مَنْ الذى سيقدم العميد فى هذه المحاضرة؟ وقررت أن من الأنسب أن يقـدمه واحد من الأسـاتذة وذهبت إليه مـقتـرحا أن

يتولى تقـديمه أسـتاذنا د. محـمد مرسى أحـمد رئيس قـسم الرياضة البحتة الذى كانت له مودة خاصة فى قلبى، لكن العميد رفض وقال: أنت رئيس الجـمعـية وأنت الذى تقـدمنى للحضـور. . وبالطبع كنت خجلا من تقديمه، لكنه صـمم على ذلك وفعلت ما طلبه، وأتذكر أن مدرج قـسم الفيزياء حـيث ألقيت المحاضرة كـان مليئا بالحـاضرين من داخل الكلية وخارجها، وأن القضـايا التى أثارتها هذه المحاضرة كانت ذات أثر كبير على الحاضـرين، وطال زمن المحاضرة والأسئلة إلى نحو ثلاث ساعات، وهو أمر نادر الحدوث فى برنامج المحاضرات».

(١٤)

ويشـير الدكـتور عـبد العظيـم أنيس إلى ذكرى ثالثـة، وهى قصـة الصورة التـذكارية التى لا يزال يحـتفظ بها فى مكتـبه حتى الآن كـما يقول:

«أما الذكرى الثالثـة فتتعلق بالصور التذكـارية التى كانت تؤخذ فى أواخر العـام الدراسى لمجلس إدارة الجمعيـة مع رئيس شرف الجمعـية والمستشارين، ولاتزال هذه الصورة فى غرفة مكتبى بالمنزل حتى الآن».

«والعادة أن هناك مَنْ يجلسون على دكة أعدت لهذه المناسبة، وهناك مَنْ يقفـون وراءهم، وقررنا ـ نحن الطلاب ـ أن الأسـاتذة هم الذين يجلسـون بينمـا نقف ـ نحن الطـلاب ـ وراءهم، لكن على مـصطفى مشرفة كان له رأى آخر، إذ صمم على أن أجلس على الدكة فى وسط الصـورة ويجلس الأسـاتذة على الجـانبين، وكنـت فى أشد حـالات

الخجل وحاولت جاهدا أن أقف مع زملائى الطلاب فى الصف الخلفى، لكنه صمم على رأيه وقال ضاحكا: أنت رئيس الجمعية وتستحق أن تكون مركز الصورة، وهذا ما كان فعلا».

«ولم أر على مصطفى مشرفة بعد تخرجى وتعيينى معيدا فى جامعة الإسكندرية، لكن ذكراه ظلت عزيزة إلى قلبى، غالية فى نفسى، وأتذكر أننى عندما عملت رئيسا لشركة الكاتب العربى للطباعة والنشر عامى ١٩٦٧ و١٩٦٨ كان كتاب «الجبر والمقابلة» للخوارزمى الذى قام بتحقيقه على مصطفى مشرفة ومحمد مرسى أحمد ضمن كتب الدار التى أعيد طبعها».

(١٥)

ويشير الدكتور عبد العظيم أنيس إلى بعض فضل زملائه وأساتذته عليه فى اقتضاب، وبإشارات سريعة لكنه يخص بالتقدير الدكتور محمد مرسى أحمد عميد أساتذة الرياضيات فى عصره وهو يروى قصة سعى هذا الأستاذ فى نقله من جامعة الإسكندرية إلى جامعة القاهرة ويقول:

«اتصل بى الدكتور طلبة عويضة، وكان المدرس الوحيد فى قسم الرياضة البحتة بكلية العلوم جامعة القاهرة، وأبلغنى أن رئيس القسم الدكتور محمد مرسى أحمد (وزير التعليم العالى بعد ذلك أيام السادات) يريد أن يرانى، وكنت أرتبط معه تاريخيا برباط الود والتقدير منذ أن كنت رئيسا للجمعية الرياضية الطبيعية وأنا طالب فى سنة البكالوريوس، وهكذا ذهبت إلى مقابلته بالكلية بالجيزة فإذا به يفاجئنى

بعرض تعـيينى فى قسم الرياضة البـحتة بعلوم القـاهرة فى مكان طلبة عويضة، الذى كان سوف يعار لجـامعة بغداد، وعندما أبديت له شكى فى أن توافق جـامعـة الإسكندرية على ذلك قـال لى: المهم أن توافق أنت واترك الباقى لى».

«وبالفعل وافقت وأنا لا أصدق أن هذا سوف يتم، لكن قراراً صدر من وزير التعليم بنقلى من جـامعة الإسكندرية إلى جامعـة القاهرة بعد هذا اللقاء بـأربعة أيام، رغم استـياء جـامعة الإسكندرية ومـحاولتـها تعطيل هذا النقل بعض الوقت».

(١٦)

ويبدو أن الـدكتور مـحمـد مرسى أحمـد ظل على رعايتـه الأبوية للدكتور عبد العظيم أنيس، وكأنه كـان يريد للعلم أو الجامعة أن ينتفعا به على الرغم مـن إبحـار عـبد الـعظيم أنيس فى عـالمى السـيـاسـة والصحافة، ونحن نرى عبد العظيم أنيس وهو يشير إلى فضل الدكتور محمـد مرسى أحمـد فى مرحلة تالية حين رشـحه للعمل فى جـامعة أسيـوط عند نشأتها، ومن الطريـف أن نشير إلى أن مـا كان ممكنا فى بداية عهد الثورة أصبح صعبا بعد أن تقدم العهد بالثورة وتمكنت أجهزة الأمن وشبـيهـاتها من تصنيف أهل الفكر حـسب ميولهـم واتجاهاتهم اليسارية والحـرص على إبعادهم عن العمل فى الجامـعة، ونحن نلحظ فى رواية عبد العظيم أنيس مدى الجهـد الذى كان سليمان حزين يبذله ويتفانى فيه من أجل اختيار أفضل العناصر للجامعة الناشئة، وهو جهد ذكـره الناس جمـيعـا على مدى تاريـخنا المعاصـر مقـرونا بالاعتـزاز والتقدير:

«... والأغرب من هذا أننى فوجئت ذات صـباح فى جريدة المساء بمدير جامعة أسيوط الدكتور سليمان حزين يطرق بابى ورحبت به كثيرا وإن كنت لم أدرك سبب الزيارة، وقال لى: إنه كان فى زيارة لأستاذى محمد مرسى أحمد، وكان آنذاك وكيلا لجامعة القاهرة يسأله أن يرشح لجامعـة أسيوط أستـاذا مساعدا لـلرياضة البحتـة فى كلية العلوم، وأن الدكتور مرسى رشحنى!!».

«وقلت له: إننى غـارق لأذنى فى عـملى الصـحـفى بالقـاهرة وأنا أفضله طبـعا عن عملى بأسيـوط،وعلى أية حال فقد كـان تقديرى أن كـمال الدين حـسـين وزير التـعليم آنذاك لن يوافق على عـودتى إلى الجامعة».

«لكن سليمان حزين كان حـريصا على تعيينى بأى شكل وقال لى: إن هناك طائرة يوميـة بين القاهرة وأسيـوط، وإن المطلوب فقط هو أن أذهب إلى أسيوط يومين أسبـوعيا أحاضر فيهمـا فى الرياضة البحتة، ولا مانع من أن أسـتمر بعـملى فى الصحافـة بقية أيام الأسبـوع، أما موافقة كمال الدين حسين فـقد قال سليمان حزين: اترك لى هذا الأمر وأنا كفيل بإقناعه».

«وبالفعل أعلنـت جامعـة أسيوط فى الصـحف عن وظيفة أسـتاذ مسـاعد فى الرياضة البـحتة، وخوفـا من أن أكون لم أنتبـه للإعلان أرسل لى سليمان حزين نسخة منه وطلبـا للتعيين لكى أملأه، وبالفعل أرسلت طلب التعيين إلى جامعـة أسيوط بعد أن ملأته، وبقيت منتظرا النتيجة».

«إلى أن فوجئت بدخول سليمان حزين مرة أخرى إلى مكتبى فى جريدة المسا وقال وهو فى أشد حالات الخجل: إنه فشل فى إقناع كمال الدين حسين بالموافقة على تعيينى أستاذا مساعدا بجامعة أسيوط».

«وهكذا بقيت فى عملى الصحفى إلى أن جرى اعتقالى فى حملة أول يناير سنة ١٩٥٩ ضمن مئات من اليساريين المصريين».

(١٧)

ويشير الدكتور عبد العظيم أنيس إلى فضل أستاذه الدكتور محمد مرسى أحمد فى مرحلة ثالثة من حياته حين ساعده على الحصول على وظيفة أستاذ كرسى الرياضة البحتة فى علوم عين شمس، على الرغم من تخوفه الطبيعى من أن تعارض أجهزة الأمن فى هذا التعيين، وهو يشير ضمن حديثه عن هذه المكرمة إلى أن زميلا له هو الدكتور نزيه ضيف كان قد استطاع أن يستصدر قرارا جمهوريا من الرئيس عبدالناصر بتعيينه مديرا عاما فى وزارة الخزانة.

كذلك يحرص الدكتور عبد العظيم أنيس على أن يشير إلى أنه استعان بالأستاذ محمد حسنين هيكل من أجل الحصول على الضوء الأخضر من الرئيس عبد الناصر، ونحن نلاحظ أن الدكتور أنيس يتجاوز عمدا عن ذكر طبيعة علاقته بالأستاذ هيكل فى هذه الفترة، وهى علاقة امتدت إلى تكليف هيكل له بترجمة بعض المواد الصحفية والتاريخية التى تتوافق مع توجهات كليهما فى ذلك الوقت:

«... فوجئت بصدور قرار جمهورى بتعيينى مديرا عاما للبحوث فى وزارة الخزانة فى يوليو ١٩٦٤، وكان وزير الخزانة آنذاك (الدكتور نزيه ضيف) زميلا لى فى الدراسة بالمرحلة الثانوية، وكان هو الذى أبلغ عبد الناصر باحتياجه لى للعمل معه بالوزارة».

«ومع أننى لم أكن متحمسا أبدا للعمل بالدواوين الحكومية إلا أننى بالطبع شكرت الدكتور نزيه على مبادرته، وبقيت أعمل معه فى مكتبه نحو عام ونصف العام إلى أن اتصل بى أستاذى الدكتور محمد مرسى أحمد، وكان آنذاك مديرا لجامعة عين شمس، وأبلغنى أن كرسى الرياضة البحتة فى علوم عين شمس قد أصبح شاغرا بوفاة شاغله، وأنهم ينوون أن يعلنوا عن هذه الوظيفة فى الصحف واقترح أن أتقدم ضمن المتقدمين».

«وبالفعل تقدمت بطلب لشغل هذا الكرسى، وخوفا من أن أواجه معارضة أجهزة الأمن فى عودتى إلى الجامعة، أرسلت خطابا إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل أشرح له الموقف وأرجوه التدخل حتى لا يتعطل الموضوع مرة أخرى كما حدث فى جامعة أسيوط، وكان الأستاذ هيكل كريما فى موقفه، فقد اتصل بالرئيس عبد الناصر فعلا ثم اتصل بى هاتفيا وأكد لى موافقة الرئيس عبد الناصر على عودتى إلى الجامعة إن رأت الجامعة أنها فى حاجة لى».

«وقد اختارتنى اللجنة العلمية لشغل كرسى الرياضة البحتة فعلا، وبقيت شهرين بعد ذلك إلى أن أصدر مجلس جامعة عين شمس قرار بتعيينى».

«وهكذا عدت إلى الجامعة في يناير ١٩٦٦ وبقيت فيها أدرس وأشرف على رسائل علمية حتى اليوم».

(١٨)

وبالإضافة إلى ثناء عبد العظيم أنيس على أستاذية كل من الدكتور على مصطفى مشرفة والدكتور محمد مرسى أحمد يأتى الأستاذ إحسان عبد القدوس فى مقدمة مَنْ يثنى عليهم عبد العظيم أنيس، وهو يخصص فصلا كاملا من مذكراته لإعادة نشر مقاله الذى كتبه فى تأبين إحسان عبد القدوس تحت عنوان «باقة ورد لإحسان عبد القدوس»، وهو يشير فى هذا المقال كما يشير فى كثير من مواضع مذكراته إلى كثير من الصفات النبيلة التى كان إحسان عبد القدوس يتمتع بها، وكانت تدفعه إلى اتخاذ مواقف إيجابية ومثمرة تجاه أبناء جيل عبدالعظيم أنيس، وهو يلخص هذه المزايا فى سمتين هما سعة الأفق، والشجاعة، لكن حديثه المنصف عن الوقائع يضيف إلى هاتين الصفتين الجميلتين كثيرا مما يستحق التقدير والإشادة فى خلق إحسان عبدالقدوس وحياته:

«... كنت وإحسان فى مقدمة المظاهرة [الحديث عن مظاهرة وطنية اشترك فيها فى منتصف الثلاثينيات]، بينما كنت أنا فى الثانية عشرة من عمرى فى المؤخرة، وانتهت المظاهرة بالتصادم مع البوليس ونجا إحسان، بينما وقعت أنا فى أيديهم وقضيت فى حجز قسم شرطة الوايلى يوما واحدا حتى أفرج عنى».

«لم يكن إحسان يعرفنى شخصيا، لكنى فوجئت بعد ثورة يوليو بعدة شهور يذكرنى، وهو يستقبلنى فى مكتبه بروز اليوسف بتلك الواقعة التى كان قد انقضى عليها ١٧ عاما».

«ولقد تميز إحسان بخصلتين مازلت أذكرهما له، وأحسبهما من أجمل شمائله على الرغم من الخلافات السياسية والأدبية التى فصلت بيننا.. وإن لم تؤثر على صداقتنا.. هاتان الخصلتان هما سعة أفقه، وشجاعته».

«بعد ثورة يوليو بأسابيع عدت من البعثة في بريطانيا، وعينت مدرسا بكلية العلوم بجامعة القاهرة، وبدأت أكتب أسبوعيا بصفحة الأدب بصحيفة المصرى».

«وأذكر أننى كتبت مقالا طويلا تعرضت فيه بالنقد الحاد لقصص إحسان، وإذا ببعض الأصدقاء من العاملين معه يتصلون بى ويقولون إنه يريد أن يرانى».

«وبالفعل ذهبت إلى لقائه فى مكتبه، فإذا به يعرض عليّ أن أكون من كتاب روز اليوسف!».

«وبدأت بالكتابة فيها كل أسبوع، ثم قمت بتحرير باب «أدب» بعد انتقال فتحى غانم لأخبار اليوم».

«وظل هذا هو الوضع حتى نهايات عام ١٩٥٤، عندما صدر قرار مجلس قيادة الثورة بفصلى من الجامعة ضمن آخرين، وذلك بسبب موقف اليسار من الثورة وخلافه معها حول قضية الديمقراطية».

«وعندما عُرضت عليّ وظيفة مدرس بجامعة لندن قبلتها مضطرا لأننى عشت فى القاهرة شهورا بلا عمل، ومن لندن ظللت أرسل بعض المقالات الثقافية لإحسان فيقوم بنشرها رغم علمه أننى من المغضوب عليهم».

«ثم تجلت شجاعته حقا فى مقال نشره عنى فى روز اليوسف عام ١٩٥٥ بعنوان «الرجل الذى سرقه الإنجليز»، قال فيه أشياء طيبة كثيرة عنى لا أستطيع ذكرها هنا، ثم دعا فى ختام المقال إلى إعادتى إلى مصر، وإلى جامعة القاهرة».

. . . .

ولا يفوت عبد العظيم أنيس بعد هذا كله أن يشير إلى ما عرفه من مضمون الحوار الذى دار بين الرئيس عبد الناصر وإحسان عبدالقدوس، وهو حوار يشير إلى أن عبد الناصر كان من الذكاء السياسى بحيث كان يدرك حقيقة موقف الشيوعيين فى كل مراحله.. أو هكذا شاء عبد العظيم أنيس أن يقنعنا بما يرويه:

«بعد أيام من نشر المقال كان إحسان فى طريقه إلى باندونج فى صحبة الزعيم عبد الناصر الذى سأله عن المقال وعنى، وقام إحسان بشرح وجهة نظره فى إسهاب، لكن عبد الناصر ختم الحديث بقوله: إن الشيوعيين يضحكون عليك ويستخدمونك يا إحسان».

(١٩)

ويضمن عبد العظيم أنيس كتاب ذكرياته فصلا آخر بعنوان «ذكريات

مع إحسان عبد القدوس» وهو يشير بحب وتقدير إلى حقيقة موقف إحسان عند ترشيحه للانتخابات البرلمانية (١٩٥٧) وبعد خروجه من المعتقل (١٩٦٤)، ويقول:

«... وعندما رشحت نفسى فى يوليو ١٩٥٧ للانتخابات النيابية عن الدائرة السادسة (الوايلى والعباسية)، لم يتردد إحسان هو وكامل الشناوى فى التوقيع على بيان الكُتَّاب والفنانين الذى دعا الشعب إلى انتخابى، هذا رغم علمهم أن بعض أجهزة السلطة فى مصر لم تكن راضية عن ترشيحى وكانت تسعى سرا وعلنا إلى إسقاطى، فقد كنت مرشح اليسار الوحيد فى هذه الانتخابات، وكان نجاحى سابقة لها ما بعدها».

. . . .

«وعندما أفرج عنى فى إبريل سنة ١٩٦٤ اتصل بى إحسان عبدالقدوس ودعانى إلى الكتابة فى روز اليوسف، وبالفعل عدت للكتابة من جديد فيها إلى أن انتقل الأستاذ أحمد بهاء الدين إلى دار الهلال فانتقلت إلى الكتابة فى مجلة المصور معه».

«ولقد ترددت كثيرا على منزله (أى منزل إحسان عبد القدوس) فى الستينيات ومازلت أذكر لقاءنا مع جيفارا فى منزله الحالى فى الزمالك».

(٢٠)

ونحن نرى عبد العظيم أنيس شأنه شأن أصحاب المذكرات حريصا

على أن يستقصى علاقاته بأعـلام عصره ممن لا يزالون يحظون بالشهرة فى زمـاننا، ومن هؤلاء طه حـسـين الذى يـدين عـبد الـعظيم أنيس بالفـضل له فى تسلـمه العـمل فـى كليـة علوم الإسكندرية: بعـد أن أفرجت عنه حكومة الـوفد من الاعتقال الذى عـاناه فى عهد وزارات الأقلية:

«... عندما أفرج عنى فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عـدت إلى جامعة الإسكندرية كـما عـاد زملائى الآخـرون من المعـيدين، لكننا وجـدنا تقاعسـا من الكلية فى تسليمنا العمل من جـديد، وعدت إلى القاهرة ساعـيا لمقابلة وزيـر التعليم [يقصـد المعارف] الجديـد بالوزارة الوفدية الدكتور طه حـسين لشرح الأوضاع له، ولقـد نجحت فى ذلك بفضل سكرتيره الخاص حسـين عزت ومدير مكتبه سعيـد العريان، ولقد كان موقف الوزير رائعا على الرغم من أنـه لم يكن يعرفنى أصلا، أنصت باهتمـام كعادته لكل ما قلتـه ثم أشار إلى حسـين عزت أن يطلب له مدير جامعة الإسكندرية تليفونيا، وبقيت فى غرفة حسين عزت إلى أن استـدعانى الوزير مرة أخـرى لمقابلته فـإذا به يطلب منى أن أذهب إلى الإسكندرية لتـسلم عـملى، وقـد علمت بعد ذلـك عندما عـدت إلى الإسكندرية أنه شدد على مدير الجامعة بضرورة عودتنا إلى عملنا».

. . . .

ومن المهم أن نشيـر إلى أن عبـد العظيم أنيس يـروى هذه القصـة بطريقة أخرى فى فصل آخر، فيقول ضمن ما يقول:

«. . . ركبت أول قطار إلى القاهرة قاصدا مكتب وزير التعليم [يقصد: المعارف]، وطلبت مقابلته لشرح الأمر له، وكانت الوزارة تعج بمئات القادمين للتهنئة وقضاء الحاجات، ولم أكن أطمع فى هذه الظروف ـ وأنا بلا واسطة ـ فى أكثر من تحديد موعد لى بعد أسبوع على أقل تقدير، لكن ما بهرنى أن طه حسين طلبنى للقائه بعد نصف ساعة من وجودى فى مكتبه، واستمع إلىّ طويلا ولم ينبس ببنت شفة طوال حديثى، ثم أشار إلى سكرتيره أن يأخذنى إلى مكتبه وأن يطلب لى مدير جامعة الإسكندرية على الهاتف، ولست أدرى بطبيعة الحال ما جرى بينه و بين مدير الجامعة، لكنه طلبنى مرة أخرى بعد انتهاء الحديث ولم يزد على أن قال: «عد إلى الإسكندرية واستلم عملك فى الجامعة». . وقد كان».

«حاولت أن أشكر طه حسين بكلمات متلعثمة وأنا أنسحب من غرفته، وعندما ذهبت إلى الإسكندرية كانت الشائعات قد سبقتنى إليها، عن هذا اللقاء وعن حديث طه حسين مع مدير الجامعة، حتى قال أحد أساتذة الجامعة إنه عرف أن حديث الوزير لمدير الجامعة كان حادا، وأنه قال له: «الحق أحق أن يتبع ياصادق بك».

(٢١)

ويشير عبد العظيم أنيس إلى لقائه المباشر بطه حسين عام ١٩٥٣ وظروف هذا اللقاء، ولست أدرى لماذا حجب عنا اسم زميله أستاذ الرياضيات الشهير، بيد أننا لا نستطيع أن نتجاوز الإشارة إلى ما يتضمنه حديث عبد العظيم أنيس من ثقته هو وزميله فى حسن تصرف

رجل بعيـد عن تخصصهمـا الدقيق لأنهما كـانا ولا يزالان يدركان أن القضـية قضية مـنهج وليست قضيـة تخصص، وأنها قضـية فكر وعلم واستحقاق قبل أن تكون نزاعا وظيفيا:

«. . . لقد جاءنى زميل لى فى الجامعة كان ولايزال من أبرز أساتذة الرياضيات فى مصر، فى أحد أيام عام ١٩٥٣ وسألنى إن كنت أعرف طه حسين، وقلت له إننى لم أر طه حسين غـير مرة واحدة فى حياتى وأغلب الظن أنه قـد نسينـى، وشرحـت له ظروف هذا اللقـاء، ولما سألتـه عن سبب الـسؤال عرفت أنـه كان قد تقـدم إلى جائزة «أمـين لطفى» فى الرياضـيات وأن طه حسـين عضـو فى اللجنة التى ستـقرر الفائز لها، وأن لديه معلومات مؤكدة أن بعض أعضاء اللجنة من رجال وزارة التعليم يبيتون النية على منحها لشخص آخر وثيق الصلة بالسلطة ذكر لى اسمـه، وأنا أعلم عن ثقة بطبيعة تخـصصى أن هذا الآخر لا يستحقها».

«واستـعنت بإحسـان عبد الـقدوس لكى يطلب لى مـوعدا مع طه حـسين، وتم تحـديد الموعد فى اليـوم التالى السـاعة الحـادية عشـرة صباحا».

«كان مـحمود النحـاس مدير الأوبرا آنذاك حاضـرا فى هذا اللقاء، وشرحت لطه حـسين قلق زميلى ممـا يبيت له من بعض رجال التـربية والتعليم، وقناعتى الشخصية بامتياز هذا الزميل فى البحوث الرياضية، قلت له: «إننى أترك لك الموضوع بأكـمله واثقا من أنك سوف تنصف صاحب الحق».

«أنصت طه حسين لكل ما قلته، وأنا أشعر بالارتباك والهيبة فى حضرته، ثم قال: «قل لصديقك هذا إنه لن يظلم مادمت فى هذه اللجنة»، وهذا ما تم بعد ذلك فقد منحت الجائزة له فى نهاية الأمر».

(٢٢)

ويستطرد عبد العظيم أنيس فى ذكاء بالغ إلى ذكر حوار عابر دار بينه وبين طه حسين فى هذا اللقاء الذى تهيأ له بفضل حرصه على مصلحة زميله وحقه:

«غير أن طه حسين انتهز فرصة هذا اللقاء لمشاغبتى حول ما أكتبه فى قضايا الفكر والأدب، وبدأ سائلا لى: «ما علاقتك بالأدب وأنت أستاذ فى العلوم؟»، وشرحت له أننى نشأت فى عائلة كثير من رجالها يحبون الأدب ويتولون تدريس اللغة العربية بالمدارس، ويهوون الشعر بالذات، وأننى لم أشذ عن هذا التقليد إلى درجة أننى ترددت فترة عند التحاقى بالجامعة بين الالتحاق بكلية الآداب أو بقسم الرياضيات بكلية العلوم، وأننى كنت فى شبابى المبكر شاعرا فاشلا!».

«ثم تجرأت وسألته رأيه فيما أكتب! قال: «ينبغى أن تزيد من قراءتك وإلا تكن ضيقا فى نظراتك، إنكم تتياسرون وتظنون أني على يمينكم، هل كتب أحدكم شيئا كالمعذبون فى الأرض؟!».

«ولقد خرجت من هذا اللقاء الثانى متيقنا أنه مازال يذكر لقاءنا الأول منذ ثلاثة أعوام، وأنه تصرف معى تصرف الأب الرحيم عندما يزجر واحدا من أبنائه ويرده إلى ما يعتقد أنه الصواب، وأنه كان سعيدا

لأن يرى أحد أبنائه ناجحا فى السلك الجامعى، مهتما بقضايا الفكر والأدب».

(٢٣)

ويخص عبد العظيم أنيس الوزير الوفدى فؤاد سراج الدين (شأنه شأن طه حسين) بحديث عن اللقاء العابر حيث يقول:

«ومن المفارقات الغريبة التى وقعت لى قبل سفرى بأقل من شهرين أن وزير الداخلية فى وزارة الوفد فؤاد سراج الدين استدعانى إلى مقابلة فى مكتبه بلاظوغلى فى يوليو سنة ١٩٥٠، كما استدعى زميلى د. محمد عجلان، وقد أجرى معنا حوارا سياسيا طويلا حول أفكارنا وبرنامجنا السياسى تحدثنا معه بصراحة حول قضايا الإصلاح الزراعى وبرنامج النهوض بالريف، وحول قضايا التأميمات (خصوصا شركة قناة السويس) وحقوق الحركة العمالية النقابية... إلخ».

«وكان رأى الوزير أن الكثير مما ندعو له موجود فى برنامج الوفد، ولم نوافق بالطبع على هذا الرأى.. وقد فهمت السبب الأساسى لدعوته عندما قال: إن تقارير القسم المخصوص تقول إننا مستمرون فى نشاطنا السياسى غير القانونى، ولم يكن هذا صحيحا بالمرة، فقد كنت أستعد للسفر إلى لندن ومشغولا بإعادة تأهيل نفسى من الناحية العلمية».

«وقد أوضحت هذا للوزير الذى فوجئ بنبأ استعدادى للسفر إلى لندن، ولقد ذكرته فى الرد على تقارير القسم المخصوص الزائفة بما

كان يُتهم به عام ١٩٤٩ من نفس هذه الأجهزة بأنه يدبر مؤامرة لاغتيال رئيس الوزراء آنذاك النقراشى، ولم يملك الوزير إلا أن يبتسم ويسكت عند سماعه كلامى، ومن طرائف هذا اللقاء أن ضابط القسم المخصوص الذى حضر هذا اللقاء واستمع إلى هجومى على تقارير القسم المخصوص هو ممدوح سالم الذى صار رئيسا للوزراء بعد ذلك فى عهد السادات».

(٢٤)

ونتقل من حديث عبد العظيم أنيس عن الشخصيات التى يمتن لها إلى حديثه عن مونولوجاته الداخلية فى فترة التكوين.

يحدثنا الدكتور عبد العظيم أنيس عن العوامل التى حسمت اختياره للدراسة فى كلية العلوم على الرغم من ميله إلى دراسة الأدب، ونحن نراه يكرر الحديث عن نصيحة شقيقه له متجاهلاً أثر ما كان يتمتع به هو نفسه من ميل إلى الرياضيات وعلومها، ونحن نعرف بالطبع أنه لم يكن ممكنا له أن يتفوق فى دراسة الرياضيات ولا أن يتمها على مستوى الدراسات العليا من دون قدر كبير من الحب العميق القادر على تجاوز صعوبة دراستها وما تتطلبه من دأب واجتهاد، لكن عبد العظيم أنيس لسبب، لست أدريه تماما، يبدو وكأنه حريص على أن يتجاهل هذا كله ويقول:

«... ولقد واجهت مشكلة عسيرة إثر حصولى على شهادة الثقافة العامة، إذ كان علىّ أن أختار إحدى الشعب الثلاث للسنة التوجيهية

(آداب، علوم، رياضيات)، فقد كنت محبا للغة العربية والأدب والفلسفة، كما كنت محبا أيضا للرياضيات ومتفوقا فيها، ومع أنه بدا لى أن الجمع بين الرياضيات والفلسفة هو أمر طبيعى لأن أفلاطون كتب على باب أكاديمية «لا يدخلها إلا المشتغلون بالهندسة»، إلا أن نظام التعليم فى جامعاتنا لا يسمح بذلك، فإما أن ألتحق بكلية الآداب لدراسة الفلسفة أو بكلية العلوم لدراسة الرياضيات، ولقد اكتشفت فيما بعد أن الجمع بين الدراستين يتحقق بسهولة فى الجامعات الأوروبية والأمريكية حيث تقوم الجامعة على الأقسام كالوحدات الأساسية وليس الكليات، وحيث جدول الدراسة من المرونة بحيث يسمح بالجمع بين تخصصات تبدو متباعدة تماما فى جامعاتنا، وفى ظنى أن إحدى نقاط الضعف الأساسية فى جامعاتنا هو هذا الوضع الجامد الذى لا يسمح بالجمع بين الفلسفة والرياضيات معا، أو بين الرياضيات والاقتصاد.. وهكذا».

«وظللت فى هذه الحيرة طوال صيف ١٩٣٩، ثم تصادف حضور أخى إبراهيم من لندن لزيارتنا فقام بإقناعى بدخول كلية العلوم لدراسة الرياضيات وقال آنذاك : إن فى مقدورى دراسة الفلسفة أو الأدب وحدى بالقراءة والمثابرة فى أشهر الصيف بينما أنا أدرس الرياضيات بكلية العلوم، لكن العكس صعب وإن لم يكن مستحيلا، وأذكر أنه قال لى كآخر حجة فى جعبته: إن الفلسفة والأدب لا يطعمان أحدا!».

(٢٥)

أما حديث عبد العظيم أنيس عن ممارساته السياسية وما ناله بسببها

من تعذيب أو إيذاء فيمثل الجزء الأكبر من حديث مذكراته بالطبع، وهو يجيد «الحديث الشائك» عن معاناته القاسية فى عهد الثورة مع حرصه المفهوم بالطبع على الانحياز إلى التجربة الناصرية، وهو يحرص على التنبيه على أنه ظل معتقلا فى الحالتين (أى فيما قبل الثورة وبعدها) على الرغم من انتفاء دواعى اعتقاله، وهو يقول بكل وضوح فى مقدمة كتابه:

«... قضيت سبع سنوات من حياتى معتقلا، بسبب أفكارى السياسية اليسارية، خمس سنوات وثلاثة شهور فى معتقلات عبدالناصر، وسنتين إلا ثلاثة شهور فى معتقلات الملك فاروق، وقد قضيت أيام الملك فاروق فى معتقلات أبى قير، ثم الهايكستب، ثم الطور على البحر الأحمر».

«أما معتقلات عبد الناصر فقد كانت فى الأساس فى أوردى أبى زعبل، ثم معتقل الواحات على الرغم من أننى قدمت إلى محكمة الجنايات أيام الملكية، فأصدر قاضى الإحالة آنذاك أنه لا وجه لإقامة الدعوى ضدى، إلا أننى ظللت معتقلا حتى جاءت الحكومة الوفدية عام ١٩٥٠ وأفرجت عن كل المعتقلين».

«وفى أيام حكم عبد الناصر قدمت مع آخرين لمجلس عسكرى برئاسة رئيس سلاح المدفعية آنذاك اللواء هلال عبد الله هلال، وكنت أنا والصديق محمود أمين العالم الوحيدين اللذين حكم لهما بالبراءة، ومع ذلك بقيت فى الواحات حتى أفرج عن جميع المثقفين والمحكوم عليهم بالسجن».

«واليوم وأنا أقترب من الثمانين، لست نادما على أى شىء، فقد كان همى طوال حياتى الدفاع عن الفقراء والمظلومين، وعن استقلال مصر، وحقها فى حياة كريمة، وعندما أتأمل هذا الشريط الطويل من حياتى من طفولتى فى حى الأزهر إلى اليوم، أجدنى راضيا عما قمت به، وضحيت من أجله مهما كانت قسوة الأيام».

□

ويلخص عبد العظيم أنيس فى موضع آخر من ذكرياته مجمل فترات اعتقاله بطريق آخر حيث يقول:

«وقد قضيت فى تلك المعتقلات نحو عام ونصف عام مرضت فى آخرها ونقلت إلى مستشفى الدمرداش وبقيت فيه من سبتمبر سنة ١٩٤٩ حتى أفرج عنى فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عندما أجريت الانتخابات العامة وعادت الحكومة الوفدية فأفرجت عن جميع المعتقلين».

(٢٦)

ويجد عبد العظيم أنيس اللذة وهو يكرر الحديث عن ظروف فصله من الجامعة عقب أزمة مارس ١٩٥٤ وهو يشير إلى الصدمة التى أحس بها نتيجة لهذا القرار، وبخاصة أن القرار صدر قبيل عودته من لندن دون أن يعرف به، بينما كان هناك عرض متاح أمامه للعمل فى بريطانيا بترشيح من أستاذه لكنه اعتذر عن [عدم] قبوله بدافع الإيمان أو الظن بأن وطنه أولى بجهوده، وهكذا فإنه وجد نفسه تلقائيا يبرق إلى أستاذه فى لندن قبول العرض فيقول:

«... وقعت أزمة مارس سنة ١٩٥٤ فانحزت إلى دعوة الديمقراطية مع خالد محيى الدين ومحمد نجيب، وكنت من الموقعين على العريضة التى طالبت بعودة الجيش إلى ثكناته، وكان أن صدر قرار من مجلس قيادة الثورة فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٤ بفصلى مع ٤٢ عضوا من هيئات التدريس بالجامعات، معظمهم من الذين اتخذوا هذا الموقف، وكان من بين هؤلاء د. عبد المنعم الشرقاوى، ود. لويس عوض، ومحمود أمين العالم، ود. فوزى منصور (من جامعة الإسكندرية) وآخرون كثيرون».

«ولقد كان صدور هذا القرار صدمة كبيرة لى، فقد كنت قد قضيت عامين فى جامعة القاهرة أدرس وأبحث وأكتب مقالات فى الأدب والثقافة فى جريدة المصرى ومجلة روز اليوسف، وفى مايو سنة ١٩٥٤ طلبت إجازة فى الصيف للسفر إلى بريطانيا لاستكمال بعض الأبحاث العلمية هناك، وقد وافقت جامعة القاهرة وسافرت فعلا وقضيت الصيف كله فى لندن منقطعا لأبحاثى، وعدت إلى القاهرة بالفعل يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٤ ودون أن أعرف أن قرارا من مجلس قيادة الثورة قد صدر يوم ٢٤ سبتمبر بفصلى من جامعة القاهرة، ومن المفارقات الغريبة أن أستاذى فى جامعة لندن الذى أشرف على رسالة الدكتوراه استدعانى لمقابلته قبل ترك لندن بأيام، وفاجأنى أنه طلب منه أن يرشح أحد تلاميذه لشغل وظيفة محاضر فى الإحصاء بإحدى كليات الجامعة، وأنه قد خطر فى ذهنه أن يرشحنى لشغل هذه الوظيفة، وقد اعتذرت فورا وقلت له إن جامعة القاهرة أولى بجهودى، وبعد هذا اللقاء بأيام عدت فعلا إلى القاهرة لأجد قرار مجلس قيادة الثورة فى

القاهرة بلا عمل، وبالطبع أبرقت إلى أستاذى أخبره أننى قبلت عرضه وأن خطابا فى الطريق يشرح لماذا غيرت رأيى».

(٢٧)

ولعل أبرز صور معاناة عبد العظيم أنيس فى عهد الثورة هو ما تمثل فى وقوف الدولة والحكومة ضده حين رشح نفسه لانتخابات مجلس الأمة الأولى عن الدائرة القاهرية السادسة وهى دائرة الوايلى، ومن الإنصاف أن نشير إلى أن تجربة عبد العظيم أنيس فى الترشيح فى هذه الدائرة كانت تجربة ثرية بالعمل الوطنى المنظم فى محاولة للتغلب على البوادر والبشائر الأكيدة لدكتاتورية الثورة أو أوتوقراطيتها، ونحن نقرأ ما يرويه عبد العظيم أنيس عن هذه الانتخابات فنعجب من إهماله الحديث عن كثير من ملابسات قصة ترشيحه وسير المعركة الانتخابية، وهو يتحدث حديثا مقتضبا عن بعض هذه الذكريات فيقول:

«... وقد اخترت أن أتقدم للدائرة السادسة (الوايلى) لأن أهلى جميعا من عائلة الأب أو الأم يقيمون فى العباسية طوال حياتهم، وقد نشأت فى العباسية وتعلمت فى مدارسها، حتى كلية العلوم التى التحقت بها جامعيا كانت فى العباسية آنذاك».

«وتحمست لترشيحى كل فصائل اليسار فى مصر باستثناء جماعة «حدتو» التى اختارت أن تؤيد فى هذه الدائرة عاملا من عمال الترام (عبد العزيز مصطفى)، وقيل حينذاك إنهم قرروا تأييده لأنه عضو فى تنظيمهم، بينما قال الشيخ مبارك بعد ذلك بسنوات طويلة فى ذكرياته إنهم أيدوا عبد العزيز مصطفى لأنه عامل، أى أنهم فضلوا العامل على المثقف، وهى حجة سخيفة أمام أى فكر يسارى عاقل».

هكذا يقول عبد العظيم أنيس معبراً عن اختلافات فكرية معروفة بين قوى اليسار المصرى التقليدية، ومع هذا فإنه يعمد إلى الجانب الآخر من القضية ويقول:

«ولقد بلغ حماس المثقفين لترشيحى أن وقع عدد من كبار المثقفين بيانا يعلنون فيه تأييدى ويدعون الناس فى الدائرة السادسة إلى الوقوف معى، ومن هؤلاء أتذكر أسماء إحسان عبد القدوس رئيس تحرير روزاليوسف، وكامل الشناوى رئيس تحرير الجمهورية، وأحمد بهاء الدين الكاتب المعروف، والدكتور لويس عوض».

□

ويشير عبد العظيم أنيس إلى موقف نبيل لنجيب محفوظ يدلنا به على ما نعرفه فى شخصية أديبنا الكبير من نبل وإيمان بالديمقراطية وأهمية ممارستها على نحو مستنير:

«... ومع أننى لم أسع للحصول على توقيع نجيب محفوظ إلا أننى عندما كنت أزور بعض المنازل فى منطقة «بين الجناين» حيث كان يسكن هو آنذاك، أفاجأ بمن يخبرنى من السكان أن الأستاذ نجيب محفوظ قد زارهم بيتا بيتا مؤكدا عليهم أهمية انتخابى، وبالطبع كان لمثل هذا الخبر تأثير عظيم فى قلبى، وتقدير أعظم فى نفسى، مع أننى حتى ذلك الوقت لم نكن على صلة قريبة من الناحية الشخصية، وإن كان قد أهدانى ثلاثيته عندما صدرت».

(٢٨)

وينتقل عبد العظيم أنيس إلى الإشارة إلى ما بدأ يحس به من وقوف الدولة (أو بعض قواها كما يقول) فى مواجهته.. وهو يقدم بعض الأدلة التى استشعرها فى ذلك الوقت دون أن يلجأ إلى رواية ما توافر فى كتابات المؤرخين وأصحاب المذكرات الآخرين عن وضوح هذا الموقف الرسمى المعادى ضد ترشيحه كرمز من رموز اليسار الوطنى:

«وقد أصبح من الواضح لى بعد أيام من النشاط الجماهيرى فى الدائرة أن هناك قوى فى الدولة تقف ضد انتخابى، اتضح هذا من مضايقات البوليس لى ورفض التصريح بعقد الاجتماعات أو اشتراط عدم استعمال الميكروفونات، حتى عندما بدأ زملائى فى جريدة المساء فى التبرع المالى لمساعدتى اتصل أحد المسئولين بخالد محيى الدين رئيس التحرير طالبا التوقف عن ذلك».

«وعندما نظمتُ اجتماعا جماهيريا واسعا فى ميدان الوايلى قرب يوم الانتخابات، أخذ بعض رجال الحكومة وزملاء من «حدتو» الذين كانوا يناصرون عبد العزيز مصطفى يتصلون بالناس هاتفيا أو بالمقابلة يثنونهم عن حضور المؤتمر بحجة أن بعض الأشرار سوف يلقون «ماء نار» على وجوه مَنْ يحضرون، ومع ذلك قد حضر الكثيرون وكان يجلس معى على المنصة أحمد بهاء الدين، ولويس عوض، ود.عبدالمجيد أبو حجلة (من قيادات الأردن آنذاك) وآخرون لا أتذكرهم، وامتلأ السرادق بآلاف من أهل الدائرة والزائرين، وابتدأ الاجتماع بكلمة جامعة منى ومن الآخرين، فلما أدرك البوليس أن

مساعيهم باءت بالفشل هجموا بالقوة على السرادق وأمعنوا فى ضرب الناس لإخراجهم من السرادق، بل لقد حاولوا الوصول إلىّ بهدف الاعتداء أيضا لولا أن عددا من الزملاء أحاطوا بى وأخرجونى سالما من باب خلفى، ولا أنسى فى هذا الصدد الدور الكبير الذى لعبته الفنانة العظيمة محسنة توفيق التى كانت آنذاك طالبة فى الثانوية العامة شديدة الحماس لانتخابى».

(٢٩)

ويلخص عبد العظيم أنيس نتيجة الانتخابات على نحو يرفع من أسهمه دون أن يبين طبيعة الأجواء التى حكمت التنافس على هذا النحو:

«وقد تبين يوم الانتخاب أننى حصلت - رغم كل ما حدث - على أعلى أصوات ضمن تسعة كانوا مرشحين فى تلك الدائرة، منهم الممثل سراج منير، لقد حصلت على أكثر من خمسة آلاف صوت، ويلينى بعد ذلك عبد العزيز مصطفى الذى حصل على ألفى صوت».

«وحيث إن عدد الأصوات فى الدائرة كان حوالى ١٢ ألف صوت، فقد كان لابد من الإعادة بينى وبين عبد العزيز مصطفى».

(٣٠)

ويستطرد عبد العظيم أنيس إلى المجاهرة باتهام وزارة الداخلية(!!) بتزوير الانتخابات عن طريق تبديل الصناديق، وهو يشير إلى أنه لم يكتشف هذا الذى حدث إلا بالمصادفة حين رواه له مخبر رافقه فى

إحدى رحلاته بين السجون:

«ولما كانت وزارة الداخلية تعلم أن غالبية أهل الدائرة يؤيدوننى، فقد لجأت إلى استبدال صناديق الانتخاب بصناديق أخرى أدخلت إلى قسم الوايلى فى المساء باعتبارها أنها الصناديق الحقيقية».

«وكنت قد اتفقت مع بعض أنصارى على مراقبة القسم ليلا خوفا من حدوث هذا، وكانت النتيجة أن قبض عليهم وضربوا ضربا مبرحا، ومنهم رشدى خليل رحمه الله».

«وأعتقد أن أكبر خطأ وقعت فيه أننى لم أتمم على الصناديق كما يفعل بعض المرشحين، خصوصا أن بعض أنصارى طردوا من اللجان الفرعية خلال الانتخابات».

«ومن المصادفات الغريبة أننى بعد هذه الأحداث بسنوات عدة، وكنت معتقلا آنذاك بسجن الواحات، قابلت بالصدفة رجلا كان مشتركا فى عملية تبديل الصناديق وحكى لى تفاصيل القصة، وقال لى: إنه كان آسفا على ذلك لكنها كانت تعليمات لابد من تنفيذها. لقد كنت ذاهبا من سجن الواحات إلى مستشفى بأسيوط للعلاج، وحضرت سيارة بها ضابط ومخبر وسائق طبعا، وكان الضابط يجلس إلى جانب السائق بينما جلست أنا والمخبر فى السيارة البوكس فى الخلف، وفى الطريق بدأت الدردشة العادية مع المخبر إلى أن سألنى إنت كنت أذكره، قلت: لا أبدا، فضحك وقال: إنه كان فى قسم الوايلى عام ١٩٥٧، وحكى لى قصة الصناديق التى استبدلت فى

الدائرة السادسة لإسقاطى وإنجاح عبد العزيز مصطفى».

(٣١)

ويحرص عبد العظيم أنيس على الإشارة إلى طبيعة السلبية والمظهرية فى تعامل قادة الثورة (وهو يخص هنا أنور السادات بالذكر) مع التجاوزات التى كانت سمة للانتخابات البرلمانية الأولى التى أجرتها الثورة:

«أتذكر أنه فى اليوم الذى هجم فيه البوليس على الاجتماع الجماهيرى قبل الانتخابات بأيام قليلة، ذهبت بعد الحادث إلى جريدة الجمهورية وقابلت كامل الشناوى (وكان صديقا حميما لى وواحدا من أنصارى) وحكيت له ما حدث، وبينما نحن نتحدث فى الموضوع دخل إلى الغرفة أنور السادات (وكان آنذاك رئيس مجلس إدارة الجمهورية) وطلب منى كامل الشناوى أن أعيد القصة أمام أنور السادات ففعلت، فقال أنور السادات بعد برهة: اكتب تقريرا بما حدث وسأرفعه إلى الرئيس جمال عبد الناصر، وأعطانى كامل الشناوى بعض الأوراق فأخذت فى كتابة القصة كاملة وأنا فى حالة انفعال كامل».

□

ومن العجيب أن عبد العظيم أنيس يستطرد إلى تكنيك معروف فى كتابات بعض اليساريين وهو التشكيك فى أن ما كتبوه مما يعبر عن الحقيقة أو المأساة قد وصل إلى علم الرئيس عبد الناصر بينما هو فى نفس الفقرة يشير إلى ما يدل على علم عبد الناصر بما حدث، بل

واتهامه لليساريين بالمسئولية عن إحداث البلبلة فيما يتعلق بالتزوير:

«ولا أدرى حتى اليـوم إن كان ما كتبـته قد وصل إلى عبـد الناصر حقا! وكل ما أعرفه ما حكاه خالد محيى الدين لى بعد ذلك عند لقائه بعبد الناصـر من أنه عاتبه على الأقوال السائرة آنذاك بتـزوير انتخابات الدائرة السادسة، لـكن خالد محيى الدين تمسك بصـحة هذه الأقوال وقدم لعبد الناصر أمثلة على هذا التزوير، فـمثلا فى إحدى الشياخات الفرعية كان هناك من أقاربى حوالى ١٢ شخصا ذهبوا جميعا لانتخابى فى الإعادة بينمـا النتائج فى هذه الشـياخة تقـول إنى حصلت على ٤ أصوات فقط!».

. . . .

. . . .

. . . .

بقى فى موضـوع انتخـابات ١٩٥٧ أن نذكر أن مذكـرات كثـير من اليساريين تتناول حـديثهم الصريح عن جهودهم فى تأييـد عبد العظيم أنيس بأكثر مما يتناوله هو، وليس فى هذا ما يخالف المنطق، فقد كتب هؤلاء مـذكراتهم حـين كانت ذاكـرتهم مـا زال تذكر مـا لم يتذكـره عبدالعظيم أنيس حـين شرع فى كتابة مذكراته، وربما نشـير هنا إلى ما نقلناه عن الفنانة إنجى أفلاطون فـيما يتعلق بهذا الموضـوع فى مدارستنا لمذكراتها فى كتابنا «الثورة والحرية».

على أن عبـد العظيم أنيس الذى لم يشأ أن يتـرك أنور السادات مزة دون تشكيك فى إمكانية نقله لرسـالة شكواه إلى عبد الناصر، يـفاجئنا بالحديث الصـريح عن توتر علاقـته بالرئيس عـبد الناصـر فى مرحلة لاحقة مـرجعاً السبب فى هذا إلى مَنْ يسمـيهم بعض القيادات البعـثية وهو يقول:

«المهم أن هذه الانتخابات وما حدث فيـها قد خلقت جوا من الريبة بينى وبين عبد الناصر، حـتى أنه أخذ يستمع لبعض القيادات البـعثية، وخـصوصـا ميـشيل عـفلق الذى لم يكن يحـبنى، وكنت أبادله نفس المشاعر».

«وحدث أن كـتبت مقالا فى صـحيفة المـساء استخـدمت فيه تعبـير (الحركة الوطنية العربية) واتصل عبـد الناصر بخالد محيى الدين مهددا باعتقالى، وقد دافع خالد عنى دفاعا مجيدا، وكنت بالمصادفة فى غرفته عندما حـدث اتصال عبـد الناصر به، وفى النهـاية أمر أن أتوقف عن الكتابة».

. . . .

يشير عـبد العظيم أنيس بهذه القصـة أبلغ إشارة إلى مدى العصـبية التى كـانت تسيطر على الـرئيس عبـد الناصر إذا مـا رأى أثرا للرؤى المخالفـة لرؤيته فى كتـابات غير شائعـة من طراز كتابات عـبد العظيم أنيس:

«واتفق خالد معى على أن أستمر فى الكتابة دون توقيع، فكنت أكتب المقال بتوقيع «مراقب»، ومَنْ يعود إلى صحيفة المساء عام ١٩٥٨ سوف يرى العديد من المقالات بهذا التوقيع».

«واستمر الحال على هذا المنوال حتى حملة أول يناير سنة ١٩٥٩ الشهيرة التى تم فيها اعتقال المئات من اليساريين وكنت منهم، وعندما فتشوا منزلى لم يجدوا فيه غير بيان كنا نجمع عليه التوقيعات يطالب عبد الناصر بالديمقراطية السياسية».

أما معاناة عبد العظيم أنيس فيما قبل الثورة فتبدو فى تصويره أخف وأهون بكثير من معاناته فيما بعدها، فقد توقفت هذه المعاناة عند حدود الاعتقال الذى نجا صاحبنا منه لبعض الوقت، ثم شاءت الظروف أن يقع فيه وأن يتنقل بين عدد من المعتقلات حتى جاءت حكومة الوفد إلى الحكم وأفرجت عنه.

(٣٣)

يتناول عبد العظيم أنيس قصة اعتقاله فيما قبل الثورة حين كان لا يزال معيدا فى كلية العلوم بالإسكندرية، ونحن نراه فى هذه الرواية حريصا على أن يلقى بالاتهام على التصرفات الرعناء لبعض الشباب، وهو يميل إلى ترجيح مسئولية شباب مصر الفتاة عن مثل هذا التصرف ويقول ما نصه:

«. . . وأتذكر أنه فى شهر إبريل من عام ١٩٤٦ قامت مظاهرة من كليتى العلوم والحقوق بجامعة الإسكندرية وكانت هاتان الكليتان

تشغلان مباني مدرسة العباسية الثانوية التى تقع على ربوة عالية فى حى محرم بك للتعبير عن معارضة مشروع اتفاق (صدقى - بيفن)، وكانت قوات الشرطة تقف أسفل الربوة لاعتراض المظاهرة وتفريقها بالقوة إن لزم الأمر».

«ثم وقع حادث مفاجئ ذهلنا له جميعا، ذلك أن طالبا من فوق الربوة أطلق النار على أحد ضباط الشرطة فأرداه قتيلا، وحتى اليوم لا نعلم مَنْ هو هذا الطالب الذى قام بهذا العمل الاستفزازى الدنىء، وإن كانت شكوكنا آنذاك اتجهت إلى شباب مصر الفتاة من الطلاب».

«وبالطبع كان رد فعل الشرطة عنيفا، إذ حوصرت مبانى الكليتين بالكامل وأطلق الرصاص على مبانى الكلية بشكل عشوائى، وألقى القبض على أعضاء هيئة التدريس الذين حاولوا الخروج إلى الطريق العام، وظل هذا الحصار مضروبا حول الجامعة من الصباح إلى منتصف الليل عندما حضر وزير التعليم [يقصد: وزير المعارف] محمد العشماوى باشا من القاهرة بالطائرة وأمر برفع الحصار عن الجامعة التى احتلتها قوات الجيش فى الصباح».

(٣٤)

ويشير عبد العظيم أنيس إلى تضامن اثنين من أشهر عمداء الكليات فى تاريخ جامعة الإسكندرية بشخصيتهما المتميزتين:

«وقمنا ونحن محاصرون بكتابة مذكرة احتجاج على هذا الحصار، ونجحنا فى الحصول على توقيع عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس على

المذكرة، وكان فى مقدمة الموقعين عميد كلية العلوم الدكتور حسين فوزى، وعميد كلية الحقوق الدكتور عبد المعطى خيال، وإن كان بعض أساتذة كلية العلوم قد رفضوا التوقيع».

«وكانت المشكلة بعد جمع التوقيعات هى كيفية إرسال المذكرة إلى صحيفة المعارضة الرئيسية: الوفد المصرى [ربما نتوقف هنا لنشير إلى أنه أشار إلى هذه الصحيفة من قبل على أنها صوت الأمة لا الوفد المصرى، وكلتاهما وفدية]، وتفتق ذهنى عن حل، وهو أن أتصل تليفونيا بصديق لى بالإسكندرية وأن أملى عليه نص المذكرة التى كانت قصيرة على أى حال، ولما ذهب هذا الصديق إلى مكتب التلغراف لإرسال البرقية رفض موظف البريد إرسالها وعليها توقيع عام مثل أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، وصمم على وجود اسم لشخص يمكن مساءلته، ولم يجد هذا الصديق مفرا من إعطاء اسمى، وهكذا ظهرت برقية الاحتجاج فى اليوم التالى في صحيفة الوفد المصرى وعليها التوقيع التالى: أعضاء هيئة التدريس (عنهم عبد العظيم أنيس)».

(٣٥)

ويشير عبد العظيم أنيس إلى أن هذا الموقف الاضطرارى جلب عليه مسئولية ومجداً فيما بعد، وهو يذكر كيف أن وزير المعارف تولى بنفسه سؤاله، وأنه اقتنع بمحدودية مسئوليته حين رأى توقيع العمداء معا على البرقية، ويفوت عبد العظيم أنيس أن يشير بما يستحق الإشارة إلى نبل العميد حسين فوزى الذى حضر معه تحقيق الوزير، وإلى التزام الوزير العشماوى بالقانون، ويؤثر عبد العظيم أنيس أن يصف هذا الموقف

النبيل بأنه «أسقط في يده»، ونحن نعجب لهذا أن يرد في ذكريات عبدالعظيم أنيس وهو شيخ جليل ونظن أنفسنا وكأننا نقرأ رواية شاب لا رواية شيخ عركته الأحداث:

«وبالطبع هاج صدقي باشا من هذه البرقية وطلب من العشماوى باشا [هو محمد حسن العشماوى وزير المعارف في ذلك الوقت] التحقيق في الموضوع، وظن الوزير أن الموقع على هذه البرقية أستاذ بالجامعة وليس معيدا صغيرا، واستدعاني إلى مكتب مدير الجامعة للتحقيق معي، وحضرت في صحبة الدكتور حسين فوزي عميد الكلية، وكان من حسن حظي أنه كان في جيبي نص مذكرة الاحتجاج وعليها التوقيعات بما في ذلك توقيع عميدي العلوم والحقوق، وعندما قدمتها للوزير وأكدت له أن هذا كان موقفا جماعيا، أسقط في يده ولم يستطع معاقبتي».

(٣٦)

ثم يشير عبد العظيم أنيس إلى ما نعرفه في العادة من تصرفات الأجهزة الأمنية في مثل هذه الوقائع، وهو الاحتفاظ بالاسم لاتهام قادم في محاولة مشابهة، وهو ما حدث معه بالفعل، بيد أن الظروف كما يروى مكنته من أن ينجو من الاعتقال:

«لكن اسمي ظل محفورا لدى السلطات في انتظار مناسبة أخرى للانتقام، وجاءت هذه المناسبة في يوليو عام ١٩٤٦ في حملة صدقي المشهورة التي اعتقل فيها العشرات من المثقفين المصريين، بمن في ذلك

محمد مندور وزكى عبد القادر، وكنت بطبيعة الحال فى طليعة المطلوب اعتقالهم بالإسكندرية».

. . . .

«لكن الحظ لعب دوره مرة أخرى فى مساعدتى، فقد كنت كثير التردد على منزل نائب سعدى بمحرم بك بالإسكندرية لصلة تربطنى بأولاده، وظن البوليس أننى أقيم هناك، وهكذا ذهبوا لتفتيش منزله وهم لا يعلمون أنه نائب بالبرلمان، فلما سألهم إن كان لديهم أمر من رئيس البرلمان بذلك أسقط فى أيديهم ثم اتصلوا بحكمدار الإسكندرية [فى موضع آخر من مذكراته يروى عبد العظيم أنيس الواقعة نفسها ويشير إلى مَنْ يسميه هنا بالحكمدار على أنه كان ضابطا فحسب] يسألونه الرأى قبل تفتيش المنزل فأمرهم بتفتيش المنزل مهما كان الأمر».

«وبالطبع لم يجدونى ولم يجدوا أى شيء يهمهم، ولم يسكت النائب، إذ تقدم باستجواب فى البرلمان، وكانت العلاقات قد بدأت تسوء بين رئيس الوزراء وحزب السعديين، فاشتعلت جلسة البرلمان هجوما على الحكومة وعلى رئيسها، وألقى صدقى باشا بيانا فى البرلمان قال فيه: إن التفتيش تم بحثا عن معيد شيوعى، وأن الضابط الذى قام بذلك نقل إلى أسوان عقابا له على هذا الخطأ، وصدرت الصحف بمانشيت عريض فى الصفحة الأولى بوقائع الجلسة واسمى بطبيعة الحال موجود فى ذلك المانشيت!».

«وقد قرأت كل ذلك وأنا أقيم عند صديق قاهرى يملك فيلا بالإسكندرية».

(٣٧)

وهو يتحدث بفخر واعتزاز ظروف اعتقاله وهو معيد فى كلية علوم الإسكندرية، ومع أنه يروى القصة الواحدة بأكثر من رواية تبعا للظروف إلا أن الإطار العام لما يرويه يدور حول واقعة محددة أدت إلى اعتقاله وإلى وقائع أخرى نجا من الاعتقال الذى كان لابد منه فيها، ولنقرأ هذه الرواية على سبيل المثال وهى تتناول ما تناولناه من قبل، ولكن بأسلوب أو روح مختلفة:

«... بعد هذه الأحداث بنحو شهرين أو ثلاثة فيما أذكر، وقعت مصادمات أخرى بين طلاب الإسكندرية وقوات البوليس المصرى، التى كانت تحاصر مبنى الجامعة فى محرم بك، حيث كانت توجد كلية العلوم وكلية الحقوق، وانتهت بحادث فاجع وهو مقتل ضابط من قوات الشرطة، وجن جنون قوات الأمن فأمطرت الجامعة سيلا من الرصاص واعتقلت كل من خرج من الجامعة، سواء من الطلاب أو هيئات التدريس، وظل الحصار مضروبا حول الجامعة إلى منتصف الليل عندما حضر وزير التعليم [يقصد: المعارف] (محمد العشماوى) من القاهرة فى طائرة وأمر برفع الحصار، وخلال فترة الحصار قمت مع مجموعة من معيدى كلية العلوم بكتابة عريضة احتجاج على الحصار وجمعنا توقيعات العديد من أعضاء هيئات التدريس الذين كانوا معنا فى الحصار، بما فى ذلك توقيع عميد كلية العلوم الدكتور حسنين

فوزى، وعميد كلية الحقوق الدكتور عبد المعطى خيال».

«واتصلت تليفونيا بأحد الأصدقاء خارج الجامعة وأبلغته نص عريضة الاحتجاج طالبا منه أن يبرق بها إلى صحيفة المعارضة الوفدية (صوت الأمة)، وبالفعل صدرت الجريدة فى صباح اليوم التالى وفى صفحتها الأولى نص البرقية فى برواز كبير موقعا عليه باسمى نيابة عن الموقعين، وكان ظهور اسمى بهذا الشكل مجرد مصادفة، إذ أن موظف التلغراف أصر على وجود اسم يتحمل مسئولية هذه البرقية فكان أن أعطاه صديقى اسمى، واستشاط رئيس الوزراء إسماعيل صدقى غضبا وكلف وزير التعليم بالتحقيق فى الموضوع، وأعتقد أننى كنت على وشك الفصل من الجامعة بسبب هذه العريضة لولا أن الوزير اكتشف أن عميدى العلوم والحقوق من الموقعين، فضلا عن عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس، ولم يكن من السهل إذاً تحميلى المسئولية».

(٣٨)

هكذا يروى الدكتور عبد العظيم أنيس بلذة نعرف سرها بالطبع قصة مشاركته السياسية الأولى، ثم قصة دخول اسمه قائمة الذين تستهدفهم أجهزة الأمن، ثم قصة نجاته مرة بعد أخرى من اعتقالات ١٩٤٦، وهو يقدم، كما ذكرنا، وكما أشرنا على مدى فصول ذكرياته روايات مختلفة عن هذه الواقعة تختلف فى كثير من التفاصيل لكنها تركز على عامل الحظ الذى أنقذه إلى حين من هذه الاعتقالات:

«.... ولابد أن تلك الواقعة كانت ذات صلة بوضع اسمى فى

كشوف حملة اعتقالات إسماعيل صدقى التى نفذت فجر ١١ يوليو سنة ١٩٤٦ واعتقل فيها العديدون من بينهم محمد زكى عبد القادر، والدكتور محمد مندور، وعبد الرحمن الشرقاوى، وهنرى كورييل وآخرون كثيرون، والتى قصد بها فى حقيقة الأمر تصفية النشاط الجماهيرى البارز الذى كان اليسار المصرى - بالتعاون مع الطليعة الوفدية - قد نجح فى قيادته، ولم يتمكن بوليس الإسكندرية من اعتقالى لأنهم ذهبوا إلى عنوان كنت قد تركته منذ أسابيع قليلة، وشاء الحظ العاثر للضابط المكلف بالعملية أن يفتش منزل أحد نواب حزب السعديين [لست أدرى لماذا حرص عبد العظيم أنيس الدائم، على كثرة المرات التى روى فيها هذه القصة، على أن يتجاهل ذكر اسم هذا النائب السعدى. . ولابد بالطبع أن لهذا التجاهل [سببا وجيها] بحثا عنى، ورفض أن يعترف أن لهذا المنزل حصانة برلمانية، وفى اليوم التالى تقدم النائب باستجواب فى البرلمان، وكانت العلاقة بين إسماعيل صدقى والسعديين قد بدأت تتوتر لأسباب أخرى فحمل النواب حملة شديدة على الوزارة واضطر رئيس الوزراء أن يلقى بيانا فى البرلمان يشرح فيه ملابسات خطأ الضابط الذى كان مكلفا باعتقالى ضمن الحملة، وقدم إسماعيل صدقى اعتذاره للنائب عما حدث وأعلن أن الضابط قد نقل إلى الصعيد عقابا له».

«قرأت كل هذا وأنا فى مخبئى عند أحد الأصدقاء بالإسكندرية، وقد تردد اسمى كثيرا فى كل هذه المساجلات البرلمانية، وفى أوائل سبتمبر كانت النيابة قد أفرجت عن جميع مَنْ اعتقلوا فى حملة يوليو وحفظت التحقيق، فعدت إلى الجامعة وعند خروجى منها ظهرا فى

أحد الأيام وجدت ضابطا فى انتظارى حيث قضيت فى قسم محرم بك ليلة شديدة الطرافة، وفى الصباح توجهت إلى النيابة بالمنشية، فما كان من وكيل النيـابة إلا أن سألنى بضعـة أسئلة شكليـة وتولى هو الإجابة عليها، ثم رجانى أن أذهب إلى الجامـعة فور خروجى من مكتبه، ولم أفهم السبب فى هذا الطلب إلا عندمـا علمت عند وصولى إلى الكلية بإضراب الطلاب احتجاجا على اعتقالى».

(٣٩)

ويشـير عبـد العظيم أنيس إلى مـا يشبـه أن يكون تعاونا من وكـيل النيابة معه بعد أن أفرج عن المعتقلين وذهب لتسليم نفسه:

«ولم أسلم نفسى للشرطة حتى انتهت القضية بالإفراج عن الجميع، فعدت إلى الجامعة وسألنى وكـيل النيابة أسئلة شكلية ثم أفرج عنى فى الحال خصوصا عندما علم بإضـراب طلاب كلية العلوم احتجاجا على اعتقالى، وطلب وكيل النيـابة منى الذهاب إلى الكلية فورا حتى يرانى الجميع وينتهى الموضوع، وهو ما تم بالفعل».

(٤٠)

ثم يشير عبد العظيم أنيس إلى اعتقاله فى يونيو، ونحن نعجب من التناقض الذى يقع فيه حين يروى هذه الفقرة، فمع أنه يروى فى الفقرة السابقـة أنه نجا من اعتـقالات يوليو فـإنه يشير فى هذه الفـقرة إلى أنه اعتقل فى يونيـو (وبالطبع فإن هناك خطأ فى العبارة الـتى تجعل يوليو يسبق يونيو) كـما نراه يشير إلى أنه كـان قد نجا قبلها من الاعـتقال فى

١٥ مايو!! وأغلب الظن أن الخلط فى هذه التواريخ يعود إلى إجهاد الذاكرة، وتداخل تواريخ حديثة مع قديمة، ونحن نعرف أن ١٥ مايو ١٩٧١ [أى بعد سنوات طوال] كان تاريخا لبعض الاعتقالات التى امتدت فشملت بعض أعضاء التنظيم الطليعى من الشيوعيين:

«ومع أننى أفلت بالمصادفة من الاعتقال فى ١٥ مايو، فإننى اعتقلت فى شهر يونيو، وكنت ذاهبا لحضور اجتماع فى منزل د. شريف حتاتة بالسيوفى، لكنه كان قد تم اعتقاله قبل ذلك بيوم هو والشاعر كمال عبد الحليم، ورتبت الشرطة كمينا داخل المنزل للقبض على كل مَنْ يزور المنزل».

(٤١)

ويلخص عبد العظيم أنيس مسيرته بين المعتقلات:

«وهكذا وقعت فى كمين ونقلت إلى معتقل أبى قير، وبقيت فيه لمدة ستة أشهر ثم نقلت مع آخرين من اليساريين وشباب الوفد إلى معتقل هايكستب فى طريق الإسماعيلية، وبعد عدة أشهر نقلت مع آخرين إلى معتقل الطور على البحر الأحمر حيث بدأت إضرابا عن الطعام استمر فيما أذكر لمدة أسبوعين، مطالبين بتحسين ظروف معيشتنا، وقد أدى هذا الإضراب إلى مرضى بعد أن كان قد انتهى بوعد من المسئولين المحليين بتحسين ظروف حياتنا».

(٤٢)

ونحن نفهم من رواية عبد العظيم أنيس أنه ظل معتقلا طيلة عهد

وزارتى النقراشى الثانية وإبراهيم عبد الهادى، وإن كان قد حظى بالنقل إلى المستشفى فى عهد وزارة حسين سرى، ثم بالإفراج حين عاد الوفد إلى الحكم:

«وكانت وزارة حسين سرى قد عادت للإعداد للانتخابات (يشير إلى وزارة سرى فى يوليو ١٩٤٩)، وكان فؤاد سراج الدين (باشا) وزيرا للزراعة فى تلك الحكومة، وتحدث أخى الكبير إبراهيم معه عن طريق بعض أصدقائه من الوفديين حول ظروفى الصحية، وأدى هذا إلى نقلى إلى معسكر هايكستب حيث حضرت لجنة طبية لفحصى ثم أصدرت قرارها بنقلى إلى مستشفى الدمرداش للعلاج من التهاب كبدى وبائى، وبقيت فى المستشفى قريبا من منزل أهلى حتى جرت الانتخابات فى أواخر عام ١٩٤٩، وحصل الوفد على أغلبية مقاعد البرلمان وتشكلت حكومة الوفد التى أفرجت عن جميع المعتقلين فى يناير عام ١٩٥٠».

(٤٣)

وفى إطار حرص صاحب هذه المذكرات على استيفاء الحديث عن أدواره السياسية يشير عبد العظيم أنيس إلى دوره فى طاعة وتوزيع أحد المنشورات فى إضراب البوليس عام ١٩٤٨ مصححا ما روى من أنه هو الذى كتب هذا المنشور، وناسبا الفضل لصاحبه وهو الشاعر كمال عبد الحليم:

«... أحداث ٥ و٦ إبريل سنة ١٩٤٨ المعروفة باسم «إضراب البوليس».

«لقد كـان لضبـاط البوليس وجنوده مطالب تتـعلق بزيادة الرواتب وتحسـين ظروف العمل، وقد فشلوا فـى إقناع رئيس الوزراء النقراشى الذى كان عنيدا إلـى حد الحماقة، بعـدالة تلك المطالب، عندئذ دعوا إلى إضـراب عـام لـهم فى يوم ٥ إبريل، وكـان لهـذه الدعـوة إلى الإضـراب امتـدادات جـمـاهيرية واسـعـة فى الإسكندرية على وجـه الخصوص، فـقد تزامن هذا الموضوع الخطير - إضـراب البوليس - مع مطالب نقابيـة خاصة بالأجـور لعمال الغزل والـنسيج وغيرهم، كـما تزامن مع موضوع طلاب آخر عرف آنذاك باسم «قضية سعد فريد».

«كان سعد فريد طالبا بكليـة العلوم قبض عليه فى حى كرموز وقيل إنه كـان يوزع منشورا يسـاريا عند أبواب شركـة الغزل الأهليـة، وفى إجراءات حكومية عاجلة ومقصودة لـلتخويف حوكم سعد فريد وصدر عليـه حكم بالسـجن ستـة أسهـر، وقـد أثار هذا الحكم ثائرة طلاب الجامعة لأنه كان أول حكم يصـدر ضد طالب، كل هذا كان قد جرى قبـل ٥ إبريل بشهـر على الأقل، لكن غيـاب البوليس فى هذا الـيوم المشهـود كان فرصـة مواتية لمظاهرات عـارمة التحم فـيها العـمال مع الطلاب مع جنود البوليس فى مظاهـرات ملأت ميدان المنشـية، وكان جنود البوليس يرفعون سناكى بنادقهم وعلى قـمتها رغيف عيش إشارة إلى مطالبـهم، واتجـهت بعض هذه المظاهرات إلـى سجن الحـضـرة لإطلاق سراح سـعد فريد، ونزلت قوات الجـيش بالدبابات والعربات المصـفـحة إلى الميـادين وأطلقت النـيران وسـقط العـديد من القـتلى والجـرحى، وفى هذا اليـوم - أو ربما اليـوم التـالى ٦ إبريل - وزعت منشورات باسم «حدتو» كان عنوانها «تسقط الملكـية وتحيا الجمهورية»،

وكانت تلك أول مرة توزع فيها مثل هذه المنشورات الثورية بين الجماهير. ولقد أشرت منذ سنوات فى مكان آخر إلى هذه الواقعة وذكرت أن كاتب المنشور كان فى الحقيقة الشاعر كمال عبد الحليم الذى كان آنذاك المسئول السياسى فى «حدتو» لمنطقة الإسكندرية، وأن كاتب هذه السطور هو الذى قام بطبع المنشور فى إحدى مطابع محرم بك وتنظيم توزيعه، وكنت آنذاك مسئول الدعاية والتثقيف فى نفس لجنة المنطقة».

(٤٤)

ويشير عبد العظيم أنيس إلى أهم ما مثل نشاطه السياسى فى فترة بعثته فى لندن باقتضاب، ومن الحق أن نشير إلى أنه كان نشاطا ملائما لطالب مشغول بالدراسة والبعثة:

«لم أفقد اهتمامى بتتبع شئون مصر السياسية ومشاكلها وكتبت بين الحين والآخر مقالات لصحيفة ديلى وركر البريطانية باسم (ص. الأيوبى)، كما حرصت على التردد على النادى المصرى يومى السبت والأحد للالتقاء بزملائى الدارسين لمناقشة الأوضاع فى مصر، وقد استطعنا تشكيل اللجنة الوطنية لمتابعة الموقف فى مصر والاستجابة له بالعمل الطلابى الصحيح، وأذكر من أعضاء هذه اللجنة د. حكمت أبوزيد وزيرة الشئون الاجتماعية خلال المرحلة الناصرية، ود. فائق فريد نائب وزير الكهرباء الأسبق».

«وقد قامت هذه اللجنة بأعمال مهمة عديدة، منها أنها كانت تصدر نشرة غير دورية عما يجرى فى مصر سياسيا ونقابيا عرفت باسم

«السلام والاستقلال»، وكنا نرسلها إلى النقابات والهيئات البريطانية بالبريد، والحقيقة أن هذه النشرة كان يصدرها أصلا د. عبد المعبود الجبيلى فى باريس، وكان يرسلها لى فتولى ترجمتها إلى الإنجليزية وطبع أعداد كافية منها وإرسالها إلى النقابات والهيئات».

«ولقد نجحت اللجنة الوطنية فى عقد مؤتمرات مختلفة للطلاب المصريين فى بريطانيا، بالنادى المصرى فى المناسبات السياسية والاجتماعية المختلفة، وقد تميزت تلك الفترة فى مصر بأحداث سياسية واجتماعية مهمة ومتدافعة، مما ساعد على اهتمام الطلاب المصريين بحضور تلك المؤتمرات فى لندن، غير أن أهم عمل اضطلعت به تلك اللجنة ونجحت فيه كان هو المؤتمر الضخم الذى عقد بالنادى المصرى إثر هجوم القوات البريطانية على محافظة الإسماعيلية وحريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢، وكانت نفوس الطلاب تغلى سخطا على الأوضاع فى مصر التى أدت إلى تلك الكارثة الرهيبة، وفى هذا الاجتماع تحدثت طويلا عن المؤامرة التى دبرها الاحتلال مع الرجعية المصرية لإسقاط وزارة الوفد وحرق القاهرة، كما تحدث غيرى من الطلاب فى هجوم صريح على النظام الملكى فى مصر محملين فاروق وقوات الاحتلال المسئولية الأولى فيما حدث، بل لقد وقف أحد الدارسين (د. عبد الحميد أمين) وطالب بضرورة أن يتنازل الملك فاروق عن العرش كبداية لحل الأزمة المستحكمة، ولقد صفق الطلاب طويلا لهذا الاقتراح لكنه تسبب فى إحراج شديد لمدير مكتب البعثات د. عبد العزيز عتيق الذى كان زوج شقيقة عبد الحميد أمين، وهو نجل كاتبنا الكبير أحمد أمين».

(٤٥)

وتحفل مـذكرات عبد العظيم أنيس بكثـير من الآراء السياسـية التى تعكس مذهبه فى الحياة وفى السياسة على حد سواء، وهو يجيد مزج هذه الآراء بما شهده من أحـداث، وكأنه يقدم التاريخ برؤيتـه اليسارية من خلال حياته وتجاربه هو، وعلى سبيل المثال يقدم عبد العظيم أنيس تفسيـرا ذكيا لطبيعة عـلاقة عبد الناصر بالنظام الأمـريكى عقب حرب ١٩٥٦، ومع أن نظام عبـد الناصر نفسـه لم يتبن هذا التفسـير الذكى الذى يقدم محاولة منطقية لتفسير التحول الذى حدث من موقف مصر من الولايات المتحدة الأمريكية عقب حرب ١٩٥٦، وهو الموقف الذى لا يزال بحاجـة إلى البحث والاستقـصاء، فعلى حين كـان المتوقع أن يظهر عبد الناصـر امتنانه لأيزنهاور على موقفه الذى هـيأ لمصر التغلب السيـاسى على الهزيمـة العسكرية التى منيت بهـا قواته أمـام العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦، فإن عبد الناصر كـما نرى من حديث عبد العظيم أنيس أعطى لليسـار فرصة للهـجوم على مشـروع أيزنهاور، بل طلب تنظيم حمـلات صحفية وشـعبية، ومن المفـهوم بالطبع أن هذا الموقف الناصرى لم يكـن يخفى على الولايات المتحـدة وأجهـزتها. . وهكذا فإن تغـير موقف الولايات المتـحدة من النظام المصرى لم يكن راجـعا إلى تأثير صـهيونى مـثلا بقدر مـا كان رد فعل لسـياسة مـصرية آثرت المضى فى طريق الاستفـزار المتعمد، ولـم تجد حـرجا فى توظيف قوى اليسار من أجل لعب دور فى هذا الاسـتفزار، وهو يقدم هذا التفـسير فى إطار حديثه عن عمله فى جريدة «المساء» منذ أكتوبر ١٩٥٦ ويقول:

«عندما عـدت من بريطانيا إثر العـدوان الثلاثى على مـصر فى ٢٩ أكـتوبر سنة ١٩٥٦ بعـد أن استـقلت من عـملى فى لندن، اتصل بى الأستـاذ خالد محـيى الدين عارضا عـلىّ أن أعمل معـه فى صحيـفة «المساء»، فقبلت لأنه لم يكن أمامى من عمل آخر».

«ولابد أنه فى تخمينى قد استأذن عـبد الناصر قبل أن يتصل بى وأن عبـد الناصر وافق على ذلك، واخـترت أن أهتم بالشـئون العـربية فى صحيفة المساء».

«كانت تلك الفترة من تاريخ مصر مـشرقة ومليئة بالآمال، لقد هزم العدوان الثلاثى واضطرت القوات الإسرائيلية إلى الانسحاب من سيناء ومن قطاع غـزة بعد أن دمـرت خط السكة الحـديد الذى يربط مصـر بغزة، كـما انسحـبت القوات البريطانيـة والفرنسيـة من منطقة القنال، ولاشك فى أن الولايات المتـحـدة قد ضـغطت على حلـفاء العـدوان الثلاثى للانسحاب بالإضافة إلى تهـديد خروشوف بالتدخل العسكرى إن لم يتم الانسحاب».

«وكان موقف الولايات المتحـدة هذا ـ وأيزنهاور بالذات ـ يعود إلى أن بريطانيا وفرنسا أخفتا عن واشنطن تفاصيل مشروع العدوان الذى تم التوقيع عـليه سرا فى معاهدة «سـيفر»، ولم يغفـر أيزنهاور لإيدن هذا العمل، وكـان التهديد بزعزعـة الجنيه الإسترلينى فى الأسـواق الدولية كـافيـا، لا للانسحـاب فحـسب بل لإخراج إيدن من زعـامة حـزب المحافظين بعد ذلك، وبالطبع كانت أمام أمـريكا فرصة ذهبية لكى تحل مكان القوى الاستعمارية الهرمة (بريطانيا وفرنسا) في الشرق الأوسط،

وهكذا بدأ تقديم «مشروع أيزنهاور» لملء الفراغ فى المنطقة كما يزعمون، بعد الانسحاب مباشرة».

«وبالطبع كان عبد الناصر يدرك أهداف مشروع أيزنهاور، لكنه فى ظنى كان فى حرج للدور الذى لعبته أمريكا فى تحقيق الانسحاب، ولذلك آثر أن تبدأ الحملة على مشروع أيزنهاور فى صورة خطابات من الرأى العام إلى جريدة الشعب (وكان الأستاذ لطفى واكد رئيسا لتحريرها آنذاك) تدين المشروع، وبالطبع كانت جريدة المساء ضد المشروع وكتبت فيها مقالات عديدة تدينه وتفضح مراميه، لكن هذا لم يكن كافيا إذ أراد هو أن تعرف واشنطن أن الشعب كله ضد المشروع».

«وهكذا اتصل بى الأستاذ لطفى واكد ذات صباح وطلب أن أزوره فى مكتبه بصحيفة الشعب، فلما ذهبت وجدت على صبرى حاضرا الجلسة ولو أنه انصرف قبل انتهاء اللقاء، وقال لى لطفى واكد: إنه يريد من قوى اليسار أن تغرق جريدة الشعب بخطابات ضد مشروع أيزنهاور، وأنه يطلب منى المعونة فى هذا، وبالفعل اتصلت بالعديد من قوى اليسار راجيا منهم إرسال خطابات إلى جريدة الشعب بإدانة مشروع أيزنهاور، ونشرت الجريدة بالفعل العديد من الخطابات الأمر الذى لعب دورا فى قتل المشروع فى المهد».

(٤٦)

ولا تخلو مذكرات عبد العظيم أنيس من حديث حول صراع الأحزاب الشيوعية مع نظام عبد الناصر، ومع أنه يلقى بالأخطاء على

كاهل عبد الناصر، إلا أنه فى حرصه على التوازن فى الحكم يحرص على أن يشير إلى بعض الأخطاء السياسية للشيوعية فى دمشق وبغداد:

«ومن الأمانة أن أقول إن الأخطاء السياسية التى تورط فيها الحزبان الشيوعيان فى دمشق وبغداد آنذاك قد ساهمت فى رأيى فى الوصول بنا إلى هذه النهاية الفاجعة لأول وحدة عربية فى العصر الحديث، وإن كانت المسئولية الأولى فيما حدث تقع فى رأيى على أكتاف القيادة السياسية فى مصر بما تورطت فيه هى من أخطاء سياسية، وما تورطت فيه أجهزة أمنها من جرائم».

وعلى عادة اليساريين الذين يجيدون تقديم آرائهم فى إطار تاريخى، نراه حريصا على أن يتشفى من نظام عبد الناصر الذى واجه محنة الانفصال على يد مَنْ وثق بهم، وكأنما كان الشيوعيون حريصين على استمرار الوحدة أو استمرار نظام عبد الناصر فى ذلك الوقت، وهو عكس الحقيقية التى نعرفها جميعا:

«وليس بالصدفة أن الذين طعنوا الوحدة المصرية السورية الطعنة القاتلة فى سبتمبر سنة ١٩٦١ كانوا «أصدقاء النظام»، أعنى الضباط السوريين الذين كانوا يعملون فى مكتب المشير عامر فى دمشق بقيادة النحلاوى مدير مكتبه، ولست أشك فى أن هذا العمل قد تم لحساب الرأسماليين والإقطاعيين السوريين الذين هددتهم إجراءات يوليو سنة ١٩٦١، ولكن يظل السؤال الحيوى قائما: كيف تم الانقلاب على الوحدة بهذه السهولة؟ بل كيف انهار صرح الوحدة فى دقائق؟ إن الإجابة على هذا السؤال لا تكتسب أهمية تاريخية فحسب، وإنما

ترتبط بمستقبل النضال من أجل الوحدة فى المستقبل. وفى رأيى أن المفتاح الرئيسى فى هذه الإجابة يتمثل فى عداء نظام عبد الناصر للديمقراطية السياسية والجبهة الوطنية الذى أعطى أعداء الوحدة فرصتهم الذهبية».

(٤٧)

ويتحدث عبد العظيم أنيس فى هذه المذكرات عن دقائق بعض علاقات الشيوعيين بالثورة والسلطة فينقل أحد فصول كتابه «رسائل الحب والحزن والثورة» وفيها يقول:

«... ولكن ما يقض مضجعى حتى اليوم أن شهدى عطية بمصرعه الفاجع فى الأوردى تحت سياط التعذيب، هو وحده الذى فدانا جميعا، ولولا مصرعه وما أثار من ضجة خارجية لاستمر التعذيب حتى اليوم، ولاستطاب كثير من المسئولين هذه الحال ومن قبل قتلوا الدكتور فريد حداد ببساطة وكأنهم يؤدون عملا عاديا، وهؤلاء القتلة معروفون ويعيشون بينكم لا يعذب [أحدا] منهم ضمير، ولا تمتد إليه يد قانون!».

«إن قتلة شهدى عطيةوفريد حداد هم اللواء إسماعيل همت وكيل مصلحة السجون، والعميد إسماعيل طلعت مدير سجن أبى زعبل، ثم أولا وأخيرا الضباط: حسن منير، وعبد اللطيف رشدى، ويونس مرعى، هؤلاء الثلاثة هم الجلادون المباشرون، ولكنى لا أشك أن وراء هؤلاء يقف رجال المباحث العامة بقيادة حسن المصيلحى وبعض رجال

وزارة الداخلية، ولست أستطيع أن أصدق أن المسئولين فى مصر لم يكونوا يعرفون ما يجرى فى أبى زعبل خلال الفترة من نوفمبر سنة ١٩٥٩ إلى يونيو ١٩٦٠».

(٤٨)

ويحرص عبد العظيم أنيس على أن يضمن مذكراته بعض الأحاديث عن الفظائع التى حفلت بها حياة اليسار والمعارضة فى السجون المصرية، وهى الفظائع التى لا نحب أن نكثر الحديث عنها لكننا لا نستطيع أن نتغاضى عن ذكر أنها جزء من مكونات سرية المعارضة:

«كنا داخل عنابرنا عندما وصلت دفعة شهدى، وبطبيعة الحال لم نر شيئا يذكر بأعيننا، لكننا سمعنا كل شىء! فقد كان المطلوب من كل واحد منهم أن يهتف بسقوط الشيوعية وأن يذكر اسمه بصوت عال، وأن يقول: «أنا مرة».. إلخ وعندما رفض شهدى وآخرون كثيرون تنفيذ هذه التعليمات المخزية انهالوا على رأسه بالضرب حتى الموت، ويبدو أن موت شهدى كان مفاجأة لإسماعيل همت وحسن منير والآخرين».

«وإذا بهمت يستقل سيارته ويمضى هاربا إلى القاهرة، وإذا بحسن منير يضع الجبس على ذراعه مدعيا أمام النيابة أن المعتقلين هجموا عليه وضربوه وكسروا ذراعه، وأنه هو وجنوده كانوا يدافعون عن أنفسهم، بعد وفاة شهدى وما أحدثته من ضجة جاءت النيابة بأعداد كبيرة، وتولت التحقيق صباحا ومساء، وفجأة تغير جو المعتقل تماما! وقد طلبت أنا والدكتور إسماعيل صبرى عبد الله سماع أقوالنا فى مقتل

شهدى، وأجابت النيابة طلبنا، وكان منـظرا مخزيا للضابط حسن منير عندما أتوا به لتقوم النيابة بتجـربة التعرف على صوته وأنا داخل العنبر كما ذكرت فى التحقيق، لقد رأيته كالفأر المتهالك، ولم يجرؤ على أن ينظر إلىّ، بـل كـان مطرقـا رأسـه إلى الأرض طـوال الوقت، وقـد وضعتنى النيابة فى غرفة مقفلة وطلبت منه ومن ضباط آخرين أن يرفعوا أصواتهم بجمل من التى كانوا يقولونها للمعتقلين فى حفلة الاستقبال، وفى كل مرة تعـرفت على صوته فى يسر دون أن أراه، وبطبيـعة الحال نقل حـسن منيـر فى اليـوم التـالى لوفـاة شهـدى حـتى لا يفـتك به المعتقلون!».

«إن الضجة التى حـدثت عند وفاة شهدى كانت أمرا طبـيعيا، لكن الغريب أن الدكـتور فـريد حداد قد قـتل داخل الأوردى قبل شـهدى بشهور ولم تحدث وفاته ضجة ما».

(٤٩)

وفى مـذكـرات عـبد العظـيم أنيس حـرص على تطعـيم كل هذه السياسـات ببعض ما ضمنه كتـبا سابقة من حديث إنسـانى جميل عن التفاصيل الدقيقة لمشـاعره حين عاد من السجن إلى البيت عام ١٩٦٤ بعد غيبة سنوات:

«فى ٣ إبريل سنة ١٩٦٤ تم ترحـيلى مع آخـرين من زمـلائى إلى السجن الحربى بالقاهرة، نقلنا بالسيارات إلى سجن أسيوط حيث بقينا فى فنائه عدة سـاعات، وفى مساء نفس اليـوم أقلنا القطار إلى محطة

الجيـزة حيث وصلناها الساعـة السابعة من صـباح يوم ٤ إبريل، ومن محطة الجيزة نقلتنا سيارات وزارة الداخلية إلى السجن الحربى».

«خلال ساعات الليل التى قضيناها فى قطار أسيوط ـ الجيزة حاولت أن أنام وفـشلت من طول الإرهاق وشـدة الانفعـال، هأنذا أعود مـرة أخـرى إلى زوجـتى وأولادى وأهلى وشعـب مصـر، هأنذا أعـود من جديد إلى أرض الوطن!».

«لكأنما كنت منفيا خارج البلاد، رغم أنى أعلم علم اليقين أن أرض الواحـات الخارجـة هى جزء لا يتـجـزأ من أرض الوطن، ولعل هذا يثـبت مرة بعـد مـرة أن الوطن ليس هو الرمـال والشجـر والأرصفـة والمبانى، وإنما هو النـاس. . الفلاحون والعـمال والطلاب والمثقـفون والجنود وكل مَنْ يضع لبنة فى حاضر مصر ومستقبلها!».

. . . .

ربما جاز لنا أن نتوقف هنا لنتأمل فـى استطراد عبد العظيم أنيس فى الجملة السابقة حين يتحـدث عن الناس بأنهم: الفلاحون والعمال. . . إلخ، وهى الصيغة التى كانت شائعة فى أدبيات الاتحاد الاشتراكى.

ونعود إلى حديثه الرومانسى:

«هأنذا أعـود من جديد فـأشرب من مـاء النيل بعد أن حـرمت منه سنوات، وأمتع عينى بخضرة الوادى، وحـقوله السندسية، وأمتع أذنى بأصوات أولاد البلد وضحكاتهم».

. . . .

ويشبه عبد العظيم أنيس غربة السجن بغربة البعثة، لا من حيث الانتصار أو المرارة ولكن من حيث الإحساس بالعودة إلى الوطن بعد فترة:

«أحسست فى القطار بمشاعر شديدة الشبه بمشاعرى يوم عودتى من البعثة عام ١٩٥٢ لحظة اقتراب السفينة من شاطئ بورسعيد، لم أكن أعرف واحدا من المنتظرين على الشاطئ، ولكنى كنت تواقا إلى احتضانهم جميعا كأنما هم جميعا أهلى وإخوتى، وعندما نزلت إلى الشاطئ وقابلنى أول حمال ابتسمت فى وجهه ابتسامة عريضة وشددت على يده مرحبا كأنما نعرف بعضنا البعض منذ زمان طويل، وأغلب الظن أنه نظر إلىّ فى دهشة لا يفهم لهذه التحية الحارة سببا!».

. . . .

ربما جاز لنا أن نتوقف لنسأل: ألم يكن وارداً أن يكون مثل هذا الحمّال فى الميناء قد تعود على مثل هذا السلوك من مثل هذا المغترب!!

. . . .

ونعود إلى ذكريات عبد العظيم أنيس فى ليلة عودته بالقطار وقد أوشكت حريته أن تعود إليه:

«حاولت إذاً أن أنام فلم أفلح، فشغلت نفسى بنظم قصيدة بالعامية تعبير عن مشاعر هذه اللحظة، ودخلنا السجن الحربى حوالى الساعة

التاسعة صباحا، ألقيت نظرة على فناء السجن.. سجن ككل سجون الدنيا يبدو عاديا فى مظهره، مع أننا كنا نسمع طوال السنوات الخمس عن التعذيب الذى يجرى فى داخله مما يقشعر له البدن، ورأيت كلبين فى فناء السجن يتسكعان فى تكاسل من قلة العمل فيما يبدو! كانت ابتسامات ضباط المباحث العامة فى انتظارنا، وشىء غير قليل من الأدب واللياقة فى المعاملة، قالوا لنا إننا سوف نكون فى بيوتنا بعد ثلاث ساعات عندما ينتهون من ملء استمارات البيانات اللازمة وتصوير كل واحد منا!».

«وسألت ضابطا لا أعرف اسمه - وإن بدا أنه يعرف اسمى - إن كان فى استطاعتى أن أتحدث مع إخوتى تليفونيا لأخبرهم أننى بالقاهرة وأننى سأكون معهم بعد ساعات، فرحب بطلبى على الفور، وكانت الصعوبة الأولى أن أتذكر أرقام تليفونات منازل أخوتى بعد هذه الغيبة الطويلة، ولكننى تذكرت رقم تليفون شقيقتى فاطمة فى العباسية وأدرت القرص فلم أجد ردا، وضحك الضابط قائلا: إن أرقام تليفونات العباسية قد تغيرت خلال هذه السنوات، حاولت أن أتصل بشقيقتى فتحية فى الدقى، وجاء صوت زوجها واضحا يسأل مَنْ المتكلم؟ وعندما أجبت صرخ الشيخ الكهل كأنما مسته صاعقة مناديا على شقيقتى، وجرت إلى التليفون وهى تصرخ وتضحك وتزغرد وتبكى فى آن واحد لا تريد أن تصدق، كان من الضرورى أن أضبط عواطفى وأن أطلب منها بسرعة أن تتصل بعايدة وأن تعرف العائلة أننى سأذهب إلى منزل شقيقتى فاطمة فى العباسية، وأن عليهم أن ينتظرونى هناك، ولم أعطها فرصة أكثر من ذلك ووضعت السماعة خوفا على

نفسى من الانفعال!».

«ولا أعرف ما حدث بالضبط بين إخوتى بعد هذه المكالمة، ولكنى علمت بعد ذلك أن وفدا من العائلة ظل ينتظرنى أمام الباب الأمامى للسجن الحربى من العاشرة صباحا حتى الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم!».

«أما أنا فقد فتح لى - ولثلاثة من زملائى - الباب الخلفى للسجن الحربى فى الساعة الرابعة بعد الظهر تماما وقيل لنا: انصرفوا!».

(٥٠)

ونأتى إلى أولى لحظات عبد العظيم أنيس مع الحرية التى غاب عنها وغابت عنه، وهو يجيد فى حديثه عن حوار مع نفسه ومع سائق الأتوبيس ومع سائق التاكسى، كما يجيد فى تصويره قفزه للسلم ولقائه بشقيقته وابنة عمه، بل إنه يجيد فى وصف عجزه عن الكلام أو عن التصرف حين لا يكون بوسعه أن يجيد مثل هذا التصرف أو ذلك:

«وخرجت إلى دنيا الحرية.. على جسدى سترة قديمة كانت ملقاة فى مخازن سجن الواحات سنوات، وفى يدى كيس ممزق من القماش به حاجيات الحلاقة ومعجون وفرشاة أسنان وغيار داخلى وكتاب عن موسيقى الشعر وآخر فى المنطق وبعض أبحاثى القديمة فى الرياضيات، وفى جيبى ورقة بخمسة جنيهات هى كل ما أملكه فى هذه الدنيا».

«ومن السجن الحربى دلفت فى دقيقة إلى طريق صلاح سالم..

شارع واسع لا أعرف عنه شيئا لأنه أنشئ خلال غيابنا، أين أنا بالضبط في القاهرة؟ لم أكن أدرى.. حاولت أن أوقف تاكسيا فلم أفلح.. وعندما جاء أول أتوبيس ركبت وليس فى ذهنى أية فكرة إلى أين يذهب! سألت الكمسارى إلى أين يذهب هذا الأتوبيس؟ فنظر إلىّ شذرا، وكأننى من أهل الكهف، وقال: أين تريد أن تذهب؟ قلت: العباسية، فأجاب: نحن فى العباسية! أعطيته الورقة ذات الجنيهات الخمسة فنظر إلىّ فى امتعاض وقال: مافيش فكة، قلت: ليس فى جيبى مليم آخر، وبدا عليه الضيق وفى عينيه تساؤل كأنما يقول لنفسه: من أين هؤلاء الناس؟! آه لو يعرف».

«وتركنى يائسا.. ووجدت بعد ثلاث محطات أننى عند باب كلية الهندسة جامعة عين شمس.. نعم.. هذا مكان أعرفه ويعرفنى لأننى قمت بالتدريس فيه منذ سنوات، وقفزت من الأتوبيس فى عجلة وركبت تاكسى صادفته وأعطيت السائق العنوان وبدت على السائق الدهشة، فالمسافة صغيرة لا تستحق ركوب تاكسى ولكنى أصررت».

«وعندما ارتقيت درجات العمارة ـ متجاهلا المصعد ـ فى سرعة وضغطت على جرس الشقة لم يكن فيها غير شقيقتى وابنة عمى وأمها، أما الباقون فقد كانوا هناك، عند الباب الأمامى للسجن الحربى ينتظرون! كانت شقيقتى تنتظر عودة صبى المكوجى بالفساتين التى أرسلتها للكى فى هذه المناسبة، وذهبت ابنة عمى تفتح الباب فى تثاقل للمكوجى الصغير فوجدتنى أمامها، وإذا بها تقع على الأرض مغشيا عليها!».

«ثمة لحظات شديدة القسوة من شـدة الانفعال فى حياة كل إنسان، وتلك كان إحـدى هذه اللحظات فى حيـاتى، لست أذكر مـاذا فعلت بالضبط، ولا مـاذا فعلوا وقالوا لى، ولكنى مـازلت أذكر أننى ظللت لدقائق أسمع أصواتا غامضة مـتضاربة متناقضة كأننى فى حلم رهيب، لا أفسر منها شيئا!».

«وعندما هدأ كل شىء عرفت أن عايدة ثابت بالإسكندرية فى زيارة لخالها، وأن أولادى أيضا خارج القاهرة».

«لكنها عادت فى المساء.. وكان لقاء.. وأى لقاء!».

قائمة بيليوجرافية
بالمذكرات التى تناولناها فى مجموعة كتب هذه السلسلة

١ ـ مذكرات وزراء الثورة

كمال حسن على (الفريق أول)

مشاوير العمر، دار الشروق، ١٩٩٤.

سيد مرعى (المهندس)

أوراق سياسية، ٣ أجزاء، المكتب المصرى الحديث، ١٩٧٨.

عبد الجليل العمرى

ذكريات اقتصادية وإصلاح المسار الاقتصادى، دار الشروق، ١٩٨٦.

ثروت عكاشة (الدكتور)

مذكراتى فى السياسة والثقافة، مكتبة مدبولى، ١٩٨٧.

طبع بعد ذلك فى دار الهلال، وفى دار الشروق.

إسماعيل فهمى

التفاوض من أجل السلام فى الشرق الأوسط، مكتبة مدبولى، ١٩٨٦.

عثمان أحمد عثمان ـ(المهندس)

صفحات من تجربتى، الطبعة الثالثة، المكتب المصرى الحديث، ١٩٨١.

ضياء الدين داوود

سنوات مع عبد الناصر، دار الموقف العربى، ١٩٨٤.

طبع بعد ذلك ضمن كتاب: مذكرات ضياء الدين داود «سنوات عبد الناصر وأيام السادات»، دار الخيال، ١٩٩٧.

ضياء الدين داوود [بابان]

ما بعد عبد الناصر، دار الموقف العربى، ١٩٨٦.

طبع بعد ذلك ضمن كتاب: مذكرات ضياء الدين داود «سنوات عبد الناصر وأيام السادات»، دار الخيال، ١٩٩٧.

أحمد خليفة (الدكتور)

الرأى والرأى الآخر. كلمات وراء الأحداث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.

عبد الوهاب البرلسى(الدكتور)

كنت وزيرا مع عبد الناصر، دار المستقبل العربى، ١٩٩٢.

حسن أبو باشا (اللواء)

فى الأمن والسياسة، دار الهلال، ١٩٩٠.

٢ـ مذكرات المرأة المصرية

د. عائشة عبد الرحمن (الدكتورة بنت الشاطئ)

على الجسر، الأعمال الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.

جيهان السادات

سيدة من مصر، المكتب المصرى الحديث، ١٩٨٧.

لطيفة الزيات (الدكتورة)

حملة تفتيش أوراق ذاتية، كتاب الهلال، العدد ٥٠٢، دار الهلال، أكتوبر ١٩٩٢.

زينب الغزالى

أيام من حياتى، دار الشروق، الطبعة الرابعة عشرة، ١٩٩٥.

إنجى أفلاطون

مذكرات إنجى أفلاطون، تحرير وتقديم: سعيد خيال، دار سعاد الصباح، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.

اعتدال ممتاز

مذكرات رقيبة سينما ٣٠ عاما، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.

إقبال بركة:

يوميات امرأة عاملة، سلسلة اقرأ، العدد ٥٨١، دار المعارف، ١٩٩٣.

نوال السعداوى (الدكتورة)

مذكرات طبيبة، سلسلة اقرأ، دار المعارف، ١٩٦٥ .

سلوى العنانى

بعض أوراقى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ .

ثريا رشدى

رشاد رشدى (بالاشتراك مع آخرين)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ .

٣ـ مذكرات الضباط الأحرار

محمد نجيب

كنت رئيسا لمصر ـ مذكرات محمد نجيب، المكتب المصرى الحديث، ١٩٨٤ .

عبد اللطيف البغدادى

مذكرات عبداللطيف البغدادى، المكتب المصرى الحديث، ١٩٧٧ .

خالد محيى الدين

والآن أتكلم، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٢ .

عبد المنعم عبد الرءوف

أرغمت «فاروق» على التنازل عن العرش، الزهراء للإعلام العربى، ١٩٨٨ .

جمال منصور

فى الثورة والدبلوماسية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٩ .

محمد عبد الفتاح أبو الفضل

كنت نائبا لرئيس المخابرات، (كتاب الحرية ١١)، دار الحرية، ١٩٨٦ .

حسين محمد أحمد حمودة

أسرار . . . حركة الضباط والإخوان المسلمون، صفحات من تاريخ مصر الفترة من ٤ فبراير ١٩٤٢ وحتى ٦ أكتوبر ١٩٨١، الزهراء للإعلام العربى، ط ١، القاهرة، ١٩٨٥، ط ٣، ١٩٨٩.

٤ـ مذكرات الهواة والمحترفين

جمال ماضى أبو العزايم (الدكتور)

مواقف مع الطب النفسى فى مصر ١٩٤٣ ـ ١٩٩٦، مؤسسة دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٦.

حامد طاهر (الدكتور)

ديوان حامد طاهر، تجربتى مع الشعر، القاهرة، مطابع سجل العرب، ١٩٨٤.

سمير حنا صادق (الدكتور)

رحيق السنين ، كتاب الأهالى، رقم ٥٥، يناير ١٩٩٦.

عبد الله عبد البارى

خواطر فى بلاط صاحبة الجلالة، المكتب المصرى الحديث، القاهرة، ١٩٨٤

علاء الديب

وقفة قبل المنحدر، من أوراق مثقف مصرى، المركز المصري العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

محمد أحمد فرغلى (باشا)

عشت حياتى بين هؤلاء، مطابع الأهرام التجارية، ١٩٨٤.

محمود الربيعى (الدكتور)

فى الخمسين عرفت طريقى، سيرة ذاتية، مطبعة المستقبل، الطبعة الأولى، ١٩٩١.

ميلاد حنا (الدكتور)

ذكريات سبتمبرية، دار المستقبل العربى، ١٩٨٦ .

٥ـ مذكرات رجال القانون

محمد عصام الدين حسونة (المستشار عصام حسونة)

شهادتى.. ٢٣ يوليو وعبد الناصر، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.

ممتاز نصار (المستشار)

معركة العدالة فى مصر، دار الشروق، الصفحة الأولى، نوفمبر ١٩٧٤.

محمد عبد السلام (المستشار)

سنوات عصيبة.. ذكريات نائب عام، دار الشرق، القاهرة، الطبعة الثانية، مايو ١٩٧٥.

جمال الدين العطيفى (الدكتور) [بابان]

آراء فى الشرعية وفى الحرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠.

من منصة الاتهام، دار المعارف، ١٩٦٨.

محمد عبد السلام الزيات ([بابان]

مصر.. إلى أين.. قراءات وخواطر فى الدستور الدائم ١٩٧١ ، دار المستقبل العربى ، ١٩٨٥.

السادات: الحقيقة والقناع، كتاب الأهالى، رقم ١٨ ، فبراير ١٩٨٩

ماهر برسوم (المستشار)

مذكرات مستشار مصرى، دار العرب البستانى، ١٩٨٥.

حسن عبد الغفار (المستشار)

ذكريات مستشار، دار الفكر العربى، بدون تاريخ.

الأمن القومى لمصر

محمد حافظ إسماعيل (الدكتور)

أمن مصر القومى فى عصر التحديات، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ .

صلاح نصر

ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير، الجزء الأول: الأصول، مؤسسة الاتحاد للطباعة والنشر، أبوظبى، ١٩٨٦.

أمين هويدى

عبدالناصر، دار المستقبل العربى، الطبعة الثانية، ١٩٨٥.

أحمد كامل

من أوراق رئيس المخابرات العامة.. أحمد كامل يتذكر

حسن طلعت (اللواء)

فى خدمة الأمن السياسى (مايو ١٩٣٩ ـ مايو ١٩٧١)، دار الوطن العربى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

فؤاد علام (اللواء)

الاخوان وأنا.. من المنشية إلى المنصة، المكتب المصرى الحديث، الطبعة الأولى، ١٩٩٦.

٧ـ من أجل السلام

أحمد عصمت عبد المجيد (الدكتور)

زمن الانكسار والانتصار، مذكرات دبلوماسى عن أحداث مصرية وعربية ودولية، نصف قرن من التحولات الكبرى، دار الشروق، ودار النهار، الطبعة الأولى، نوفمبر ١٩٨٨.

محمود رياض

مذكرات محمود رياض (١٩٤٨ ـ ١٩٧٨) البحث عن السلام والصراع فى الشرق الأوسط، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٥.

محمد إبراهيم كامل

السلام الضائع فى كامب ديفيد، كتاب الأهالى (١٢)، ١٩٨٧.

حسين ذو الفقار صبرى

يانفسى لا تراعى، تقديم يحيى حقى، الهيئة العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.

عبد الوهاب العشماوى (محمد)

شرخ فى جدار الجامعة العربية، المكتب المصرى الحديث، ١٩٧٩.

جمال بركات

طرائف دبلوماسية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٧.

٨ـ الطريق إلى النكسة

عبد الحميد الدغيدى (اللواء)

جريدة الأيام، ٥ يونيو ١٩٨٨، ١٢ يونيو، ١٩ يونيو، ٢٦ يونيو، ٣ يوليو، ١٠ يوليو، ١٧ يوليو. تولى تحرير المذكرات أحمد الجابرى.

مجلة أكتوبر، العدد ٨٧٠: ٢٧ يونيو ١٩٩٣.

عبد المحسن كامل مرتجى (الفريق أول)

الفريق مرتجى يروى الحقائق، قائد جبهة سيناء فى حرب ١٩٦٧، دار الوطن العربى .

أنور القاضى (الفريق)

مذكرات، آخر ساعة، (حوار مع محمد وجدى قنديل) بمناسبة مرور ٢١ عاما على حرب يونيو ١٩٦٧، آخر ساعة، ١٩٨٨/٦/٨ .

صلاح الحديدى (الفريق)

شاهد على حرب ١٩٦٧، مطبعة مدبولى، ١٩٧٤ .

صلاح الحديدى

شاهد على حرب اليمن، مطبعة مدبولى، الطبعة الأولى، ١٩٨٤ .

محمد فوزى (الفريق أول)

حرب الثلاث سنوات (١٩٦٧ ـ ١٩٧٠)، دار المستقبل العربى، ١٩٩٠ .

٩ـ النصر الوحيد

محمد عبد الغنى الجمسى (المشير)

مذكرات الجمسى، حرب أكتوبر ١٩٧٣، المنشورات الشرقية، باريس، ط ١، ١٩٨٩ .

سعد الدين الشاذلى (الفريق)

حرب أكتوبر، مذكرات الشاذلى، الجزء الأول ٦٨ ـ ١٩٧٣ حرب أكتوبر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧، وذكر فى الكتاب أنه من منشورات مؤسسة الوطن

العربى للطباعة والنشر، باريس، بالتعاون مع دار المحرر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

عبد المنعم خليل (اللواء)

فى قلب المعركة، المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٥.

نشرت بعض فصول من المذكرات قبل ذلك فى كتاب «حروب مصر فى أوراق قائد ميداني» عن دار المستقبل العربى، وفى جريدة «الأنباء» الكويتية، أغسطس ١٩٨٩.

يوسف عفيفى (الفريق)

أبطال الفرقة ١٩، مقاتلون فوق العادة، دار الصفوة، الغردقة.

عادل يسرى

رحلة الساق المعلقة.. من رأس العش إلى رأس الكوبرى، دار المعارف، ١٩٧٤.

١٠ـ فى أعقاب النكسة

مدكور أبو العز (الفريق)

مذكرات الفريق مدكور أبو العز، نشرت على ٣٥ حلقة فى جريدة الوفد، أغسطس وسبتمبر وأكتوبر، ١٩٨٧.

محمد أحمد صادق (الفريق أول)

لم تنشر المذكرات كاملة حتى الآن، إلا أن أجزاء متعددة منها نشرت فى:

- جريدة الشعب، مايو ١٩٨٢.

● جريدة الشرق الأوسط، يونيو ١٩٨٧.

● حديث مطول مع الأستاذ أحمد حسن عبدون، مجلة الشباب، مايو ١٩٩١.

● ذكريات للفريق صادق أدلى بها لجريدة الأحرار.

● ص ٣٦٢ من كتابنا «فى أعقاب النكسة».

محمد صدقى محمود (الفريق أول)

لم تنشر المذكرات كاملة حتى الآن، إلا أن أجزاء متعددة منها نشرت فى:

● جريدة الأحرار، ٣ يناير ١٩٨٣.

● مجلة الحرس الوطنى السعودية، ١٩٨٥ (شهور ذى الحجة والمحرم وصفر).

● الأنباء الكويتية، مايو ١٩٨٦: الرجل الأول والأول مكرر في مصر.

● جريدة الشرق الأوسط السعودية، ٨ يونيو ١٩٨٧،

محمد فوزى (الفريق أول)

استراتيجية المصالحة، دار المستقبل العربى، ١٩٨٦.

صلاح الحديدى ـ الفريق)

حوار مع الأستاذ هشام عبد الغفار، مجلة الشباب، أكتوبر ١٩٩١.

١١ـ على مشارف الثورة

أحمد مرتضى المراغى (باشا)

مجلة أكتوبر، ٢٣ حلقة (بدءا من ٢٦ يناير ١٩٨٦ وحتي ٢٢ يونيو ١٩٨٦)

كريم ثابت (باشا)

● عشر سنوات مع فاروق ١٩٤٢ ـ ١٩٥٢، نهاية الملكية، مذكرات كريم ثابت، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

● فاروق كما عرفته، ملك للنهاية، مذكرات كريم ثابت، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

إبراهيم فرج (باشا)

ذكرياتى السياسية، حوار مع حسنين كروم، الناشر: مكتبة الحياة، القاهرة، ١٩٨٤..

صليب سامى

مذكرات صليب سامى (١٨٩١ ـ ١٩٥٢)، نقد وتحليل د. سامى أبو النور، مطبعة مدبولى، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.

عبد الرحمن الرافعى (بك)

مذكراتى ١٨٨٩ ـ ١٩٥١، الطبعة الثانية، كتاب اليوم، العدد ٢٩٨، سبتمبر ١٩٨٩ (فيه إشارة إلى أن هذه الطبعة مطابقة تماما للطبعة الأولى التى صدرت عن دار الهلال، ١٩٥٢).

١٢ـ فى خدمة السلطة

موسى صبرى

٥٠ عاما فى قطار الصحافة، مذكرات موسى صبرى، دار الشروق، ١٩٩٢ .

أحمد بهاء الدين

محاوراتى مع السادات، دار الهلال، الطبعة الثانية، ١٩٨٧ .

عبد الستار الطويلة

السادات الذى عرفته، هيئة الكتاب، ١٩٩٢

فتحى غانم

معركة بين الدولة والمثقفين، كتاب اليوم، عدد سبتمبر ١٩٩٥، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٩٥ .

حلمى سلام [بابان]

- أنا وثوار يوليو، ط ٢، دار ثابت، ١٩٨٦ .
- ثورة يوليو والصحافة، بقلم رشاد كامل، الفصل التاسع، الجداوى للنشر، الطبعة الأولى ١٩٧٩ .

جلال الحمامصى

حوار وراء الأسوار، المكتب المصرى الحديث، الطبعة الأولى، يناير ١٩٧٦ .

١٣ ـ تكوين العقل العربى

شوقى ضيف

معى، الجزء الأول، سلسلة اقرأ، عدد ١٥ فبراير ١٩٨٥ ، دار المعارف، القاهرة.

عبد الرحمن بدوى

سيرة حياتى، الموسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٠.

محمد عبد الله عنان

مصر فى عيـون أبنائها.. ثلثا قرن من الزمن، مذكرات عبـد الله عنان، دار الهلال، كتاب الهلال ٤٤٥، يناير ١٩٨٨.

محمد على العريان

العريان والزمان، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

أحمد عبد السلام الكردانى

حقبة من الزمان، كتاب الهلال، عدد نوفمبر ١٩٨٠.

نادية رضوان

رحلتى إلى عالم الجن والعلاج الروحانى، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

١٤ـ الثورة والإحباط

أحمد هيكل

سنوات وذكريات، سيرة ذاتية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

على الحديدى

رحلة مع الأيام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢.

جليلة رضا

صفحات من حياتى، كتاب الهلال، العدد ٤٢٧، يوليو ١٩٨٦، دار الهلال، ١٩٨٦.

صالح مرسى

هم وأنا، سيرة ذاتية: نجيب محفوظ، يحيى حقى، يوسف إدريس، يوسف السباعى، توفيق الحكيم، مكتبة مدبولى الصغير، ١٩٩٥.

فتحى أبو الفضل

رحلتى مع الرواية، سلسلة كتابك، دار المعارف، ١٩٧٩.

عايدة الشريف

شاهدة ربع قرن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥.

أمانى فريد

أيام وذكريات، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون تاريخ.

١٥ - عسكرة الحياة المدنية

سمير فاضل

كنت قاضيا للحادث المنصة: مذكرات قاض عسكرى من حرب اليمن إلى اغتيال السادات،

سفنكس للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، يناير ١٩٩٣.

أحمد طعيمة

شاهد حق: صراع السلطة نجيب، عبد الناصر، عامر، السادات، مطابع الأهرام التجارية، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ١٩٩٩.

مصطفى بهجت بدوى

حكايات سبتمبر ٤٢: على هامش عهود فاروق وعبد الناصر والسادات، الأهرام، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٠.

حلمى السعيد

شهادتى للأجيال، دار المستقبل العربى، ١٩٩٩.

رياض سامى

شاهد على عصر الرئيس محمد نجيب، إعداد محمد ثروت، المكتب المصرى الحديث.

١٦ـ أقوى من السلطة

زكى سويدان (الدكتور)

مشوار حياتى، أهم حوادث القرن، دار الوزان للطباعة والنشر - المعادى، ٦٦٤ صفحة، ١٩٩١.

الدكتور مصطفى الرفاعى

خواطر طبيب، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٩٥.

مصطفى الديوانى (الدكتور)

قصة حياتى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٥.

دمرداش أحمد (الدكتور)

يوميات طبيب فى الأرياف، سلسلة كتابك، الكتاب ٣٨، دار المعارف، القاهرة،، ١٩٧٧.

أرنست سليمان شلبى (الدكتور)

أقاصيص وأقاصيص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣

١٧ـ بناء الجامعات

سليمان حزين (الدكتور)

مستقبل الثقافة فى مصر، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤.

سمحة الخولى (الدكتورة)

من حياتى مع الموسيقى، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.

عبد الحليم منتصر (الدكتور)

ذكريات عطرة وخواطر عابرة.. هؤلاء علمونى، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢.

عبد الكريم درويش (الدكتور)

حصاد السنين، مطابع الشرطة، القاهرة، الطبعة الأولى، أكتوبر ٢٠٠٣.

١٨ - فى كواليس السلطة

حسن يوسف

القصر ودوره فى السياسة المصرية ١٩٢٢ _ ١٩٥٢: مذكرات حسن يوسف، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨٢.

حسين حسنى (الدكتور)

السكرتير الخاص للملك فاروق: سنوات مع الملك فاروق: شهادة للحقيقة والتاريخ، الطبعة الأولى، دار الشروق، ٢٠٠١.

صلاح الشاهد

ذكرياتى فى عهدين، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦.

الغريب الحسينى

سنوات فى البلاد الملكى: مذكرات الغريب الحسينى، الحارس الخاص للملك فاروق، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ١٩٩٨.

١٩ ـ فى رحاب العدالة

عبد الفتاح حسن (باشا)

ذكريات سياسية للوزير السابق عبد الفتاح حسن المحامى، دار الشعب، ١٩٧٤، .

فتحى رضوان

٧٢ شهراً مع عبد الناصر، كتاب الحرية، الطبعة الثالثة، ملحق صور، ١٩٨٧. مثبت على الغلاف أنها: الطبعة الثانية (فصلان جديدان)، صدرت الطبعة الأولى، ١٩٨٥.

يوسف نحاس (الدكتور)

ذكريات.. سعد عبد العزيز.. ماهر ورفاقه فى ثورة سنة ١٩١٩، .. تصرفات حكومية، دار النيل للطباعة، ١٩٥٢.

محمود كامل (الدكتور)

يوميات محام، كتاب اليوم، عدد شهر يوليو ١٩٨٤، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٨٤.

٢٠ ـ يساريون فى عصر اليمين

محمد مراد غالب (الدكتور)

مع عبد الناصر والسادات: سنوات الانتصار وأيام المحن، مذكرات مراد غالب، مركز

الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠١.

حامد عمار (الدكتور)

طى اجتزناها بين الفقر والمصادفة إلى حرم الجامعة، سيرة ذاتية، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٦.

رشدى سعيد (الدكتور)

رحلة عمر، ثروات مصر بين عبد الناصر والسادات، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٠.

عبد العظيم أنيس

ذكريات من حياتى، كتا الهلال، العدد ٦١٨، يونيو ٢٠٠٢، دار الهلال، القاهرة، ٣٢٢ صفحة، ٢٠٠٢.

كتب للمؤلف

■ **الدكتور محمد كامل حسين عالماً ومفكراً وأديباً**

سيرة حياة المفكر المصرى الكبير محمد كامل حسين (١٩٠٢ ـ ١٩٧٧) صاحب «قرية ظالمة» و«وحدة المعرفة» و«الوادى المقدس» و«النحو المعقول» و«التحليل البيولوجى للتاريخ».

فاز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب (١٩٧٨)، صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٨، وضمت الطبعة الثانية أبواباً وفصولاً لم تضمها الطبعة الأولى.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢.

■ **مشرّفة بين الذرة والذروة**

سيرة العالم المصرى الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة (١٨٩٨ ـ ١٩٥٠)، وإنجازاته العلمية ومدرسته الرائدة وأفكاره الاجتماعية وقدراته البيانية والموسيقية، وببليوجرافيا بإنتاجه وما كتب عنه، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٠، ونال جائزة الدولة التشجيعية فى أدب التراجم (١٩٨٢).

الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، ٢٠٠١.

■ **سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى**

يستعرض الإنتاج الفكرى والأدبى للدكتور أحمد زكى (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥) فى كافة الميادين ويعرض آراءه وفلسفته فى الحياة والعلم والسياسة والفكر والاجتماع، وتتميز الطبعة الثانية باحتوائها على الببليوجرافيا الكاملة لإنتاج الدكتور أحمد زكى فى كتبه ودراساته وترجماته ومقالاته المتنوعة فى مجلات: الرسالة، والثقافة، والهلال، والاثنين، والدنيا، والعربى وغيرها.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣.

■ **أحمد زكى حياته وفكره وأدبه**

يضم هذا الكتاب معظم فصول الأبواب الأولى من كتاب سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٤.

■ **الدكتور علي باشا إبراهيم**

سيرة حياة رائد الطب المصرى فى العصر الحديث د. على إبراهيم (١٨٨٠ ـ ١٩٤٧) وإنجازاته العلمية والحضارية، وآراؤه فى الحياة والعلم والطب والجامعة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٥.

■ **الدكتور نجيب محفوظ**

سيرة حياة الرائد الأول لطب النساء فى العالم العربى د. نجيب محفوظ (١٨٨٢ ـ ١٩٧٢)، الذى أضاف إلى العلم كثيراً من الإنجازات، وعرض لفلسفته وقدراته العلمية والبحثية والبيانية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

■ **الدكتور سليمان عزمى باشا**

سيرة حياة أول أطبائنا الباطنيين د. سليمان عزمى (١٨٨٢ ـ ١٩٦٦)، وتحليل لآرائه فى التعليم الطبى والجامعى، وفلسفته فى ربط الطب والتعليم الطبى بالحياة العامة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

■ **عثمان محرم .. مهندس الحقبة الليبرالية المصرية (١٩٢٤ ـ ١٩٥٢)**

يستعرض المقومات العقلية والفكرية والمهنية والسياسية التى أسهمت فى صنع إنجازات المهندس الوطنى العبقرى عثمان محرم (١٨٨١ ـ ١٩٦٣)، ويعرض لسيرته المهنية والسياسية والوطنية، ويتدارس أوراق محنته فى أول عهد الثورة حين قدم للمحاكمة كنموذج لكباش الفداء التى أراد العهد الجديد بها أن يمحو من الأذهان مهابة وقيمة رموز العهد السابق.

مكتبة مدبولى ، ٢٠٠٤ .

■ **سيد مرعى، شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح (١٩٤٤ ـ ١٩٨١)**

سيرة حياة المهندس سيد مرعى (١٩١٤ ـ ١٩٩٢)، وإسهاماته السياسية والمهنية والزراعية فى ثلاثة عصور متتالية، وما تركته شخصيته من بصمات سياسية واجتماعية لاتزال آثارها باقية.

مكتبة مدبولى، ١٩٩٩.

■ **إسماعيل صدقى باشا (١٨٧٥ ـ ١٩٥٠)**

سيرة حياة واحد من أهم الشخصيات التى مرت بتاريخ مصر الحديث وأثرت فى تاريخها القومى تأثيراً كبيراً بالإيجاب والسلب، وعرض لإنجازاته الاقتصادية والحضارية، ونقد لعقليته السياسية، وتقدير لأفكاره الاستراتيجية.

الهيئة المصرية العامة لِلكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ١٩٨٩.

■ **صانع النصر.. المشير أحمد إسماعيل (١٩١٧ ـ ١٩٧٤)**

سيرة حياة قائد عسكرى متميز أتيح له أن يتحقق على يديه أعظم نصر فى تاريخ مصر المعاصر، وملامح حياته وتكوين شخصيته وإنجازاته العسكرية على مدى حياته، ويناقش النقاط الخلافية فى تاريخه.

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

الطبعة الثالثة ، دار جهاد ، ٢٠٠٥ .

■ **مايسترو العبور.. المشير أحمد إسماعيل**

سيرة موجزة لحياة قائد القوات العربية فى حرب ١٩٧٣.

دار الأطباء ، ١٩٨٤ .

■ **سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض (١٩١٩ ـ ١٩٦٩)**

سيرة موجزة لحياة ألمع العسكريين العرب، وعرض سريع لأفكاره العسكرية والاستراتيجية وإسهاماته التاريخية.

دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ **توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية**

إطلالة سريعة بترتيب موضوعى على شخصية توفيق الحكيم وحياته وآثاره الأدبية، من خلال رحلته فى الحياة، وتعريف موجز بآثاره الأدبية والفكرية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة الثقافية، ١٩٨٨.

■ **عبد اللطيف البغدادى .. شهيد النزاهة الثورية**

سيرة حياة عبد اللطيف البغدادى (١٩١٧ ـ ٢٠٠٠) أبرز رجال عهد الثورة فى المجال التنفيذى، وتتبع لفكره الإصلاحى والسياسى، وإنجازاته الحضارية، وإسهاماته فى الحياة البرلمانية، والوزارات المختلفة، والعلاقات العربية، ومحكمة الثورة، ورؤاه الاستراتيجية والسياسية والحربية.

دار الخيال، ٢٠٠٦.

■ **مصريون معاصرون**

مجموعة من كلمات ومقالات التأبين التى نشرت فى رثاء بعض المصريين المعاصرين أو إحياء ذكراهم، متضمنة أضواء موحية على بعض من الجوانب التى تبدت فى حياة وإنتاج هذه الشخصيات.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١.

■ **بين الثناء والرثاء**

مجموعة منتقاة من الفصول والخطب والدراسات ألقيت أو كتبت فى تأبين بعض أعضاء مجمع اللغة العربية، وفى إحياء ذكرى رموز العلم والفكر والأدب فى احتفاليات الجمعية الخيرية الإسلامية بروادها، وفى سلسلة عظماء المصريين (روز اليوسف) وأيام فى الذاكرة (الأهرام).

الطبعة الأولى : دار جهاد ، ٢٠٠٦ .

■ **يرحمهم الله : كلمات فى التأبين**

تراجم انطباعية تأبينية لكل من: بدرالدين أبوغازى، وصلاح عبدالصبور، ومحمد زكى عبدالقادر، ود. يحيى المشد، ومحمد فهمى عبداللطيف.

دار الأطباء، ١٩٨٤.

■ **فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين**

مجموعة من القضايا النقدية والفكرية، المرتبطة بفن كتابة التجربة الذاتية، وأساسياته، وأركانه، وتطوره، ومدى الحاجة إليه، والنقاط الخلافية فيه مع محاولة لتأصيل مذهب المؤلف فى نقد أدبيات التجارب الذاتية المنشورة فى صور مختلفة.

دار الشروق، ١٩٩٧.

■ **فى ظلال السياسة.. نجيب محفوظ .. الروائى بين المثالية والواقع**

دراسة أدبية نقدية تحليلية تستعرض الفكر السياسى لنجيب محفوظ من خلال آرائه الصريحة المباشرة وأعماله الفنية ومذكراته المتعددة، وتثبت أنه فكر متقدم تناول القضايا الوطنية برؤية واضحة ونظر ثاقب وعبّر عن وعى سياسى من طراز متميز نجا من التقولب والأيدلوجيات واستشرف الأمل فى الآفاق الرحبة لمستقبل مزدهر لأمته ونجح فى لفت النظر إلى حقيقة الإيجابيات الليبرالية التى تحققت بفضل ثورة الشعب فى ١٩١٩.

دار جهاد، ٢٠٠٣.

■ **على هوامش الأدب**

مجموعة من الدراسات والبحوث فى اللغة والأدب والنقد، تحاول فهم النقد ووظيفته وتصور علاقة الإبداع بالحياة، وتحلل الوسائل الكفيلة بالارتقاء بالذوق الأدبى العام، وتناقش كثيراً من القضايا والإشكاليات التى شغلت الحياة الثقافية، وترتاد آفاقاً جديدة فى درس علاقة اللغة بالحياة فى عصر المعلومات، وفى علاقة النقد بالذوق فى حقبة تتسم بتسارع الخطى والانكفاء على الذات معاً.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.

■ ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة

يناقش التأثيرات المتبادلة بين السياسة والتاريخ والأدب من خلال مجموعة من الفصول الموثقة (٢٣ فصلاً) تستعرض وقائع ثقافية وأدبية ونقدية محددة بعضها مشهور وبعضها لا يتمتع بالقدر الكافى من المعرفة به.

دار جهاد، ٢٠٠٣.

■ من بين سطور حياتنا الأدبية

خمسة من الفصول التى يضمها كتاب ثلاثية التاريخ والأدب والسياسية نشرت مبكراً.

دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى

دراسة وتعريف وتقييم لجهد ثلاثة من أساتذة كلية الآداب فى الجامعة المصرية تصدوا لكتابة تاريخ الأمة الإسلامية، تلقى الدراسة الضوء على ملامح وسمات ومميزات هذه التجربة الرائدة التى أثمرت عملاً يجمع بين الأدب والتاريخ، وقد أصبح بمثابة المصدر المفضل لأهل التاريخ وتاريخ الأدب العربى، وكثير من الدراسات الإنسانية.

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٤.

■ كلمات القرآن التى لا نستعملها

دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية مع جداول تفصيلية كاملة بالكلمات ومعانيها والآيات التى وردت فيها من خلال تصنيف لغوى دقيق مع شرح موجز لفكرة اختلاف العينات اللفظية والعوامل المؤثرة فى هذا الاختلاف.

صدر فى طبعتين : دار الأطباء، ١٩٨٤، دار الشروق، ١٩٩٧.

■ أوراق القلب (رسائل وجدانية)

يضم أكثر من خمس وسبعين رسالة من الرسائل القصيرة تعبر بطريقة مبتكرة عن أحوال وجدانية متباينة، وتعكس قدرة عالية على التصوير والتعبير والقبض على لحظات الخصوصية والتفرد والمفارقة فى الملاقات الإنسانية.

الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٤، الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

■ أوهام الحب : دراسة فى عواطف الأنثى

يتضمن خمسة وثلاثين فصلاً ترسم الملامح الجوهرية فى الطبائع الإنسانية المتباينة، وتقدم صوراً فنية ونفسية دقيقة أقرب فى طبيعتها إلى اللقطة اللحظية، كما تقدم استعراضاً دقيقاً لتقلبات الوجدان ودواعيها وتواعبها.

الطبعة الأولى، الكتاب الأول فى سلسلة كتاب الجمهورية الشهرى، أغسطس ١٩٩٩.

الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

■ **رحلات شاب مسلم**

انطباعات ذاتية عن رحلات علمية مبكرة فى أمريكا وإيطاليا والهند وبريطانيا صورت فى دقة إبداعية بعض مشاعر الاحتكاك المباشر للمؤلف مع بيئات مختلفة وحضارات متعددة، كتبت بحرص شديد على الالتزام والدقة الموحية.

صدر فى ثلاث طبعات : دار الصحوة ١٩٨٧، دار الشروق ١٩٩٥، دار جهاد ٢٠٠٣.

■ **شمس الأصيل فى أمريكا**

يتميز بأسلوب مستحدث فى كتابة الرحلات لا يصف الطبيعة كما فعل السابقون، لكنه يحاول أن يصف الحضارة، وعلى حين أن وصف الطبيعة لا يستلزم إلا الحاسة الصادقة.. فإن وصف الحضارة يستلزم كذلك أقداراً متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب.. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة.

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦، ودار جهاد، ٢٠٠٣.

■ **مجلة الثقافة (١٩٣٩ ـ ١٩٥٢) تعريف وفهرسة وتوثيق**

سيرة حياة مجلة رائدة، ودراسة صحفية وأدبية تحليلية للمجلة الشهيرة التى أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بصفة أسبوعية، وتشمل فهرسة كاملة للأعداد الـ ٧٣٣، وكشافات للموضوعات التى أسهم بها الكتاب الذين بلغ عددهم أكثر من ألف، مع تراجم وافية لحوالى ١٣٠ كاتباً بارزاً واظبوا على الكتابة للمجلة، وتعد بعض النبذات البيوجرافية المقدمة عن هؤلاء بمثابة النبذات التعريفية ألوحيدة المتاحة عنهم.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.

■ **البيليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء)**

ببليوجرافيا كاملة للبحوث الطبية المنشورة فى مائة وخمسين دورية طبية مصرية (١٩٨٥ ـ ١٩٨٨)، مع معلومات ببليوجرافية كاملة وملخصات وافية للبحوث، صدر فى ثمانية أجزاء نشرتها الأكاديمية الطبية العسكرية على مدى الفترة من ١٩٨٨ وحتى ١٩٩١.

■ **مذكرات وزراء الثورة**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات عشرة من وزراء ثورة يوليو ١٩٥٢ من ذوى الانتماءات المختلفة والأدوار المتباينة، فضلاً عن اختلاف آرائهم السياسية: كمال حسن على، وسيد مرعى، وعبدالجليل العمرى، وثروت عكاشة، وإسماعيل فهمى، وعثمان أحمد عثمان، وضياء داود، وأحمد خليفة، وعبدالوهاب البرلسى، وحسن أبوباشا.

دار الشروق، ١٩٩٤.

■ **المرأة والحرية ، مذكرات المرأة المصرية**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لقضية الحرية فى النظام الاجتماعى من خلال قراءة متأنية لمذكرات أربعة اتجاهات كاشفة عن دور المرأة المصرية فى الحياة العامة مشاركة للزوج فى مجده، أو ممارسة للسياسة، أو للوظيفة، أو عارضة لتجربة حياة متميزة: بنت الشاطئ، وجيهان السادات، ولطيفة الزيات، وزينب الغزالى، وإنجى أفلاطون، واعتدال ممتاز، وإقبال بركة، ونوال السعداوى، وسلوى العنانى، وثريا رشدى.

دار الخيال، ٢٠٠٤.

■ **مذكرات المرأة المصرية**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «الثورة والحرية» ، دار الشروق، ١٩٩٥.

■ **نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار**

تصوير دقيق للفترة الأولى من حكم ثورة يوليو (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) ومقدماتها وصراعاتها والتحولات التى انتهت إليها من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات كل من: اللواء محمد نجيب، وخالد محيى الدين، وعبدالمنعم عبدالرؤوف، وجمال منصور، ومحمد عبدالفتاح أبوالفضل، وحسين حمودة.

دار الخيال، ٢٠٠٣.

■ **مذكرات الضباط الأحرار**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «نحو حكم الفرد» تضم أيضاً باباً عن مذكرات عبداللطيف البغدادى لم تتضمنه الطبعة الثانية.

دار الشروق، ١٩٩٦.

■ **محاكمة ثورة يوليو : مذكرات رجال القانون والقضاء**

دراسة لعلاقة ثورة يوليو ١٩٥٢ بالقانون، وكيف أعلت الثورة من قيمة القانون فى بعض المواقف والصراعات التى نشبت بين تنظيمات الثورة وبين رجال القضاء الوطنى وذلك من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أعلام القانون والقضاء الذين مارسوا السياسة أو شاركوا فى الحياة العامة، وتشمل مذكرات كل من: محمد عصام الدين حسونة، وممتاز نصار، ومحمد عبدالسلام، وجمال العطيفى، ومحمد عبدالسلام الزيات، وماهر برسوم، وحسن عبدالغفار.

دار الخيال، ١٩٩٩ .

■ **من أجل السلام، مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية**

تحليل ومقارنة لرؤى مجموعة من أعلام الدبلوماسية المصرية الذين شغلوا مواقع مختلفة وعاصروا حروب مصر الدبلوماسية من أجل استعادة التراب الوطنى : أحمد عصمت عبدالمجيد، ومحمود رياض، ومحمد إبراهيم كامل، وحسين ذوالفقار صبرى، ومحمد عبدالوهاب العشماوى، وجمال بركات.

دار الخيال، ١٩٩٩.

■ **الطريق إلى النكسة، مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧**

مجموعة فصول تاريخية نقدية تتناول استعراضاً ومدارسة لمذكرات قادة الصف الأول فى حرب يونيو ١٩٦٧ وتحليل لآرائهم ورؤاهم عن الأسباب التى صنعت الهزيمة أو أدت إليها، أو حالت دون السيطرة عليها فى الوقت المناسب، والدراسة بمثابة أوفى مرجع لمذكرات عبدالحميد الدغيدى، وعبدالمحسن كامل مرتجى، وأنور القاضى، وصلاح الحديدى، ومحمد فوزى. وبعض هذه المذكرات لم تنشر إلا فى صحف محدودة التوزيع.

دار الخيال، ٢٠٠٠ .

■ **النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣**

مرجع أساسى لا غنى عنه لدراسة أمجد المعارك العربية التى خاضتها الأمة العربية فى ١٩٧٣، يتضمن الكتاب مدارسة ضخمة عن حقائق تلك الحرب ووقائعها من منظور وطنى وعلمى أمين مترفع عن الانحياز والغرض، ويقدم نظرات غير مسبوقة فى تحليل أحداث الحرب وتطورها ويستعرض بأمانة وتدقيق مذكرات خمسة من قادة حرب أكتوبر من مستويات مختلفة شاركوا بجهد وافر فى صياغة وصناعة النصر : محمد عبدالغنى الجمسى، وسعد الشاذلى، وعبدالمنعم خليل، ويوسف عفيفى، وعادل يسرى.

دار الخيال، ٢٠٠٠ .

■ **فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢**

أوفى دراسة متاحة حتى الآن للفترة التى اصطلح على تسميتها بحرب الاستنزاف وهى فترة حافلة بالتناقضات فى الرأى والتصور والتكتيك ورواية الوقائع، ويقدم الكتاب تحقيقاً لكثير من هذه الجزئيات الخلافية من خلال مذكرات كل من: مدكور أبوالعز، ومحمد أحمد صادق، ومحمد صدقى محمود، ومحمد فوزى، والفريق صلاح الحديدى، والكتاب هو المصدر الوحيد لبعض هذه المذكرات التى لم تنشر إلا فى الصحف.

دار الخيال، ٢٠٠١ .

■ **على مشارف الثورة : مذكرات وزراء نهاية الملكية ١٩٤٩ ـ ١٩٥٢**

دراسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات خمسة من وزراء السنوات الأخيرة فى عهد الملكية ينتمون إلى اتجاهات وتوجهات مختلفة، مع تحليل أدبى تاريخى لما تضمنته المذكرات من حقائق وروايات، وتشمل مذكرات كل من: أحمد مرتضى المراغى، وكريم ثابت، وإبراهيم فرج، وصليب سامى، وعبدالرحمن الرافعى.

دار الخيال، ٢٠٠١ .

■ **عسكرة الحياة المدنية: مذكرات الضباط فى غير الحرب**

دراسة موسعة للتأثيرات العملية المباشرة وغير المباشرة لممارسة رجال القوات المسلحة للأدوار والمهام المدنية فى عهد الثورة فى مجالات الإدارة والوزارة والتنظيمات والسياسة والصحافة والقضاء والإعلام والدعوة والدبلوماسية والهندسة من خلال مدارسات مكثفة لمذكرات سمير فاضل، وأحمد طعيمة، وحلمى السعيد، ومصطفى بهجت بدوى، ورياض سامى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥.

■ **مذكرات الصحفيين .. فى خدمة السلطة**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لعلاقات الصحافة بالسلطة على مدى عهد الثورة انتقالاً من عصر الليبرالية إلى التأميم والتنظيم إلى انفتاح محسوب، مع تحقيق لوقائع استغلال النفوذ ومصادرة الرأى: موسى صبرى، وأحمد بهاء الدين، وعبدالستار الطويلة، وفتحى غانم، وحلمى سلام، وجلال الدين الحمامصى.

دار الخيال، ٢٠٠٢ .

■ **مذكرات المفكرين والتربويين .. تكوين العقل العربى**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أبرز المفكرين والتربويين الذين أسهموا فى تكوين العقل العربى، وعرض لرؤاهم التربوية والفكرية ولوجهات نظرهم فى الحياة العقلية فى مصر المعاصرة من خلال تحليل انطباعاتهم ورؤاهم فيما يتعلق بتكوين عقلياتهم وعقلية تلاميذهم وأساتذتهم ومعاصريهم. وتشمل المدارسة مذكرات: شوقى ضيف، وعبدالرحمن بدوى، ومحمد عبدالله عنان، ومحمد على العريان، وأحمد عبدالسلام الكردانى، ونادية رضوان.

دار الخيال، ٢٠٠٢ .

■ **الثورة والإحباط : مذكرات أساتذة الأدباء والأدباء**

دراسة أدبية نقدية لمجموعة من المذكرات كتبها الأدباء وأساتذة الأدب وأضاءت علاقاتهم بالسياسة والحياة العامة وتفاعلات الأدب والكتابة فى عهد الثورة، وخبراتهم الفنية والأدبية، والعوامل التى شكلت وجدانهم، والتجارب التى عكستها آثارهم الأدبية، وتضم

مذكرات الدكتورين: أحمد هيكل وعلى الحديدى، والأساتذة صالح مرسى، وفتحى أبوالفضل، وجليلة رضا، وعايدة الشريف، وأمانى فريد.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤.

■ **آراء حرة فى التربية والتعليم**

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من الفصول عرض فيها المؤلف آراء حرة ومدروسة فى قضايا التربية والتعليم حاول بها أن يفتح الأبواب أمام الفهم المستقيم لهذه القضايا، وأن يقدم الحلول الأكثر مناسبة والأجدى فائدة لمشكلات مزمنة، وأن يؤصل للفهم التربوى المعاصر من خلال فكر مفتوح لا يخضع للأهواء الوقتية.
الهيئة المصرية العامة للكتاب. ٢٠٠١.
طبعة خاصة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥ .

■ **مستقبل الجامعة المصرية**

مجموعة مختارة من الأفكار والتصورات والمقترحات التى نشرها المؤلف فى الصحافة المصرية على مدى تسع سنوات مستهدفاً تجديد الرؤى فى إصلاح الجامعة على أسس علمية دون طفرة، ومعبراً عن رؤية علمية وعملية مختلفة عن تلك المطروحة على الساحة.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ .

■ **منهجية العلوم والفنون: مذكرات الأكاديميين المؤسسين**

تحليل تاريخى وتوثيق تربوى للجانب المؤسسى فى أكاديميات التعليم المتخصص فى الشرطة والفنون والجامعات الإقليمية والاتحادات العلمية عبر مدارسة لمذكرات أربعة من الأكاديميين المؤسسين: سليمان حزين، وسمحة الخولى، وعبدالحليم منتصر، وعبدالكريم درويش.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦.

■ **فى كواليس الملكية : مذكرات رجال الحاشية**

تحليل تاريخى واستعراض نقدى لمذكرات أربعة من الذين شغلوا مواقع مهمة فى القصور الحاكمة وقدر لهم أن يشهدوا بأعينهم ما يجرى فى الكواليس فى فترة حافلة بالأحداث، ثم قدرت لهم حياة ممتدة أتاحت لهم أن يربطوا بين ما رأوه وما عرفوه عن تاريخ الفترات والأحداث التى عاشوها عن قرب. مذكرات : حسن يوسف، ود. حسين حسنى، وصلاح الشاهد، والغريب الحسينى.
الطبعة الأولى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٦ .

■ فى رحاب العدالة : مذكرات المحامين

مدارسة تاريخية نفسية لمذكرات أربعة من المحامين المصريين من ذوى الاتجاهات الفكرية المختلفة (عبدالفتاح حسن، وفتحى رضوان، ود. محمود كامل، ود. يوسف نحاس) عملوا بالسياسة، والحزبية، والاقتصاد، والصحافة، والأدب، وظلوا على ولائهم لمهنة المحاماة يستلهمون قيمها، ويستعينون بخبراتها، ويوظفون مهاراتها، وحين كتبوا مذكراتهم فإنهم اعتبروها أداء للمحاماة عن معتقداتهم، وتصرفاتهم، وسلوكهم، وانحيازاتهم.

■ القاهرة تبحث عن مستقبلها

مجموعة من المقالات والفصول استهدفت تغيير وجه القاهرة من خلال أفكار علمية وعملية تستند إلى تحليل المعلومات وتوظيفها، والقدرة على تصور البدائل وطرح الحلول انطلاقاً من رؤية رحبة الأفق، وقد تحقق بعض هذه الأفكار، ونتمنى أن يتحقق البعض الآخر لتصبح عاصمتنا فى المكانة اللائقة بها بين بقاع الدنيا.

دار المعارف، ٢٠٠٠.

■ التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار

مجموعة مختارة ومنتقاة من المقالات والدراسات التى كتبها ونشرها المؤلف على مدى سبع سنوات (١٩٩٤ ـ ٢٠٠١) طارحاً فيها أسلوبًا جديدًا لمعالجة قضايا الوطن الاقتصادية والاجتماعية، معتمداً على منهج موظف للمعلومات من أجل الانطلاق بفكر رحب يفيد من تجارب الحضارات السابقة والنظم السياسية المعاصرة، وتتناول الأفكار مناحى متعددة فى حياة الوطن ومستقبله واقتصادياته ويجمع هذه الأفكار أنها صادرة عن رؤية عملية قابلة للتنفيذ دون أن تتطلب موارد جديدة، وهو ما يدفع إلى المطالبة بالإسراع فى الأخذ بها من أجل ما ننشده من ازدهار فى مستقبل الوطن.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ مستقبلنا فى مصر : دراسات فى الإعلام والبيئة والتنمية

مقالات ودراسات مستفيضة لبعض مشكلات الحياة العامة فى مصر، تقدم رؤى مختلفة الطابع تصدر عن فهم جديد لطبيعة الحضارة المعاصرة بعيداً عن الآثار الكلاسيكية للأفكار الأيديولوجية التى صبغت بعض مناحى الحياة العامة فى مصر بما يستحسن الخلاص منه فى ظل فكر إنسانى علمى جديد يعتمد على التعويل على العناصر الإيجابية فى الإنسان، وعلى إعلاء قيمة الحرية، والتمكين للقيم الفاضلة فى حياة المجتمع، وفهم المشكلات فى إطارها الخاص بعيداً عن التعميم، وعلى استنطاق الإحصاءات بالبعد التنموى الذكى والمحافظ فى الوقت ذاته على البيئة.

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٧ .

■ **الصحة والطب والعلاج فى مصر**

مجموعة من المقالات والفصول والدراسات تستعرض جوهر العلاقة بين الطب والصحة والمجتمع، وتقدم لمحات عن الدين والمرض، وعن مستقبل الطب الإسلامى، وعن طب الطوارئ. كما تقدم أفكاراً جديدة فى تطوير التعليم الطبى وتنظيم المؤسسات الطبية. وتتضمن الطبعة الثانية دراسات موسعة تستهدف تطوير الخدمات الصحية بإعادة استخدام الموارد المتاحة من خلال رؤى عصرية لسياسات العلاج والصحة.

الطبعة الأولى، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧ .

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥ .

■ **أقوى من السلطة: مذكرات أساتذة الطب**

استعراض للتاريخ الاجتماعى فى الحياة المصرية المعاصرة من خلال منظور طبى وتعليمى اصطبغ بالعلاقة المباشرة والتجربة الحية مع شخصيات السلطة المتعاقبة وتوجهاتها المتباينة على نحو ما تضيئه مذكرات الدكاترة: زكى سويدان، ومصطفى الرفاعى، ومصطفى الديوانى، ودمرداش أحمد، وأرنست سليمان شلبى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤ .

■ **الفلسطينيون ينتصرون أخيراً .. دراسات فى التنبؤ السياسى**

تقدم مجموعة المقالات والفصول التى يتضمنها الكتاب أفكار المؤلف وتصوراته لمسار الصراع العربى ـ الإسرائيلى وقضية فلسطين، وهجرة اليهود العرب إلى فلسطين، ومعضلات السياسات الفلسطينية، وأخطاء السياسات العربية فى حقب متتالية، وحقيقة العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والحركة الصهيونية وإسرائيل.

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

■ **المسلمون والأمريكان فى عصر جديد**

مجموعة من الفصول والمقالات تتميز بجسارة فكرية وعقلية كفيلة بالنفاذ إلى جوهر المشكلات والتوجهات فى السياسة العالمية، ويجاهر المؤلف بأن الدعوة إلى الإسلام أجدى بكثير من الدفاع عنه. كما يستعرض مبرراته للتنبؤ بأن أمريكا قد تعتنق الإسلام، ويلقى الضوء على الدور الذى يلعبه الدين فى الانتخابات الأمريكية وفى غيرها من مواقع الأحداث فى عصر العولمة.

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

■ **النخبة المصرية الحاكمة (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠)**

مجموعة من الدراسات البيوجرافية التى يمكن وصفها بلغة البحث العلمى بأنها أصيلة وغير مسبوقة، ومجموعة من المقالات (المستندة إلى دراسات) تتناول بالبحث والتعليق

تكوين شخصيات النخبة الحاكمة فى النصف الثانى من القرن العشرين وعوامل صعود هذه الشخصيات إلى مواقع المسئولية.
مكتبة مدبولى، ٢٠٠١ .

■ **قادة الشرطة فى السياسة المصرية (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠) دراسة تحليلية وموسوعة شخصيات**

دراسة عميقة لدور جهاز مهنى حيوى فى الحياة السياسية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وتعريف بيوجرافى بستين شخصية شرطية مع ذكر أدوارها التاريخية وذلك من خلال قراءات مكثفة، ومقابلات منتقاة، ودراسات عميقة.
مكتبة مدبولى، ٢٠٠٢ .

■ **البنيان الوزارى فى مصر (١٨٧٨ ـ ٢٠٠٠)**

المرجع الأول والأوفى فى مجاله، وهو دراسة تاريخية وفهارس كمية وتفصيلية لإنشاء وإلغاء وإدماج الوزارات والقطاعات الوزارية وتبعيات المصالح والهيئات للوزارات المختلفة، ودراسة لتوزيع المسئوليات الوزارية والوزراء الذين تعاقبوا على كل وزارة.
صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار الشروق، وركزت على فترة الثورة.
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠ .
طبعة خاصة : مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥ .

■ **الوزراء ورؤساؤهم ونواب رؤسائهم ونوابهم ، تشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم**

توثيق تاريخ الوزارات المصرية وتشكيلاتها منذ قيام الثورة ١٩٥٢، من خلال ثلاثة أبواب، الأول: ترتيبى، والثانى: زمنى، والثالث: شخصى، ويقدم معلومات عن الوزراء ورؤسائهم ونواب رؤسائهم ونوابهم وتشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم.
صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦ ، ١٩٩٧ .

■ **التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة (١٩٥٢ ـ ١٩٨١)**

طبعة مبكرة ومختصرة من كتاب الوزراء، تقف عند نهاية حكم الرئيس السادات، وتقدم فقط بعض ما شمله البابان الثانى والثالث من كتاب الوزراء.
الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٨٦ .

■ **المحافظون**

دراسة تأسيسية تشمل قوائم كاملة وترتيبية وفهارس تفصيلية وأبجدية وزمنية ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء نظام الإدارة المحلية (١٩٦٠) وحتى نهاية القرن العشرين. مع الإشارة إلى خلفياتهم المهنية وعلاقتهم بالمناصب الوزارية والإدارية.

صدرت الطبعة الأولى عن دار الشروق، ١٩٩٦.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **كيف أصبحوا وزراء .. دراسة فى صناعة القرار السياسى**

فصول بيوجرافية وتاريخية فى إطار دراسة تحليلية ونقدية لصناعة القرار السياسى فى مصر، وهى دراسة لا تخلو من استرجاع ومن إحصاء ومن استقراء ومن استنباط، ومن تحقيق للروايات ومن عرض للرأى والرأى الآخر، ومن وضع المقارنات على هيئة جداول وأرقام.

دار الخيال، ٢٠٠٢.

■ **دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث**

نبذات وافية ومعلومات كاملة تاريخية عن تطور مؤسسات وهيئات التعليم الطبى المصرية فى الجامعات ومراكز البحوث ووزارة الصحة.

الجمعية المصرية للأطباء الشبان، ١٩٨٧.

■ **يوميات على مصطفى مشرفة .. يناير ١٩١٨ ـ يوليو ١٩١٨**

تحقيق دقيق لمخطوطة من اليوميات التى وجدت فى آثار العالم المصرى الكبير عن الشهور الأولى من فترة بعثته إلى بريطانيا وما حفلت به مشاعره من حس وطنى ودينى، وتفاعل مع صورة مختلفة من الحياة، وحوارات عقيدية وفكرية، وخبرات علمية وحضرية وثقافية مكثفة.

مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣.

■ **القاموس الطبى نوبل فى ٣ أجزاء (بالاشتراك مع أ. د. محمد عبداللطيف)**

قاموس طبى ضخم يحوى ستين ألف مصطلح يسهل من خلاله الوصول إلى المصطلح المقابل من خلال أى لغة من لغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ويشمل مسارد كاملة لكافة المصطلحات الطبية الواردة فى اللغات.

دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، القاهرة، ١٩٩٨.

■ **أمراض القلب الخلقية الصمامية ٢٠٠١**

كتاب طبى مرجعى يصلح أيضاً للثقافة العامة، يستعرض الخلقية الصمامية وأسبابها وطرائق تشخيصها وعلاجها وجراحاتها ومآلها.

دار المعارف، ٢٠٠١.

■ **أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات ٢٠٠٢**

كتاب طبى مرجعى يصلح أيضاً للثقافة العامة، عرض فيه المؤلف الأمراض الناشئة عن وجود ثقوب أو تحويلات فى تشريح القلب، مع تقديم صورة وافية عنها والاستعانة بكل ما يمكن أن يصور طبيعة المرض وحقيقته وسماته والطرق المتاحة لتشخيصه وعلاجه وجراحاته.

دار المعارف، ٢٠٠١ .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg



نتدارس فى هذا الكتاب مذكرات أربعة من أعلام التوجه اليسارى فى مصر الذين شهدوا فترات انتشار الفكر اليسارى. ثم ازدهار اليسار. ثم التحول عن اليسار. وقد مارس كل منهم دورا من الأدوار المتقدمة فى صناعة القرار. أو فى توجيه الفكر. أو فى إدارة المؤسسات. مع الاختلاف البيّن فى قدراتهم على التأثير. وفى التأثير الذى أحدثوه. ومع الاختلاف الطبيعى فى وظائفهم وتخصصاتهم. بل فى توجهاتهم أيضا. لكنهم مع هذين الاختلافين وغيرهما من الاختلافات كانوا طموحين إلى تجاوز الواقع. وتغيير هذا الواقع. كما كانوا حريصين على هذا التغيير. وكان طموحهم وحرصهم صورتين طبيعيتين لاقتناع فكرى ووجدانى بجدوى التمرد على الواقع. والطموح إلى ما هو أفضل من خلال آليات فكرية ومؤسسية.



